تاريخ العرب

(مُطوّل)

بقلم

الدكتور فيليب حتي

الدكتور أدورد جرجي　　الدكتور جبرائيل جبور

الجزء الثالث

١٩٥١

دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع

تاريخ العرب

(مطوّل)

بقلم

الدكتور فيليب حتي

الدكتور أدورد جرجي الدكتور جبرائيل جبور

الجزء الثالث

١٩٥١

دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع

فهرس المحتويات

القسم الرابع ـ العرب في اوربا : اسبانية وصقلية

القسم الخامس ـ آخر الدول الاسلامية في العصور الوسطى

القسم السادس ـ تحت الحكم العثماني

القسم الرابع

العرب في اوربا: إسبانية وصقلية

الفصل الرابع والثلاثون

فتح الأندلس

تدمير مملكة القوط

كانت حملة المسلمين على شبه جزيرة ايبريه، مدخل اوربا الجنوبي، كما بيّنا سابقاً آخر العمليات الحربية التي قام بها العرب واروعها. وقد بلغ بها التوسع الاسلامي اقصى مداه كما بلغ التوسع الاسيوي المصري حده الأقصى عند احتلال تركستان.

ولهذه الحملة من حيث السرعة التي تمت فيها والنجاح الباهر الذي لاقته مكانة فريدة في تاريخ الحروب في العصور الوسطى. وكان اول ما نهد المسلمون الى الاندلس في تموز من سنة ٧١٠. فقد صير موسى ابن نصير عامل بني أمية الشهير على افريقية مولىً له يدعى طريفاً (١) في اربعمئة راجل ومئة فارس من البربر للاستكشاف فاحتلوا شبه جزيرة صغيرة هي آخر نقطة جنوبية من القارة الاوربية وقد عرفت فيما بعد باسمه جزيرة طريف (٢) (تريفا اليوم).

وكان موسى بعد ان تولى الامارة نحو سنة ٦٩٩ قد اوغل في المناطق التي كان يحكمها البيزنطيون فكشفهم عن الاراضي الواقعة غربي قرطاجنة واغزى عساكر المسلمين حتى وصلت المحيط الاطلسي واحتلت بقعة كانت كنقطة ارتكاز يستطيع ان يشن هجومه منها على اوربا. وقد شجعه الآن نجاح طريف والنزاع بين رجال الحكم في مملكة اسبانيا القوطية وحسنت في

---

١) لا ندري أكان عربياً ام من البربر. قابل المقري (ليدن) ج ١ ص ١٥٩ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ٦ ؛ اخبار مجموعة في فتح الاندلس، نشر الكنترا (مدريد، ١٨٦٧) ص ٦.

٢) ذكرها الإدريسي في ذكر الاندلس (منتخبات من نزهة المشتاق) نشر كوندي وترجمه (مدريد، ١٧٩٩) ص ١١، ٣٥، ٤٤.

عينه الغنائم فارسل سنة ٧١١ مولىً له بربرياً يدعى طارق ابن زياد الى اسبانية في سبعة آلاف رجل معظمهم من البربر . ونزل بهم طارق قرب جبل الفتح الذي عرف به منذ ذلك العهد فخلد اسمه ، اي جبل طارق(١) . وتذهب الاخبار الى ان الغزاة جازوا المضيق حيث لا يزيد عرضه عن ثلاثة عشر ميلاً الى الاندلس في مراكب قدمها لهم أليان (٢) امير سبته (٣) .

ثم وصلت الى طارق الامداد فاصبح في ١٢ الف مقاتل واشتبك في ١٩ تموز سنة ٧١١ بجيش الملك لذريق عند مصب وادي بكة (٤) على شاطىء بحيرة جاندا . وكان لذريق قد خلع سلفه ابن غيطاسة واغتصب العرش (٥) . ودارت الدائرة على القوط برغم انهم كانوا خمسة وعشرين الفاً . وكان سبب انكسارهم خيانة اعداء الملك الذين كان يتزعمهم الاسقف اباس اخو غيطاسة . اما لذريق الذي اجمعت الاخبار الاسبانية والعربية على انه اختفى فلا ندري كيف انتهى امره .

ومن بعد هذا النصر الحاسم انقطعت دعوة الاسبان وتقحم المسلمون الاندلس وتغلبوا عليها بحيث كاد يكون زحف الجيش في البلاد اشبه بالنزهة . ولم تقف بوجوههم الا المدن التي تحصن فيها فرسان القوط . وزحف طارق ومعه اكثر الجيش الى طليطلة عاصمة الاسبان ماراً

---

١) الإدريسي ، صفة ص ٣٦ .

٢) البلاذري ص ٢٣٠ . يليان في اخبار مجموعة ج ١ ص ٤ ؛ ابن عذاري ج ١ ص ٦ ؛ المقري ج ١ ص ١٥٩ ؛ ابن عبد الحكم ، نشر تري ص ٢٠٦ ؛ يوليان في ابن الأثير ج ٤ ص ٤٤٤ . وبموجب ما توصل اليه كودرا كان اسمه الصحيح أربن او البن ، انظر Francisco Codera , *Estudios criticos de historia arabe espanola*, ser. 2 (Saragossa, 1903), p. 47 . اما القصة التي تذهب الى ان ابنته الحسناء فلورندا قد اغتصبها لذريق وان هذا الامر هو الذي دفعه الى التعاون مع العرب فهي من قبيل الاساطير . والواقع ان الاخباريين من العرب والاسبان قد بالغوا في تزويق حوادث الفتح .

٣) ومنها لفظة « سوتا » الاسبانية والأصل هو لفظة سبتم (سبعة) اللاتينية . واسم المدينة الكامل هو سبتم فراترس (Septem Fratres) اي الاخوة السبعة . وهي على رأس جبل ابلا المعروف وهو من سلسلة الجبال المعروفة بالاخوة السبعة أيضاً ؛ الإدريسي ، نزهة ص ١٢ .

٤) نهر صغير يسمى اليوم « سلادو » . وقد سمته العرب وادي بكة (لكة) ثم حرفه الاسبان الى كوادلبكا والتبس بينه وبين كوادليت قابل : Stanley Lane-Poole & Arthur Gilman, *The Moors in Spain* (New York, 1911), pp. 14,23.

٥) المقري ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ ؛ ابن عبد الحكم ص ٢٠٦ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ٨ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ؛ اخبار مجموعة ج ١ ص ٨ ؛ المسعودي ج ١ ص ٣٥٩ .

بطريق استجة وانفذ العساكر الى المدن المجاورة واعرض عمداً عن اشبيلية في الجنوب لمناعة حصونها . وقصد فريق من الجيش ارجذونة فسلمت طوعاً واحتل فريق آخر البيرة وهي قرب الموضع الذي تقوم فيه غرناطة اليوم . وسيّر طارق مغيثاً الرومي في سبعمئة فارس على قرطبة فحاصرها وصمدت هذه المدينة التي اصبحت فيما بعد عاصمة المسلمين وقاومته نحو شهرين ثم فتحها بعد ان دله فيما يقال راعي غنم هناك على ثغرة في سورها (١) . وفتحت مالقة بلا حرب وجرت اشد معركة في هذه الحملة عند استجة وكان الظفر فيها من نصيب المسلمين . وسقطت طليطلة ايضاً بخيانة بعض سكانها اليهود. وهكذا استطاع طارق وقد قصد الاندلس ربيع سنة ٧١١ على رأس حملة بسيطة للغزو ان يحتل في صيف السنة نفسها نصف اسبانية ويصبح سيدها الآمر المطاع . لقد قضى في بضعة أشهر على مملكة بأسرها .

موسى يعبر المضيق

وحسد موسى طارقاً مولاه على هذا الانتصار الرائع الذي لم يكن منتظراً فشخص في حزيران سنة ٧١٢ الى الاندلس على رأس عشرة آلاف (٢) من العرب وأهل الشام وقصد المدن والحصون التي تجنبها مولاه كمدينة شذونة وقرمونة واشبيلية . ولقد كانت اشبيلية اكبر مدن الاندلس وارقى المراكز الفكرية فيها وكانت فوق ذلك قاعدة الرومان قبل تغلب القوط على البلاد فقاومت الحصار حتى آخر حزيران سنة ٧١٣ . غير ان اشد مقاومة لاقاها موسى كانت في ماردة فقد خرج أهلها الى حربه فحاربهم ثم حاصرهم سنة كاملة وفتحها في اول حزيران سنة ٧١٣ (٣) .

ولقد اتفق اكثر الرواة على ان موسى التقى بطارق في طليطلة او قريباً منها فوبخه وضربه بالسوط وسار به مشدود الوثاق لتقدمه دون رأيه وهو مولاه (٤) . ولكن الحملات لم

---

١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٠–١١ ؛ اخبار مجموعة ص ١٠ ؛ قابل المقري ج ١ ص ١٦٤–٥ .
٢) الطبري ج ٢ ص ١٢٥٣ . وتجعل بعض المصادر الأخرى عددهم ثمانية عشر الفاً .
٣) ابن عذاري ج ٢ ص ١٥–١٦ ؛ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٤٧ ؛ المقري ج ١ ص ١٧٠–٧١ ؛ قابل ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس (مدريد ، ١٨٦٨) ص ٩–١٠ .
٤) ابن عبد الحكم ص ٢١٠ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ١٧–١٨ .

تقف عند هذا الحد بل سار موسى شمالا الى سرقسطة ففتحها ثم غزت جنوده مرتفعات اراغون وليون واستوريا وجليقية . وفي خريف السنة نفسها ورد اليه كتاب الخليفة الوليد من دمشق يأمره بالعودة متهماً اياه بمثل ما اتهم هو مولاه وعاقبه عليه الا وهو استقلاله بالأمر دون مراجعة امير المؤمنين. ولم يكن على موسى بصفته حاكم افريقية من رئيس سوى الخليفة نفسه .

موكب الظفر

وخرج موسى من الاندلس بعد ان استخلف عليها ابنه عبد العزيز وسار بالغنائم والهدايا سالكاً طريق البر حتى قدم الشام وكان يصحبه عدا ضباط الجيش ووجوه القبائل اربعمئة أمير من القوط على رؤوسهم التيجان وعلى اوساطهم مناطق ذهبية يتبعهم عدد لا يحصى من الغلمان والرقيق حاملين مقادير عظيمة من الغنائم (١) . ويتناول مؤرخو العرب خبر خروج هذا الموكب الفخم من الاندلس الى شمالي افريقية فالشام بشيء عظيم من الغبطة والاعجاب . وان وصفهم له ليعيد ذكرى مواكب الظفر التي كان يسير فيها قواد الرومان القدماء . وكانت اخبار الموكب الفخم قد بلغت دمشق قبل وصول الموكب نفسه . وعندما بلغ الموكب طبرية تلقى موسى ابن نصير الأوامر من سليمان ابن عبد الملك ولي العهد يطلب منه فيها ان يؤخر دخوله الى العاصمة وكان غرض سليمان من ذلك ان يوافق وصول هذا الموكب وقت ارتقائه العرش بعد اخيه الوليد الذي كان مريضاً (٢) .

ودخل موسى دمشق في شباط سنة ٧١٥ يصحبه امراء القوط بملابسهم الرسمية وعليهم الحلى والجواهر . ويظهر ان الوليد ابن عبد الملك سر بهذا الموكب ورحب بموسى في احتفال مهيب في بهو الجامع الاموي . ويمكن اعتبار هذا الاحتفال الرسمي اعلى قمة من قمم الفخار في تاريخ الفتوح الاسلامية . وقد شاهد المسلمون لاول مرة مئات من ابناء الأسر الملكية الغربية

١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢١-٢ ؛ ابن عبد الحكم ص ٢١٠-١١ ؛ ابن القوطية ص ١٠ ؛ قصة فتح الاندلس (من كتاب الامام والسياسة المنسوب لابن قتيبة) المنشورة كملحق لكتاب ابن القوطية ص ١٣٨ ، ١٤٠ وما يلي .

٢) قابل عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، الطبعة الثانية نشر دوزي (ليدن ، ١٨٨١) ص ٨ .

والوفاً من الارقاء الاور بيين مطأطئي الرؤوس يعلنون خضوعهم لأمير المؤمنين . وكان من جملة التحف النفيسة التي وفد بها موسى على الوليد المائدة العجيبة التي نسبت الخرافات صنعها للجن الذين كانوا في خدمة سليمان ابن داود فيما يزعمون وذهبت الى ان الرومان نقلوها من بيت المقدس الى عاصمتهم ومنها اخذها القوط فيما بعد وصار ملوكهم يتنافسون واحداً بعد الآخر في ترصيعها وتحليتها بالحجارة الكريمة . وقد حفظت المائدة في الكاتدرائية بطليطلة حتى ظفر بها طارق ولعله اخذها من الاسقف الذي حاول الهرب بها من عاصمة القوط . وتذهب القصة الى ان طارقاً كان قد اخفى رجلاً من ارجل المائدة عندما طلبها موسى منه في طليطلة حتى اذا صار في حضرة الخليفة اخرج الرجل للدلالة على انـه هو الذي أصابها فصدقـه الوليد وأعظم جائزته (١) .

اذلال موسى

واصاب موسى ما اصاب الكثيرين من قواد العرب المبرزين . فقد سامه سليمان خليفة الوليد الوان العذاب وانزله الى احط دركات المذلة فقد اقـامه في الشمس يومـاً كاملاً في نهار صائف حتى خر مغشياً عليه ثم جرده من سلطته وصادر امواله . وآخر ما سمع عن هذا القائد الكبير فاتح افريقية والاندلس انه شوهد في شيخوخته يستعطي في قرية نائية في وادي القرى من اعمال الحجاز (٢) .

كيف تم الفتح

لقد اصبحت اسبانية بعد ان فتحها العرب مصراً من امصار الخلافة وسميت بالاندلس (٣) . ولم يبق امام خلفاء موسى سوى انحاء صغيرة في شمالي الجزيرة وشرقها كان عليهم ان يفتحوها

---

١) ابن خلكان ج ٣ ص ٢٦–٧ ؛ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٤٨–٩ ؛ المقري ج ١ ص ١٦٧، ١٧٢ ؛ ابن عبد الحكم ص ٢١١ ؛ نبذة من اخبار فتح الاندلس (مأخوذة من الرسالة الشريفية الى الاقطار الاندلسية ونشرت كذيل لكتاب ابن القوطية ، مدريد ، ١٨٦٨) ص ١٩٣، ٢١٣ . وانظر « الف ليلة وليلة » رقم ٢٧٢ .

٢) المقري ج ١ ص ١٨٠ . قابل ابن خلكان ج ٣ ص ٢٧ .

٣) ترجع هذه اللفظة اشتقاقاً الى اسم « فاندال » (Vandals) الذين احتلوا البلاد قبل العرب .

وقد تم فتح الجزيرة كلها في مدة لا تزيد عن سبع سنوات وكسب العرب بذلك قطراً من اكبر اقطار اوربا في العصور الوسطى واجملها . وقد استطاع الفاتحون بعد هذا ان يثبتوا اقدامهم في البلاد ويظلوا فيها قروناً طويلة .

اما الاسباب التي مهدت السبيل لهذا الفتح الذي لم يسبق له نظير فليس من الصعب ادراكها حتى من الاخبار الموجزة التي ذكرنا . فقد كانت هناك اولا فوارق قومية بين القوط الغربيين الذين دخلوا اسبانية في اوائل القرن الخامس وهم من برابرة الطوطون وبين اهل البلاد الاسبان الرومانيين . وكان اثر هذه الفوارق لا يزال بيناً عند دخول المسلمين . وقد جاهد القوط كثيراً في النزاع مع السويفي والفاندال من الاقوام الجرمانية المعروفة التي كانت قد احتلت البلاد قبلهم وحاولوا ان يحلوا محلهم . واقروا ، بعد ان دانت لهم الجزيرة ، الحكم المطلق وكان ملوكهم في الغالب من العتاة المستبدين في الحكم . واعتنق هؤلاء الملوك النصرانية على المذهب الآري وحافظوا عليه حتى ظهر منهم ريكارد فقبل الكثلكة مذهب اهل البلاد. وكانت البلاد قبل زمنه تعتبر مذهب ملوكها القوط بدعة.وكان كثير من السكان الاصليين من طبقة العبيد او المأجورين لزراعة الاراضي وكانوا يضمرون البغضاء لأسيادهم ويتذمرون من سوء المعاملة . ومن هنا لم يكن غريباً على مثلهم ان يتعاونوا مع الفاتحين ويمهدوا لهم سبل الفتح . وكان اليهود المنتشرون في انحاء البلاد معادين كذلك للطبقة الحاكمة لما اصابهم من اضطهاد على ايدي ملوك القوط الذين حاولوا تنصيرهم قسراً فقد بلغ باحد هؤلاء الملوك سنة ٦١٢ ان اصدر امراً يقضي على كل يهودي بالمعمودية والا صودرت امواله وتعرض للنفي وهذا ما يعلل ثقة المسلمين باليهود وكيف كانوا يعهدون اليهم في بعض المدن التي يفتحونها ان يتسلموا ادارتها بينما يواصل الجيش الاسلامي اعمال الفتح .

ويجب ان نذكر ان الخلاف السياسي بين الاسرة القوطية المالكة وبين نبلاء القوط انفسهم والنزاع الداخلي العنيف قد زعزعا أركان الدولة . ففي آخر القرن السادس كان النبلاء قد اخذوا يسيطرون على المقاطعات التي كانوا فيها بحيث اصبحوا اسيادها . وقد وافق دخول جيش المسلمين الى الاندلس قيام احد هؤلاء النبلاء واغتصابه العرش ولكنه ما لبث طويلاً

حتى خانه اقارب الملك المخلوع . وعند فتح طليطلة كان اخيلا ابن غيطاسة الملك القوطي المخلوع يعتبر ان العرب يحاربون لنصرته ولكنه قنع آخر الأمر ان تعاد اليه املاكه في تلك المدينة وعاش فيها محفوفاً بما يريده من مظاهر الابهة . وجعل عمه الاسقف اباس أسقفاً على ابرشية العاصمة . اما اوليان فلم يكن الدور الذي لعبه في حركة الفتح كبيراً بهذه الدرجة التي ذكرتها الاخبار .

ما وراء البرنه

لقد ازال سقوط سرقسطة احدى العقبات الاخيرة التي كانت تحول بين الغزاة في اسبانية وبين فرنسا . ولكن جبال البرنه لم تزل امامهم وقد وقفت حاجزاً منيعاً في وجوههم . والظاهر ان موسى لم يقطع هذه الجبال مع ان بعض مؤرخي العرب ينسبون اليه ذلك ويزعمون انه كان يمني نفسه باجتياز بلاد الفرنجة الى المشرق عن طريق القسطنطينية الى ان يصل الى دار الخلافة في دمشق (١) . ومع ما يبدو من غرابة في هذا الخبر فليس بعيداً ان تكون نفوس الفاتحين العرب قد صبت الى شيء من ذلك لان معرفتهم بجغرافية اوربا لم تكن عظيمة . والواقع ان اول من قطع جبال البرنه هو الحرّ ابن عبد الرحمان الثقفي (٢) الخلف الثالث بعد موسى وكان ذلك سنة ٧١٧ او ٧١٨ .

وكان الذي حدا بالحر الى هذه المغامرة أمل الاستيلاء على كنوز الاديرة والكنائس في غاليا (فرنسا) وقد شجعه على الأمر النزاع والفتن الداخلية بين قواد البلاط المروفيني ودوقات اكوتانيا . وقد بدأ غاراته واستمر بها بعده خلفه السمح ابن مالك الخولاني . وفي سنة ٧٢٠ في عهد الخليفة عمر الثاني استطاع السمح ان يستولي على سبتمانيا التي كانت تابعة لمملكة القوط المنحلة ثم نزل اربونة التي جعلها العرب بعدئذ حصناً منيعاً فيه دار للصناعة ومستودع لمعدات الحرب ومؤن الجيش . ولكن حملته التي قام بها في السنة التالية على تولوز مقر دوق اكوتانيا انتهت بالفشل بسبب المقاومة العنيفة التي ابداها المدافعون . وقد استشهد (٣) فيها السمح وتم

١) المقري ج ١ ص ١٧٥ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ـ١٨ .
٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤ـ٥ ؛ ابن الأثير ج ٥ ص ٣٧٣ .
٣) الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس ، نشر كودرا وريبرا (مدريد ، ١٨٨٤ـ٥) ص ٣٠٣ .

بها اول انتصار لأمير جرماني على جيش عربي ولم تكن غارات العرب التالية وراء جبال البرنه موفقة بعد هذا العهد .

معركة تور

وقد قاد آخر الحملات واخطرها عبد الرحمان ابن عبدالله الغافقي خلف السمح في امـارة الاندلس . وقد تقدم عبد الرحمان فقطع سلسلة البرنه الغربية في مطلع الربيع سنة ٧٣٢ فقهر دوق اكوتانيا على ضفتي نهر الكارون ثم اخذ بوردو عنوة واشعل النار في كنائسها . و بعد ان احرق الباسيليكا (الكنيسة) القائمة خارج اسوار بواتيه زحف شمالا حتى جوار مدينة تور. وكان لتور اهمية دينية عند سكان البلاد فقد كانت مرقد القديس مارتين الذي نصر الغاليين فيما يزعمون . وليس من شك في ان الطرف والكنوز النفيسة التي عرفت فيها كانت من العوامل التي حركت الفاتحين لمهاجمتها (١) .

وهنا بين تور و بواتيه على ملتقى نهري كلان وفين التقى عبد الرحمان بشارل مارتل رئيس البلاط المروفيني الذي كان دوق اكوتانيا قد استنجد به . وكان شارل ــ وقد لقب بمارتل اي المطرقة لشدته و بلائه ــ شجاعاً جريئاً اخضع اعداء كثيرين واضطر دوق اكوتانيا الذي كان مستقلاً في مقاطعته ان يعترف بزعامة الفرنجة الشماليين وسيطرتهم الاسمية. ومع انه لم يكن ملكاً وهو ابن غير شرعي لبيبين الهرستالي فقد تصرف بالفعل تصرف الملوك .

واقام الجيش العربي بقيادة عبد الرحمان نحو سبعة ايام يرصد قوات الفرنجة وعلى رأسها شارل المذكور وهم بالاكثر من المشاة وقد لبسوا جلود الذئاب وتدلت شعورهم الملبدة على اكتافهم وارتقب الفريقان التحام المعركة . واستمرت المناوشات البسيطة حتى كان يوم سبت من ايام تشرين الاول سنة ٧٣٢ فبدأ القائد العربي الهجوم . ووقف جند الفرنجة عند اشتداد المعركة بشكل مربع هندسي مجوّف كتفاً الى كتف فصمدوا ــ فيما يقول مؤرخ غربي ــ كبنيان مرصوص او كركام من جليد (٢) لا تهزه الحادثات . وأغارت فرسان العرب الخفيفة

---

١) الضبي ، بغية الملتمس ص ٣٥٣ .

٢) André Duchesne, *Historiae, Francorum Scriptores*, vol. I (Paris,1636), p. 786.

فلم تجد سبيلاً الى كشف هذا الجمع . ولم تتزعزع صفوف الفرنجة بل صابرت وثبتت في مراكزها وكانت كلما دنا منها مهاجم جندلته . وكان بين من سقطوا في تلك المعركة عبد الرحمان نفسه . ثم اسدل الظلام حجابه على المتحاربين فستر الجمعين وحال بينهما ولم يطلع فجر اليوم التالي حتى خيل لشارل ان السكينة التي كانت تخيم على معسكر العرب انما هي خدعة . فارسل عيونه يتحققون جلية الأمر وادرك اخيراً ان العرب انتهزوا الفرصة في حلك الليل فاخلوا مضاربهم وتواروا . وهكذا حقق النصر لشارل .

وقد اسبغت الاساطير الغربية المتأخرة على يوم بواتيه ثوباً من الزخرف والخيال واسرفت في الايهام بخطورته . اما المسلمون فلم يشيروا اليه كثيراً وقد سموه « بلاط الشهداء » (١) . ويعتبره النصارى الفرنجة بدء عهد سعيد صدوا فيه عدوهم الابدي . فالمؤرخ الانكليزي غبن (Gibbon) (٢) وبعض المؤرخين الذين اتوا بعده ذهبوا الى انه لو ربح العرب تلك المعركة لكانت باريس ولندن موطنين تقام فيهما المساجد لا البيع التي تقوم اليوم ولسمع فيهما القرآن يفسر في الجامعات كاكسفورد وغيرها من مراكز العلم لا الكتاب المقدس كما يجري اليوم . ويعتبر عدد من المؤرخين المحدثين ان معركة تور هي احدى المعارك الفاصلة في التاريخ (٣) . ولكن الواقع انها لم تفصل شيئاً . فقد كانت موجة الهجوم التي قامت على العرب والبربر قد استنفذت قوتها حين بلغت على بعد نحو الف ميل من جبل طارق وقد وصلت الآن الى نهاية طبيعية وقفت عندها . وكان الخلاف الداخلي بين العنصرين العربي والبربري قد اخذ يظهر قرنه وظهر التحاسد بينهما فتضعضعت قوة الجيش المعنوية . حتى العرب انفسهم فانه لم يكن بينهم كما سنرى شعور موحد عام . ومع ان العرب قد صدوا واوقفوا عند هذه النقطة فان

---

١) اخبار مجموعة ص ٢٥ ؛ المقري ج ١ ص ١٤٦ . وكلمة « بلاط » مأخوذة بواسطة السريانية عن اللاتينية او اليونانية — بلاتو او بلاتيم — وهي مألوفة في اسماء المواضع وخاصة باسبانية (الادريسي ، نزهة ص ٣٢ ، ٥٩) . وقد سمي ميدان القتال هنا بالبلاط لان المعركة جرت على طريق رومانية مبلطة . قابل يوحنا ١٩ : ١٣ .

٢) *Decline and Fall*, ed. Bury, vol. vi, pp. 15 *seq* ; Lane - Poole, pp. 29 - 30.

٣) Edward Creasy, *The Fifteen Decisive Battles of the World*, new ed. (New York, 1918), pp. 159 *seq* ; S. P. Scott, *History of the Moorish Empire in Europe* (Philadelphia, 1904), vol. i, p. 306. Henry Coppée, *History of the Conquest of Spain by the Arab - Moors* (Boston, 1881), vol. ii, pp. 19 *seq*.

جيوشهم لم تقف عن مواصلة الجهاد في جهات أخرى . فقد احتلوا مثلاً سنة ٧٣٤ افنيون وغزوا بعد ذلك بتسع سنين ليون وانتهبوها ولم ينسحبوا من اربونة قاعدتهم الحربية التي كانوا يشنون منها الغارات حتى سنة ٧٥٩ . على ان هذا الانكسار بالقرب من تور وان لم يكن السبب الحقيقي لتوقف الفتوحات العربية فقد تعين به الحد الاقصى الذي بلغته جيوش الاسلام الظافرة . فبعد وفاة النبي بمئة سنة كانت امبراطورية خليفته في دمشق امبراطورية عالمية قد امتدت من حدود الصين حتى غالية .

الحروب الاهلية

يدور تاريخ الحقبة التي تبدأ بمعركة تور في سنة ٧٣٢ وتنتهي بوصول البطل الاموي عبد الرحمان الاول ارض الاندلس في سنة ٧٥٥ حول النزاع بين حزبين في صفوف المسلمين في الاندلس وهو النزاع المألوف بين عرب الشمال الذين يعرفون بالمضرية (١) وبين عرب الجنوب اليمانية . وكانت النزعات الشيعية قد تغلغلت بنفوس اليمانيين في مختلف البقاع التي حلوها اما المضريون فقد حافظوا على تعاليم السنة . وعند تأسيس الدولة العباسية كان من الطبيعي ان يشايعها اليمانيون بصفتهم علويين و يعطفوا على قضيتها . بينما ظل الحزب المضري موالياً للبيت الأموي البائد . ثم ان معاشر البربر الذي طغى سيلهم على الجزيرة الاندلسية بعد الفتح قادمين اليها من افريقية قد اصبحوا اشد الاحزاب ضرراً وذلك بعد ان اعتنق كثيرون منهم مذهب الخوارج ونشطوا الى الدفاع عنه مناوئين الامويين والعلويين معاً . وقد اخذ البربر يتذمرون زاعمين انهم وابناء جلدتهم الذين ساهموا بالفتح قد تحملوا اعباء الحروب واهوالها ولم يُقطعوا من الارض في الاندلس غير قواحل المرتفعات الوسطى بينما استبقى العرب لانفسهم اخصب بقاع الاندلس وابهجها .

ولم يلبث التذمر ان ادى الى اشتعال نار الثورة . وقد كانت نار الفتنة التي اشعلها البربر بين ٧٣٤ و ٧٤٢ من مراكش الى القيروان قد اخذ يندلع لهبها الآن في الاندلس نفسها بحيث كادت تقضي على هذه الحفنة من المستعمرين العرب . وفي سنة ٧٤١ سير الخليفة هشام

١) مضر وربيعة من عرب الشمال من قبائل معد .

ابن عبد الملك جيشاً من ٢٧ الفاً من أهل الشام لتهدئة الثورة بافريقية (١) . وسار بلج ابن بشر ببقية هـذا الجيش البالغة نحو ثلثه الى الاندلس فعبر المضيق وحـل بهم فيها . واصبح السوريون مستعمرين . و بسبب طموحهم ومطامعهم وولائهم الشديد للبيت الأموي خلقوا في الاندلس مشكلة جديدة تضاف الى مشاكله . وتسلم بلج زمام الحكم وقبض على ناصية الأمر واقر رجاله في العاصمة قرطبة . وتفرق بعد ذلك اكثر السوريين في المدن الاندلسية فنزلت فرقة حمص باشبيلية وفرقة فلسطين في مقاطعة شذونة والجزيرة الخضراء وفرقة دمشق في مقاطعة البيرة وفرقة قنسرين في مقاطعة جيان (٢) . وليس ادل على الفوضى التي كانت تسود هذه الحقبة بين سنة ٧٣٢ و ٧٥٥ من انه قد تعاقب على حكم الاندلس في المدة نفسها ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين اميراً . وليس يمكن في احوال كتلك ان يكون هناك توسع او تقدم في ارض العدو برغم انه قد سيرت بعض الحملات التي استشهد فيها عدد من الامراء (٣) .

الامارة

وكانت ادارة حكومة الجزيرة تسند الى أمير فكان يحكم البلاد مستقلاً كل الاستقلال تقريباً مع انه كان تابعاً بالاسم للحاكم العام الذي يعينه الخليفة على المغرب (اي شمال افريقية والاندلس) ومقره القيروان . وكان يجري في بعض الحالات تعيين الامير مباشرة من لدن الخليفة في دمشق . وقد اتخذ عبد العزيز ابن موسى ابن نصير اشبيلية دار امارته وكان اول امراء الاندلس . وتزوج بعد خروج ابيه أرمـلة لذريق واصبحت تعرف بام عـاصم . وقـد استطاعت ام عاصم ـ فيما يذهب اليه المؤرخون العرب ـ (٤) ان تحمل زوجها على لبس التاج

١) اخبار مجموعة ص ٣١ ؛ قابل ابن القوطية ص ١٤ـ١٥ ؛ ابن عذاري ج ١ ص ٤١ـ٢ ، ج ٢ ص ٣٠ ؛ المراكشي ص ٩ .

٢) ابن القوطية ص ٢٠ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ٣٣ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ ؛ ابن الأثير ج ٥ ص ٢٠٤ـ٥ ؛ ابن الخطيب . مخطوطة في كتاب دوزي *Recherches sur L'histoire et la littérature de L'Espagne*, 3rd ed. (Paris, 1881), vol. i, app. ii, pp. vii-viii. وراجع بشأن التشابه بين اللهجات العربية في اسبانية والشام مقالا لشكيب ارسلان عنوانه علاقة التاريخ باللهجات العربية، المقتطف ج ٨٠ (١٩٣٢) ص ٣٨ـ٤٤ ، ١٣٩ـ٤٥ ، ٣٢٣ـ٧ .

٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٨ـ١٩ ؛ المقري ج ١ ص ١٤٥ـ٦ .

٤) اخبار مجموعة ص ٢٠ ؛ ابن عبد الحكم ص ٢١٢ ؛ ابن القوطية ص ١١ ؛ ابن الأثير ج ٥ ص ١٤ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ٢٢ـ٣ ؛ المقري ج ١ ص ١٧٨ وقابل الكتاب المنسوب الى ابن قتيبة ص ١٦٩ ومايلي .

على عادة ملوك القوط وان يجعل باب قصره واطئاً بحيث لا يدخل الداخل عليه الا مطأطئ الرأس خشوعاً واحتراماً . وقد حملته كذلك هذه المرأة النصرانية فيما يزعمون ان يجعل لها في القصر معبداً له مثل ذلك الباب بحيث اذا دخل عليها عبد العزيز نفسه انحنى امامها كأنه يسجد . وراحت شائعات تتصل بهذه الأخبار و بلغت مسمع الخليفة سليمان بعد ان بولغ فيها بحيث ذهبوا الى ان الأمير اعتنق النصرانية . وكان من نتيجة ذلك ان اغتيل الأمير عبدالعزيز سنة ٧١٦ بالقرب من اشبيلية في دير سانتا رفينه(Santa Rufina) الذي كان قد حُول فيما يظهر الى مسجد . وقد احتز القتلة رأس الأمير وارسلوه الى دمشق فعرض على ابيه الهرم المنكوب موسى ابن نصير .

و بعد ذلك بثلاث سنوات نقل السمح ابن مالك الخولاني دار الامارة الى قرطبة (١) التي قيض لها ان تكون مقراً زاهياً لدولة الأمويين الغربية قروناً طويلة . وكان السمح الأمير الرابع في سلسلة هؤلاء الامراء الضعفاء الذين حكموا الاندلس وقد اعاد بناء الجسر في قرطبة على نهر الوادي الكبير على بقايا جسر قديم كما انه امر بمسح البلاد من جديد واحدث نظاماً للضرائب . ولم تنقض مدة طويلة بعد عهد السمح حتى أصبحت الامارة مثار قتال دموي بين المضرية واليمانية . واخيراً اتفق الفريقان على حل اعتبراه موفقاً وهو ان تكون الامارة لفريق سنةً وللفريق الآخر سنة اخرى .

وكان اول من ناب عن المضرية يوسف ابن عبد الرحمان الفهري (٢) وهو من ذرية عقبة الفهري مؤسس القيروان ووافق الخليفة مروان الثاني (٧٤٦) على العقد له(٣) .ولم يأت آخر الحول حتى تمنع يوسف عن تسليم زمام الحكم لمرشح اليمانية واصر على البقاء في دست الولاية نحو عشر سنين (٤) . وفي اواخر سنة ٧٥٥ بينما هو منصرف الى قمع دابر الثورة في نواحي الشمال نمي اليه ان عبد الرحمان ابن معاوية قد وطأ الشاطئ الاندلسي جنوبي غرناطة وهو يزحف شمالا لاستلام الامارة . وهكذا فقد بدت طلائع فصل جديد خطير في تاريخ اسبانية.

١) النبذة ص ٢٠٦ـ٧؛ ابن القوطية ص١٢ـ١٣ . قابل ابن عذاري ج٢ ص ٢٥؛ المقري ج١ ص١٩٠ .
٢) اخبار مجموعة ص ٥٧ وما يلي ؛ ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٦ـ٧ .
٣) قابل الكتاب المنسوب الى ابن قتيبة ص ١٨٨ .
٤) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، نشر دوزي (ليدن، ١٨٤٧ـ٥١)ص٥٤ ؛ ابن الأثير ج ٥ ص ٣٧٦ .

الفصل الخامس والثلاثون

الإمارة الأموية في الأندلس

نجاة مدهشة رائعة

عندما دشن العباسيون عهدهم في سنة ٧٥٠ بمذبحة عامة اردوا بها اكثر افراد الاسرة الاموية كان عبد الرحمان احد القلائل الذين نجوا ، وهو حفيد هشام ابن عبد الملك عاشر خليفة في دمشق . وتعتبر قصة نجاة هذا الفتى من الموت وهو في الحادية والعشرين من عمره وهيامه على وجهه متنكراً مدة خمس سنوات متنقلاً من فلسطين الى مصر فشمالي افريقية حيث أفلت غير مرة من ايدي الرقباء العباسيين من اروع الحوادث الروائية في تاريخ العرب . فقد كان عبد الرحمان مختبئاً اول الامر في مضرب خيام للبدو على ضفة الفرات واذا برايات العباسيين السود تبدو فجأة قرب المخيم ففر للحال ورمى بنفسه الى الفرات وتبعه اخوه الاصغر وهو ابن ثلاث عشرة سنة ولكن هذا عجز عن السباحة وهو في وسط النهر واعطاه مطاردوه الامان فصدقهم وقفل راجعاً فاخذوه وقتلوه وعبد الرحمان ينظر اليهم ويتحرق الماً واندفع عبد الرحمان حتى بلغ الضفة الأخرى ثم توارى في غيضة حتى انقطع عن النظر (١) .

وسار متخفياً نحو الجنوب الى فلسطين حيث لحق به بدر مولاه الأمين . وقصد افريقية فلما بلغها لج عبد الرحمان الفهري عاملها في طلبه وهو من اقرباء يوسف الفهري امير الاندلس فهرب منه طريداً شريداً معدماً ينتقل مع مولاه بدر من قبيلة الى اخرى ومن بلدة الى بلدة حتى دخل سبتة سنة ٧٥٥ . ثم ان اخواله وهم من البربر الذين كانوا يقيمون في تلك الانحاء احسنوا استقباله . ومن هناك اخذ في مكاتبة المستعمرين من جند الشام وهم أهل دمشق

---

١) اخبار مجموعة ص ٥٢ — ٤ ؛ ابن الاثير ج ٥ ص ٣٧٧ .

وقنسرين النازلين في البيرة وجيان ووجه بدراً اليهم يدعوهم اليه فاجابه كثيرون من زعمائهم الذين كانوا يوالون البيت الاموي و يتوقون الى ان يلتفوا حول زعيم من افراده . وتوفق أهل الشام في استمالة اليمانيين الى حزبهم فمالوا اليهم لا حباً بعبد الرحمان ولكن بغضاً بيوسف الفهري امير الاندلس يومئذ . وارسلوا لعبد الرحمان مركباً وابلغوه طاعتهم ثم قدموا به زعيماً الى الاندلس . وكان عبد الرحمن طويل القامة نحيف الجسم اقنى الانف بارزه اصهب خفيف العارضين (١) . وكان سريع النهضة حازماً مقداماً يتصف بافضل ما كان يتصف به بنو امية من مزايا تؤهل صاحبها للقبض على دفة الامور في مثل تلك الاحوال المضطربة . وسعى يوسف الى استلحاق عبد الرحمان به بما اوتي من حيلة فاغدق عليه الصلات وقطع له العهود ورضي بان يزوجه من ابنته . الا ان هذه كلها لم تجد نفعاً . وفتحت مدن الجنوب للامير القادم ابوابها فدخل ارخدونة (٢) وفيها أهل الاردن . ثم توجه الى مقاطعة شذونة وفيها أهل فلسطين فدخلها وهكذا حتى بلغ اشبيلية حيث كان يقيم عرب حمص فبايعته طوعاً ورحب أهلها به أجمل ترحيب (٣) .

الاستيلاء على قرطبة

وسار عبد الرحمان واتباعه نحو قرطبة وتقدم يوسف نحو اشبيلية . وقبيل نشوب المعركة لاحظ القوم ان عبد الرحمان لا راية له يعرف بها فاقبل ابو الصباح يحيي اليحصبي زعيم اليمانية في اشبيلية بقناة فرفع عليها عمامة خضراء (٤) فكانت اول راية للامويين في الاندلس فيما يزعمون .

ونشب القتال صباح ١٤ ايار سنة ٧٥٦ فاشتبك الفريقان على ضفتي الوادي الكبير وصبر الفريقان الى الصباح . وكان اكثر المحاربين فرساناً رغم ندورة الخيل في الاندلس في ذلك

١) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٠ ؛ ابن الأثير ج ٦ ص ٧٦ .

٢) عاصمة ريه (رجيو) المقاطعة الجبلية ؛ ياقوت ج ١ ص ١٩٥ ، ٢٠٧ .

٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٣٧٨ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ٤٨ ؛ المقري ج ١ ص ٢١٢ .

٤) اخبار مجموعة ص ٨٤ . قابل ابن قوطية ص ٢٦ .

العهد و بدل عبد الرحمان فرساً كان يركبه ببغل لابي الصباح (١) حين عرف ان بعض الناس من اتباعه كانوا يظنون انه سيتخلف عن القتال و يهرب . ولم تطل المعركة كثيراً وفر يوسف وقائد جيشه ودخل عبد الرحمان قرطبة ظافراً وحال دون نهب العاصمة واعلن اماناً عاماً ووضع جميع أهل يوسف وماله تحت رعايته .

توحيد الاندلس ونشر السلم في ارجائها

على ان استيلاء عبد الرحمان على قرطبة لم يعن التغلب على الاندلس كلها . فقد اخذ يوسف صاحب الاندلس يدأب على نشر الفساد في شمالي الاندلس وخلق الفوضى في وجه الامير الاموي الى ان قتل بالقرب من طليطلة (٢) . اما المدينة نفسها فلم تسقط في يد عبد الرحمان حتى سنة ٧٦٤ . وتعاقبت الثورات والفتن التي اضرها عمال العباسيين في صفوف اليمانية والشيعة . ولم يتم اخضاع البربر الا بعد انقضاء عشر سنين على دخول عبد الرحمان . وكان هؤلاء البربر يوالون الامير الاموي اول الامر ثم نقموا على العرب استئثارهم بالاراضي الخصبة والغنائم فثاروا عليه واضطر الى معاملتهم بالتأديب والقسوة . كذلك فان ابا الصباح اليحصبي الشيخ الاشبيلي صاحب الراية الخضراء والبغل الذي ركبه عبد الرحمان في معركة قرطبة انقلب على سيده وشق عصا الطاعة فقتل في الثورة التي قام بها . ومثل ذلك أصاب بدراً مولى عبد الرحمان و يده اليمنى .

وكان لاعداء عبد الرحمان الداخليين اشياع في الخارج . ففي سنة ٧٦١ تجرأ المنصور الخليفة العباسي بشيء من الطيش ان يبعث العلاء ابن مغيث أميراً على الاندلس فاعطاه سجلاً ولواءً وقال له : « ان كان فيك محمل لمناصفة عبد الرحمان والا فابعث اليك بمن يعينك » (٣) . فلم تمض الا سنتان حتى قتل العلاء فاخذ رأسه وحشي بالملح والكافور وجمل معه السجل واللواء في سفط و بعث به الى المنصور فبلغه وهو في طريقه الى الحج فصاح المنصور : « الحمد

١) اخبار مجموعة ص ٨٨ – ٩ ؛ ابن الاثير ج ٥ ص ٣٧٨ .
٢) ابن الأبار ، الحلة ص ٥٥ .
٣) ابن القوطية ص ٣٣ .

لله الذي جعل بيننا و بين مثل هذا من عدونا بحراً » (١) . وكان المنصور نفسه هو الذي لقب عبد الرحمان الداخل بصقر قريش (٢) . وقد بلغت بعبد الرحمان جرأته وطموحه فيما يقال الى ان نهض بعمارة بحرية قاصداً غزو سورية وانتزاعها من ايدي العباسيين ولكن الفتن الاهلية في الاندلس اقعدته عن تنفيذ هذه الخطة .

عبد الرحمان كفؤ لمناهضة شارلمان

وفي سنة ٧٧٧ ائتمر زعماء العرب في الشمال الشرقي من الاندلس والفوا كتلة قوية برئاسة زعيمين هما والي برشلونة وصهر يوسف الفهري وانقضوا على عبد الرحمان و بلغ بهم الكيد الى ان يعقدوا حلفة مع شرلمان الذي كان يعد نصيراً للخليفة العباسي على عبد الرحمان الداخل . وقد زحف شرلمان (٧٧٨) فقطع تخوم اسبانية حتى سرقسطة(٣) الا انه اضطر الى الانسحاب عندما اغلقت تلك المدينة ابوابها في وجهه وتهدد اعداء امبراطوريته الداخليون سلطته. وقد هجم على جيشه المنسحب في مضايق البرنه سكان الجبال من اهالي بلاد البشكنش (الباسك) وغيرهم ففقد كثيراً من جيشه ومتاعه (٤) . وكان في عداد القواد الذين قتلوا في هذه المضايق القائد رولان الذي دافع دفاعاً مجيداً خلد ذكره في الاشعار المعروفة بـ« شانسون ده رولان» (*Chanson de Roland*) وتعتبر هذه الاشعار على انها ليست من بواكر كنوز الشعر الفرنسي فحسب بل هي من الملاحم الاولى الممتازة في العصور الوسطى . والخلاصة ان عبد الرحمان اثبت انه كفؤ لمجابهة اقوى ملوك الغرب كما اثبت انه ند لاعظم حاكم في الشرق (٥) .

امارة مستقلة

وقد استعان عبد الرحمان في سبيل الضرب على ايدي مناوئيه بجيش نظمه احسن تنظيم

---

١) ابن القوطية ص ٣٣ ـ ٤ ؛ المقري ج ١ ص ٢١٥ .
٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٦١ ؛ المقري ج ١ ص ٢١٣ .
٣) اخبار مجموعة ص ١١٣ .
٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ ـ ٤ ؛ ابن الأثير ج ٦ ص ٧ ـ ٨ . وانظر Éginhard *Charlemagne*, ed. and tr. Halphen, pp. 29-31.
٥) راجع Coppée, vol. i, pp. 167-8

ودربه على القتال بلغ اربعين الف مقاتل او اكثر من البربر استجلبهم من افريقية واعتمد على ولائهم لتوطيد عرشه . وقد تمكن من الاحتفاظ بوفاء هذا الجيش بما اغدقه من الاعطيات على افراده . وكان في سنة ٧٧٣ قد ابطل الخطبة للخليفة العباسي ولكنه لم ينتحل لنفسه لقب الخلافة . فقد اكتفى هو ومن خلفه من الامراء حتى عبد الرحمان الثالث بلقب امير او سلطان . وهكذا فقد كانت الاندلس في عهد عبد الرحمان الداخل اول الامصار التي أعلنت عدم اعترافها بسلطة الخليفة .

ولما توحدت المملكة واستتب الأمن فيها في تلك الايام اخذ عبد الرحمان يوجه انتباهه نحو الفنون التي تزدهر في السلم فاثبت أنه بارع فيها براعته في فنون الحرب . فلقد جمّل مدن مملكته وأنشأ قناة توصل الماء العذب الى العاصمة وابتنى حول العاصمة سوراً وشيد منية (١) الرصافة بظاهر قرطبة على غرار القصر الذي كان جده هشام قد بناه في شمال شرقي سورية . ولقد جر الماء الى هذه المنية وادخل اليها ضروباً من الاغراس الاجنبية كالدراقن والرمان . وروي انه استجلب اول نخلة من الشام فغرسها في الرصافة فلما رآها فريدة فيها أنشد يقول:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأتِ بأرض انتِ فيه غريبة ... فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسحّ ويستمري السماكين بالوبل (٢)

وأسس عبد الرحمان سنة ٧٨٦ قبل وفاته بعامين جامعه الكبير بقرطبة (٣) مضارعاً به حرمي الاسلام الكبيرين في مكة وبيت المقدس . وقام خلفاؤه بعده فوسعوا هذا الجامع واصبح قبلة انظار المسلمين في المغرب ومما زاده روعة وجمالا الاعمدة البديعة والبهو الخارجي الواسع

---

١) كلمة مستعارة من اليونانية (وهي قبطية ايضاً) بمعنى حديقة .

٢) ابن الأبار ص ٣٤ ؛ ابن الأثير ج ٦ ص ٧٧ ؛ المقري ج ٢ ص ٣٧ . اما شجر النخل فقد ادخله الى اسبانية اول الأمر الفينيقيون ، ثم جاءها العرب فيما بعد فأوجدوا فيها انواعاً جديدة نقلوها اليها وعمموها بواسطة الشتائل بينما كانت زراعة النخل القديم بالنوى .

٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٦٠ وقابل ص ٢٤٥ ؛ المقري ج ١ ص ٢١٢ .

الملاصق للبناء الفخم . وعندما اخذ الاندلسيون النصارى يسترجعون بلادهم من ايدي العرب حوّل فردناند الثالث هذا الجامع في سنة ١٢٣٦ الى كاتدرائية لا تزال تعرف الى يومنا الحاضر باسم « لا مسكيتا » (المسجد) . واذا استثنينا الجامع فقد كان في قرطبة جسر عظيم قائم على الوادي الكبير وُسع فيا بعد فامتد على سبع عشرة قنطرة . ولم تنحصر جهود مؤسس الدولة الأمويه الأندلسية في دائرة الأمور المادية لصالح رعيته بل بذل جل عنايته في الجمع بين عناصر رعيته والتوحيد بين العرب والسوريين والبربر واهل نوميدية والعرب الاسبان والقوط وجعلهم أمة واحدة على ما في الامر من صعوبة . وهو يعد من اعتبارات كثيرة منشىء الحركة الفكرية التي جعلت الأندلس من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر احد المركزين الهامّين في الثقافة العالمية .

ولقد عاشت الدولة التي أنشأها عبد الرحمان الداخل قرنين وثلاثة ارباع القرن (٧٥٦– ١٠٣١) . و بلغت اوجها في عهد الامير الثامن عبد الرحمان الثالث (٩١٢ – ٦١) اعظم أمراء هذه الأسرة وأول من تسمى بالخلافة في الأندلس (٩٢٩) . وفي الواقع ان عهد الخليفة عبد الرحمان كان العهد الذي بلغ فيه التقدم العربي ذروته في الأندلس . وظلت قرطبة طيلة الحقبة الأموية عاصمة للدولة وادركت عهداً من العمران والازدهار والعظمة ضارعت فيه بغداد عاصمة المشرق .

وقد بدأ دور انحطاط الخلافة الأموية بعد وفاة الحاجب المنصور (١٠٠٢) فقد كان هذا « بسمارك القرن العاشر » بل لعله كان أعظم سياسي وقائد عرفته اسبانية العربية . ثم لم تلبث هذه الخلافة ان تلاشت سنة ١٠٣١ فنشأ على أنقاضها دويلات صغيرة وامارات كان اكثرها في تنازع وتناحر بعضها مع بعض أدى آخر الأمر الى ان تندثر أمام النفوذ الاسباني لا سيما في الشمال . و بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ زال آخر أثر للحكم العربي في الأندلس .

معاملة النصارى

كان اول المهام التي انصرف اليها خلفاء عبد الرحمان الداخل اقرار السلم في البلاد . والعناية بالمشاكل المعقدة الناشئة عن اختلاف الأديان في الجزيرة والعصبيات والحزازات بين

المسلمين العرب والمسلمين المستجدين . أما الخطة التي سلكها الفاتحون العرب في معاملة رعاياهم في الأندلس فلم تختلف كثيراً عن خطتهم في البلدان الأخرى التي فتحوها . فقد وضعت الجزية على النصارى واليهود دون غيرهم وكانت تتراوح بين اثني عشر وأربعة وعشرين وثمانية وأربعين درهماً في السنة وذلك بالنسبة لمقدرة المكلف المالية . وقد أعفي من الجزية النساء والأحداث والشيوخ والمعوزون ومثلهم الرهبان والمصابون بالأمراض المزمنة . وقد كلف أهل الذمة بدفع الخراج ايضاً وهو بمعدل عشرين بالمئة مما تنتجه الأرض ويختلف عن الجزية في انه لا يسقط بالاسلام . وصودرت المناطق التي أخذت عنوة والأراضي التي تخص الكنائس وأملاك الذين فروا من البلاد عند الفتح فجعلت كلها قطائع للمسلمين . وأبقي للفلاحين المستعبدين للعمل في الأرض عملهم الزراعي على ان يؤدوا أربعة أخماس حاصلاتهم لأسيادهم الجدد المسلمين ولكن الدولة لم تستملك من الأراضي التي غنمها الفاتحون سوى الخمس ولم تطالب الفلاحين المستعبدين للعمل الزراعي بغير الثلث من الغلال . وقد أقطعت بعض أراضي الدولة لأهل الشام والعرب الذين جيء بهم لقمع الثورات .

وكان الرقيق اذا أسلم أعتق اذ « لا رق في الاسلام » . وكان أتباع الطوائف النصرانية المختلفة أحراراً في ممارسة دينهم كل جماعة على الطريقة التي تألفها تابعة نظامها الكهنوتي في أمور القضاء والشريعة . ولقضاة كل جماعة صلاحية النظر في أمور أفرادها الا اذا كان في القضية مساس بحق المسلم أو قدح في الاسلام . ولهذا لم يكن الاحتلال العربي بوجه عام مجحفاً بحق أهالي البلاد الأصليين ولا هو وضع عليهم أعباء جديدة بل انه قد أفاد اسبانية من بعض الوجوه كما يقول دوزي (١) فقد قضى على سطوة الطبقة المتمتعة بالامتيازات على حساب الشعب ومن هذه الطبقة النبلاء والأكليروس . وحسّن أحوال المستخدمين والعمال ومنح الملاك النصراني حقوقاً كحرية التخلي عن عقاره وهو أمر لم يعهده في حكم القوط .

---

(١) Dozy , *Histoire des Musulmans d'Espagne* , ed. E. Lévi - Provençal (Leyden , 1932) , vol. i , p. 278 ; tr. Francis G. Stokes, *Spanish Islam* (New york, 1913) p. 236 .

ثورة المسلمين المستجدين

ومع ذلك فقد أقبل النصارى على الاسلام ولا سيما في المدن . وقد حافظ أهـل الجبال والمناطق الريفية على نظامهم القومي القديم وثقافتهم التقليدية الموروثة أما أهل المدن فلم يفعلوا . وقد شكل هؤلاء المسلمون المستجدون طبقة اجتماعية خاصة وعرفهم العرب باسم المولدين ودعاهم الاسبان مولادِس (Muladies) . وأصبح هؤلاء المستجدون على مر الزمن اكثر طبقات الشعب انتقاضاً على الحكومة القائمة . وكان اكثرهم قبل اسلامهم ينتمون الى طبقـة الفلاحـين المستعبدين للعمل في الأرض والعبيد المعتقـين وأبنائهم الذين انصرفوا الى الحراثة أو الأعمال اليدويـة . وقد ظل بعضهم يبطن النصرانيـة رغم اعتناقهم الاسلام (١) وكانوا يعلمون ما ينزله الشرع الاسلامي من عقاب صارم محتم بالمرتد . وجدير بالذكر أن المسلمين العربَ كانوا ينظرون الى المولدين على انهم من طبقة دنيا مع ان بعض هؤلاء قد تحدروا من عائلات عريقة في الشرف . ولم يأت آخر القرن الأول بعد الفتح حتى أصبح المولدون اكثرية السكان في كثير من المدن وكانوا أول من حمل السلاح وأعلن الثورة على النظام الجديد .

---

(١) Eulogius , « *Memoriale sanctorum* » , BK. II , in A. Schottus , *Hispaniae Illustratae*, vol. iv (Frankfort , 1608) p. 293 .

الفصل السادس والثلاثون

اضطرابات أهلية

كان اكثر أهل الربض (١) وهي ضاحية قرطبة الجنوبية من المسلمين المستجدين الذين اعتبرهم الاسبان النصارى مرتدين . وقد تولى زعامتهم نفر من الفقهاء وطلاب الفقه الذين نزل العاصمة منهم نحو اربعة الاف . ولم يكن هناك ما يدعو الى الفتنة او الاضطراب في عهد هشام الاول (٧٨٩ ـ ٩٦) الذي خلف والده عبد الرحمان فقد كان ورعاً محباً للعلم (٢) . ولكن الموقف قد تغير في امارة الحكم الاول (٧٩٦ ـ ٨٢٢) الذي شغف باللهو والصيد والخمر . فقد اخذ الناس يذمّون سيرته و ينقمون عليه اتخاذه حرساً ملكياً من الزنوج والمرتزقة الاعاجم (٣) . و بدأ الشغب بقرطبة سنة ٨٠٥ فيما كان الامير سائراً في احد شوارعها واخذ الأهلون يرمونه بالحجارة بينما كان الفقهاء يصفقون رضى وتحبيذاً فعظم الخطب واضطر الأمير آخر الأمر أن يلقي القبض على زعماء هذه الفتنة وعددهم اثنان وسبعون وزجهم في السجن . ولما تبين له انهم كانوا قد تآمروا على خلعه أمر بصلبهم . ولم تهدأ الفتنة فقد توالت الثورات في الربض الى أن افضت الى هياج عام سنة ٨١٤ (٤) بزعامة احد فقهاء البربر . وانقض الهائجون على الحكم فحاصروه في قصره ولكن فرسانه تألبوا حوله وانقذوه من ايدي الثائرين ثم احاطوا بهم من الامام والوراء وانقضوا عليهم وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً . وقبض على

---

١) ابن عذاري ج ص ٧٣ ، ٧٧ ؛ ابن الأثير ج ٦ ص ٢٠٩ وما يلي ؛ المقد ج ٢ ص ٣٦٥ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ .

٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٠١ ـ ٢ ؛ ابن القوطية ص ٤٢ .

٣) لهذا قيل لهم « الخرس » ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ ؛ المقري ج ١ ص ٢٢٠ .

٤) سنة ٢٠٢ / ٨١٧ ـ ٨ في ابن عذاري ج ٢ ص ٧٧ ؛ قابل ابن قوطية ص ٥١ ـ ٢ .

ثلاثمئة رجل من أهل الربض فصلبوا على الوادي الكبير صفاً واحداً وقد علقوا بارجلهم ورؤوسهم مدلاة من تحت . وامر الحكم بعد ذلك باجلاء جميع أهل الربض في مدة ثلاثة ايام وهدم منازلهم فخرجوا افواجاً بأهليهم واولادهم وهدمت الربض ولم يسمح لأحد بالبناء فيها من بعد (١) . وتفرق القوم فاوى ثمانية الاف اسرة منهم الى مراكش ونزلوا بلدة فاس التي كان ادريس الثاني من آل علي يبنيها آنذاك عاصمة جديدة له فسمى موضع نزولهم عدوة الاندلس . وسار آخرون وعددهم نحو خمسة عشر الف نفس (٢) فبلغوا الاسكندرية فنزلوها واستطاع هؤلاء اللاجئون فيما بعد ان يملكوا زمام الامر فيها حتى سنة ٨٢٧ حين اقلعهم عنها قائد الخليفة المأمون فلجأوا الى اقريطش (كريت) وكان قسم منها لا يزال تحت حكم البيزنطيين فتغلبوا على الجزيرة كلها وأنشأ زعيمهم فيها دولة بقيت نافذة الحكم الى ان استعاد اليونان هذه الجزيرة سنة ٩٦١ (٣) .

وقعة الحفرة

وكان من مسلمي الاسبان من حالفوا العرب ورضوا ان يكونوا يداً معهم في اخضاع ابناء دينهم السابق . ومن هؤلاء عمروس ابن يوسف الذي قلده الحكم سنة ٨٠٧ ولاية طليطلة ـ مدينة الملوك ـ (٤) وهي في نظر الاسبان أهم مدن البلاد سياسياً ودينياً . ولم تكن طليطلة ايام السيطرة الاسلامية هادئة مطمئنة فقد شاهدت سلسلة ثورات متصلة الحلقات خرج فيها المسلمون المستجدون والنصارى على السلطة العربية . فلما أعيى الحكم أمرهم استقدم عمروس ابن يوسف هذا وولاه عليهم . وزار المدينة ولي العهد عبد الرحمان ابن الحكم وله من العمر اربع عشرة سنة ونزل بدار عمروس فأعد له هذا بناء على اشارة الحكم نفسه وليمة كبرى تكريماً له

١) وتذكاراً لهذه الحادثة الهائلة أطلق على الحكم اسم « الربضي » . ابن الابار ، حلة ص ٣٨ .

٢) ابن القوطية ص ٥١ .

٣) ابن الابار ص ٣٩ ـ ٤٠ ؛ المقري ج ١ ص ٢١٩ ؛ المراكشي ص ١٣ ـ ١٤ ؛ الكندي ، ولاة ص ١٦١ ـ ٥ ، ١٨٤ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٦١ ؛ ياقوت ج ١ ص ٣٣٧ .

٤) القزويني ، آثار ص ٣٦٦ ؛ وانظر : Isidorus Pacensis , « Del chronicon » in : *Espana sagrada : Theatro geographico - historico d la iglesia de Espana* , ed. Fr. Henrique Florez , vol. viii (Madrid , 1753) , p. 297.

بقصره الجديد دعا اليها مئات من نبلاء المدينـة وكان في ساحة قصره حفرة طويلة استعمـل ترابها في البناء، وقف عليها جلاد فكان عمروس يُدخل النبلاء من باب ويخرجهم من آخر حتى يصل بهم الى هذه الحفرة في أول ساحة القصر فتضرب رقابهم عليها الى ان قتل معظمهم وفطن الباقون فنفروا وفروا ودفنت القتلى في الحفرة نفسها . وانقطعت الثورات في طليطلة بعد هذه المذبحة (١) عدة سنين (٢) ولكن مدناً أخري كماردة بقيت في غليان داخلي حتى قيام عبد الرحمان الثاني (٣) . وكان عبد الرحمان من بناة الوحدة الأموية الأندلسية ومن رعاة الموسيقى وعلم الفلك .

وكان عبد الرحمن الثاني هذا (٨٢٢ ـ ٥٢) وقد عرف فيما بعد بالاوسط (٤) قد غلب عليه اربعة اشخاص : امرأة وخصي وفقيه ومغنٍّ . اما المرأة فزوجته السلطانة طروب ذات

---

١) « وقعة الحفرة » ابن الأثير ج ٦ س ١٣٥ ؛ ابن خلدون ج ٤ س ١٢٦ .
٢) ابن القوطية س ٤٥ ـ ٩ ؛ ابن عذاري ج ٢ س ٧١ ـ ٢ .
٣) الامراء الامويون بقرطبة :

١) عبد الرحمان الاول (٧٥٦ ـ ٨٨)
|
٢) هشام الاول (٧٨٨ ـ ٩٦)
|
٣) الحكم الاول (٧٩٦ ـ ٨٢٢)
|
٤) عبد الرحمان الثاني (٨٢٢ ـ ٥٢)
|
٥) محمد الاول (٨٥٢ ـ ٨٦)
|
٦) المنذر (٨٨٦ ـ ٨) — ٧) عبد الله (٨٨٨ ـ ٩١٢)
|
محمد
|
٨) عبد الرحمان الثالث (٩١٢ ـ ٢٩ ، خليفة ٩٢٩ ـ ٦١)

٤) الوسط عهده بين عهد عبد الرحمان الاول وعهد عبد الرحمان الثالث . ابن الابار س ٦١ ؛ ابن خلدون ج ٤ س ١٢٧

الحيلة والمكر . واما الخصي فمولاه نصر خادمه القدير الاسباني الأصل وكانت طروب تميل اليه (١) . وكان الفقيه هو زعيم الفتنة نفسه التي قام بها الفقهاء من المسلمين المستجدين يوم زحفوا على قرطبة واسمه يحيى ابن يحيى (المتوفى ٨٤٩) وأصله من البربر من قبيلة مصمودة وكان قد رحل الى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين فسمع من الامام مالك ابن انس ببغداد ثم عاد الى الاندلس فنشر مذهب مالك فيها (٢) وتفقه بهذا المذهب جماعة لا يحصرون عدداً فكان الناس يقبلون عليه قائلين : لا نعرف الا كتاب الله وموطأ مالك (٣) . بقي المغني وهو زرياب الفارسي البغدادي الأصل .

كان زرياب (٤) واحداً من رجال الموسيقى الذين ازدان بهم من قبل بلاط هارون الرشيد وابنائه ولم يكن مغنياً وموسيقياً ممتازاً فحسب بل كان من رجال العلم والأدب . وكان نبوغه سبباً في أن يحسده استاذه الموسيقي المشهور اسحاق الموصلي وينقم عليه فاضطر زرياب الى ان يهرب الى شمال افريقية فاسبانية. وكان عبد الرحمان راغباً في ان يجعل من قرطبة بغداداً ثانية فانفق الاموال على بلاطه الفخم وسعى الى محاكاة ما كان فيه هارون الرشيد من بذخ وترف . وقد روي عنه انه خرج سنة ٨٢٢ من عاصمته لملاقاة زرياب (٥) وانه اسكنه معه وكان يُجري عليه ثلاثة آلاف دينار في السنة وأعطاه عقاراً بقرطبة قيمته اربعون الف دينار وقربه اليه وشمله بصداقته حتى فاقت منزلته جميع أهل الموسيقى في البلاد . وكان تقدم زرياب في الصناعة عظيما قيل انه كان يعرف عشرة آلاف صوت باشعارها وألحانها التي كان يزعم كغيره من أرباب الموسيقى ان الجن كانت تعلمه اياها أثناء الليل . وقد لمع زرياب ايضاً

---

١) المقري ج ١ ص ٢٢٤ ـ ٥ .

٢) ابن خلكان ج ٣ ص ١٧٣ . قابل ابن القوطية ص ٣٤ . وروى ابن خلكان ان مالكاً كان يسمي يحيي « عاقل أهل الاندلس » وسبب ذلك انه كان جالساً الى مالك يسمع مع نفر من أصحاب مالك فمر فيل في الشارع فخرجوا جميعاً لينظروا اليه الا يحيي .

٣) المقدسي ص ٢٣٦ .

٤) من « زر » الفارسية بمعنى ذهب و « آب » بمعنى ماء . وهو لقب هذا المغني اما اسمه فابو الحسن علي ابن نافع . العقد ج ٣ ص ٢٤١ يجعل زرياب زنجياً .

٥) قابل ابن خلدون المقدمة ص ٣٥٧ . وقد اقتبس عنه المقري ج ١ ص ٢٢٢ .

بالشعر وكان عالماً بالفلك والجغرافيـة (١) . وعرف فوق ذلك كله باتقانه فن الظرف وحسن الأدب والنكتة حتى عد من أبرز أهـل الذوق والبراعـة في عصره بل صار مرجعاً في أمور الزي . وكان الرجال حتى يومه يرسلون شعورهم طويلة ويفرقونها في مقدم الرأس فابتدع لهم طريقة جديدة وأصبح الزي الرائج بعده أن يقصر الشعر وينحسر الجبين . وكان المـاء يسقى بآنية معدنية فعلّم أهل الأندلس أن يشربوه بأقداح من زجاج . وكان من الطعام ألوان غـير معروفة أو مستطابة عند الأندلسيين فحببها اليهم منها الهليون الذي أخذ الأندلسيون يأكلونه امتثالا به . (٢)

التسابق الى الاستشهاد

وفي أواخر عهد عبد الرحمان ازداد شأن اللغة والأدب والدين وسواها من الأنظمـة التي جاء بها الفاتحون – ومنها نظام الحريم – بحيث ان كثيراً من سكان المدن استعربوا وان لم يكونوا قد أسلموا بالفعل . وايقن المواطنون النصارى بعد ان بهرت اعينهم بهرجة المدنية العربية واحسوا بانحطاطهم في الفن والشعر والفلسفة والعلم انهم مغلوبون على امرهم لا محالة فاخذوا يماشون العرب في طرق معيشتهم . وازداد عـدد هؤلاء المقلدين بحيث تشكلت منهم طبقة اجتماعية قائمة بذاتها أطلق على افرادها اسم المستعربين المعاهدين(mozarabs). ويجب ان نذكر ان اسبانية كانت من الدول الأخيرة التي قبلت النصرانية وكانت بعض انحائها لا تزال على وثنيتها عند الفتح الاسلامي . وكان في المذهب الآريوسي الذي اعتنقه القوط وما ينطوي عليه من تعليم بشأن طبيعة السيد المسيح ما يلائم العقائد الاسلامية . وقد نعى احـد كتاب النصارى من أهل قرطبة على ابناء دينه انصرافهم عن مؤلفات الآباء اللاتين وذكر أنهم قد تيمموا بالفصاحة العربية (٣) . ومنذ حوالي سنة ٧٢٤ وضـع الاسقف يوحنا رئيس أحبار اشبيلية ترجمـة عربية للتوراة لتكون في متناول النصارى المستعربين ومن شاء

١) المقري ج ٢ س ٨٧ ؛ ابن القوطية س ٦٨ .
٢) المقري ج ٢ س ٨٧ – ٨ .
(٣) Alvaro , « Indiculus luminosus » , in *Espana sagrada* , vol . xi , p. 274 .

من المسلمين (١) .

وظهرت حركة غريبة بين جماعة من النصارى المتحمسين الغيورين في قرطبة ، لصد حركة الاستعراب والاسلام التي أشرنا اليها . وقد أفضت هذه الحركة الى حوادث استشهد فيها اختياراً عدد من الرجال والنساء . وكان زعيم هذه الحركة أحد الكهنة الزهاد واسمه يولوغيوس (Eulogius) وقد زوده بالمال صديقه المثري الفارو (Alvaro) وكان الفارو هو الذي كتب سيرة الكاهن المذكور (٢) . وكان أن قتل كاهن بقرطبة في رمضان سنة ٨٥٠ اسمه برفكتس (Perfectus) اتهم بأنه شتم النبي وطعن بالاسلام (٣) فكان قتله من أعظم العوامل لتقوية هذه الحركة وإنمائها . ولم يلبث الشعب وعلى رأسه أسقف قرطبة أن نادى بهذا الشهيد برفكتس قديساً وأخذ ينسب له الكرامات . فقد ذكروا عنه انه تنبأ قبل ان يُقطع رأسه قائلاً بان نصراً الخصي الجلاد الذي كان ينفذ الاعدام في الشهداء سيلاقي حتفه عن قريب . والظاهر أن نصراً كان قد تآمر مع طروب على ان يسمّ زوجها الأمير لكي يؤول الملك الى ابنها عبد الله دون محمد المولود من امرأة أخرى . وكان محمد اكبر أنجال عبدالرحمان الخمسة والأربعين . ونمي الى عبد الرحمان الخبر فلما دخل نصر عليه ومعه الدواء قال له « ان نفسي قد بشعته فاشرب به أنت فوجم فأقسم عليه فلم يسعه خلافه فشربه وركب مسرعاً الى داره فهلك لحينه » (٤) .

ولم يمض وقت طويل على حادثة برفكتس حتى مثل راهب اسمه اسحاق امام قاض مدعياً انه يريد اعتناق الاسلام وما لبث أن أطلق لسانه بشتم النبي فقطع رأسه كما قُطع رأس برفكتس واعتبره أصحابه من القديسين (٥) وهنا اخذ النصارى المتحمسون يتسابقون الى الاستشهاد . وقد عمد افراد من الكهنة وسواهم الى الطعن بالاسلام قصداً وتعمداً لكي يُقتلوا

---

١) *Primera cronica general*, *estoria de Espana que mando componer Alfonso el Sabio*, ed. Ramon Menéndez Pidal (Madrid, 1906), vol. i, p. 326.

٢) *Espana sagrada*, vol. x, pp. 543 — 63 ; p. 411 *seq.*

٣) *Espana sagrada*, vol. xi, pp. 225 — 6.

٤) ابن القوطية ص ٧٦ ـ ٧ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ .

٥) *Espana sagrada*, vol. xi, pp. 237 — 8.

فيعتبروا شهداء . ولم يمض اكثر من شهرين حتى قضى نحو احد عشر شخصاً على هذا النحو.

فلورا وبولوغيوس

ولم يرق لعبد الرحمان هـذا الأمر فأشار على احبار الكنيسة ان يعقدوا مجمعاً للنظر فيه فعقدوا المجمع بعد تردد وحظروا على النصارى - برغم اعتراض يولوغيوس - ان يستهويهم مثل هذا الموت في سبيل ايمانهم . ولكن مساعيهم لم تجد نفعاً . وظهرت أخيراً حسناء من اتباع يولوغيوس اسمها فلورا وهي من ام مسيحية وأب مسلم واشتركت في جريمة الشتم والطعن مع راهبة صبية اسمها ماري كان أخوها في عـداد من أعدموا من قبل . ومثلث فلورا امام القاضي فاشفق عليها وعلى صاحبتها وحكم عليها بالسجن بدل الاعدام . غير ان السجن جمعها مرة أخرى بيولوغيوس الذي كان يحبها ويجلها فشجعها بما أوتيه من حجة و بيان على التضحية بنفسها هي ورفيقتها لتكونا في عداد الشهداء ولم يكن بعد هـذا مجال للتردد فوطنت الفتاة النفس هي وصاحبتها على سلوك السبيل الذي يوصلها الى الاستشهاد فقُتلتا في ١٤ تشرين الثاني سنة ٨٥١ (١) ولم ينته هذا الشوق الهستيري الى التضحية بالنفس حتى أعدم اسقف قرطبة يولوغيوس نفسه سنة ٨٥٩ بامر محمد الاول (٨٥٢ - ٨٦) الذي انتهج سياسة صارمة مع هؤلاء . وكان عدد الذين استشهدوا نحو اربعة واربعين .

الثورة في مختلف امصار الاندلس

وانتقلت الفتنة فيما بعد الى الامصار حيث تميزت بشدتها وان لم يقع فيها شيء من حوادث الاستشهاد الغريب . ويجب ان نذكر اولا أن محمداً وابنيه اللذين خلفاه - المنذر (٨٨٦ - ٨) وعبد الله (٨٨٨ - ٩١٢) - لم يتصفا بالمميزات السامية التي عرفت في البيت الأموي من تسامح ولين وحنكة واقتدار . وفوق ذلك فقـد ظهرت المشاكل المألوفة التي كانت تلازم قضية الاستخلاف وكانت العادة الاسلامية المرعية في تعاقب الخلفاء هي ان يلي العرش أكبر افراد الأسرة المالكة أو اقدرهم ومن هنا كثر المتنازعون على السلطة فلم تمض على خلافة المنذر سوى سنتين حتى سمم بحيلة من خلفه الذي واطأ عليـه حجامه بان سمم له المبضع الذي فصده

(١) *Espana sagrada* , vol. x , pp. 417 — 18 , 547 seq.

به (١) . وفي الوقت نفسه كانت الثورات التي قام بها المولدون والمستعربون تستعر في اكثر انحاء البلاد بل ان بعض المقاطعات اخـذت تنسلخ عن جسم الامارة وتعلن استقلالها تحت حكم البربر او حكم الأسبان المسلمين . وكانت هذه النزعات الانفصالية التي تزعمها المسلمون المستجدون الذين اعتبروا انفسهم حماة الوطن تظهر في الامصار التي كانت بالاسم تابعة لقرطبة وقد كابد الامراء الامويون عناءً في مكافحتها حتى اوائل القرن العاشر .

ففي الجنوب انفصلت عن الدولة مقاطعة الرية (٢) الجبلية وعاصمتها ارجذونة وعقدت معاهدة في سنة ٨٧٣ مع محمد اقر لها فيها بالاستقلال لقاء جزية سنوية . وكان أكثر سكان هـذه المقاطعة من الأسبان الذين أسلموا . وفي الشمال كانت مقاطعة الاراغون مستقلة تحت امرة بني قسي (٣) وهم أسرة قوطية قديمة اعتنقت الاسلام ثم ما لبثت أن اضافت الى مناطقها في منتصف القرن التاسع سرقسطة وتطيلة وسواهما من المدن الخطيرة الواقعة على الحدود (٤) . وكان بنو قسي على ولاء مع جيرانهم في الغرب اي ملوك ليون .
اما الاراضي التي احاطت بطليطلة مدينة الفتن والثورات — فقد ظهر فيها بنو ذي النون — وهم من البربر — والتف حولهم عصابات من الاشقياء واخذوا يعيثون في الارض فساداً .
واما أشبيلية التي كانت أهم مراكز الثقافة الرومانية في زمن القوط الغربيين والتي كان اكثر سكانها متحدرين من الرومان والقوط فقد كانت السيادة فيها لبني الحجاج (٥) .
وكان هؤلاء الحكام يرجعون بأنسابهم من ناحية الأم الى سارة حفيدة غيطاسة التي تزوجت من رجل عربي . وكذلك كان المؤرخ ابن القوطية من نسل سارة هذه ايضاً (٦) .

---

١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٦٠ — ٦١ ، ١٢٢ ؛ ج ١ (تصدير دوزي للكتاب المذكور) ص ٤ — ٦ . قابل ابن القوطية ص ١٠٢ : ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٢ ؛ اخبار مجموعة ص ١٥٠ .

٢) اخطأ ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٢ وقابل ص ١٣٤) وكثيرون غيره في جعلها بلدة وخلطوا بينها وبين مالقة عاصمة المقاطعة في زمن القوط الغربيين وبعد ولاية عبد الرحمان الثالث . انظر الادريسي ص ٢٨ .

٣) *Espana Sagrada*, vol. xiii, p. 487.

٤) ابن القوطيـــة ص ٨٥ ، ١١٣ — ١٤ . وقد جاء ذكرهم في ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٤ حيث استعملت كلمة « موسى » بدل « قسي » .

٥) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٨ وما يلي ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٦ .

٦) ابن القوطية ص ٤ — ٦ .

وقام في جهات الجنوب الغربي أحد المسلمين المستجدين المغامرين من أبناء ماردة وباجة اسمه عبد الرحمان ابن مروان الجليقي (١) فأسس امارة مستقلة وأخذ ينشر الرعب والفوضى في كل مكان يساعده على ذلك ملك ليون الفونس الثالث الذي كان حليفاً طبيعياً لكل ثائر على الحكومة العربية . وظهر أمير آخر من المسلمين المستجدين في الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة وهي من بلاد البرتغال اليوم وتعرف بـ « Algarve » (الغرب) وقد استطاع هـذا الأمير أن يستقل بأمر المقاطعة في أواخر عهد الأمير محمد . وثارت كذلك مرسية في القسم الجنوبي الغربي بقيادة أمير آخر وتخلصت من سلطة العرب غير ان اعظم ثورة قامت بوجه العرب هي تلك التي شنها عمر ابن حفصون .

ابن حفصون

كان عمر مسلماً يرجع بنسبه الى أحد نبلاء القوط الغربيين . وقـد ظهر على مسرح الحوادث لأول مرة سنة ٨٨٠ وذلك حين نظم عصابة من الأشقياء كان مقرها في حصن قـديم على جبل ببشتر (٢) (Bobastro) . ثم أُخضع وخـدم لوقت قصير في الجيش الملكي بقرطبة غير انه لم يلبث أن ثار ثانية واستطاع ان يصل بمناصرة سكان البيرة الى مقام الزعامة في المقاطعة الجنوبية حيث كان الاسبان يناوئون حكم المسلمين . وقد شغلت ثورته ثلاثة من الأمراء : محمد والمنذر وعبدالله . وكان نصارى الجنوب وغيرهم من الناقمين على الحكم العربي يعتبرونه الحامي الذي يذود عن كرامة الوطن المنكوب . أما في نظر العرب فقد كان يعد « لعيناً فاسقاً » (٣) . وقد استطاع ابن حفصون بعد كثير من تقلبات الزمن أن يُفلح في عزل قرطبة عن بقيـة الأندلس العربي بحيث كاد يخنقهـا ثم اتصل بالعباسيين وعمالهم الأغالبة في افريقية (٤) مؤملاً أن يقلدوه الأمارة على الأندلس.

١) انظر ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٤ ؛ ابن القوطية ص ٨٩ ، ٩٠ ؛ ابن الأثير ج ٧ ص ١٢٧ — ٨ ؛ الضبي ص ٣٥٩ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ ؛ ياقوت ، بلدان ج ٢ ص ١١٠ .

٢) ابن القوطية ص ٩٠ ؛ اخبار مجموعة ص ١٥٠ ؛ قابل ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٨ ، ١٢٠ ، ٢٠٤ ، ابن الأثير ج ٧ ص ٢٩٥ .

٣) ابن عذاري ج ٢ ص ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٣ . قابل العقد ج ٢ ص ٣٦٧ .

٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ .

ولما خاب أمله في تحقيق فكرته عن طريقهم أظهر النصرانية دين آبائه سنة ٨٩٩ وكان قبل ذلك يسرها (١) واتخذ اسم صموئيل اسماً له بالمعمودية ونفر عن العرب ونابذ الأمويين وجاهدهم حتى كاد يثل عرشهم من أساسه . وشعر المسلمون ان السيادة التي وضع دعائمها عبد الرحمان الأول في الأندلس وثبتها خلفاؤه قد أخذت تضمحل وانها تفتقر الى من يعيدها .

١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٤٣ .

الفصل السابع والثلاثون

الخلافة الأموية في قرطبة

الخليفة عبد الرحمان الناصر

كان عبد الرحمان الثالث حين خلف جده الامير عبد الله سنة ٩١٢ شاباً لا يزيد عمره على الثلاثة والعشرين . وكان عبد الله قد حرض احد ابنيه على قتل الآخر وهو محمد والد عبد الرحمان بتهمة الخيانة (١) . ثم واطأ بعضهم على الفتك بالقاتل فلم يبق له ابن يخلفه . وكانت الدولة الاسلامية الكبرى التي نظمها عبد الرحمان الداخل قد تقلصت عند ارتقاء عبد الرحمان الثالث اريكة الملك فلم يكن لها سلطة الا على قرطبة والأنحاء المجاورة .

على ان الأمير الشاب الذي ازدان بصفات العزم والشجاعة والصراحة التي يتميز بها قادة الامم في كل عصر اثبت انه رجل الساعة ونشط لاسترداد الضائع من الامصار ببطء وثبات فاتسعت الفتوحات في عهده الذي بلغ نحو نصف قرن (٩١٢ ـ ٦١) (٢) . وكانت مدينة استجة اول مدينة استسلمت له وذلك في اليوم الأخير من سنة ٩١٢ (٣) . ثم لحقت بها البيرة . اماجيان فلم تقاوم ، وقبلت ارجذونة أن تودي الجزية ، وفتحت اشبيلية ابوابها لعبد الرحمان في آخر سنة ٩١٣ . وتم له بالتدريج ان يتغلب على رية التي كانت جبالها معقلاً لأبطال الثورة من رجال ابن حفصون . وكان ابن حفصون

١) ابن عذاري ج ١ المقدمة بقلم دوزي ص ٤٧ ـ ٥٠ ؛ ابن الأبار ص ٩١ .

٢) ابن الأبار ص ٩٩ وقد اصاب ابن الابار في قوله ان حكم عبد الرحمان كان أطول حكم في الاسلام حتى عهده ؛ انظر هامش ص ٥٧٧ من الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٣) ابن عذاري ج ٢ ص ١٦٥ .

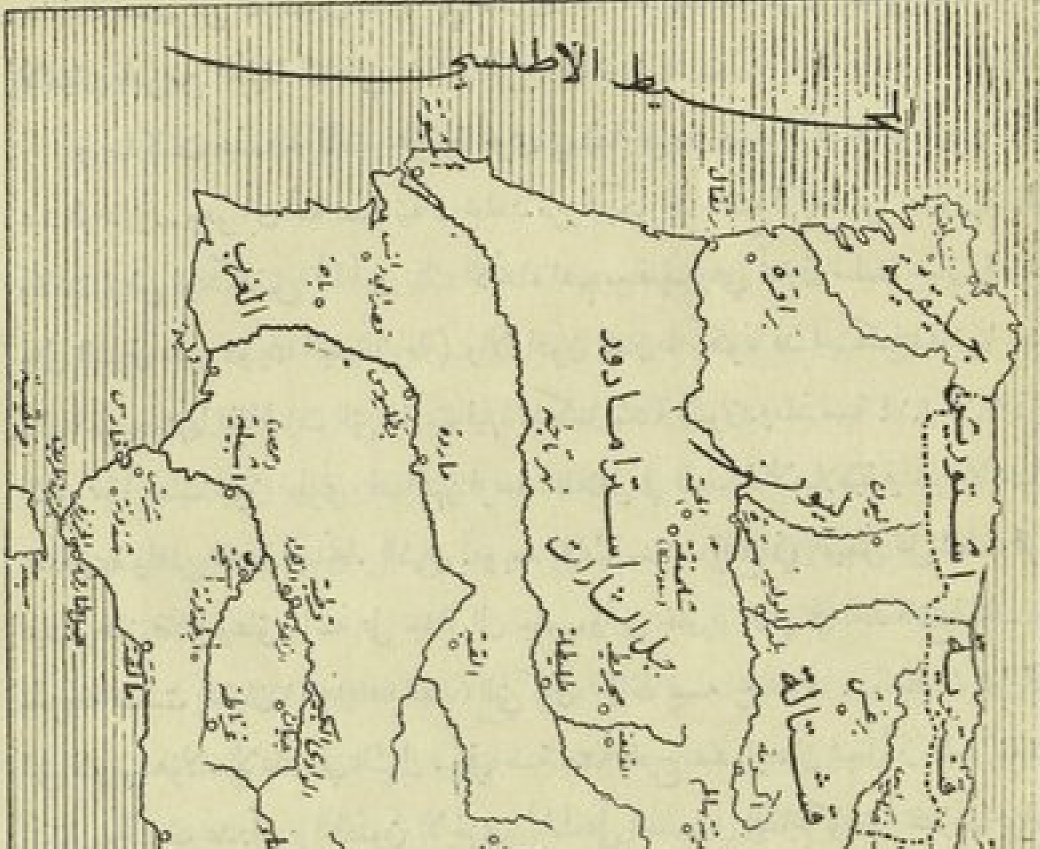
يتزعم هذه الثورة وظل صامداً يقاوم في ببشتر المنيعة حتى وفاته سنة ٩١٧ وقد دامت حركاته العدائية مدة سبع وثلاثين سنة . ولم يبق أمام عبد الرحمان سوى طليطلة ولكنها لم تلبث أن وقعت في أيدي رجاله سنة ٩٣٢ بعد ان قاست هول الجوع والحصار . و بذلك تم للعرب التسلط على جميع البلاد فأعادوا السلم اليها ووحدوا أجزاءها تحت لواء أمير كريم مطلق السيادة .

بيد أن الأعداء من الخارج كانوا يهددون كيان هذه الدولة وكان أشدهم الفاطميون في الجنوب وملوك ليون النصارى في الشمال . أما الفاطميون فقد أرجعوا انسابهم الى فاطمة ابنة الرسول ولم يسلموا باي زعامة اسلامية غير زعامتهم . وكان عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطميــة في تونس سنة ٩٠٩ قد عقد حلفاً مـع ابن حفصون وأنفذ الدعاة والأرصاد عبر مضيق طارق . وقـد عهد الفاطميون فيما يظهر الى ابن مسرة القرطبي (٨٨٣ ـ ٩٣١) من أصحاب الفلسفة المنسوبة خطأً الى أمبدوكليس أن يؤسس سراً حزباً فاطمياً في اسبانية وراء ستار الطرق الصوفية فأدخل الى الغرب نظامــاً باطنيــاً في التصنيف جعـل فيه للكلام معنىً خفياً . وأدرك عبد الرحمان بعد أن أخـذ ينشر سيادته في مراكش منذ سنة ٩١٧ او ٩١٨ أن أمره في الأندلس نفسها لا يستوي الا بعد اخضاع أعدائه في أفريقية فحمل على سبتة في سنة ٩٣١ واستلحق جانباً عظيماً من العـدوة الأفريقية التابعة لملوك البربر (١) . ثم زاد أسطوله قوة (٢) بحيث أصبح لا يفوقه أسطول آخر في ذلك العصر وكانت أهم مرافئه المرية واستطاع ان ينافس أسطول الفاطميين على السيادة في غربي البحر المتوسط . وفي سنة ٩٥٦ أخرج عبد الرحمان اسطوله الاندلسي وفيه سبعون مركباً الى سواحل افريقية فأضرم رجاله النار في بعض انحائها وعاثوا فيها منتقمين

---

١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ ـ ٨ وقد نقل عنه المقري ج ١ ص ٢٢٧ .

٢) لقد اشتبك الأسطول الأندلسي غير مرة بقرصان البحر السكندنافيين والنورمان الفرنسيين و لدنمركيين وكان العرب يسمون هؤلاء جميعاً « المجوس » وقد حاول بعض هـؤلاء النزول في الأندلس اول مرة سنة ٨٤٤ في عهد عبد الرحمان الثاني فأرسى نحو ٨٠ مركباً امام أشبونة واحتلوا اشبيلية . وفي عهد محمد الاول حاول المجوس بين ٨٥٨ و ٨٦١ النزول في مواضع كثيرة من شبه الجزيرة . ابن القوطيـة ص ٦٣ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ٨٩ ـ ٩٠ ، ٩٩ ؛ المسعودي ج ١ ص ٣٦٤ ؛ ابن الأثير ج ٧ ص ١١ ـ ١٢ ، ٥٨ .


المحيط الأطلسي

بذلك لانفسهم من الفاطميين للغارة التي كان قد قام بها الاسطول الصقلي على الساحل الاسباني بامر من الخليفة الفاطمي (١) .

وبينما كانت هذه الحركات الحربية تجري في الداخل وفي وجه الاعداء الخارجيين كان عبد الرحمان ـ وهو ابن أمة نصرانية ـ يجاهد من لم يكن قد خضع له بعد من نصارى الشمال. وكانت ارض الباشكنس (٢) في تلك الانحاء اهم معاقلهم وهي تخترق سلسلة جبال البرنه . والى الشرق منها دويلتا نبارة (نافار) والاراغون اللتان لم تكونا قد استكملتا قوتهما بعد . والى الغرب منهما المقاطعات التي نشأت فيها مملكتا قشتالة وليون. ومنذ سنة ٩١٤ كان اردون الثاني (٣) ملك ليون الجريء قد انتهز فرصة القلاقل في المملكة الاسلامية فباشر الاعمال العدائية واعلن الفتنة في انحاء الشمال . وبعد ثلاث سنوات افلح في القبض على احد قواد عبد الرحمان فقتله وعلق رأسه على جدار الى جانب رأس خنزير بري في احد قلاع الحدود المعروفة بشانت اشتبان (San Esteban) التي كان القائد نفسه يحاصرها . وتعاقبت الغارات التي قام بها هؤلاء الاعداء في الشمال . وفي سنة ٩٢٠ خرج عبد الرحمان فمحا أثر قلعة شانت اشتبان وضرب عدداً من الحصون الاخرى (٤) على الحدود في البقاع كانت تتنازعها قوات النصرانية والاسلام . ثم لقي جيوش اردنة الثاني الاكبر ملك نبارة (نافار) وجيوش شانجة (٥) مجتمعة عند بلدة خنكيراس (Junqueras) فانزل بهم شر انكسار . وبعد ان تغلب عبد الرحمان على مناطق نافار وسواها من البقاع النصرانية عاد ظافراً الى عاصمته . وبعد ذلك باربع سنين زحف شمالا الى نبلوبة (٦) عاصمة نافار وخربها . اما ملكها المستبد فكان

---

١) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٦ .

٢) في الكتاب المنسوب الى ابن قتيبة ص ١٢١ ، ١٣٢ ؛ ابن الأثير ج ٧ ص ٤٨ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ .

٣) اردون في المسعودي ج ٣ ص ٧٥؛ المقري ج١ ص ٢٣٣ ؛ ارذون في ابن عذاري ج٢ ص ١٧٩ـ١٨٧ .

٤) ابن عذاري ج ٢ ص ١٨٣ وما يلي . ويشير ابن عبد ربه شاعر عبد الرحمان الى ان العرب فتحوا سبعين حصناً في هذه الحملة ، العقد ج ٢ ص ٣٦٨ .

٥) « شانجه » في ابن القوطية ص ١١٤ ؛ « شنجه » في المقري ج ١ ص ٢٣٣ ؛ « سانجه » في ابن خلدون ج ٤ ص ١٤١ .

٦) بنبلونة في المقري ج ١ ص ٢٣٤ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ١٩٦ ، ١٩٩ .

حامي النصرانية في شرق الاندلس الا انه ظل مكسور الجانح مدة طويلة وفيه قال ابن عذاري(١) : « وتظاهر الكلب في اعلى الجبل واستجاش بمدود اته » . وفي هذه الغضون مات اردون وهو زعيم اسباني آخر ووقعت المنازعات الاهلية فكانت سبباً لايقاف الحركات الحربية .

وتفيض بقية السنين الطويلة من عهد عبد الرحمان بمظاهر ادارته الرشيدة ومقدرته ونشاطه . ومن اهم هذه المظاهر انه انفذ الامر بان تكون الخطبة باسمه ابتداء من يوم الجمعة في ١٦ كانون الثاني سنة ٩٢٩ وان تكون الدعوة له بامير المؤمنين في المنابر وتخرج الكتب عنه وترد اليه بذلك . واتخذ لنفسه لقب « الخليفة الناصر لدين الله » (٢) . وحقّ له بعد ان نشر سلطان المسلمين بالاندلس حيث لم يكن معروفاً من قبل ان يتسمى بامير المؤمنين لا سيا وقد انحطت الخلافة الشرقية الى مستوى وضيع .

وباعتبار ان الخليفة حامي ذمار الدين تابع عبد الرحمان الحملات على امراء النصرانية الذين كانوا لا يزالون يسعون لاسترجاع المناطق الجنوبية التي كانت لآبائهم . واستمرت حملاته حتى سنة ٩٣٩ حين نازله راميرو الثاني ملك ليون وطوطه (٣) ارملة شانجة الكبير القائمة بامور الملك في نافار فغلباه عند الخندق (٤) جنوبي سلامنكا وهي اول مرة في مدة سبع وعشرين سنة لاقى الناصر فيها فشلا في حروبه . وقد فني جيشه الكبير واضطر الى الفرار ولم ينج من الموت الا بحيلة . ووفدت طوطه هذه بعد ذلك على بلاط الناصر ومعها ابنها البدين ملك ليون سابقاً ملقية بنفسها تطلب عقد السلم لها وراجية استشارة الاطباء في امر شانجة والاعانة الحربية له لكي يستعيد عرشه (٥) . واحتفل الناصر بلقيا الضيوف الملكيين فشاهدت العاصمة الاسلامية افراد الاسرة المالكة النصرانية يطرقون باب الخليفة ملتمسين

---

١) ج ٢ ص ٢٠٠ .

٢) العقد ج ٢ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ؛ ابن عذاري ج ٢ ص ١٦٢ ، ٢١١ – ٢١٢ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ وقد نقله المقري ج ١ ص ٢٢٧ .

٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ – ٣ .

٤) مقري ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ وقد نقله المقري ج ١ ص ٢٣٥ .

مساعدته وهو في مجده امير عظيم الشأن قد اصبحت اوامره شرائع مرعيةمن مصب نهرالابرو الى المحيط الاطلسي ومن سفح جبال البرنـه الى جبل طارق . ثم ان طبيب البلاط اليهودي حسداي ابن شبروط الشهير بمقدرته الطبية والسياسية استطاع ان يشفي شانجة من البدانـة الزائدة التي كانت قد افقدته التاج وساعده الخليفة على استرجاع سلطانه فردّ عليه ملكه سنة ٩٦٠ .

الزهراء

وكان بلاط الخليفة في ذلك الوقت من افخم ما عرفته اوربا فقد وفدت اليه رسل امبراطور بيزنطة وملوك المانيا وايطاليا وفرنسا (١) . و بلغت قرطبة العاصمة اوج مجدها فكان سكانهـا نصف مليون وكان فيها سبعمئة مسجد (٢) وثلاثمئة حمام لا يسبقها رقياً الا بغداد والقسطنطينية. وكان في قصر الخليفة في قرطبة اربعمئة غرفة ومقصورة يسكنها الوف العبيد والحرس وهو قائم في الشمال الغربي من المدينـة على احـدى هضاب جبلهـا (سيرا مورنا) المشرف على الوادي الكبير . وكان عبد الرحمان قد شرع في بنائه سنة ٩٣٦ . وكان ينفق على بنائـه فيما تقول الاساطير من مال خلفته احدى الجواري . وكان اول ما قصد ان يصنعه بهذا المال هو افتداء الاسرى من ايدي النصارى ولما لم يجد منهم احداً اخذ باشارة جارية ثانية اسمها الزهراء وابتنى هذا الصرح وسماه باسمها . وجاء بالرخام من نوميديا وقرطجنة واما السواري والاحواض المزدانة بالتماثيل المذهبة فمن الهدايا القادمة من القسطنطينية. واشتغل في بناء الزهراء عشرة آلاف صانع والف وخمسمئة دابة مدة عشر سنين (٣) . ثم قام بعد الناصر اثنان من خلفائه عنيا بالزهراء فوسعاها وحسناها بحيث اصبحت نواة لضاحية ملكية لا تزال آ ثارها ماثلة للعيان وقد اجريت فيها الحفريات سنة ١٩١٠ .

وفي الزهراء أحـاط الخليفـة نفسه بحرس من الصقالبـة عدده ثلاثـة آلاف وسبعمئة

---

١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٢٩ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ــ ٣ ؛ المقري ج ١ ص ٢٢٧ .
٢) ثلاثة آلاف في ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٧ . قابل المقري ج ١ ص ٣٥٥ .
٣) ابن عـذاري ج ٢ ص ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ــ ٨ ؛ ابن حوقل ص ٧٧ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛ المقري ج ١ ص ٣٤٤ ــ ٧ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ١٣ :.

وخمسون (١) قام على رأس جيش نظامي بلغ مئة الف (٢) . وكان الصقالبة في اول الامر أسرى من قبائل السلاف قبض عليهم الالمان وسواهم فباعوهم من العرب ثم اطلق هذا الاسم على جميع الاسرى الاجانب سواء اكانوا من الافرنج ام الجليقيين او اللامبارديين ومن حا كاهم من الذين كانوا يؤسرون احداثاً ثم يستعربون . وبمعاونة هؤلاء المماليك باسبانية استطاع الخليفة ان يستأصل دابر قطاع الطرق والخونة في البلاد بل ان يقضي على الارستقراطية العربية القديمة . ومن هنا فقد زهت سوق التجارة والزراعة وتوافرت مصادر الدخل من اموال الدولة . وقد بلغ دخل خزانة الخليفة ما يقارب ستة ملايين ومئتين وخمسة وار بعين الف دينار فكان ثلث هذا المال يكفي لسد نفقات الجيش وثلثه للمشاريع العامة والثلث الاخير يذخر في الخزينة احتياطاً(٣) . ولم تعرف قرطبة من قبل زمناً بلغ فيه غناها هذه القمة ولم تكن الاندلس قط على مثل هذه الثروة ولا الدولة على مثل هذا الظفر وقد تم ذلك كله على يد رجل فرد مات مرتوياً من الايام وقد عاش ثلاثاً وسبعين سنة . وعلى هذا فقد ذكر انه كان يقول في اواخر حياته انه لم تصف له الدنيا الا اربعة عشر يوماً (٤) .

---

١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٧ .
٢) المسعودي ج ٣ ص ٧٤ ، ٧٨ . كان المسعودي مؤلفاً معاصراً لهذه الحوادث وان يكن بعيداً عن مسرحها .
٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٧ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٣ . قابل ابن حوقل ص ٧٧ .
٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٨ .

الفصل الثامن والثلاثون

المنشآت السياسية والاقتصادية والعلمية

بلغت السلطة الاسلامية في الغرب في عهد عبد الرحمان الثالث وخلفه الحكم الثاني (٩٦١ ـ ٧٦) وديكتاتورية الحاجب المنصور (٩٧٧ ـ ١٠٠٢) اوج مجدها . فلا قبل ولا بعد تسنى لبلاد الأندلس الاسلامية ما تسنى لها حينذاك من التأثير السياسي في شؤون اوربا وافريقية .

قرطبة

في هذه الحقبة تسنمت العاصمة الاموية مركزاً سامياً جعلها اعظم مدن اوربا ثقافة فكانت هي والقسطنطينية و بغداد المراكز الثلاثة للثقافة العالمية . واعتزت قرطبة بما حوته من مظاهر الثقافة فقد كان فيها مئة وثلاث عشرة داراً (١) وواحد وعشرون ربضاً (٢) وسبعون خزانة كتب وحوانيت شتى تباع فيها الكتب ، ومساجد وقصور اكسبتها شهرة في الخافقين فاخذت من الرواد واهل الاسفار بمجامع القلوب . وزهت بشوارع تمتد بضعة اميال مضاءة بقناديل تطل عليها من المنازل المحاذية (٣) بينما « لم يتحقق للندن أن يكون فيها قنديل واحد عمومي حتى ما بعد ذلك بسبع مئة سنة » و « واما في باريس بعد بضعة قرون فقد كان الذي يتخطى عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن الخوض في لجة من الوحل » (٤) . و بينما كانت جامعة اكسفورد تحسب الاستحمام عادة وثنية كان علماء قرطبة قد مر عليهم زمن طويل وهم ينعمون بحمامات شيقة. ولعل نظر العرب الى النورديين الهمج يمثله قول صاعد ابن احمد (٥)

---

١) ابن عذاري ج٢ص ٢٤٧ . وقابل المقري ج١ س ٣٠٦ .

٢) المقري ج١ ص٢٩٩، ٣٠٤ . وقابل ابن عذاري ج٢ ص٢٤٧ـ ٨ .

٣) المقري ج١ ص٢٩٨ . وكانت تعلق هذه القناديل اما في زوايا المنازل او فوق ابوابها .

٤) John W. Draper, *A History of the Intellectual Development of Europe*, rev. ed. (London, 1910), vol. ii, p. 31.

٥) طبقات الامم ص ٨ـ ٩ .

(المتوفى ١٠٧٠) القاضي الطليطلي : « فافراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برّد هواءهم وكثف جوّهم فصارت كذلك امزجتهم باردة واخلاقهم فجة فعظمت ابدانهم وابيضت الوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة » . وكان كلما احتاج امراء ليون اونافار او برشلونة جراحاً او مهندساً او مغنياً او خياطة وجهوا طلبهم لقرطبة فسار صيت العاصمة الاسلامية حتى اقاصي المانيا حيث وصفت راهبة سكسونية قرطبة بانها « جوهرة العالم » (١) .

النظم الحكومية

لم يختلف تنظيم الحكومة في خلافة الغرب اختلافاً وضعياً عنه في الشرق . فالامامة وراثية ولو ان القواد والخاصة كثيراً ما كانوا يبايعون من ارادوه . واذا وجد حاجب فمركزه فوق مركز الوزراء ، وكان الوزراء في مثل تلك الحالة يتصلون بالخليفة بواسطته . ويلي الوزراء مرتبة الكتاب ويتألف الديوان منهم ومن الوزراء . وكانت هناك امصار ستة غير قرطبة يلي كلاً منها أمير ذو صفةمدنية وحربية يسمى الوالي. ويسمى حكام المدن الكبرى ولاة ايضاً . أما زمام العدل فبيد الخليفة يفوض به القضاة وعلى رأسهم قاضي القضاة المقيم بقرطبة . ويناط النظر في الدعاوي الجنائية وحفظ الامن بصاحب الشرطة وهو قاض ذو صلاحية خاصة . ولصاحب المظالم نظر خاص في الشكاوي المقامة على اهل المناصب . وتشمل العقوبات الغرامات والجلد والحبس وقطع احد الاعضاء . اما جزاء الزندقه والارتداد او شتم شيء من شعائر الدين فالموت . وكان من رجال العدل أيضاً المحتسب الذي كانت تسند اليه الرقابة على البيع والشراء والأسواق وتعهد المعايير والاقيسة والاشراف على مشاكل الميسر والمحافظة على الاخلاق ومقاومة الخلاعة في الملبس فضلاً عن ادارة الشرطة نفسها (٢) .

(١ Hrotsvitha in *Scriptores rerum Germanicarum*; *Hrotsvithae opera*, ed. Paulus de Winterfeld (Berlin, 1902), p.52.

٢) انظر المقري ج١ ص١٣٣-٥ ؛ السقطي ، في ادب الحسبة . نشر كولن ولفي بروفنسال (باريس ، ١٩٣١) ص ٣ وما يلي ؛ Lévi—Provençal, *L'Espagne musulmane X^ième siècle* (Paris, 1932), pp. 79—96.

الصناعة

وكان معظم دخل الدولة مستمداً من الضريبة الموضوعة على الواردات والصادرات. وكانت اسبانية في عهد الخلافة من اكثر بلدان اوربا ثروة واشدها ازدحاماً بالسكان. وقد ازدهت العاصمة بنحو ثلاثة عشر الف حائك و بصناعة راقية للجلود. ومن اسبانية جرت صناعة صبغ الجلود ونقشها بالنقوش الناتئة الى مراكش وانتقلت الصناعة من هذين القطرين الى فرنسا وانكلترا كما تدلنا لفظتا كوردونيه (قرطبي = صانع الاحذية) ومركو (مراكشي = ضرب من الجلد). اما الصوف والحرير فقد كانت تحاك منهما الانسجة ليس في قرطبة فحسب بل في مالقة والمرية وسواهما من العواصم (١). وكان أهل الصين قد احتكروا صناعة الحرير الى أن ادخلها المسلمون الى اسبانية حيث زهت. وكانت المرية تصدر الآنية الزجاجية والنحاسية وكان موطن صناعة الخزف في باترنا من اعمال بلنسية. واشتهرت جيان والغرب بمعادن الذهب والفضة كما اشتهرت قرطبة بمعادن الحديد والرصاص (٢) ومالقة بالياقوت. وكانت طليطلة كدمشق معروفة في آفاق المعمورة بسيوفها (٣). اما فن ترصيع الفولاذ وسواه من المعادن بالذهب والفضة وتزويقها بالصور على شكل الزهر – وهو فن جيء به من دمشق – فقد زها في بضعة مراكز اسبانية واوربية وترك أثراً في اللغة تدل عليه الفاظ (*damascene*) و (*damaskeen*) في الانكليزية و (*damasquiner*) الافرنسية و (*damaschino*) الايطالية.

الزراعة

ولقد ادخل العرب الى الاندلس الاساليب الزراعية المتعارفة في آسية الغربية. فاحتفروا الترع (٤) وزرعوا مختلف الانواع من شجر الكرم وجاءوا بنباتات متنوعة وغروس اشجار

---

١) المقري ج١ ص١٠٢، ١٢٣–٤.

٢) ابن الخطيب الاحاطة في اخبار غرناطة (القاهرة، ١٣١٩) ج١ ص١٥؛ وله ايضاً اللمحة البدرية في الدولة النصرية (القاهرة، ١٣٤٧) ص ١٣.

٣) لزيادة الايضاح بشأن الصناعة والمعادن راجع ابن حوقل ص ٧٨–٩؛ الاصطخري ص ٤٢؛ المقري ج١ ص ٩٠–٩٢، ١٢٣.

٤) اللفظة الاسبانية للترعة او القناة هي « *acequia* » من لفظة «الساقية» العربية.

مثمرة منها الارز (١) والبرقوق (٢) و (المشمش) والفرسك (٣) (الدراق) والرمان (٤) والبرتقال (٥) وقصب السكر (٦) والقطن (٧) والزعفران (٨) وكانت سهول الجنوب الشرقي من شبه جزيرة ايبريـه قد خصتها الطبيعة بمناخ وتربة صالحين للزراعة فنشأت فيها مراكز هامة لها في المدن والارياف. وقد نمت فيها انواع الحبوب وكذلك الزيتون وانواع الفواكه (٩) بمهدة الفلاحين الذين قاموا على جني الارض مقابل حصص يتقاضونها من الملاكين .

ويعد هذا الرقي الزراعي من مفاخر الاندلس الاسلامية . ومن مآثر العرب الخالدة في البلاد الحدائق التي لا تزال لاسبانية شهرة بها الى اليوم. ومن اشهر الحدائق «جنة العريف» وهي من آثار الدولة النصرية في اواخر القرن الثالث عشر وقد كانت ملحقة بـدار فخمة واقعة في اطراف الحمراء . وقد قالوا في هذه الجنة انها « المثل المضروب في الظل الممدود والماء المسكوب والنسيم البليل » (١٠) . وقد ترتبت اقسامها ركائب فظهرت كأنها مدرج (امفثياتر) بديع التنسيق ترويها مياه الجداول بعد ان تتساقط في عدة شلالات ثم تتوارى وراء كثبان الزهور والادغال والاشجار . وهي اليوم عبارة عن مجموعة باذخة من السرو والآس .

التجارة

وفاضت حواصل الاندلس الصناعية والزراعية عن حاجة البلاد فكانت اشبيلية وهي أهم

---

١) منها لفظة «*arroz*» الاسبانية والاصل سنسكريتي .
٢) انظر ص ٤٣٠ من ج ٢ من هذا الكتاب .
٣) منها لفظة «*albérchigo*» الاسبانية وهو نوع من الخوخ او الدراق .
٤) منها لفظة «*romania*» الاسبانية وهي تطلق على شراب يستحضر من الرمان .
٥) ادخل العرب الى اسبانية البرتقال المر (الاترج) المعروف بالاشبيلي . اما البرتقال العادي فقد ادخله اليها البرتغاليون من الهند فيما بعد .
٦) انظر الفصل السادس والاربعين من هذا الكتاب تحت باب الزراعة والصناعة .
٧) منها لفظة «*algodon*» الاسبانية و «*coton*» الاسبانية القديمة .
٨) منها لفظة «*azafran*» الاسبانية و «*açafrao*» البرتغالية .
٩) ابن الخطيب ، الاحاطة ج ١ ص ١٤ ــ ١٥ ، ٢٧ ، ٣٧ ؛ اللمحة ص ١٣ ؛ المقري ج ١ ص ٩٤ ــ ٦٦ ؛ ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٦٦ ــ ٩ .
١٠) ابن الخطيب ، اللمحة ص ١٠٩ .

الفرض في الداخلية تصدر القطن والزيتون والزيت و يردها النسيج والرقيق من مصر والقيان من اوربا وآسية . وشملت صادرات مالقة وجيان الزعفران والتين والرخام والسكر . وسارت حواصل اسبانية بطريق الاسكندرية والقسطنطينية فبلغت اسواقاً انفتحت لها في الهند واواسط آسية . واتسع نطاق التجارة بين الاندلس ودمشق و بغداد ومكة بوجه خاص . وفي الألفاظ التي تعبر بها لغات اوربا الحديثة عن الصناعة البحرية ما يشير الى سيادة العرب الماضية في البحار . فمنها اميرال وارسنال واڤراج وكابل وكورڤت وشلوب وتريف (١) . ومن الاخبار التي تنعكس عن الحركة البحرية الناشطة في المحيط الاطلسي (بحر الظلمات) قصة اوردها الادريسي عن ثمانية « ابناء عم مغرورين » بارحوا لشبونة في رحلة اكتشاف فوصلوا الى بحر غليظ الموج فجروا معه خمسة وثلاثين يوماً في ناحية الغرب والجنوب فلاحت لهم جزر غريبة نزلوا فيها (٢) .

وتولت الحكومة تنظيم البريد اما النقود فاتبعت فيها النماذج الشرقية فكان الدينار اساس التعامل في الذهب وكان الدرهم الاساس في الفضة (٣) اما الفلس (٤) فقد كان رائجاً ايضاً وهو من نحاس وكان معروفاً في صدر الاسلام . ودرجت المسكوكات العربية في ممالك النصارى شمالا وظلت هذه البلدان مدة اربعمئة سنة لا تعرف من المسكوكات الا العربية والفرنسية .

الخليفة في مجده

وظلت هالة المجد التي طوقت بلاط عبد الرحمان متألقة يشع نورها في عهد ابنه وخلفه الحكم الثاني المستنصر (٩٦١ - ٧٦) وقد اعتبره المسعودي (٥) احكم الناس سيرة.

---

١) *Admiral, arsenal, average, cable, corvette, shallop (Sloop), & tariff.* من « امير البحر » و « دار الصناعة » و « العوارية » (الضريبة الموضوعة على البضائع) و « الحبل » و « غراب » (سفينة حربية) و « جلبة » (قارب) و « تعريفة » .
٢) لعلها جزائر كناري وجزائر راس فردي .
٣) ابن الخطيب، الاحاطة ج١ ص٣٧ .
٤) من « *phollis* » اليونانية ، وهي لاتينية الاصل .
٥) ج ١ ص ٣٦٣ .

وفي اول عهد الحكم هذا وصل العاصمة الاسلامية « الطاغية » اردون يرجو استعادة عرش ليون الذي اضاعه بسبب تدخل عبد الرحمان وقد وفد معه الى الزهراء وليد ابن خيزران قاضي قرطبة النصراني وعبد الله ابن قاسم (١) جاثليق طليطلة يدربانه على اصول الآداب المرعية في البلاط الاسلامي . فتقدم اردون مرتدياً ألبسة بيضاء وعلى رأسه غطاء مزدان بالجواهر فدخل يتبعه النبلاء وسار بين صفوف الجند والعرب الواقفين الى جانب السدة الملكية . وكأن الموكب النصراني ارتعش لجلالة المقام فبادر من فيه الى رسم علامة الصليب على محياهم لما استولى عليهم من هيبة الحضرة السلطانية . وقد جلس الخليفة في ردهة الاستقبال على اريكة يحف به افراد اسرته والقواد الى اليمين والى اليسار وخلفه . وبلغ العاهل النصراني الديوان العالي فانحنى بوقار ثم مشى مكشوف الرأس فاكب على يد أمير المؤمنين يقبلها وطفق يخاطب الخليفة كمولاه ويشير الى نفسه كعبد له ثم طلب منه المعونة متضرعاً . وتراجع ناقلاً خطواته الى الوراء حتى اجتاز الباب . وهكذا فعل النبلاء في معيته . ووعد الخليفة اردون بالنصرة على شروط اقترحها . الا ان هذه الزيارة لم تأت بثمرة (٢) .

الحركة العلمية

على أن اهم مآثر هذه الحقبة لم تكن في حلبة السياسة بل في ميدان الثقافة ، فقد كان الحكم عالماً محباً للعلم والعلماء (٣) فجمعهم من الاقطار وأجرى عليهم المرتبات وابتنى سبعاً وعشرين مدرسة يتعلم فيها احداث العاصمة مجاناً (٤) . وفي عهده ازدهرت جامعة قرطبة التي اسسها عبد الرحمان الثالث في الجامع الكبير فاصبحت في عداد معاهد العلم الراقية في العالم العربي وبزّت الازهر في القاهرة والنظامية في بغداد وقصدها الطلاب من نصارى ومسلمين لا من اسبانية فحسب بل من بلدان اوربية اخرى ايضاً ومن افريقية وآسية . ووسع الحكم نطاق المسجد الجامع الذي عقدت حلقات التدريس الجامعي فيه واجرى اليه الماء في قناة من

---

١) لاحظ اقتباس الاسماء الاسلامية من قبل هذين الرجلين المسيحيين .
٢) ابن عذاري ج٢ ص٢٥١ ؛ ابن خلدون ج٤ ص١٤٥ ؛ المقري ج١ ص٢٤٨،٢٥٢-٦ .
٣) ابن الاثير ج٨ ص٤٩٨ ؛ ابن الخطيب، الاحاطة ج١ ص٣٠٥ .
٤) ابن عذاري ج٢ ص٢٥٦ .

حجر متقنة البناء اودع جوفها انابيب الرصاص و زين المسجد بالفسيفساء التي كان بعث بها ملك الروم هدية مع صناع مهرة فبلغت النفقة فيه مئتين وواحداً وستين الفاً وخمسمئة وسبعة وثلاثين ديناراً ودرهماً ونصف الدرهم (١) . ثم استدعى الى الجامعة اساتذة من المشرق وقف اموالا لمرتباتهم . ومن اساتذتها المؤرخ ابن القوطية الذي درس النحو ، والفقيه البغدادي الشهير ابو علي القالي (٢) صاحب « الامالي » (٣) وهو الكتاب الذي لا يزال متداولا في بعض ربوع العالم العربي الى اليوم. ومن الحوادث المذكورة في سيرة القالي قيامه مرة يرتجل خطبة الاستقبال في الحفلة التي اقامها الخليفة الناصر لرسل ملك الروم. قالوا فما ان تلا البسملة والصلاة على محمد حتى اخفق في يده لشدة الفزع وارتج عليه فلم يستطع اكمال الكلام فناب عنه للحال منذر ابن سعيد وارتجل خطبة بديعة من النثر المسجوع ذكرها المقري (٤) في صفحتين ونصف من كتابه .

وقد ضمت العاصمة عدا الجامعة مكتبة كبيرة واسعة . وكان الحكم محباً للكتب جمّاعة لها فسير عملاءه الى الامصار يجولون بين مكاتب الاسكندرية ودمشق و بغداد قصد ابتياع المخطوطات او نسخها فبلغ عدد ما جمع في هذه المكتبة من الكتب اربعمئة الف حتى كان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربعة واربعين فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة ليس فيها الا اسماء الدواوين الشعرية (٥) . واستوعب الحكم ـ ولعله اعظم عالم بين خلفاء الاسلام قاطبة ـ كثيراً من هذه الكتب وكتب في حواشيها ملاحظات زادتها قيمة فيما بعد لدى العلماء الذين توارثوها . وارسل في كتاب الاغاني الى مصنفه ابي الفرج الاصبهاني الاموي الاصل الف دينار (٦) فبعث اليه بنسخة من الكتاب قبل ان يخرجه بالعراق . وقد بلغت

---

١) ابن عذاري ج٢ ص ٢٥٣، ٢٥٦ـ٧ .
٢) ابن خلكان ج١ ص ١٣٠ـ٣١ ؛ ياقوت، ادباء ج٢ ص ٣٥١ـ٤ ؛ السمعاني ورقة ٤٣٩ ب .
٣) في مجلدين (بولاق، ١٣٢٤) .
٤) ج١ ص ٢٣٧ـ٤٠ .
٥) المقري ج١ ص ٢٤٩ـ٥٠ ، ٢٥٦ ؛ ابن خلدون ج٤ ص ١٤٦ .
٦) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ . المقري ج١ ص ٢٥٠ ؛

درجة الثقافة في الاندلس مستوىً عالياً في ذلك الزمن حدا بالعالم الهولندي الكبير دوزي (١) الى القول : « ان كل فرد تقريباً كان يحسن القراءة والكتابة » وقد جاراه فيما ذهب اليه علماء آخرون . هذا بينما كانت اوربا النصرانية لا تعرف من العلوم الا مبادىء بسيطة مقصورة بالاكثر على رجال الدين .

الدكتاتورية العامرية

وخلف الحكم ابنه هشام الثاني المؤيد (٩٧٦ - ١٠٠٩) وله من العمر اثنتا عشرة سنة . وكانت امه صبح (٢) البشكنشية الجميلة غالبة على شؤون الدولة . وكان في رعايتها شاب تحبه اسمه محمد ابن ابي عامر . وكان هذا قد بدأ حياته في حالة وضيعة يتكسب من كتابة الرسائل وما زال يرقى حتى انتقل السلطان آخر الامر الى يده . وليست سيرته سوى مثل من الامثلة الكثيرة التي تثبت كيف تُيسر ابواب الفلاح في الدولة لذوي الطموح والكفاءآت . كان جدّ محمد الاول يمانياً من قبيلة معافر واحد الافراد العرب القلائل الذين كانوا في جيش طارق ايام الفتح الاولى . واجتهد محمد اول امره في خدمة صبح وملاطفتها والتودد اليها واظهار الولاء لها فمالت اليه وتكفلت بشأنه واخذت تساعده حتى تحدث الناس بشغفها به . ثم اخذ محمد يرتقي برعاية صبح الى المناصب العالية في البلاط ولصق بالحكم فصار في عداد كفاته وفاز على رؤسائه فاوقع بهم بالسياسة والدهاء آناً وبالقوة آناً آخر حتى جعله الحكم حاجباً ووزيراً (٣) . ولما استتب له الأمر نكب بالصقالبة حرس الخليفة واعتاض عنهم بمرتزقة مراكش الموالين واخيراً استبد بالملك في ايام هشام وأمر بالحجز على هذا الخليفة الحدث في قصره. ثم اعرض عن الزهراء وانشأ لنفسه سنة ٩٧٨ مقراً بظاهر قرطبة

---

١) *Histoire des Musulmans*, ed. Lévi - Provençal, vol. ii, p. 184 ; Nicholson, *Literary History*, p. 419; Rafael Altamira in *The Cambridge Medieval History*, (New york, 1922), vol. iii, p. 434 .

٢) ابن عذاري ج٢ ص٢٦٨ ؛ المقري ج١ ص٢٥٩ ؛ المراكشي ص١٩-١٧ .

٣) ابن عذاري ج٢ ص ٢٦٧-٩ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧-٨ ؛ ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٤-٥ ؛ ابن الخطيب ، الاحاطة ج ٢ ص ٦٧-٩ .

في بقعة لم يستطع المنقبون معرفتها حتى الآن وسمى ذلك المقرّ بالمدينة الزاهرة (١). واراد اكتساب مودة الفقهاء، فامر باحراق كتب الفلسفة في خزانة الحكم وسواها من الكتب التي استنكرها علماء الدين. اما الشعراء فاستمالهم اليه واجزل لهم العطاء. وامر بان يدعى له على المنابر وان يكتب اسمه على النقود وارتدى الملابس المطرزة بالذهب باسمه - وهي من امتيازات الملوك - واصبحت بعد سنة ٩٩٢ تنفذ الكتب عنه كما لو كان هو الخليفة (٢)، فيذكر اسمه في مطلعها هكذا: « من الحاجب المنصور ابي عامر محمد ابن ابي عامر الى فلان » (٣). واخذ الوزراء بتقبيل يده. ولكن امراً واحداً لم يقدم عليه الا وهو خلع الخليفة الاموي (الذي كان خليفة بالاسم) واعلان خلافة عامرية.

ولم يكن نجاح ابن ابي عامر في الامور الحربية اقل منه في المشاريع السلمية. فقد أصلح الجيش اولا وألغى نظمه القديمة التي كانت تقوم على اساس الوحدة القبلية واستعاض عنها بنظام الكتائب. وكان ما رآه من انتقال عاصمة الفاطميين شرقاً الى القاهرة وقد بنيت سنة ٩٦٩ ومن تناحر الدويلات النصرانية في الشمال عاملاً حفزه على تسيير جيوشه لاحتلال انحاء الساحل الشمالي الغربي من افريقية واقتحام مناطق الشمال من شبه جزيرة ايبريه. وقد ادت به انتصاراته الى ان اتخذ لنفسه في سنة ٩٨١ لقب «المنصور بدين الله». وهكذا كان الحاجب المنصور يخرج في ربيع كل سنة وخريفها الى مقاتلة النصارى في انحاء ليون وقشتالة وقطلونية. ومن مآثره الحربية في هذه النواحي فتحه سمّوره سنة ٩٨١ واحتلاله برشلونة في صائفة سنة ٩٨٥ وهي الثالثة عشرة من غزواته (٤). وفي سنة ٩٨٨ دمر مدينة ليون ودك اسوارها الجسيمة وابراجها الشامخة واستلحقها بملكه. وبلغت به فتوحاته مضايق جبال جليقية وخرب في سنة ٩٩٧ كنيسة فخمة تسمى كنيسة شنت ياقوب (٥) كانت مزاراً يحج اليها الناس

١) ابن عذاري ج٢ ص ٢٩٤-٧.
٢) المقري ج ١ ص٢٥٨.
٣) ابن عذاري ج٢ ص٢٩٩-٣٠٠.
٤) ابن الخطيب، الاحاطة ج٢ ص٧١؛ ويزعم البعض انها الغزوة الثالثة والعشرون.
٥) *Santiago de Compostela* في الاسبانية. ابن عذاري ج ٢ ص ٣١٦ - ١٩؛ المقري ج ١ ص ٢٧٠-٧٢؛ الادريسي ص ١٠٤. ويعتبر النصارى هذه الكنيسة مرقد الرسول يعقوب ابن زبدي الذي جعله التقليد مدخل النصرانية الى اسبانية. وقد احجم المنصور عن هدم القبر.

من انحاء اوربا النصرانية وعاد بعد هذه الاعمال الحربية والانتصارات الى قرطبة ومعه رهط من الاسرى النصارى حاملين ابواب الكنائس على اكتافهم فاستعملها في ترميم الجامع الكبير بالعاصمة واستخدمهم في العمل . وجعل المسلمون اجراس الكنائس مشاعل ينيرون بها منازلهم ولم يعرف عهد في تاريخ الاندلس ـ اذا استثنينا عهد عبد الرحمن الثالث ـ تألق فيه نجم الاسلام كما تألق في هذا العصر .

وكان المنصور يتمنى الا يموت الا في ميدان الحرب فتحققت امنيته سنة ١٠٠٢ عند منصرفه من بعض غزواته في قشتالة وكانت الغزوة الخمسين من غزواته (١) وقد دفن معه عملاً بوصيته وعاء كبير كان قد جمع فيه غبار ثيابه في حملاته العديدة (٢) . ونقش على قبره في مدينة سالم هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره   حتى كأنك بالعيون تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله   ابداً ولا يحمي الثغور سواه (٣)

أما المؤرخ الراهب الذي دون هذه الحادثة فقد علق عليها بايجاز معبراً عن شعور نصارى اسبانية تجاهها فكتب « في سنة ١٠٠٢ مات المنصور فدفن في جهنم » (٤) .

انحلال السلطة الأموية

وغدت الاندلس في السنين الثماني التالية لوفاة الدكتاتور العامري ساحة حرب تقاتل فيها البربر والعرب والصقالبة والاسبان ومثل الحرس الملكي دوراً يشبه الدور الذي مثله الحرس الامبراطوري في رومة القديمة وفي بغداد حين اخذ مجدها يتداعى . وكان المنصور قد عين ابنه عبد الملك المظفر خلفاً له فجعل الولاية وراثية وقد توفق المظفر في صون وحدة المملكة

---

١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ يجعل غزواته اثنتين وخمسين . وقد نقل عنه المقري ج ١ ص ٢٥٨ وجعلها ستاً وخمسين وقابل المقرى ايضاً ج ١ ص ٢٦١ ؛ ابن الخطيب ، احاطة ج ٢ ص ٦٩ ؛ ابن الاثير ج ٨ ص ٩٨ ؛ ابن الأبار ، الحلة ص ١٤٩ .

٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ج ٢ ص ٧١ ؛ ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٥ ؛ المراكشي ص ٢٦ .

٣) ابن الخطيب ، الاحاطة ج ٢ ص ٧٣ ؛ ابن الأبار ، الحلة ص ١٥١ .

٤) *Espana sagrade*, vol. xxiii, p. 308 .

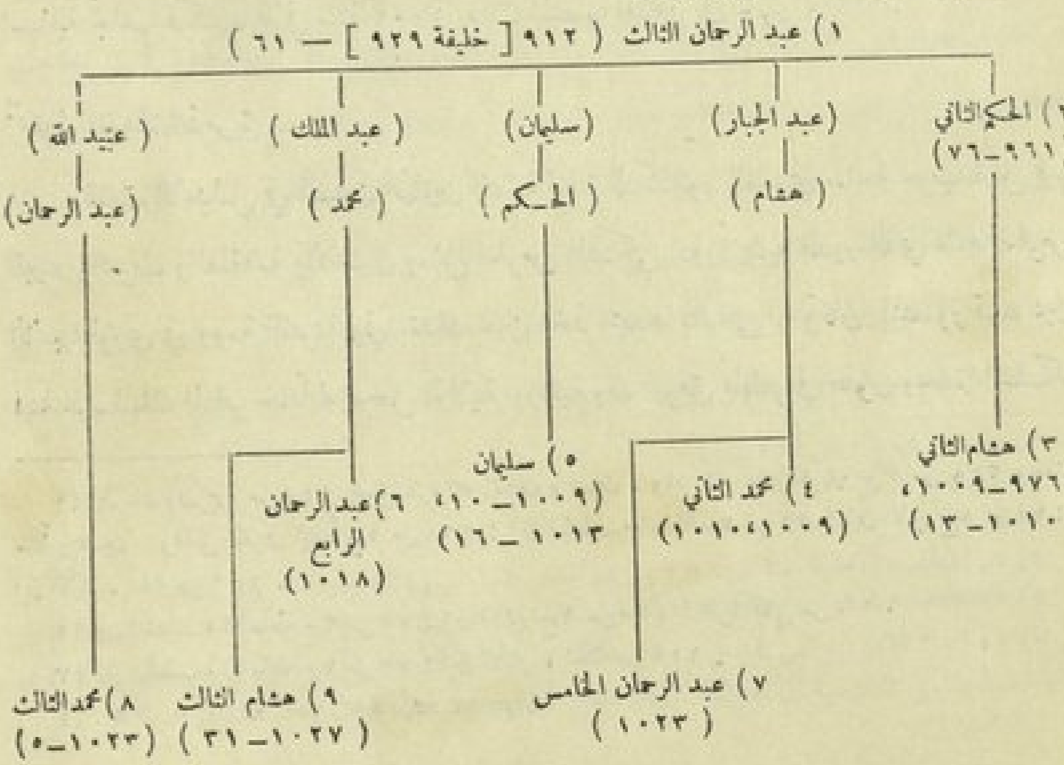
وحفظ هيبتها مدة ست سنين (١) ثم مات عام ١٠٠٨ من سم دسه له اخوه عبد الرحمان في الشراب . وخلفه عبد الرحمان هذا (وكان يلقب بشنجول اي شانجة الصغير لان أمّه كانت ابنة شانجة ملك نافار) واعلن نفسه صاحب الحق في الخلافة والوارث لها فنقم عليه الناس وأثاروا عليه فتنة أدت الى مقتله (٢). ومرت احدى وعشرون سنة بعد هذا يُبايع فيها الخليفة ثم يُخلع والخلفاء العوبة في يد أهل قرطبة او يد الصقالبة او يد البربر حتى اهل قشتالة (كاستيل) فانهم قد ساهموا في خلع احد الخلفاء والمبايعة لغيره (٣) . ولم تكن السلطة الحقيقية في هذه الحقبة الا بايدي الجند الى ان اخرج هشام الثاني السيء الحظ من قصره الذي حجز عليه فيه طيلة ثلاثين سنة ولكن هشاماً لم يبد شيئاً من المقدرة بل كان اشبه بالطفل القاصر فحمل على التنازل لابن عمه محمد الثاني المهدي (٤) . ولم يتميز المهدي بشيء سوى تمكنه في الاشهر

١) ابن عذارى نشر لفي بروفنسال ج ٣ (باريس ، ١٩٣٠) ص ٣ ـ ٤ ، ٣٦ ـ ٧ ؛ المقري ج ١ ص ٢٧٦ ـ ٧

٢) ابن عذارى ج ٣ ؛ ـ ٨ ، ٦٦ ـ ٧٤ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ـ ٥٠ ؛ ابن الاثير ج ٨ ص ٤٩٩ ؛

٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ـ ٥١ ؛ ابن الأبار ص ١٥٩ ـ ٦٠ .

٤) شجرة نسب الخلفاء الامويين بقرطبة :



القليلة التي جلس على العرش فيها من هدم المدينة الزاهرة العامرية (١). وقطع رؤوس خصومه من زعماء الثغور الشمالية الذين ابوا الاعتراف بخلافته وجعل هذه الرؤوس احواضاً للزهور نصبت على ضفتي النهر ازاء قصره. وقد عرف ايضاً بصنعه النبيذ في قصره ولقب بالنباذ (٢) وتميزت هذه الحقبة في انه عرف فيها ثلاثة من الخلفاء الامويين التسعة ولوا الخلافة غير مرة وقد بويع لاحدهم هشام الثاني مرتين وخلع مرتين ثم اختفى اختفاء غريباً لا يزال سراً غامضاً. وقام من بعده رجل يشبهه ادعى انه هو فتسنم الملك في اشبيلية. وكان منهم خليفة مسكين هو عبد الرحمان الخامس المستظهر وكان افضلهم وكان وزيره ابن حزم العالم المشهور وقد ثار على عبد الرحمان الناس وطلب فهرب واختبأ في أتون الحمام فأخرج منه وهو في قميص مسود بحال قبيحة فجيء به الى محمد الثالث المستكفي (٣) خلفه وضربت عنقه بين يديه. اما المستكفي نفسه الذي «كان همه لا يعدو فرجه وبطنه» (٤) فقد لاقى سوء المصير بعد ذلك بسنتين. طلب فعزم على الفرار في سنة ١٠٢٥ وخرج على وجهه لابساً ثياب النساء ومات مسموماً بيد بعض رجاله (٥). ومن بناته ولادة الشاعرة الذائعة الصيت.

وقبل حلول الاجل المحتوم بخلافة الامويين قاسمها الملك امارة غير الامارة العامرية تعرف بالدولة الحمودية انتحلت لنفسها امتيازات الخلافة. وقد اسس هذه الدولة علي ابن حمود (١٠١٦ - ١٨) وكان يرجع نسبه الى علي ابن ابي طالب مع انه كان نصف بربري. وقبل ان ينادي بنفسه خليفة بقرطبة كان قد ولي سبتة وطنجة. وكان قد فتح مالقة ايضاً ووليها احفاده الثمانية بعده من سنة ١٠٢٥ الى ١٠٥٧ (٦) وقد تلاه في الحكم بقرطبة اثنان من

١) النويري نشر رميرو ج ١ ص ٧٤.
٢) ابن الاثير ج٨ ص٥٠٠.
٣) ابن عذاري ج٣ ص١٣٨-٩؛ النويري ج ١ ص ٧٨؛ ابن الأبار ص١٦٤، ابن بسام، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة القسم الاول ج١ (القاهرة، ١٩٣٩) ص٣٩.
٤) ابن الاثير ج٩ ص١٩٤.
٥) ابن عذاري ج٣ ص١٤٢؛ ابن الاثير ج٩ ص١٩٤؛ المراكشي ص٤٠؛ النويري ج١ ص٨٤.
٦) المراكشي ص٣٠-٣٧؛ ابن عذاري ج٣ ص١١٣-١١٧، ١١٩-٢٥؛ المقري ج١ ص٢٨١-٢؛ ابن خلدون ج٤ ص١٥٢-٥؛ ابن الاثير ج٩ ص١٨٨ وما يلي، وهناك علاقة قربى بين آل حمود وادارسة مراكش.

ابناء حمود ادعوا الخلافة وتمتعوا بشيء ضئيل من السلطة بقرطبة حتى سنة ١٠٢٧ (١) .

وفي هذه السنة نفسها ظهر هشام الثالث المعتد (٢) فاستعاد العرش للأمويين ولكنه لم يقو على امتلاك ناصية الامور فعم الاضطراب . وسئم سكان قرطبة الفتن وأجمعوا على خلع الخليفة ودعوا الى ابطال الخلافة فنزل هشام الى الجامع المفضي الى المقصورة فيمن تألف اليه من ولده ونسائه طارحاً نفسه على الجماعة فأعلم بكره الناس له فقال : « ليتني بقرب البحر ترمون بي في لجته » و بقي بمكانه بقية يومه وليلته اسيراً ذليلاً يحتضن طفلة له ساتراً لها بكمه من قرّ ليلته وهي تشكو الجوع ذاهلة عما احاط بها . وبات الوزراء ودبروا على هشام الفراغ من شأنه والقاء الخلافة ابداً وتسليم الحكومة لمجلس الوزراء يتقدمهم ابو الحزم ابن جَهْوَر . وكان حين دخل عليه الشيوخ بهذا الخبر الذي تعين به بدء عصر جديد ان نظر اليهم وسألهم احضار كسرة خبز يسد بها جوع طفلته فابكى من كله اعتباراً بعادية الدهر (٣) .

---

١) ابن عذاري ج٣ ص١٢٤ـ٣٥ .

حمود

١) علي (١٠١٦ـ١٨)
٣) يحيى (١٠٢١، ١٠٢٥ـ٢٧)

٢) القاسم (١٠١٨ـ ٢١، ١٠٢٢ـ٥)

٢) كان ابن اربع وخمسين سنة حينذاك .

٣) ابن عذاري ج٣ ص١٥٠ـ٥٢ ؛ المقري ج١ ص٢٨٦ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٢ـ٣ ؛ ابن الاثير ج٩ ص١٩٨ـ٩ ؛ المراكشي ص٤١ .

الفصل التاسع والثلاثون

ملوك الطوائف : سقوط غرناطة

ونشأ على انقاض الخلافة الاموية ـ اتفاقاً كما يبدو ـ مجموعة من الدول الصغيرة كان همها التنازع فيما بينها . وبعد أن سقطت هذه الدويلات فريسة لدولتين بربريتين من مراكش اكتسحها كلها ـ الواحدة تلو الاخرى ـ تيار السطوة النصرانية في الشمال . وهكذا فقد شهد النصف الاول من القرن الحادي عشر لا أقل من عشرين دولة قامت في نحو عشرين مدينة او مقاطعة ساسها زعماء وامراء عرفوا في التاريخ عند العرب بـ « ملوك الطوائف » .

وقد تسلم الامر في قرطبة واعمالها بنو جهور فكانت لهم فيها حكومة شبيهة بالنظام الجمهوري الى ان اوقع بهم في سنة ١٠٦٨ بنو عباد اصحاب اشبيلية (١) . واصبحت الزعامة منذ ذلك العهد بين تلك الدويلات الصغيرة لأشبيلية التي ارتبط مصيرها دائماً بمصير قرطبة . وكانت غرناطة قصبة الحكم الزيري ـ نسبة الى ابن زيري (١٠١٢ ـ ١٩) وهو من البربر ـ الى ان خربها المرابطون المراكشيون سنة ١٠٩٠ . وغرناطة هي المدينة الاندلسية الوحيدة التي حكمها في ظل الاسلام امير يهودي هو الوزير اسماعيل ابن نغزالة (٢) (المتوفى ١٠٥٥) اما مالقة والمقاطعات المجاورة لها فقد وليها بنو حمود (٣) . الذين تسنم الثلاثة الاول منهم عرش قرطبة حتى سنة ١٠٥٧ كما مر معنا . ثم انتقلت مالقة الى ايدي بني زيري ووقعت أخيراً في حوزة المرابطين (٤) . وجلس على عرش طليطلة بنو ذي النون (١٠٣٢ ـ ٨٥) وهم اسرة بربرية عريقة كانت في اغلب الاحيان تثور عاصية على السلطات وظلت كذلك

---

١) المراكشي ص ٥٠ ـ ٥١ .

٢) صموئيل بن نجديله في العبرانية . ابن عذاري ج ٣ ص ٢٦١، ٢٦٦ .

٣) كان الجغرافي الشهير الشريف الادريسي حفيد ادريس الثاني (١٠٤٢ ـ ٦ ، ١٠٥٣ ـ ٤) الذي حكم قبل آخر أمير منهم .

٤) ابن عذاري ج ٣ ص ٢٦٢ ـ ٦ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ ـ ٦١ .

حتى قضى عليها الفونسو السادس ملك ليون وكاستيل (١) . وتمتع بنو هود بالحكم في سرقسطة من سنة ١٠٣٩ الى ان تغلب عليهم النصارى سنة ١١٤١ (٢) . اما اقوى ملوك الطوائف على الاطلاق فبنو عباد الذين اشرنا اليهم وهم اسرة مثقفة وليت اشبيلية (٣) . وكان لها شأن عظيم .

بنو عباد اصحاب أشبيلية

ارجع بنو عباد (١٠٢٣ - ٩١) نسبهم الى ملوك الحيرة اللخميين القدماء . اما جدهم الاندلسي فكان قد نزل اسبانية في أهل حمص من جيش سورية وذلك بعد الفتح بأمد يسير (٤) . وبرزت هذه الدولة الى الوجود بمساعي قاض داهية من هذه العائلة في اشبيلية استعان برجل شديد الشبه بهشام الثاني الخليفة المفقود (٥) . وفي سنة ١٠٤٢ مات القاضي فخلفه ابنه عباد حاجباً للخليفة المزعوم المدعي انه هشام ابن الحكم آخر خلفاء بني امية الاندلسيين . ثم ما لبث ابن عباد أن اعلن للملأ حكمه وانتحل لنفسه لقباً فخرياً - المعتضد - (٦) . وقضي بذلك على الحكومة الموقتة التي كان ابوه قد اختلقها فكانت مهزلة من المهازل .

المعتمد

كان المعتضد شاعراً وكان من نصراء الأدب وقد جعل للشعراء يوماً يفدون به عليه فيطارحهم الشعر ويستمع اليهم ويسبق بينهم جوائز ويجيز السابق وقد أثر عنه مقطوعات من الشعر فيها طلاوة وجمال وكان فوق ذلك كلفاً بالنساء فاستوسع في اتخاذهن بحيث ذكر انه

١) المقري ج ١ ص ٢٨٨ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ؛ ابن عذاري ج ٣ ص ٢٧٦-٨٥ ؛ ابن الاثير ج ٩ ص ٢٠٣ .

٢) ابن عذاري ج٣ ص٢٢١-٩ ؛ ابن خلدون ج٤ ص١٦٣-٤ ؛ ابن الاثير ج٩ ص٢٠٤ .

٣) راجع اسماء الامراء في هذه الدويلات وتاريخ قيامهم في Lane - Poole, *Dynasties*, pp. 23 - 6, de Zambaur, pp. 53 - 7; Dozy, *Musulmans*, ed. Levi - Provençal, vol. iii, pp. 236-41.

٤) كثيراً ما اشير الى اشبيلية باسم حمص ؛ ابن جبير ص ٢٥٨-٩ .

٥) ابن خلدون ج٤ ص١٥٦ ؛ ابن الاثير ج٩ ص٢٠١-٢ ؛ ابن الخطيب ، الاحاطة ج٢ ص٧٣ .

٦) اسوة بالخليفة العباسي ؛ المقري ج١ ص١٣٢ .

كان في حريمه نحو ثمانمئة امرأة . ولكن المعتمد بزّ أباه في مضمار الأدب فقد جعل بلاطه ملقى الرحال وموسم الشعراء بحيث لم يجتمع بباب احد من ملوك عصره من اعيان الشعراء والادباء مثل ما كان يجتمع ببابه (١) . ومن هنا قالوا فيه انه كان اندى ملوك الطوائف راحة وارحبهم ساحة (٢) . ولم يكد يستتب له الأمر حتى انبرى لمنافسيه بني جهور في قرطبة فازال سلطتهم عنها واستلحقها بمملكته . على انه شأن الكثيرين من معاصريه الزعماء كان تابعاً لبعض ملوك النصارى فقد اضطر الى مصالحة غارسية ملك جليقية وتأدية الضريبة له وكذلك كان موقفه مع الفونس السادس خلف غارسية (٣) .

لقد كان المعتمد كما ذكرنا اديباً وقد أوتي من سرعة الخاطر وقوة البداهة والاحساس الشعري ما جعله متميزاً عن غيره من الملوك والامراء في عصره ومن هنا فقد كثرت النوادر الواردة في الكتب العربية في وصف حفلات انسه وادبه والمجالس التي كان يغشاها متنكراً . وقد زعموا انه لم يستوزر وزيراً الا ان يكون اديباً شاعراً . وكان من جملة وزرائه ابن عمار (٤) الشاعر الكبير . اما احب زوجاته اليه فجارية بارعة الجمال اديبة طيبة النادرة اسمها اعتماد لقيها حين خرج هو ووزيره ابن عمار الى مرج الفضة على ضفة الوادي الكبير وهو مكان بهيج يجتمع فيه الرجال والنساء للنزهة . قالوا فبينما المعتمد عشية على ضفة الوادي إذ هبت ريح على الماء فزردته فقال المعتمد لابن عمار اجز :

صنع الريح من الماء زرد

فتلكأ ابن عمار وكان على النهر امرأة بمقربة منهما فبدرته وقالت :

أي درع لقتال لو جمد (٥)

فتعجب ابن عباد بحسن ما اتت به ونظر اليها فاذا هي صورة حسنة ولم تكن ذات

---

١) ابن خلكان ج٢ ص٤١٢ . قابل قصيدة الفتح ابن خاقان في مدحه ، قلائد العقيان (بولاق، ١٢٨٣) ص ٤ — ٥ .

٢) ابن خلكان ج ٢ ص٤١٢ . قابل ابن الخطيب، الاحاطة ج٢ ص٧٧ .

٣) ابن خلكان ج٢ ص٤١٤ ؛ ابن الاثير ج١٠ ص٩٢ .

٤) المراكشي ص ٧٧، ٨٥—٩٠ .

٥) المقري (مصر ، ١٢٩٩) ج٢ ص١١٠٠—١١٠١ . Dozy, *Scriptorum Arabum oci de Abbadids*, vol. ii (Leyden, 1852), pp. 15: - 2, vol. iii (Leyden, 1863), p. 225.

زوج فتزوجها واشتهرت باسم اعتماد الرميكية وأصبحت ملكة وولدت له اولاده الامراء النجباء ويقال انه تلقب بالمعتمد كلفاً بها لما ملكها (١) . وقد كلفته كثيراً استجابة لرغباتها واهوائها . من ذلك انها رأت يوماً قطع الثلج تتساقط في قرطبة فتمنت على المعتمد مثل ذلك فأمر بان تزرع اشجار اللوز في هضاب قرطبة فتزهر في آخر الشتاء فتظهر بيضاء كالثلج . ورأت ذات يوم الناس يمشون في الطين فأشتهت المشي فيه فامر المعتمد فسحقت الطيوب وذرت في ساحة القصر ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على الطيوب وعجنت بالايدي حتى عادت كالطين وخاضته مع جواريها (٢) .

ودارت الايام دورتها بالمعتمد وقلب الدهر له ظهر المجن فذاق من مر العيش في اواخر ايامه مثل ما ذاق من حلوه في اول عهده . فبعد ان كان ملوك النصارى في الشمال متشاغلين بخصوماتهم الداخلية اخذوا الآن يتفاهمون . وتوحدت مملكتا ليون وكاستيل تحت لواء فردناند الاول وولده الفونس السادس واشتد الخطر على المسلمين وكان الفونس قد أصبح طاغية النصارى في زمنه وخرج طامعاً في بلاد المسلمين الى الجنوب . ثم استولى على جليقية ونافار وتسابق امراء المسلمين مع اندادهم النصارى في الرضوخ له والسعي لاكتساب رضائه . فعز وساد وانتحل لنفسه لقب « امبراطور » ومثله فعل خلفه الفونس السابع الذي زاد على ذلك ايضاً في انه تسمى ملك ابناء الديانتين . وتعاقبت الغزوات من الشمال حتى بلغت قادس . وفي غضون ذلك ظهر رودريغو دياز دي بيفار « Rodrigo Diaz de Bivar » الملقب بالسيد « السيد Cid » المبارز مع اتباعه من اهل كاستيل في بلنسية واخذ يوالي الغارات على أراضي بني العباد . واراد المعتمد اتقاء الخطر الذي تهدده به الفونسو السادس والسيد فارتكب أكبر خطأ اذ طلب النجدة من يوسف ابن تاشفين (٣) زعيم المرابطين في مراكش ورغبه في الجهاد ونصرة الاسلام . ولما سفه بعض اصحابه رأيه وعارضوه في ذلك أجاب : « اولى ان اكون راعي الجمال في افريقية من ان اكون راعي الخنازير في كاستيل » (٤) .

---

١) ابن الخطيب، الاحاطة ج٢ ص٤٧ . اما نسبتها فالى مولاها رميك .
٢) المقري ج١ ص٢٨٧ ؛ Dozy, *Scriptorum*, vol. ii, pp. 152 - 3
٣) انظر صورة الكتاب الذي طلب فيه النجدة في المقري ج ٢ ص ٦٧٤ .
٤) المقري ج٢ ص٦٧٨ ؛ Dozy, *Scriptorum*, vol. ii, p 8

وكان هؤلاء المرابطون قوماً من البربر في عروقهم بعض الدم الزنجي وكان لهم سلطان يمتد من الجزائر الى بلاد السنغال .

وقدم يوسف بجيشه فلم يقم في سبيله حاجز حتى قطع جنوبي الاندلس فتراءى له جمع الفونس عند الزلاقة (١) . بالقرب من بطليوس فحمل عليه يوسف ومعه جنده وقد بلغوا نحو عشرين الفاً فانزل بهم ذلك اليوم (٢٣ تشرين الاول ١٠٨٦) اكبر هزيمة حتى ان الفونسو وثلاثمئة من فرسانه لم ينجوا الا بصعوبة وقد تركوا وراءهم من الرؤوس ما كان كافياً لبناء مئذنة (٢) . وارسل زعيم البربر نحو اربعين الف رأس الى العدوة علامة للظفر وسر المسلمون بهذا النصر واظهروا التيمّن وسرت في البلاد الاندلسية روح حماسة جديدة . وتقدم شعراء اشبيلية بمدائحهم لابن تاشفين ولكنه لم يفهم تلك الاشعار ورجع الى افريقية حسب عهده السابق . غير انه لم تمض فترة طويلة حتى عاد زعيم المرابطين هذا هو واتباعه وكان هؤلاء قد سئموا البادية وقحطها وتاقت انفسهم لاطايب المدنية الاندلسية التي تذوقوها من قبل فنزلوا الاندلس مرة ثانية ولكنهم نزلوها هذه المرة فاتحين لا منجدين . وفي تشرين الثاني من سنة ١٠٩٠ دخل يوسف غرناطة وفي السنة التالية استولى على اشبيلية وسواها من امهات المدن . وهكذا دوخ كل اسبانية الاندلسية خلا طليطلة التي ظلت في حوزة النصارى وسرقسطة التي اعطي بنو هود حق استبقائها ونُفي المعتمد الى مراكش فاعتقل في اغمات وكبل بالحديد ولم يرحل عنها حتى الممات . وكانت معه زوجته اعتماد وبناته فكن يغزلن للناس بالاجرة (٣) . ورأى هذا العاهل المخلوع اهل البلد في بعض الايام خارجين الى المسجد للاستسقاء فهزته شاعريته القديمة فانشد مرتجلاً :

---

١) تعرف بـ «سكر الياس» (Sacralias) عند الاسبان . المراكشي ص ٩٣–٤ ؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦–٧ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٥ ؛ ابن الاثير ج ١٠ ص ١٠١–٢ ؛ ابن ابي زرع ، روض القرطاس ج ١ ص ٩٣ وما يلي .

٢) ابن الخطيب، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية (تونس، ١٣٢٩) ص ٤٣ يقدر عدد النصارى بـ ٣٠٠ الف .

٣) ابن خلكان ، ج ٢ ص ٤١٩ ؛ ابن خاقان ص ٢٥ ؛ ابن الخطيب، الاحاطة ج ٢ ص ٨٣ . Dozy , Scriptorum, vol. i, pp. 63 - 4, vol. ii, p. 151 .

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم   دمعي ينوب لكم عن الانواء
قالوا حقيقاً في دموعك مقنع   لكنها ممزوجة بدماء (١)

وتوفي المعتمد آخر بني عباد في اغمات سنة ١٠٩٥. وبموته استتبت للبربر السيادة في اسبانية .

المرابطون

كانت حركة المرابطين في الاصل اخوية دينية حربية انشأها في القرن الحادي عشر احد الاتقياء في رباط (ومنها اسمهم) ومعناها صومعة مسلحة وهي بناحية من جزيرة باسفل السنغال . واول المنتسبين الى الاخوية انما كانوا بالاكثر من لمتونة وهي فخذ من قبيلة صنهاجة التي عاش ابناؤها بدواً في فلوات الصحراء وكانوا كأحفادهم الطوارق الضاربين في جنوبي الجزائر الى هذا اليوم يضيقون اللثام (٢) . فاصبح اللثام سنّة وسمي المرابطون ملثمين . وتألف جيشهم الاول من زهاء الف مجاهد فاجبروا من حولهم قبيلة قبيلة على اعتناق الاسلام وكان من الداخلين قبائل زنجية . فلم تمر الا بضع سنوات حتى اصبح المرابطون اسياداً لافريقيا الشمالية الغربية ثم لاسبانية . (٣) وفي سيرتهم مثال رائع لما يستطاع الاتيان به في الاسلام اذا اقترنت صولة السيف بحمية الدين (٤) .

وبنى يوسف ابن تاشفين (١٠٦١ – ١١٠٦) مشيد امبراطورية المرابطين مدينة مراكش سنة ١٠٦٢ فلم تزل دار مملكة المرابطين والموحدين الى انقراض الدولة الموحدة (٥) . اما في اسبانية فكانت اشبيلية القصبة لا قرطبة . وتسمى ملوك المرابطين بامراء المسلمين (٦) . واستحوذوا على السلطة الزمنية مع اعترافهم بخلافة امير المؤمنين في بغداد (٧) . وهكذا فقد

١) Dozy, *Scriptorum*, vol. i, p. 383 .
٢) راجع ابن الاثير ج ٩ ص ٤٢٨ – ٩ . ابن الخطيب ، الحلل ص ١٠
٣) ان قبيلة الدليم البربرية في مراكش تنتسب الى المرابطين .
٤) ابن ابي زرع ج ١ ص ٧٥ – ٧٨ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ – ٢ ؛ ابن الاثير ج ٩ ص ٤٢٥ – ٧ .
٥) ابن ابي زرع ج ١ ص ٨٨ – ٩ ؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ .
٦) ابن ابي زرع ج ١ ص ٨٨ – ٩٦ ؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ .
٧) المراكشي ص ٦٤ .

تجدد الدعاء للخلافة العباسية على منابر الاندلس والمغرب بعد انقطاعه منذ زمن عبد الرحمان الداخل. وثبت عز المرابطين في الشمال الغربي من افريقية وفي جنوبي اسبانية مدة تزيد على نصف القرن. ولاول مرة في التاريخ نشط قوم من البربر فلعبوا دوراً خطيراً على مرسح العالم.

النقود

ضرب المرابطون السكة وجددوها ونقشوا في دينارهم: لا اله الا الله محمد رسول الله. وتحت ذلك: امير المسلمين فلان ابن فلان. وكتبوا في ظهرها اسم امير المؤمنين الخليفة العباسي. وقلد الفونس الثامن ملك كاستيل (١١٥٨-١٢١٤) طراز هذه النقود فاحتفظ بالكتابة العربية الا انه طبّق اللفظ على العقائد النصرانية فأورد لقبه هكذا: امير القتولقين. واسم بابا رومية جاء هكذا: امام البيعة المسيحية. وقد صدرت السكة باسم الآب والابن والروح القدس اله واحد، بدل الشهادة، كذلك استعملت الآية القائلة: « فمن آمن واعتمد يخلص » عوضاً عن الآية القائلة: « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (١).

الاضطهاد

وفي زمن المرابطين وهم حديثو عهد بالاسلام وحاملو التراث البربري الذي لم تكن جذوته قد ماتت فيهم بعد، ظهرت بوادر الحمية الدينية ينادي بها غيارى الفقهاء، فأدت في مطلع القرن الثاني عشر الى انزال النقمة بالنصارى واليهود والمتساهلين من المسلمين ايضاً. وفي ولاية علي الورع (١١٠٦-٤٣) ابن يوسف وخلفه استحكم تقبيح علم الكلام فما أن دخلت كتب ابي حامد الغزالي الى المغرب حتى أمر امير المسلمين باحراقها في قرطبة وسواها من المدن (٢) لما فيها من اقوال ظن البعض انها تنتقص الفقهاء، ومنهم اتباع مذهب مالك وكان المرابطون يوالونه (٣). الا ان الغزالي كان قد تقدم اعلام المشرق الذين أفتوا بالموافقة على رأي فقهاء الاندلس في ان يوسف ابن تاشفين له الحق في خلع ملوك الطوائف والتخلي عنهم وعن العهود التي قطعها لهم وان انتزاع الامر من ايديهم ليس حقاً بل واجباً يترتب

١) البقرة ٧٩.
٢) المراكشي ص١٢٣؛ الغزالي، احياء ج١ ص ٢٨-٣٨.
٣) الغزالي، احياء ج١ ص٢٢-٤.

عليه (١) . وفي لوثينا البلدة اليهودية في رأي الادريسي (٢) كان السكان أغنى سكان العالم الاسلامي فطالبهم مؤسس امارة المرابطين باسبانية ان يؤدوا ما يسد العجز المالي الذي اعتور خزانة الدولة . وكان الامويون قد رفعوا مقام اليهود الاسبانيين فتحسنت حالهم عما كانت عليه في دور القوط وازدادوا عدداً . وفي خلافة عبد الرحمان الثالث وابنه الحكم استوزر حسداي بن شبروط فسهل لكثير من يهود المشرق سبيل النزوح الى الاندلس وبرزت قرطبة مركزاً لدراسة التلمود التي انذرت بافتتاح عصر الثقافة اليهودية في الاندلس (٣) . وكان يهود اسبانية يحسنون لغة العرب ويأخذون بازيائهم في الملبس وعاداتهم الاجتماعية .

المستعربون

اصبح المستعربون في هذا العصر عنصراً متميزاً من الشعب الاسباني يحسن لغة المسلمين الفاتحين ويجري على عاداتهم الا انه احتفظ بدينه المسيحي . وبازدياد عدد هذا العنصر اصبح بنوه عرضة لقيود مرهقة . وسكن النصارى المستعربون المدن الكبيرة في شوارع خاصة بهم . وقد سمح لهم في عصر الامويين بالمحاكمة امام قضاة من بني جنسهم (٤) ولم يرتدوا الملابس التي تميزهم عن سائر طبقات الشعب . ويغلب ان يكون للواحد منهم اسمان : عربي يشتهر به ولاتيني او اسباني يعرف به رسمياً . وبلغ بهم استعرابهم درجة اخذوا معها يختتنون اولادهم ويطبقون نظام الحريم في بيوتهم وكان اكثر هؤلاء المستعربين يحسنون لغتين : العربية ولغتهم الاصلية لغة الرومانس المأخوذة من اللاتينية العامية ، ومن هذه نشأت اللغة الاسبانية المعروفة . وفي المدن الكبرى كطليطلة بقيت اللغة العربية يعول عليها القوم للكتابة ويستعملونها في القضاء والتجارة زهاء قرنين بعد رجوع النصرانية التام على يد الفونس السادس سنة ١٠٨٥ (٥) . وسلك الفونسو على غرار بعض اسلافه فكتب بالعربية على النقود التي سكها . وكان

١) ابن خلدون ج٦ ص١٨٧ .

٢) صفة المغرب ، نشر دوزي ودي غويه (ليدن ، ١٨٦٦) ص ٢٠٥ .

٣) ابن ابي اصيبعة ج٢ص٥٠ .

٤) واسمى المراتب بين هؤلاء تبوأها موظفان يسمى واحدهما قومس بالعربية (comes في اللاتينية و conde في الاسبانية) والآخر هو قاضي النصارى .

٥) راجع بعض كتاباتهم في Angel Gonzalez Palencia, *Los Mozarabes de Toledo en los siglos XII y XII*, 4 vol. (Madrid 1926-30) .

بطرس الاول (المتوفى ١١٠٤) من ملوك الاراغون لا يحسن الا العربية كتابة . واستعمل المستعربون الحروف العربية لكتابة اللاتينية ايضاً . والظاهر ان التوراة نقلت الى العربية بعد الفتح الاسلامي بامد يسير . وسنة ٩٤٦ ترجم اسحاق فلاسكز القرطبي انجيل لوقا من اللاتينية ولعله ترجم الاناجيل الثلاثة الاخرى ايضاً (١) .

وتحقيقاً لفتوى الفقهاء امر يوسف سنة ١٠٩٩ بهدم الكنيسة البديعة البنيان التي كانت قد شيدت في غرناطة في عصر القوط الغربيين ثم آلت الى المستعربين . وفي سنة ١١٢٦ اعمل السيف في رقاب هؤلاء الغرناطيين ونفى سائرهم الى مراكش وسبب ذلك اتصالهم بالعاهل النصراني في الشمال . ثم جاء اجلاء المستعربين الثاني بعد احدى عشرة سنة فلم يبق منهم في الاندلس الا القليل .

اما الفارق الجنسي بين المستعربين والمسلمين في المدن العامرة فلم يكن من السهل تمييزه في هذا العصر . وكان العرب الخلص في جيش الفاتحين الاول قليلي العدد كما لاحظنا وكذلك نسبتهم بين المستعربين بعدئذ وقد كانوا بالاكثر في مراكز القيادة والمناصب السامية . ثم ان عدد النساء اللواتي رافقن الجيش والمستعربين الاولين انما كان صغيراً بحكم الطبع . ثم اجتاحت الامراض والحروب هذه الفئات الفاتحة والمستعمرة فلم يأت الجيل الرابع حتى اصبح الدم العربي ضعيفاً ضاعت مزاياه باختلاط العرب واهل البلاد وتزاوجهم بالنساء الوطنيات . ثم سرت عادة التسري واقتناء العبيد والاسرى فساعدت على تتميم عملية المزج حسبما حدث في البلدان الاخرى المغلوبة . وقد اظهرت ابحاث العلامة ريبرا (٢) . ان المسلمين انفسهم المعروفين باسم « مور » عند الفرنجة غلب فيهم الدم الاسباني . ومما يرتأيه هذا الاسباني الحديث ان عروق الخليفة هشام الثاني ثالث خلفاء بني امية في الاندلس لم تكن تحتوي فيما يظن اكثر من جزء من الف من الدم العربي .

---

(١) Georg Graf, *Die Christlich - arabische Literatur bis zur frankischen Zeit* (Freiburgu in Breisgau,1905), 27.

(٢) Julian Ribera y Terragô, *Disertaciones y opusculos*, (Madrid, 1928), vol. i , pp. 12-35, 109-12,

السيد الكنبيطور

وفي اول حقبـة المرابطين نشأ أروع المستعر بين سيرة وألمع الابطـال في مضمار الفروسية الاسبانية رودريكو دياز دي بيفار المعروف باسم « السيد » فقام بمآثره الحربية ، ورودريكو هذا متحدر من اسرة نبيلة كاستيلية وقد انخرط لاول عهده في خدمة الفونسو السادس الذي اقصاه (١٠٨١) عن بلاد كاستيل فجعل « السيد » الحرب دأبه وانقلب فارساً يغـار على مصلحة هذا الحزب تارة ومصلحة ذلك اخرى، يقارع المسلمين اليوم وينقلب على ابناء دينـه غداً حسبما تقوده الاحوال وهو في الاعمال التي انتهجها مسلم مثله نصراني لا يستطيع الباحث التحقق من شخصيته . اما نعته بالسيد الـكنبيطور [١] فانه أحرزه في خدمة بني هود المسلمين بسرقسطة حيث نال صيتاً في المعارك . وأعلى ما وصلت اليـه شجاعة السيد المبارز اقتحامـه بلنسية سنة ١٠٩٤ . واسم « السيد » خـالد في القصص خلوداً يجعله بطل اسبانيـة القومي وعنوان الفروسية وحاميها من الخطر الاسلامي . وقد نسجت الاناشيد الاسبانية حول اسمـه هالة الفضيلة المقدسة مما حدا بفيليب الثاني (المتوفى ١٥٩٨) انـ يقترح على البابا سيامتـه قديساً . اما الملحمة المعروفة باسم « الـكنتار دي ميوسيد » التي صيغت حول بطولة السيد في منتصف القرن الثاني عشر فهي من أمتع الاشعار الاسبانية وأقدمها وقد تركت أثراً عميقاً في الفكر الاسباني مدى الاجيال اللاحقة وساعدت في نشوء اللغة الاسبانية الحديثة وفي ربط اوصال الامة الناشئة .

سقوط المرابطين

لم تعش دولة المرابطين الاندلسية (١٠٩٠ـ١١٤٧) [٢] اكثر مما انتظر لها من العمر .

---

١) تقابلها لفظة « المبارز » العربية . ابن بسام الذخيرة في Dozy, *Recherches*, vol. ii, pp. v, ix. «القنبيطور» في ابن عذاري ج ٣ ص ٣٠٥ـ٦ (الملحق) . قابل المقري ج ٢ ص ٧٥٤.

٢)

تاشفين

|

١) يوسف (١٠٩٠ـ١١٠٦)

|

٢) علي (١١٠٦ـ٤٣)

|

٣) تاشفين (١١٤٣ـ٦) — ٥) اسحاق (١١٤٦ـ٧)

٤) ابراهيم (١١٤٦)

فقد سارت سراعاً على سنة الادوار التي سارت فيها المالك قبلها بآسية وافريقية : دور نشاط حربي يتلوه تكاسل وفوضى يؤديان الى التضعضع فالسقوط . وكان ابناؤها من البربر قد ألفوا شظف البداوة فما ان تم انتقالهم الى ربوع الترف في مراكش والاندلس حتى سادت عليهم رذائل المدنية فاعتورهم الوهن . وكان دخولهم الاندلس في زمن طال فيه اقلاع العرب عن حب الحرب والشوق الى الفتح واشتد تعلقهم بأهداب اللذائذ الفكرية . وبهذا تسنى للفاتحين الافريقيين سبيل استعمار البلاد وهؤلاء بدورهم اصابهم الدمار اذ احتكوا بمدنية راقية لم يكن عندهم الاستعداد اللازم لاكتساب مقوماتها فاستسهل ابناء قرباهم الموحدون نزع شوكتهم . وما زالت اسبانية طوال القرن الثاني عشر والشطر الاول من القرن الثالث عشر تحت حكم هاتين الدولتين من البربر فقد تعاقبتا الامر فيها وكانت عاصمتهما مراكش .

الموحدون

ان دولة الموحدين مثل دولة المرابطين هي في الاصل حركة سياسية دينية قام بها رجل من قبيلة مصمودة (١) البربرية اسمه محمد ابن تومرت (نحو ١٠٧٨ – نحو ١١٣٠) اتخذ لقب « المهدي » (٢) ونادى بنفسه نبياً جاء لاحياء السنة الاسلامية الصحيحة فدعا ابناء قبيلته والقبائل الاخرى الجامحة من اهالي جبال الاطلس بمراكش الى مذهب التوحيد انتصاراً لعقائد السلف واحتجاجاً على التمادي في نسبة الصفات الى الله الامر الشائع بين جماعات اسلامية كثيرة آنذاك . وهذا سبب تسمية اتباعه بالموحدين . وكان ابن تومرت رجلاً ربعة اسمر عظيم الهامة فظيع الهيئة احترف ابوه إسراج القناديل بالمساجد فشب محمد هذا محباً للعلم ذا نسك ورباط ينكر آلات الملاهي واواني الخمر وسواها من مظاهر الانحطاط . ولقي في فاس يوماً وهو شاب اخت علي ابن يوسف سلطان المرابطين حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم فوبخها فدخلت على اخيها باكية لما نالها من تقريع (٣) .

---

١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ . ابن الاثير ج ١٠ ص ٤٠٠ . قابل المراكشي ص ١٢٨ ؛ ابن ابي زرع ج ١ ص ١١٠ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٦ .

٢) ابن الخطيب، الحلل ص٧٨ . راجع كتاب محمد ابن تومرت ؛ نشر غولدزيهر (الجزائر، ١٩٠٣ ص ٢–٣ .

٣) ابن خلدون ج٦ ص ٢٢٨ ؛ قابل ابن خلكان ج٢ ص ٤٣١ .

مؤسس دولة الموحدين

ولما قضى ابن تومرت عام ١١٣٠ خلفه في الولاية صديقه وقائد جيوشه عبد المؤمن ابن علي وابوه خزّاف من قبيلة زناته (١) . وهو حقاً مؤسس دولة الموحدين والخليفـه الاول لاعظم امبراطورية شاهدتها مراكش ولم تر افريقيه اوسع منها . واعتقد الموحدون ان جماعتهم وحدهـا دون سواها تضم المؤمنين الحقيقيين فخرجوا بزعامة عبد المؤمن الى تدويخ ارجاء مراكش والاراضي المتاخمة لها . وسنة ١١٤٤–١١٤٦ تغلبوا على المرابطين بالقرب من تلمسان ثم استولوا عليها وعلى فاس وسبتة وطنجة واغمات . و بعد حصار دام احد عشر شهراً دخل عبدالمؤمن مدينة مراكش سنة ١١٤٦–١١٤٧ وانهى ملك المرابطين (٢) فكان آخر ملوكهم اسحاق ابن علي حفيد مؤسس دولتهم وكان شيوخ الملثمين يديرون شؤون دولته لصغر سنه فلم يحجم خليفة الموحدين عن ضرب عنقه بالرغم من بكائه وانتحابه (٣) . ولما فتح عبد المؤمن مراكش اقام بها واستوطنها فاستقر ملكه فيها واصبحت عاصمة الموحدين . وأمر عبـد المؤمن سنة ١١٤٥ بالغارة على اسبانية وقد عمتها الفوضى السياسية واختل أمنها وتعالت شكوى سكانها فاستطاع جيشه تدويخ كافـة الاندلس الاسلامي في خلال خمس سنين . ولم يبق في ايدي ممثلي دولة المرابطين المنقرضة الا الجزائر الشرقية (البليار) وذلك لسنين قليلة فقط .

و بعدما دانت لعبد المؤمن مراكش واسبانية سيّر جيوشه سنة ١١٥٢ الى الجزائر وسنة ١١٥٨ الى تونس وسنة ١١٦٠ الى طرابلس. وهكذا فقد توحد لاول مرة في تاريخ الاسلام الساحل الافريقي قاطبة من المحيط الاطلسي الى حدود مصر مع الاندلس تحت صولجان واحد. اما دولة المرابطين فما كانت تشمل خارج اسبانية الا مراكش وجزءاً من الجزائر . وخطب من على المنابر في هذه المملكة الواسعة للمهدي او خليفته عوضاً عن الخليفة العباسي حسب

١) ابن ابي زرع ج ١ ص ١١٩ .

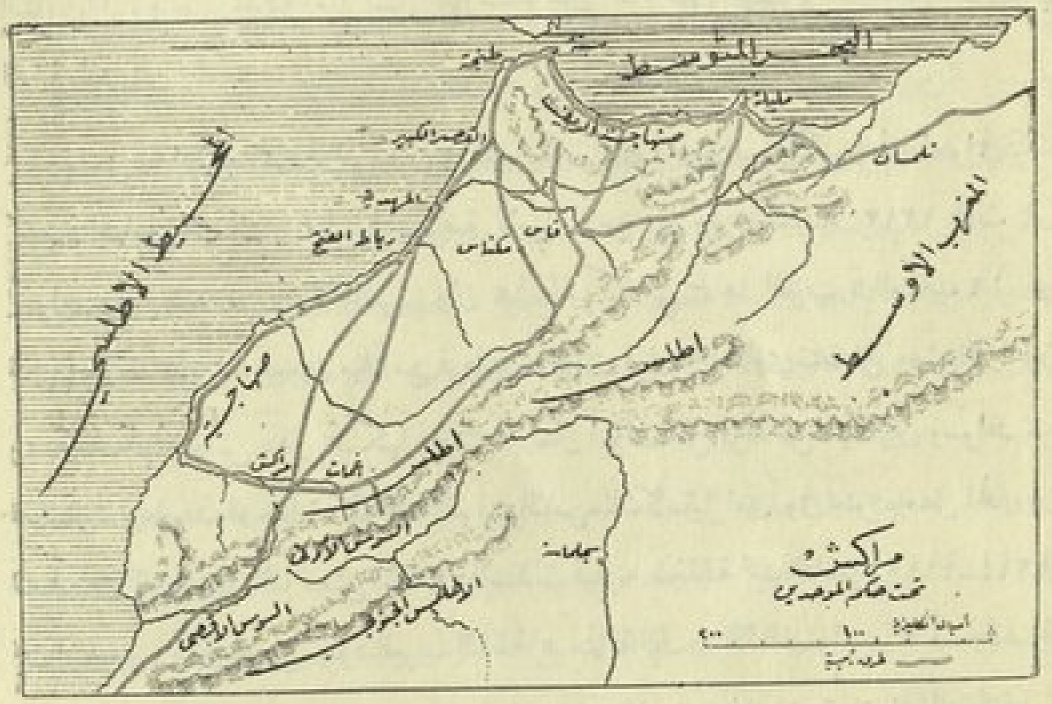
٢) المراكشي ص ١٤٥ – ٦ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٥٥٧ ؛ ابن ابي دينار ، المؤنس في اخبار افريقية وتونس (تونس ، ١٢٨٦) ص ١٢٠ .

٣) ابن الاثير ج ١٠ ص ٤١٢ – ١٣ .

المألوف سابقاً (١) .

المنصور

وبعد ولاية طويلة حافلة بالامجاد توفي عبد المؤمن سنة ١١٦٣ . ومن اعاظم خلفائه وابعدهم صيتاً حفيده ابو يوسف يعقوب المنصور (١١٨٤ ـ ٩٩) . وكانت امه شان كثيرات من امهات امراء البربر ام ولد رومية (٢) . وهو الذي استنفره صلاح الدين



وارسل الى بلاطه وفداً يرأسه رسول من اقارب اسامة ابن منقذ ومعه هدايا ثمينة يستنجده على الفرنج الواصلين الى الديار المصرية وساحل الشام . ولما كان صلاح الدين يقرّ بخلافة العباسيين فرسوله لم يخاطب ابا يوسف بامير المؤمنين بل دعاه امير المسلمين فعزّ ذلك على ابي يوسف المنصور ولم يجبه الى ما طلب ويقال انه جهزّ له بعد ذلك اسطولا من مائة وثمانين قطعة لمنع

١) انظر احدى خطب الموحدين في المراكشي ص ٢٥٠ ـ ٥١ .
٢) المراكشي ص ١٨٩ ؛ ابن ابي زرع ج ١ ص١٤٢ ؛ ابن ابي دينار ص١١٦ ـ ١٧ .

النصارى من شواطىء الشام (١) .

وتعد الابنية الباقية مما صنع المنصور في مقدمة الآثار من نوعها في مراكش واسبانية . ومنها البرج المعروف باسم الـ « جرالدا » الذي بناه عقب انتقاله الى اشبيلية واتخاذه اياها عاصمة في سنة ١١٧٠ (٢) . وكانت الجرالدا ملحقة بالمسجد الجامع الذي بوشر في بنائه سنة ١١٧٢ وانهي سنة ١١٩٥ وتقوم على اطلاله اليوم كاتدرائية . وفي مراكش بنى المنصور مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الاسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم واتقان البناء (٣) . وبنى بمدينة مراكش بيمارستانا قال المراكشي فيه « ما اظن ان في الدنيا مثله » (٤) .

واجل ما اهتم به خلفاء الموحدين في اسبانية مواصلة الجهاد فيها ولكنهم لم يفلحوا في ذلك كله اذ اصابهم انكسار فظيع في موقعة لاس نافاس دي تولوسا سنة ١٢١٢ ادت الى إخراجهم عن شبه جزيرة الاندلس . وان هذه المعركة التي سماها العرب « العُقاب » (اي التل) جرت على بعد سبعين ميلاً من قرطبة . وكانت قوات النصارى تتضمن جيش الاراغون وعليه ملكها وجيش نافار بملكها وجيش البرتغال المؤلف من فرقة من الهيكليين وسواهم من الفرسان ـ وعلى هذه الوحدات كلها قام الفونسو الثامن ملك كاستيل اميراً وفي جنوده بعض المحاربين الصليبيين الفرنسيين. اما جيش المسلمين فاسندت قيادته للخليفة محمد الناصر (١١٩٩ــ١٢١٤) ابن المنصور . ولم ينج من جنود العرب البالغة « ستمائة الف » الا الف واحد (٥) . ولقد فر الناصر الى مراكش حيث مات بعد سنتين فاصبحت الاندلس الاسلامية لقمة سائغة لفاتحيها الجدد وتقاسمها الامراء النصارى وصغار الامراء المسلمين . ومن هؤلاء الاخيرين بنو نصر في غرناطة الذين تألفت منهم اقوى جماعة احيت معالم السلطة الاسلامية لآخر مرة في الاندلس.

١) ابن خلكان ج ٣ ص ٣٨١؛ ابن خلدون ٦ ص ٢٤٦.
٢) المقري ج ٢ ص ٦٩٣ .
٣) ابن خلكان ٣ ص ٣٧٩ .
٤) ص ٢٠٩ انظر وصف ابنيته الاخرى في ابن ابي زرع ج ١ ص ١٤٣ ؛ ١٥١ ــ ٢ .
٥) المقري ج ٢ ص ٦٩٦ . قابل المراكشي ص ٢٣٦ ؛ ابن ابي زرع ج ١ ص ١٥٩ .

اما في مراكش فقد دام حكم خلفاء الناصر وهم تسعة كلهم من ذرية عبدالمؤمن (١) حتى سقوط عاصمتهم مراكش في سنة ١٢٦٩ بيد بني مرين وكان هؤلاء قبيلة شبه بدوية من البربر متفرعة عن الزناتة (٢) .

بنو نصر

كان محمد ابن يوسف ابن نصر مؤسس دولة بني نصر (١٢٣٢ ـ ١٤٩٣) وقد ارجع هؤلاء اصلهم الى قبيلة الخزرج القوية واصلها من المدينة وكان يعرف محمد بابن الاحمر (٣) ومن هنا تسمية دولتهم بدولة بني الاحمر . وقد عرض ابن خلدون (٤) الذي نزل غرناطة ردحاً من الزمن واتصل ببلاط بني الاحمر لسيرة محمد هذا وذكر اخباره بشيء من التفصيل .

وكان بعد انقراض ملك الموحدين حين كانت كاستيل تدس بين هذا الامير العربي وذاك وتبطش بكل منهما منفرداً أن عقد محمد حلفة مع النصارى وتوفق في انشاء ولاية في غرناطة وجوارها اعادت الى حد معلوم امجاد اشبيلية الماضية ونشطت الى حماية الاسلام مدة القرنين والنصف اللاحقين فذادت عنه ودافعت عن حوضه امام هجمات السلطة النصرانية الناشئة .

واتخذ محمد (١٢٣٢ ـ ٧٣) لقب الغالب وجعل غرناطة مقر حكومته . وادى الطاعة والجزية لكاستيل ومثله فعل خلفاؤه . وحسب العرب غرناطة مدينة لا تضاهيها في اتساع عمارتها وطيب قرارتها مدينة اخرى في الاندلس (٥) وشبهوها بدمشق فنزلها كثيرون من ابناء الشام واليهود (٦) .

١) راجع بيانهم في الزركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ، ١٢٨٩) ؛
Lane-Poole, *Dynasties*, pp. 47-8, de Zambaur, pp. 73, 74 .
٢) ابن ابي زرع ج ١ ص ١٧٤ ـ ٥ ؛ ١٨٤
٣) لحمرة بشرته وشعره في المرجع .
٤) ج ٤ ص ١٧٠ ـ ٧٢ . انظر ايضاً ابن الخطيب ، اللمحة ص ٣٠ وما يلي .
٥) قابل ابن الخطيب ، الاحاطة ج ١ ص ١٣ .
٦) المقري ج ١ ص ١٠٩ ؛ ٧٢١ ، قابل ابن جبير ص ١٦ ـ ١٧ .

وشبه مرجها ـ الفيكا ـ الواقع في بسيط تخترقه الجداول والانهار وتتزاحم فيه البساتين والجنات بغوطة الشام لالتفاف دوحه وكثرة اعشابه (١) . واشتملت غرناطة في نهاية العصر النصري على ما يناهز نصف المليون من السكان ضمن اسوارها . وقد ابقى لنا لسان الدين ابن الخطيب (المتوفى ١٣٧٤) بطل المقري والوزير في بلاط بني نصر والمؤرخ الادبي لدولتهم عدداً من الفصول في وصف ملوك غرناطة وعلمائها فيها حقائق هامة عن امور العاصمة .

الحمراء

وعلى هضبة مرتفعة في الطرف الجنوبي الشرقي من هذه المدينة الجميلة بنى الغالب على انقاض قلعة اموية سابقة داره الشهيرة في الخافقين المعروفة بالحمراء لحمرة لون الحجارة الستوق التي بنيت منها لا للقب بانيها حسبما ظن بعضهم . ثم قام ثلاثة من خلفاء الغالب فوسعوها وزادوا في زخرفتها حتى صارت الحمراء من آيات الهندسة الفنية في اسبانية . ولا تزال الحمراء وهي تشرف على المرج العظيم اشراف الاكروبوليس على اثينا تبهر عيون الناظرين بما فيها من بدائع الزخرف والافاريز ذات النقوش العربية وتفتن الزائرين . فيها اقام بنو نصر بلاطهم الذي احيى لوقت ما مجد الاندلس الاسلامي الذي عرف زمن الامويين و بني عباد . ولقد شملوا العلوم والفنون برعايتهم فأم بلاطهم علماء كثيرون لا سيما من شمال افريقية . اما تشجيعهم التجارة فتناول بالاخص تجارة الحرير التي ربطتهم بايطاليا وجعلت غرناطة اغنى مدن اسبانية . وعلى دورهم اصبحت العاصمة ملجأ للمسلمين الفارين من فتكات النصارى كما اصبحت ايضاً وريثة قرطبة وخليفتها في رعاية الفن والعلم . على ان هذه الايام لم تكن الا الخيوط الأخيرة من شعاع شمس الاندلس الغاربة .

ايام غرناطة الاخيرة

بدأ استرجاع النصارى للاندلس منذ سقوط الخلافة الاموية في القرن الحادي عشر . والواقع ان المؤرخين الاسبانيين يحسبون وقعة كوفادونغا سنة ٧١٨ التي صد فيها الزعيم

---

١) ابن الخطيب ، اللمحة ص ١٣ .

الاشتوري بلايو تقدم المسلمين بدء عصر الاسترجاع (ركونكستا) . ولو تمكن المسلمون في القرن الثامن من القضاء على آخر بقايا السلطة النصرانية في جبال الشمال لكانت قصة اسبانية التالية غير ما هي . وليس ينكر انه قد عاقت عملية الاسترجاع في اول الامر امور اهمها التخاذل المتواصل بين زعماء الشمال ولكن التآزر ما لبث ان حل محل التنافر اذ توحدت كاستيل وليون سنة ١٢٣٠ ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تم استرجاع البلاد باسرها واصبح امراً مقضياً باستثناء غرناطة التي بقيت بايدي المسلمين . فقد سقطت طليطلة منذ سنة ١٠٨٥ وقرطبة في ١٢٣٦ واشبيلية في ١٢٤٨ .

واستهدفت الاندلس بعد منتصف القرن الثالث عشر لعمليتين : اولاهما تنصير اسبانية والثانية توحيدها . وكان تنصيرها يختلف عن استرجاعها وتوحيدها . فالقسم الوحيد من شبه جزيرة ايبريه الذي تأصلت فيه جذور الاسلام كان ذاك الذي زهت فيه الحضارة السامية القرطجنية من قبل . ومثل ذلك ينطبق على صقلية . وهي حقيقة على شيء من الاهمية . فقد كان الخط الفاصل بين الاسلام والنصرانية بوجه عام يطابق الحدود القديمة الفاصلة بين المدنية الفينيقية والمدنية الغربية . ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان كثيرون من المسلمين قد انضووا تحت لواء النصرانية اما عنوة او صلحاً ولكنهم ظلوا متمسكين بشرائعهم ودينهم . وقد اطلق على امثال هؤلاء من المسلمين اسم المدجّنين « Mudejars » (مدخار بالاسبانية) وكان كثير منهم قد نسوا العربية واكتسبوا لغة الرومانس الاسبانية واخذوا ينخرطون في سلك الجماعة المسيحية ويذوبون فيها .

لم يكن توحيد اسبانية النهائي سريعاً ولكنه كان اكيداً . وكانت البلدان النصرانية كلها آنئذ تتألف من مملكتي كاستيل والاراغون . وجاء زواج فردناند ملك الاراغون بايزابل ملكة كاستيل في سنة ١٤٦٩ آخر حلقة في سلسلة التوحيد النهائي الدائم . وكان انذاراً للسلطة الاسلامية في اسبانية بالدمار . ولم يكن في مكنة السلاطين المعروفين ببني نصر [١] ان يصمدوا لهذا الخطر المبين . وقد تورط المتأخرون منهم في ضغائن عائلية زادتهم ضعفاً على ضعف . واذا

---

١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٢ .

نظر الباحث الى سلاطينهم الواحد والعشرين [1] الذين ولوا الامر بين سنة ١٢٣٢ و ١٤٩٢ وجد ستة منهم يلون الامر مرتين وواحداً هو محمد الثاني المتمسك يرتقي العرش ثلاثاً (١٤١٧ ـ ٢٧ ، ١٤٢٩ ـ ٣٢ ، ١٤٣٢ ـ ٤٤) بحيث جاء معدل ولاية الواحد منهم وهم ثمانية وعشرون نحو تسع سنين . ومما عجل في افول نجمهم تهور السلطان التاسع عشر علي ابي الحسن (١٤٦١ ـ ٨٢ ، ١٤٨٣ ـ ٥) الذي لم يكتف بالاحجام عن تأدية الضريبة المعتادة بل قادته اهواؤه الى شن الغارة على مناطق كاستيل . فاقتص منه فردناند في ان فاجأه في سنة ١٤٨٢ في حملة استولت على الحمة [2] الواقعة على سفح جبلها «السيارادي الهاما» وكانت الحمة تحمي مدخل غرناطة في ناحية الجنوب الغربي . وعند هذا خرج محمد ابو عبد الله (والاسبان يحرفون اسمه الى بوابديل) على ابيه ابي الحسن بتحريض من امه عائشة وكانت مراجل الحسد تغلي في قلب عائشة لان زوجها السلطان آثر ابناء جارية له نصرانية [3] على ابنها واستطاع ابو عبد الله ان يستولي في السنة نفسها على الحمراء بمؤازرة حامية غرناطة واصبح سيد غرناطة . وفي السنة التالية (١٤٨٣) تجرأ ابو عبد الله وهو الحادي عشر من امراء هذه الدولة على مهاجمة مدينة لوسنا في كاستيل فقُهر فيها واخذه فردناند اسيراً واستعاد ابو الحسن اذ ذاك عرش غرناطة وحكمها حتى سنة ١٤٨٥ حين اعتزل الملك وبايع اخاه محمداً الثاني عشر وهو اقدر منه ويلقب بالزغلّ (اي الشجاع) وكان حاكم مالقة [4] . وعول فردناند وايزابل

١) راجع بيانهم في Lane-Poole, *Dynasties*, pp. 28-9; de Zambaur, pp. 58-9.
٢) اى العين ذات الماء الحار وقد ذكرها المقري ج ٢ ص ٨٠١ باسم الحامة .
٣) رومية في المقري ج ٢ ص ٨٠٣ .
٤) جدول نسب بني نصر :

١٨) سعد المستعين (١٤٤٥ـ١٤٤٦، ١٤٥٣ـ٦١)

١٩) علي ابو الحسن (١٤٦١ـ٨٢، ١٤٨٣ـ٥) — ٢٠) محمد الثاني عشر الزغل (١٤٨٥ ـ ٦)

٢١) محمد الحادي عشر ابو عبد الله (١٤٨٢ـ٣، ١٤٨٦ـ٩٢)

على استغلال أسيرهما ابي عبدالله واستعماله اداة للنكبة بالمملكة الاسلامية فزوداه بالمال والرجال من كاستيل واخرجاه على عدوهما فاحتل سنة ١٤٨٦ جانباً من عاصمة عمه واورط غرناطة التاعسة مرة اخرى في حرب اهلية دامية فغدت مقراً لسلطانين في آن واحد وساحة نزاع . اما قصة القضاء على اسرة بني السراج الوطنية النبيلة والوقيعة بهم في الحمراء بامر ابي عبد الله فانها تنسب الى هذه الحقبة وهي من الاساطير غير التاريخية .

ولم يزل جيش كاستيل يتقدم حتى وقعت في يده مدن المسلمين واحدة واحدة . وفي السنة اللاحقة دُوخت مالقة و بيع الكثير من اهلها للذل والعبودية . ولما احس السلطان الزغل بدنو الاجل وادرك انه لا يستطيع الوقوف في وجه فردناند بادر بالجواز لبر العدوة مستنفراً من في افريقية من امراء الاسلام وهم مشتغلون عنه بحرب اهلية . واخيراً هجر النضال واستقر في تلمسان (١) فقضى فيها بقية حياته يأخذ من اوقاف الفقراء ويلبس ثوباً خلقاً . ولم يبق سوى غرناطة نفسها بيد المسلمين .

وما انقضى على هرب الزغل زمن يسير حتى جاء النصارى يتهددون صنيعتهم سلطان غرناطة ابا عبدالله ويسألونه التسليم (١٤٩٠) فأبى . وفي ربيع السنة التالية قدم فردناند بعشرة آلاف فارس يريد الاستيلاء على غرناطة فخرج الى مرجها وأفسد الزرع وهدم القرى وأمر ببناء موقع بالسور والحفير واحكم بناءه وانصرفت همته الى الحصار وصار يضيق على غرناطة وهي آخر معاقل الاسلام في اسبانية . واشتد الحصار بالمسلمين واراد العدو ان يجوع المدينة ويحملها على التسليم . وظل محاصراً لها « الى ان تمكن فصل الشتاء وكلب البرد ونزل الثلج فانسد باب المرافق وقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على اكثر الاماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال وبان الاختلال وعظم البلاء ... ثم اشتد الامر في شهر صفر من السنة [كانون اول ١٤٩١] . » (٢) . فوافقت الحامية على التسليم اذا لم يأتها المدد في مدة شهرين على شروط منها ان يبايع السلطان

١) المقري ج ٢ ص ٨١٠ .

٢) المقري ج ٢ ص ٨١١ .

واهل الدولة وارباب المشورة صاحب كاستيل وان يخص سلطان المسلمين بالبشرات [١] يسكنها وان يؤمن المسلمين على النفس والاهل والمال واقامة شريعتهم على ما كانت [٢] . ومضت مدة الهدنة دون ان يرد المدد سواء من الترك او من انحاء افريقية فدخل جيش كاستيل غرناطة في ٢ كانون الثاني سنة ١٤٩٢ .وحلّ الصليب محل الهلال في ابراجها [٣] . وخرج السلطان ترافقه السلطانة وهي لابسة ثوبها الزاهي فغادرا الحمراء تحف بهما معالم الهيبة ويسير في موكبهما اهل الخاصة ولكن لم يعودا اليها قط . و بينا السلطان منصرف عن عاصمته حانت منه التفاتة اخيرة الى عاصمة ملكه فتأوه وجرت عبراته . اما امه التي كانت مستشارته في الامور الحربية فانتهرته قائلة : « يحق لك أن تبكي كالنساء ملكاً لم تستطع ان تدافع عنه كالرجال » . ولا يزال الصخر الشاهق الذي اطل السلطان من قمته للمرة الاخيرة يسمى « ال التمو سسبرو دل مورو » اي زفرة العربي الاخيرة .

واستوطن ابو عبد الله البشرات اولا ثم لم يلبث ان بارحها فنزل فاساً وفيها توفي سنة ١٥٣٣ـ٤ مخلفاً فيها ذرية ذكر المقري [٤] حين صنف « النفح » (١٦٢٧ ـ ٨) ان افرادها لا يزالون فيها عرضة للفقر « ويعدون من جملة الشحاذين » .

اضطهاد الموريسكو

ولكنّ صاحبي الجلالة الكاثوليكية فردناند وايزابل نكثا العهد ونقضا الشروط ففي سنة ١٤٩٩ انتدب الكاردنال زيمنس دوسيسنروس «Ximénez de Cisneros» [٥] كاهن الملكة الخاص لحمل المسلمين على التنصر . واراد الكاردنال لاول امره ان يصادر الكتب

---

١) « البوخاراس » « alpujarras » في الاسبانية . وقد شملت هذه اللفظة (ومعناها المروج) الاراضي الجبلية الواقعة جنوبي السيارا نفادا حتى البحر المتوسط .

٢) اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ، نشر ملر (مونيخ ، ١٨٦٣) ص ٤٩ .

٣) والتقليد يجعل الحمراء في تلك السنة مشهد ظهور كريستوفورس كولمبوس امام الملكة ايزابل طالباً منها المال ليقوم برحلته العظمى التي ادت الى الكشف عن اميركا .

٤) ج ٢ ص ٨١٤ ـ ١٥ .

٥) اعظم خدماته طبعه (١٥٠٢ ـ ١٧) التوراة في كتاب واحد بلغات متعددة وهذه اول طبعة تحتوي النص الاصلي مع ترجمة .

العربية المعنية بالاسلام فأمر باحراقها. وفي غرناطة جمعت المخطوطات العربية اكواماً واشعلت النار تحتها . ثم انشىء ديوان تفتيش لامتحان المسلمين واصبح كل المسلمين الذين لم يهجروا البلاد بعد سقوط غرناطة يدعون بالـ«مورسكو» (١) وهي لفظة اطلقت اولا على معتنقي الاسلام من الاسبانيين . وكانت للاسبانيين المسلمين لهجة رومانسية إلا انهم استخدموا حروف العربية لكتابتها (٢) . والواقع ان كثيرين من المورسكو ان لم يكن جلهم كانوا من اصل اسباني وقد تنبهوا الآن بان اجدادهم انما كانوا نصارى وان عليهم قبول المعمودية او تحمل العواقب. واعتُبر «المدجنون» و «المورسكو» في طبقة واحدة فتظاهر كثيرون منهم بالنصرانية واسرّوا الاسلام في قلوبهم . ومنذ سنة ١٥٠١ صدرت الارادة الملكية بان على من في كاستيل وليون من المسلمين الرجوع عن دينهم او الجلاء عن البلاد . ولكن الظاهر ان ذلك الامر لم ينفذ . وفي سنة ١٥٢٦ جابه مسلمو الاراغون المعاملة نفسها ، وفي ١٥٥٦ سنّ فيليب الثاني تشريعاً يأمر البقية الباقية من المسلمين بترك لغتهم وعبادتهم وانظمتهم وعاداتهم . وأمر ايضاً بهدم حمامات الاسبانيين باعتبار انها من تراث العهد الاسلامي . فتعالت الشكوى بين المسلمين وسرت الحمية في عروق البعض فثاروا للمرة الثانية اولا في غرناطة ثم فيما جاورها من الجبال ، ولكنهم لم يلبثوا ان أُخضعوا واخمدت شوكتهم . واما القرار الاخير بالطرد فأمضاه فيليب الثالث سنة ١٦٠٩ ونجم عنه نفي جماهير المسلمين عن البلاد الاسبانية قسراً . وذُكر ان عدد الذين نُفوا على هذه الطريقة بلغ نصف المليون فوطأوا سواحل افريقية او ركبوا سفناً حملتهم الى اقاصي البلدان الاسلامية . ومن هؤلاء المورسكو تألفت معظم قراصنة البحر المراكشيين .

---

١) تصغير مورو في الاسبانية ، وقد دعا الرومان افريقية الغربية « موريتانيا » وسموا أهلها «موري» (ولعل اصل الكلمة فينيقي بمعنى « غربي ») ، فالبربر هم المورو الحقيقيون ثم اطلق الاسبان هذا الاسم ايضاً على مسلمي جزائر الفلبين ولا يزالون يعرفون به الى اليوم .

٢) وان الادب الذي خلفه المورسكو مختلف الانواع وهو جدير باهتمام علماء اللغات ويطلق عليه اسم « الخيادو » (*aljamiado*) من لفظة « الاعجمية » العربية. وقد عثر على مجموعة مخطوطات بهذه اللغة تحت الارض في بيت قديم بالاراغون لعلها اخفيت عن عيون رجال « التفتيش . وهذه المخطوطات قد جمعت في
Manuscritos arabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta ed. J. Ribera and M. Asin (Madrid,1912).

واظر ايضاً : A. R. Nykl, *A Compendium of Aljamiado Literature*. (Paris,1928)

و يقدر عدد الذين انتزعوا من بلادهم قتلاً ونفياً ما بين سقوط غرناطة والعقد الاول من القرن السابع عشر بنحو ثلاثة ملايين . و بهذا انتهت المشكلة الاسلامية في اسبانيـة ، وأصبحت اسبانية منذ ذلك العهد مثلاً بارزاً للشذوذ عن القاعدة التي تذهب الى أن قدم المدنية العربية تثبت دائماً حيثما تحل اقدام العرب . اجل « أقصي المسلمون عن البـلاد وظهر محيـا اسبانيـة النصرانية ردحاً من الدهر مشرقاً كالبدر ولكن بنور مستعار ثم حل به الخسوف وعمّ الظلام وما زالت البلاد تتسكع في تلك الظلمة منذ ذلك الحين » (١) .

---

(١) Lane — Poole ,*Moors in Spain* p. 280.

الفصل الأربعون

الآثار الفكرية

كان لاسبانية أثر رائع في التاريخ الفكري للعصور الوسطى الاوربية . فقد كانت الشعوب التي تتكلم العربية منذ منتصف القرن الثامن حتى اول القرن الثالث عشر هم الحملة الرئيسيين – كما مر معنا – لمشعل الثقافة والمدنية في العالم أجمع . بل كانت هذه الشعوب فوق ذلك طريقاً تسنى بواسطتها لعلوم القدماء وفلسفتهم ان تعيش وتزدهر وتعود الى اوربا بعد ان شُرحت ونمت بحيث سهلت السبيل لبزوغ عصر النهضة في غرب اوربا وقد ساهمت في هذا كله اسبانية العربية ولعبت دوراً هاماً .

اللغة والادب

غيران عرب الاندلس لم يبلغوا شأن عرب العراق في مضمار علوم اللغة والصرف والنحو وعلم المفردات . اما القالي (٩٠١–٦٧) الذي اشرنا اليه سابقاً بصفته احد كبار المدرسين بجامعة قرطبة فقد ولد في ارمينية وتعلم في بغداد . وكان في مقدمة الطلاب الذين درسوا عليه محمد ابن الحسن الزبيدي [١] (٩٢٨–٨٩) وهو من اسرة حمصية الاصل ولكنه ولد في اشبيلية . وقد عهد اليه الحكم فيما بعد ان يؤدب ابنه هشاماً ولما ملك هذا عينه للقضاء في اشبيلية . وأهم تآليف الزبيدي كتاب احتوى قائمة منسقة باسماء النحاة وفقهاء اللغة الذين زهوا قبله . وقد استعان السيوطي كثيراً بهذا الكتاب حين وضع كتابه « المزهر » . ويجب ان نذكر هنا ان قواعد اللغة العبرانية التي بنيت في الدرجة الاولى على نظام الصرف والنحو العربيين ولا تزال الى يومنا هذا تستخدم الفاظاً اصطلاحية مترجمة عما يقابلها في العربية انما ترجع اصولها الى اسبانية الاسلامية . وقد زها في قرطبة

١) انظر الثعالبي ، يتيمة الدهر ج ١ ص ٤٠٩ ؛ ابن خلكان ج ٣ ص ٣٣٨ – ٤٠ .

ابو زكريا يحيى ابن داود (حيوج جودا بن دافيد) صاحب القواعد العلمية للغة العبرانية . وفيها توفي في اول القرن الحادي عشر .

وكان من ابرز المؤلفين في الادب ابن عبد ربه (٨٦٠-٩٤٠) القرطبي شاعر عبدالرحمان الثالث (١) ويرجع بنسبه الى احد موالي هشام الاول وتستند شهرته الى مصنفه الادبي الجامع المعروف بـ « العقد الفريد » (٢) الذي يجيء بعد « الاغاني » في الاهمية بين مصنفات التاريخ العربي الادبي . بيد ان اعظم علماء الاندلس الاسلامي واخصبهم فكراً واكثرهم ابتكاراً علي ابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) وهو احد اثنين او ثلاثة من قادة الفكر الاسلامي الذين تفردوا بالانتاج العقلي الخصب وكثرة التأليف . وقد ادعى ابن حزم انه متحدر من بعض الموالي الفرس ولكنه في الحقيقة حفيد احد نصارى اسبانية الذين اسلموا . وكان في شبابه وزيراً لعبد الرحمان المستظهر ثم لهشام المعتد (٣) وكلاهما عاش في عصر ضعف الدولة. وعندما خذت الخلافة بالانحلال اعتزل السياسة واتخذ الادب حرفة . وقد نسب اليه ابن خلكان (٤) والتفطي (٥) نحو اربعمئة مجلد في التاريخ والدينيات والحديث والمنطق والشعر وغيرها من العلوم . وكان ابن حزم في الفقه والعلوم الدينية من دعاة المدرسة الظاهرية التي انقرضت من عهد بعيد . وفي كتابه « طوق الحمامة » (٦) - وهو مجموعة اشعار في الحب - دافع عن الحب العذري . اما اعظم كتبه المحفوظة وانفعها فهو « الفصل في الملل والاهواء والنحل » (٧) وهو كتاب يؤهله لمقام عالٍ بين العلماء ويمنحه شرف السبق في انه اول عالم عُني بدرس الاديان والمقارنة فيما بينها . وقد لفت المؤلف الانظار في هذا الكتاب الى بعض المشاكل في

---

١) انظر ياقوت ، ادباء ج ٢ ص ٦٧ - ٧٢ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٥٦ - ٨ .

٢) راجع ابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور (بيروت ، ١٩٣٤) . وللعقد طبعات كثيرة .

٣) ياقوت ، ادباء ج ٥ ص ٨٧ .

٤) ج ٢ ص ٢٢ .

٥) ص ٢٣٣ .

٦) نشر د . ك . بتروف (ليدن ، ١٩١٤) .

٧) ليس هناك طبعة علمية ، والطبعة التي استعنا بها هي في ٥ مجلدات (القاهرة ، ١٣٤٧ - ٨) .

اخبار التوراة مما لم يتنبه اليه احد حتى ظهور المدرسة النقدية الحديثة في القرن السادس عشر (١).

وكان لعصر ملوك الطوائف لا سيما بني عباد منهم والمرابطين والموحدين اهمية خاصة في تاريخ الادب ، اذ ان بذور الثقافة التي زرعت في العصر الاموي لم يحن زمن ازدهارها حتى ذلك الحين . وقد قضت الحروب الاهلية التي ذهبت بالدولة الاموية وما تلاها من نشوء دويلات جديدة بان تظهر اشبيلية وطليطلة وغرناطة على مسرح التقدم وتسلب قرطبة مكانتها. وكان النصارى المستعربون الذين تثقفوا بالثقافة العربية واطلعوا على آداب لغتها قد نشروا من قرطبة نفسها كثيراً من عناصر الثقافة العربية في الممالك الاخرى شمالا وجنوباً. وتظهر الحكايات والروايات والقصص الادبية التي اخذت تزدهر في اوربا الغربية خلال القرن الثالث عشر انها تأثرت تأثيراً ملموساً بالكتب العربية السابقة التي تعود الى أصول هندية فارسية . وقد نقلت حكايات « كليلة ودمنة » المتعة الى الاسبانية لالفونسو الحكيم ملك كاستيل وليون (١٢٥٢ ـ ٨٢) ثم لم تلبث ان نُقلت الى اللاتينية بقلم يهودي متنصر فاصبحت بعدئذ من المصادر التي استعان بها لافونتين كما اعترف هو نفسه . وكان هناك شبه واضح بين القصة الاسبانية المضحكة (بيكارسك) التي نشأت في ذلك العصر وبين المقامة العربية بسجعها ونوادرها اللغوية وما تضمنته من وصف المغامرات التي قام بها بطلها والمغزى الأدبي الذي تنطوي عليه . الا ان اعظم فضل للغة العربية على ادب العصور الوسطى الاوربية كان في الأثر الذي تركه اسلوبها على اسلوب الادب الاوربي وكيف ساعد على تحرير المخيّلة الغربية من الانظمة الضيقة الجامدة التي فرضها التقليد الموروث . وينم الأدب الاسباني الغني بالخيال والتزويق عن مؤثرات عربية كما تدل الفكاهة والدعابة في كتاب « دون كيخوته » (Don Quixote) تاليف ثربانتس (Cervantes) على أصل عربي للكتاب وكان المؤلف قد قضى ردحاً من الزمن سجيناً في الجزائر .

---

(١) انظر Asin, *Aben hazm de Cordoba y su historiacritica de las ideas religiosas*, 5 vol. (Madrid, 1927—32) .

لشعر

وكانت اللغة العربية اينما حلت وفي أي عصر عرفت مال ابناؤها الى قرض الشعر وروايته وانشاده فكانوا يتناقلون الوف الابيات الشعرية رواية فيعجب بالاستماع اليها الرفيع والوضيع ولم يكن ذلك لما في هذا الشعر من معان وفكر بل كان بالأكثر لما فيه من رنة موسيقية عند انشاده وجمال في ديباجته . وهذا الطرب والاعجاب الذي يستولي على نفس العربي لمجرد سماع الانشاد ووقع انغام الكلمات قد تجلى ايضاً في الاندلس بحيث ساعد على ظهور الأدباء والشعراء . وقد كان الامير الاموي الاول شاعراً ومثله عدد من خلفائه . وامتاز المعتمد بن عباد من ملوك الطوائف بموهبته الشعرية . وفاخرت اشبيلية باكبر عدد من الشعراء المجيدين الملهمين ولكن شعلة الشعر كانت قد اوقدت من قبل في قرطبة ثم تألق نورها فيما بعد في غرناطة طيلة المدة التي ظلت فيها هذه المدنية موئلاً وحمى للاسلام .

وقد انجبت اسبانية عدا ابن عبد ربه وابن حزم وابن الخطيب عدداً من الشعراء لاتزال اشعارهم تعتبر من افضل ما أثر عن الاندلسيين في هذا الميدان . منهم ابو الوليد احمد ابن زيدون (١٠٠٣ ـ ٧١) الذي يعده البعض اعظم شعراء الاندلس على الاطلاق وقد كان ابن زيدون قرشياً من بني مخزوم(١) وكان في اول امره يقوم على خدمة ابن جهور رئيس حكومة قرطبة الى ان غضب عليه على الارجح بسبب حبه للشاعرة ولادة (المتوفاة ١٠٨٧) بنت الخليفة المستكفي وكان قد خلع فيها عذاره وأشهر اشعاره فنفاه ابن جهور و بعد ان قضى الشاعر ردحاً من الزمن وهو منفي او سجين عاد فلزم المعتضد ابن عباد فانتدبه هذا لرئاسة الوزارة وامارة الجيش فعز عنده وسمي بذي الوزارتين (٢) : وزارة السيف ووزارة القلم. وادرك ابن زيدون المعتمد وكان باشارته وتأثيره ان أرسل المعتمد سنة ١٠٦٨ جيشاً على قرطبة فانتزعها من بني جهور . وفي بلاط المعتمد الذي نقل في تلك المدة الى قرطبة نشأ النزاع بين ابن زيدون وابن عمار فقد دبت الغيرة والحسد بنفس ابن عمار واخذ يدس على ابن

١) ابن خلكان ج ١ ص ٧٥ ـ ٧ .
٢) قابل المراكشي ص ٧٤ .

زيدون . وكان ابن عمار في الاصل وضيع النسب عاش اول عمره عيشة سائح يمتدح كل من يبذل له العطاء، وانتهى امر ابن عمار اخيراً في ان أغضب ولي نعمته المعتمد نفسه فامر بقتله وكان ذلك في اشبيلية سنة ١٠٨٦ (١) . واشتهر ابن زيدون فوق شاعريته بانشاء الرسائل وله رسالة مشهورة ذم فيها ابن عبدوس وزير ابن جهور لانه كان ينافسه في حب ولادة . ومن اشعار ابن زيدون في ولادة قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا (٢)

ومن اخباره معها ما كتبه اليها يصف موجدته بها وقد كرالى الزهراء ليتوارى في نواحيها واصفاً رياض الزهراء بابيات من الشعر الرقيق اتصف به شعراء الاندلس الذين تأثروا بجمال الطبيعة .

اني ذكرتـك بالزهراء مشتـاقاً والافق طلق ووجه الارض قد راقا
وللنسـيم اعتـلال في اصائـله كأنما رق لي فاعتـل اشفاقا
والروض من مائه الفضي مبتسم كما حللت عن اللبـات اطواقا
يوم كأيام لذات لنـا انصرمت بتنا لها حـين نام الدهر سرّاقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال اعناقا
كأن اعينـه اذ عاينت أرقي بكت لما بي فجال الدمع رقراقا (٣)

وكانت ولادة هذه اديبة شاعرة على غايـة ما يكون من الظرف وحسن المنظر يتهالك افراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وكان مجلسها بقرطبة منتدى ً لاحرار المصر (٤). ولقد اظهرت نساء الاندلس العربيات ميلاً خاصاً للشعر والادب فخص المقري (٥) جانباً كبيراً من كتابه « نفح الطيب » بالنساء الشهيرات في الاندلس « كي يعلم ان البراعة في اهل

---

١) المراكشي ص ٨٩ ؛ ابن خاقان ص ٩٨ ـ ٩ ؛ قابل ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٠ .
٢) الذخيرة القسم الاول ج ١ ص ٣٠٩ ـ ١١ .
٣) ابن خاقان ص ٧٣ وقد نقل عنه المقري ج ٢ ص ٥٦٧ .
٤) الذخيرة ، القسم الاول ج ١ ص ٣٧٦ .
٥) ج ٢ ص ٥٣٦ ـ ٦٣٩ .

الاندلس كالغريزة لهم حتى في نسائهم وصبيانهم ».[١]

ويلي هؤلاء الشعراء مرتبة ابو اسحاق ابن خفاجة [٢] (المتوفى ١١٣٩) وقد قضى حياته في قرية صغيرة جنوبي بلنسية دون ان يلتفت الى امتداح امراء عصره . والشاعر المتهتك محمد ابن هانيء (٩٣٧ ـ ٧٣) الذي لزم الخليفة الفاطمي المعز [٣] زمناً وله فيه المدائح المشهورة وقد اتهم ابن هانيء بمذهب الفلاسفة اليونان وبالتجرد عن الدين وابداء الغلو [٤].

الموشح

ولما تحرر الشعر العربي الاندلسي الى حد ما من قيود التقليد وتهذبت مناحيه وفنونه ، نشأت فيه أوزان جديدة واكتسب ميلاً لتذوق الجمال في الطبيعة بصورة تكاد ان تكون حديثة . وبفضل ما ظهر فيه من الاغاني القومية والاناشيد الغرامية اخذت تتجلى فيه عواطف الحب والمغامرة والبطولة التي مهدت السبيل لروح الفروسية في العصور الوسطى . وما آذن مستهل القرن الحادي عشر بالظهور حتى كان الشعر الموشح [٥] قد شق طريقه في ادب القوم في الاندلس وتبعه الزجل وكان يقسم القصيد في كل منهما الى ادوار في كل دور قرار يعاد في الانشاد وقد استعين بكلا الفنين للغناء . وهكذا كانت أواصر الارتباط بين الموسيقى والغناء والشعر متينة في كل مكان وزمان .

واول من أبدع واشتهر في الطريقة الزجلية ابو بكر ابن قزمان القرطبي (المتوفى ١١٦٠) من شعراء عهد المرابطين وكان يتنقل من بلدة الى اخرى ينظم الزجل ويمتدح به الامراء والكبراء . وكانت هذه الطريقة قبلاً تنسج عليها العامة من اهل الامصار فأصبح ابن قزمان

---

١) المقري ج ٢ ص ٥٣٦ .

٢) نشر ديوانه في القاهرة سنة ١٢٨٦ . وانظر سيرته في ابن خاقان ص ٢٣١ ـ ٤٢ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٢٣ ـ ٤ .

٣) ابن هانيء ، ديوان (بولاق ، ١٢٧٤) ص ٣ وما يلي . وانظر زاهد علي ، تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هاني (القاهرة ، ١٣٥٢) ص ١ وما يلي .

٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٧ ؛ المقري ج ٢ ص ٤٤٤ .

٥) من الوشاح الذي تلبسه المرأة وهو معطف يصنع من اديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

امامها ورفع مقامها الى مصف الصناعة الادبية (١) اما فن التوشيح فكان اول اختراعه في الاندلس ثم سرى منها الى افريقية والمشرق . ومن المجيدين في حلبته الاعمى ابو العباس التطيلي (٢) المتوفى في ريعان الشباب سنة ١١٢٦ بعد ان انشد مدائحه في علي ابن يوسف ابن تاشفين . ومنهم ابراهيم ابن سهل (٣) (المتوفى ١٢٥١ أو ١٢٦٠) شاعر اشبيلية ووشاحها الاسرائيلي وكان قد اسلم غير ان ادمانه للخمر دفع البعض الى ان يشكوا في اسلامه ، ومحمد ابن يوسف ابو حيان (١٢٥٦ ـ ١٣٤٤) الغرناطي البربري الاصل وكان يحسن لغات متعددة والف في نحو اللغة الفارسية والتركية والقبطية والحبشية (٤) . ولم يصل الينا منها سوى كتابه في نحو اللغة التركية (٥) .

وهكذا فقد كان الشعر العربي بوجه عام والغنائي بنوع خاص قد استولى على قلوب النصارى الاندلسيين وخلب البابهم فاعجبوا به واصبح من العوامل الفعالة في صبغهم بصبغة المدنية العربية . ومن الموشح والزجل نشا الشعر العامي الكاستبلي المعروف بـ « بيلياتكو Villancico » هذا الشعر الذي استعمل كثيراً في الاناشيد الدينية ومنها اغاني عيد الميلاد . اما وزن الشعر الاوربي المسدس الذي تتردد قوافيه في مصاريع الدور الواحد مرتين بحيث يرد روي في المصراع الاول وآخر في المصراع الثاني وثالث في المصراع الثالث ثم تتردد حروف الروي هذه بالتتابع في المصاريع الثلاثة اللاحقة المتممة للدور فلعله استمد طريقته هذه من الزجل العربي الاندلسي . وقد عم نظم الشعر في الاندلس بحيث زعم القزويني (٦) (المتوفى ١٢٨٣) انه قل ان يرى في شلب وهي مدينة بجنوبي البرتغال من لا يقول شعراً ولا يتعاطى

١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٥٢٤ . وقد نشر (نيكل Nykl) ازجال ابن قزمان *El concionero* (Madrid, 1933)

٢) ورد الاسم مغلوطاً في ابن خاقان ص ٢٧٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ٥١٩ .

٣) طبع ديوانه في بيروت سنة ١٨٨٥ . انظر سيرته في الكتبي ج ١ ص ٢٩ ـ ٣٥ ؛ المقري ج ٢ ص ٣٥١ ـ ٤ ؛ سوالة محمد ، ابراهيم ابن سهل (الجزائر ، ١٩١٤) .

٤) الكتبي ج ٢ ص ٣٥٦ . راجع ذكر شعراء آخرين في ابن خلدون ، المقدمة ص ٥١٨ ـ ٣٤ .

٥) الادراك لسان الاتراك ، نشر احمد كافر اوغلو (استنبول ١٩٣٠ ـ ٣١) وهو اقدم كتاب في نحو اللغة التركية أو ثاني كتاب في القدمية .

٦) الآثار ص ٣٦٤ .

الأدب ولو مررت بالحراث خلف فدانه وسألته الشعر لقرض في ساعته اي معنى اقترحت عليه واي معنى طلبته منه صحيحاً .وفي هذا ما يذكرنا بما يشبهه في لبنان حيث يرتجل «القوالون» الشعر العامي ويسمون بعضه الزجل او الموشح .

وان ظهور فن خاص من شعر الحب العذري في اللغة الاسبانية منذ القرن الثامن راجع الى تأثير الشعر العربي . ففي فرنسا الجنوبية لم يظهر شعراء البروفنسال تماماً حتى اواخر القرن الحادي عشر وعندئذ اخذت قصائدهم تفيض بالحب واخذت اللغة تعبر عن عواطفهم مستعينة بالمجاز المعنوي والخيال الرشيق . واخذت طبقة الـ « تروبادور » (١) التي زهت في القرن الثاني عشر تقلد معاصريها الجنوبيين منشدي الزجل . واتباعاً للطريقة العربية ظهر النسيب اي التشبيب بالمرأة فجأة في اشعار اوربا الجنوبية الغربية . اما « اغنية رولاند » فهي مدينة في وجودها لبعض الصلات الحربية التي نشأت بين الاوربيين وبين مسلمي الاندلس. وتعتبر هذه الاغنية ابرز اثر واسمى تراث في الأدب الاوربي الذي بزغ فجره قبل سنة ١٠٨٠ مؤذناً بطلوع شمس مدنية جديدة ـ هي مدنية اوربا الغربية ـ كما كانت اشعار هوميروس فاتحة عصر الاغريق وبزوغ شمسهم في التاريخ .

التربية

قام منهاج التعليم الابتدائي في الاندلس ـ كما قام في جميع البلدان الاسلامية ـ على كتابة الخط وقراءة القرآن وعلى تعلم الصرف والنحو والشعر. ومع ان التعليم كان بالاكثر امراً خاصاً فانه قد انتشر فيما بين الاوساط الاسلامية بالاندلس بحيث كانت هناك نسبة عظيمة من الناس تحسن القراءة والكتابة وهو شيء لم تعرفه اوربا في ذلك الزمن . وقد كان لوظيفة المدرس البسيط في المدارس الابتدائية في الاندلس من المكانة فوق ما كان له في اي بلد آخر من البلدان الاسلامية . ودل مقام المرأة في الحياة العلمية كما أظهر المقري في كتابه وايدته وقائع التاريخ الادبي على أن الاندلس لم تلتفت كثيراً للتقاليد او النظم التي كانت تحول بين المرأة والتعلم .

---

١) لعل هذه اللفظة مشتقة من كلمة «طرب» العربية. انظر Ribéra, *Disertaciones*, vol. ii, p. 141

اما التعليم العالي فقد قام على تفسير القرآن وعلى الدينيات والفلسفة واصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية . وقد كان في بعض المدن الرئيسية مدارس كبرى يصح تسميتها بالجامعات وفي طليعة هذه المدن قرطبة واشبيلية ومالقة وغرناطة . وبين دوائر التدريس التي تضمنتها جامعة قرطبة دائرة للفلك ودوائر اخرى للرياضيات والطب والعلوم الدينية والشرعية . وقد بلغ عدد الطلاب المنتسبين اليها بضعة آلاف واصبحت شهادتها سبيلاً الى الوصول الى اوفر المناصب دخلاً في الدولة. اما جامعة غرناطة فقد اسسها يوسف ابوالحجاج (١٣٣٣ - ٥٤) سابع سلاطين بني نصر وكان ديوان هذا السلطان قد ازدان بالمؤرخ الشاعر لسان الدين ابن الخطيب (١) . وقد وضعت امام المداخل في بناية هذه الجامعة تماثيل اسود من الحجر كأنها تحرسها . وكان في منهاجها عدد من الدروس العلمية منها علوم الدين والفقه والطب والكيمياء والفلسفة والفلك . وكان يؤمها الطلاب من كاستيل وغيرها من الاوساط الاجنبية . وجرت العادة فيها وفي غيرها من الجامعات ان تقام حفلات عامة واخرى تذكارية تتلى فيها الخطب والاشعار المبتكرة ، يلقيها في الغالب اساتذة من الجامعة نفسها . وهناك قول مألوف كان ينقش غالباً فوق ابواب اكثر هذه المعاهد مضمونه ان العالم يقوم على اربعة امور فقط : علم الحكماء ، وعدل العظماء ، ودعاء الصلحاء ، وشجاعة الشجعان .

وقد نشأت الى جانب الجامعات خزائن للكتب. اما الخزانة الملكية في قرطبة التي اسسها محمد الاول (٨٥٢ - ٨٦) ووسعها عبد الرحمان الثالث فقد اصبحت اوسع واعظم مكتبة حين اضاف اليها الحكم الثانى مكتبته الخاصة . وقد كان لكثير من مشاهير الرجال والنساء مكتبات خاصة .

الكتب

ان خصائص الحياة الاسلامية الخاصة التي لم تألف المحافل السياسية ومراسح التمثيل المعروفة منذ القدم في بلاد اليونان وروما قد قضت ان تكون الكتب وحدها تقريباً السبيل

---

١) اللمحة ص ٩١، ٩٦ ، وقد استعادت غرناطة في السنوات الاخيرة شهرتها السابقة كمركز للدراسات العربية في اسبانية .

الى تحصيل المعرفة . وتفردت قرطبة في انها كانت في مقدمة اسواق الكتب في الاندلس وفي الحادثة التالية ما يشير الى شيء من روج ذلك العصر :

« قال الحضرمي : اقمت مدة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة ارقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح ففرحت به اشد الفرح فجعلت ازيد في ثمنه فيرجع الي المنادي بالزيادة علي الى ان بلغ فوق حده فقلت له يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوي . قال فأراني شخصاً عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له : اعز الله سيدنا الفقيه ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي لست بفقيه ولا ادري ما فيه ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير » (١) .

الورق

ولم تكن سوق الكتب لتروج الى ذلك الحد لولا صناعة الورق المحلية . وقد كانت هذه الصناعة من أجل الخدمات التي اسداها الاسلام الى اوربا ولولاها لما تم اختراع الآلة الطابعة ذات الحروف المتحركة – هذا الاختراع الذي نجز في المانيا حوالي منتصف القرن الخامس – ولولا الورق والآلة الطابعة معاً لما تيسر للعلم أن ينتشر في اوربا بهذه الصورة العامة التي انتشر فيها . وقد سرت هذه الصناعة الى اسبانية من مراكش في منتصف القرن الثاني عشر . وكانت قد سرت الى مراكش من الشرق . ويظهر مما يذكره ياقوت (٢) ان شاطبة كانت مركز هذه الصناعة في اسبانية . ومن الالفاظ التي تشير الى هذا الانتقال لفظة « ريم » الانكليزية ream فهي مأخوذة من اللفظة الفرنسية القديمة rayme وهذه من resma الاسبانية المشتقة من « رزمة » العربية . وقد ظهرت هذه الصناعة بعدئذ في ايطاليا (حوالي

---

١) المقري ج ١ ص ٣٠٢ .

٢) ج ٣ ص ٢٣٥ .

١٢٦٨ - ٧٦) وكان ذلك بتأثير المسلمين في صقلية . اما فرنسا فقد انتقلت اليها صناعة الورق من اسبانية لا من الصليبيين العائدين كما زعم البعض . وقد انتشرت هذه الصناعة من هذه البلدان الى بقية البلدان في اوربا . وكان لعبد الرحمان كاتب اعتاد أن ينشىء الرسائل الرسمية في منزله ثم ينفذها الى ديوان خاص يصير فيه اظهارها على الورق - وهو نوع من الطبع - فتصدر في نسخ متعددة توزع على عمال الدولة (١) .

و بعد انقراض السلطة الاسلامية في اسبانية تخلف عن العرب فيها طائفة من الكتب العربية تكاد تبلغ الفي مجلد قام فيليب الثاني (١٥٥٦ - ٩٨) وخلفاؤه بجمعها من مختلف مخازن الكتب العربية في البلاد ، وقد اصبحت هذه المجموعة نواة لمكتبة الاسكوريال التي لا تزال بظاهر مدينة مدريد . وحدث في اوائل القرن السابع عشر انه حين هرب الشريف زيدان سلطان مراكش من عاصمته ارسل خزانة كتبه في سفينة ولكن الربان ابى أن يوصل الكتب الى الميناء المقصود لأنه لم يعط أجرته سلفاً واتجه بسفينته نحو مرسيليا فوقعت في ايدي بعض قرصان البحر الاسبانيين وقد انتقلت هذه الكتب اخيراً الى فيليب الثالث فأمر بايداعها في مكتبة الاسكوريال وبهذا أصبحت هذه المكتبة من اغنى المكاتب بالمخطوطات العربية (٢) .

كتابة التاريخ

لقد تأخر في اسبانية نشوء فقه اللغة العربية والعلوم الدينية وكتابة التاريخ وعلم الفلك والجغرافية وغيرها من العلوم لأنه لم يكن عند الاسبان اهل البلاد من العلم والفن ما يفيدون به العرب بخلاف ما كانت عليه الحالة في الشام والعراق حين دخلهما الفاتحون . حتى بعد نشوء العلوم الاسبانية فانها ظلت متأخرة بالنسبة الى ما بلغته العلوم الاسلامية في خلافة المشرق . اما الميادين الرئيسية التي ظهرت فيها براعة المسلمين في المغرب فهي في علوم النبات

---

١) ابن الابار ، الحلة ص ١٣٧ .

٢) انظر فهرس كتبها : *Les manuscrits arabes de l'Escurial*, by Hartwig Derenbourg, 2 vols. (Paris. 1884 — 1903), vol. iii, revised by Lévi — Provençal (Paris, 1928) .

والطب والفلسفة والرياضيات الفلكية والجغرافية .

وكان من اقدم مؤرخي الاندلس واشهرهم ابو بكر ابن عمر المعروف بابن القوطية (١) وقد ولد في قرطبة وفيها نشأ ولمع الى ان توفي سنة ٩٩٧ . وله من الكتب « تاريخ افتتاح (أوفتح) الاندلس » (٢) . ويبدأ من الفتح الاسلامي فيها وينتهي عند اول عهد عبد الرحمان الثالث . وكان ابن القوطية من النحاة ايضاً . وله مصنف في تصريف الافعال (٣) يعد اول كتاب ألف في هذا الموضوع . وهناك مؤرخ متقدم آخر هو ابو مروان حيان (٩٨٧ او ٩٨٨ – ١٠٧٦) وهو يفوق ابن قوطية في كثرة تآليفه فقد نسب اليه ما لا يقل عن خمسين مؤلفاً منها كتاب « المتين » في ستين مجلداً . ولم يُحفظ لنا من هذه الكتب لسوء الحظ سوى كتاب واحد هو « المقتبس في تاريخ رجال الاندلس » . (٤) ومن المؤرخين ايضاً عبد الواحد المراكشي وقد تنقل في بلاد اسبانية ويعد كتابه « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » (٥) الذي وضعه سنة ١٢٢٤ اكثر الكتب فائدة عن عصر الموحدين .

وقد انجبت الاندلس عدداً من كتاب السير في طليعتهم ابو الوليد عبد الله ابن محمد الفرضي الذي ولد عام ٩٦٢ بقرطبة حيث درس وتعاطى التدريس . ولما بلغ الثلاثين من عمره خرج حاجاً واستمع الى العلماء في القيروان والقاهرة ومكة والمدينة . ثم عين بعد عودته قاضياً في بلنسية . واخيراً قتله البربر في داره في قرطبة يوم فتحوها عام ١٠١٣ . ولم يعثر على جثته حتى اليوم الرابع من قتله وقد انتنت بحيث دفن من غير غسل ولا كفن ولا صلاة (٦) . ولم يبق من كتب ابن الفرضي سوى « تاريخ علماء الاندلس (٧) وهو مجموعة من تراجم الاعلام

---

١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ج ١ ص ٤١١ – ١٢ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٦ – ٨ ؛ السيوطي ، بغية الوعاة ص ٨٤ – ٥ .
٢) (مدريد ، ١٨٦٨) وقد ترجمه ريبيرا الى الاسبانية .
٣) كتاب الافعال نشر جويدي (ليدن ، ١٨٩٤) .
٤) نشر انطونية القسم الثالث (باريس ، ١٩٣٧) .
٥) نشر دوزي ، الطبعة الثانية (ليدن ، ١٨٨١) .
٦) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٠ ؛ المقري ج ١ ص ٥٠٦ .
٧) نشره فرنسيسكو كودرا بمجلدين (مدريد ١٨٩٠ – ٩٢) .

الاندلسيين وقد اضاف اليها ابن بشكوال ابو القاسم خلف ابن عبد الملك مواد جديدة في مجلد انهاه عام ١١٣٩ وسماه « الصلة في تاريخ أئمة الاندلس »(١) . والكتاب الاخير هو احد الكتابين الوحيدين اللذين حفظا من تآليف ابن بشكوال التي يقال انها بلغت نحو خمسين كتاباً (٢) . وكان ابن بشكوال من قرطبة ولد فيها عام ١١٠١ ومات فيها عام ١١٨٣ . ثم ظهر ابو عبد الله محمد ابن الأبّار (١١٩٩ – ١٢٦٠) البلنسي فأكمل كتاب الصلة وسمى كتابه « التكملة لكتاب الصلة » (٣) . وصنف زيادة على هذا « الحلة السيراء » (٤) وهي مجموعة تراجم . ونذكر اخيراً الضبي أبا جعفر احمد ابن يحيى (المتوفى ١٢٠٣) وقد زها في مرسية ووضع كتاباً قيا في اعلام الاندلسيين اسمه « بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس » (٥) .

ولنا في تاريخ العلم كتاب « طبقات الامم » (٦) . لابي القاسم صاعد ابن احمد الطليطلي (٧) (١٠٢٩ – ٧٠) وهو من المصادر التي استند اليها القفطي وابن ابي اصيبعة وابن العبري . وقد تولى صاعد القضاء في طليطلة في عهد بني ذي النون وامتاز في علوم التاريخ والرياضيات والفلك .

وكان ابرز رجال الأدب والتاريخ الذين ظهروا في المغرب عالمان صديقان هما ابن الخطيب وابن خلدون وكانا موظفين في بلاط بني نصر .

---

١) نشره كودرا بمجلدين (مدريد ١٨٨٢–٣) .

٢) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، الطبعة الثانية ج ٤ (حيدر آباد، ١٣٣٤) ص ١٢٩ . وقابل ابن خلكان ج ١ ص ٣٠٥–٦ .

٣) نشر كودرا قسماً منه بمجلدين (مدريد، ١٨٨٦–٩) ونشر الاركون وبلنسية قسماً آخر (مدريد، ١٩١٥) وأتم نشره الفرد بل ومحمد ابن شنب (الجزائر، ١٩١٩–٢٠) . وراجع سيرة ابن ابار في الكتبي ج٢ ص٢٨٢–٤ ؛ وابن خلكان ج ١ ص٧٧ .

٤) نشر قسماً منه دوزي (ليدن، ١٨٤٧–٥١) .

٥) نشر كودرا وريبيرا (مدريد، ١٨٨٤–٥) .

٦) نشر شيخو (بيروت ، ١٩١٢) .

٧) الضبي، بغية الملتمس ص ٣١١ .

اما ابن الخطيب (١) (١٣١٣ ـ ٧٤) فقد تحدر من اسرة عربية هجرت الشام ونزلت اسبانية . وكان ابن الخطيب قد استطاع ايام يوسف ابي الحجاج السلطان السابع من بني نصر وأيام ابنه محمد الخامس (١٣٥٤ ـ ٥٩، ١٣٦٢ ـ ٩١) أن يصل الى الوزارة وقد اطلق عليه لقب « ذي الوزارتين » ، ثم اضطر في سنة ١٣٧١ ان يهرب من غرناطة بسبب الدسائس التي حيكت له في البلاط . ولم تطل حياته بعد ذلك فقد مات مخنوقاً سنة ١٣٧٤ في فاس بيد بعض اعدائه . وبموته خسرت غرناطة ان لم نقل الاندلس كلها آخر من عرف فيها من العلماء والشعراء والسياسيين . ولم يحفظ لنا من الكتب الستين التي وضعها ابن الخطيب واكثرها في الشعر والادب والتاريخ والجغرافية والطب والفلسفة الا نحو عشرين أهمها وانفسها عندنا كتاب « الاحاطة في اخبار غرناطة » (٢) .

ولد عبد الرحمان ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) في تونس وقد تحدر من اسرة اسبانية عربية يرجع نسبها الى قبيلة كندة المشهورة . وكان جد هذه الأسرة الأكبر قد هجر اليمن في القرن التاسع ونزل اسبانية ، وازدهرت ذريته في اشبيلية وظلت معروفة حتى القرن الثالث عشر . اما عبد الرحمان نفسه فقد تقلد عدداً من المناصب الرفيعة في فاس ثم غضب عليه ولي الامر فيها فهجرها الى غرناطة حيث انخرط في خدمة السلطان محمد الخامس سنة ١٣٦١ . ووكل اليه السلطان مهمة التوسط في الصلح بينه وبين بلاط الكاستيل . وبعد سنتين عاد ابن خلدون الى المغرب بعد أن ثارت عليه عواطف الحسد في قلب صديقه ابن الخطيب . وشغل في المغرب وظائف مختلفة الى ان اعتزل اخيراً العمل وسكن قلعة ابن سلامة (٣) حيث اخذ يضع مؤلفه في التاريخ وقد ظل هناك حتى سنة ١٣٧٨ . وقصد الحج سنة ١٣٨٢ ولكن رحلته لم تتعد القاهرة حيث اقام ولزم التدريس في جامعها الازهر . وبعد

١) افرد المقري الشطر الثاني من « نفح الطيب » لسيرة ابن الخطيب ومؤلفاته . وكان المقري من تلمسان ولكنه قام بتأليف كتابه هذا ـ وهو المصدر الرئيسي لدراسة تاريخ الاندلس الأدبي ـ في دمشق بين سنتي ١٦٢٨ و ١٦٣٠ .

٢) في مجلدين (القاهرة ، ١٣١٩) وهي طبعة خاصة لموجز لهذا الكتاب .

٣) تسمى اليوم توغزوت وهي شرقي تلمسان بشمالي الجزائر .

سنتين اعين لرئاسة القضاء في القاهرة على المذهب المالكي وكان ذلك بامر السلطان المملوك الظاهر برقوق . وفي سنة ١٤٠١ رافق ابن خلدون الملك الناصر خلف السلطان برقوق الى دمشق في حملته على تيمورلنك المخيف . وقد وفد ابن خلدون على تيمورلنك فاكرم وفادته . وهكذا فقد تسنى لهذا المؤرخ ان يلعب دوراً هاماً في الامور السياسية بشمالي افريقية واسبانية واعانه ذلك على كتابة مؤلفه العظيم . ويشتمل تاريخه الكبير الجامع « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر » (١) على ثلاثة اقسام اولها المقدمة (٢) وهي في مجلد واحد يليها قسم ثان وهو اكبر الاقسام يلم بالعرب والاقوام المجاورة لهم ويدور القسم الثالث على تاريخ موجز للبربر والدول الاسلامية في افريقية الشمالية . ويؤخذ على ابن خلدون ان النظريات التي وضعها في النقد التاريخي وأجاد ايضاحها في مقدمته لم تطبق في الكتاب نفسه في معالجته تاريخ العرب . على ان القسم الذي يدور على قبائل العرب والبربر في المغرب سيبقى دائماً من الآثار القيمة .

وترتكز شهرة ابن خلدون على مقدمته وقد ورد فيها لاول مرة نظرية النشوء التاريخي المبنية على الاخذ بعامل المناخ والجغرافية وتأثير العوامل الخلقية والروحية في مجرى حوادث التاريخ . ويعتبر ابن خلدون مخترع طريقة مبتدعة — كما قال عن نفسه — (٣) في علم التاريخ والعمران وذلك من حيث سعيه للبحث عن قوانين التقدم والانحلال القومي . او على الاقل يعتبر انه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع . وليس بين الكتاب العرب او الاوربيين من نظر الى التاريخ نظرة تعادل نظرة ابن خلدون شمولا وفلسفياً . وقد اجمع النقاد على انه اعظم فيلسوف مؤرخ انتجه الاسلام وانه من اعظم المؤرخين في العالم .

الجغرافية

لقد كان أشهر الجغرافيين في القرن الحادي عشر اندلسياً وهو ابو عبيد الله البكري وكان

---

١) في سبعة مجلدات (القاهرة ، ١٢٨٤) وقد اورد المؤلف سيرة حياته في آخر المجلد السابع ابتداء من ص ٣٧٩ . وهذه النبذة هي افضل المصادر لتاريخ حياته .

٢) لقد ظهرت طبعة كاترمير في ٣ مجلدات (باريس ، ١٨٥٨) قبل طبعة القاهرة .

٣) المقدمة ص ٤ — ٥ .

ابرع المؤلفين الجغرافيين وراسمي الخرائط في القرن الثاني عشر بل في كل العصور الوسطى رجلاً تحدر من اسرة اسبانية عربية ملكية وتلقى علومه في الاندلس وهو الادريسي .

اما ابو عبيد الله ابن عبد العزيز البكري [١] فهو اول الجغرافيين المسلمين في المغرب ممن حفظت كتبهم وقد زها في قرطبة وفيها توفي عام ١٠٩٤ بعد ان عمر طويلاً وكان اديباً وشاعراً وضليعاً في اللغة وقد نال شهرة بتأليفه الكبير المسمى « المسالك والممالك » [٢] وقد وضع هذا الكتاب كمعظم التآليف الجغرافيـة في العصور الوسطى بشكل كتاب اسفار . وقد ضاع قسم منه .

وأما الادريسي فقد ولد في سبتة عام ١١٠٠ وزها في بلاط روجار الثاني ملك صقليـة النورمندي وكان مفخرة في عهد ذلك الملك وسنلم بحياته عند البحث في موضوع « العرب في صقلية » .

الاسفار

ولم تعرف التآليف الجغرافية بعد الادريسي شيئاً من الابتكار والجدة وكان جل ما فيها اخباراً لأسفار الرحالين التي كثرت في تلك الازمنة . وأهم هؤلاء الرحالين ابو الحسين محمد ابن احمد المعروف بابن جبير [٣] وقد ولد في بلنسية عام ١١٤٥ واخذ علومه في شاطبـة . ثم قام بين عامي ١١٨٣ و ١١٨٥ برحلة من غرناطة الى مكة وعاد بعـد ان زار مصر والعراق وسورية ــ وكانت بعض انحائها لا تزال في قبضة الصليبيين ــ وصقلية . وساح في المشرق في رحلتين اخريين عام ١١٨٩ ــ ١١٩١ وعـام ١٢١٧ . ولكنه لم يبلغ في الرحلة الاخيرة الا الاسكندريـة حيث توفي . اما كتابه « رحلة ابن جبير » [٤] فهو وصف لتفاصيل رحلتـه الاولى ويعد من أوفى الكتب العربية في باب الاسفار . ومن هؤلاء الرحالين الجغرافيين ايضاً

---

١) راجع ابن بشكوال ج ١ ص ٢٨٢ ؛ السيوطي ، بغية الوعاة ص ٢٨٥ .
١) نشر قسماً منه دي سلان (الجزائر، ١٨٥٧).
٣) انظر بشأنه المقري ج١ ص ٧١٤ وما يلي .
٤) نشر وليم رايت، والطبعة الثانية نشر دي غويه (ليدن، ١٩٠٧) .

ابو حامد محمد المازني (١٠٨٠ / ١ - ١١٦٩ / ٧٠) الغرناطي وقد زار روسية عام ١١٣٦ . وشاهد عند البلغار في اراضي الفولكا نشاط حركة تجارية لم يشر اليها مصدر آخر وذكر ما رآه من تجارة العاج المتحجر الذي تخلف عن الافيال الضخمة المنقرضة وكان يصدر حتى خوارزم البعيدة وتصنع منه الامشاط وصناديق الزينة (١) .

غير ان اسفار ابن جبير والمازني لا تعد شيئاً بالنسبة الى رحلة محمد ابن عبد الله العربي المراكشي المعروف بابن بطوطة اشهر رحالة مسلم في العصور الوسطى . وقد ولد ابن بطوطة في طنجة عام ١٣٠٤ ومات في مراكش عام ١٣٧٧ . وارتحل في الربع الثاني من القرن المذكور الى مكة اربع مرات تسنى له فيها زيارة جميع انحاء العالم الاسلامي . وبلغ شرقاً جزيرة سرنديب (سيلان) والبنغال وجزائر مالديف والصين . وزار القسطنطينية ايضاً . وتوغل في اسفاره الاخيرة عام ١٣٥٣ حتى اواسط افريقيـة . وليس في كتابه مـا يدعو الى الشك في صحته سوى ادعائه الوصول الى مدينة بلغار بالقرب من قازان والفولكا (٢) .

اثر هذه الدراسات الجغرافية في الغرب

لم يكن لهذه الدراسات الجغرافية العربية سوى أثر محدود في الغرب . من ذلك انها أبقت على الفكرة القديمة القائلة بكروية الارض ولولا هذه الفكرة لما تم الكشف عن العالم الجديد . ومن القائلين بهذه الفكرة ابو عبيدة مسلم البلنسي الذي زها في الشطر الاول من القرن العاشر (٣) ومن ذلك ايضاً انها نشرت الفكرة الهندية التي تذهب الى ان نصف الكرة الارضية المعروف له مركز أو قمة او قبة على ابعاد متساوية من الخوافق الاربعة - وهي نظرية الـ « آرين » التي وصلت الى مصنف لاتيني صدر عام ١٤١٠ . ومنها اتخذ كولبس مذهبه الذي قاده الى الاعتقاد بان شكل الارض يشبه شكل الاجاصة وان في نصفها

---

١) تحفة الالباب نشر غابريال فراند Gabriel Ferrand, *Journal asiatique*, vol. ccvii (1925) p. 238 .

٢) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار نشر دفريمري وسانغوينتي ، الطبعة الثالثة (باريس، ١٨٧٩ - ٩٣) ج٢ ص٣٩٨-٩ .

٣) صاعد ، طبقات الامم ص٦٤ ؛ ابن حزم ج٢ ص٧٨-٩ .

العربي الذي يقابل الارين مركزاً آخر يرتفع على هيئة القمة . غير ان الافكار العربية انتقلت الى العلوم الغربية بصورة اوسع وكان ذلك في مضمار الجغرافية الفلكية والرياضيات .

الفلك والرياضيات

لقد كثر الاقبال على العلوم الفلكية في اسبانية واخذت ترتقي بعد منتصف القرن العاشر . وقد فازت هذه العلوم برعاية الامراء والحكام في قرطبة واشبيلية وطليطلة . وقد كان معظم فلكيي الاندلس يجارون ابا معشر البغدادي في القول بان علل اهم الحوادث الطارئة على الانسان بين الولادة والوفاة انما هي راجعة لتأثير النجوم . وقضت دراسة هذه العلل - علم التنجيم - الى تحديد مراكز الاماكن في الارض ووضع اقيسة الطول والعرض لها . وبهذا اصبح علم التنجيم أباً لعلم الفلك . ثم نفذت أخيراً هذه المؤثرات الشرقية من اسبانية الى الغرب اللاتيني ووجهته الى دراسة الفلك والتنجيم . وقد نقلت معظم كتب الفلك الاسلامية في اسبانية الى اللاتينية وليست جداول الفلك التي وضعها الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر فنسبت اليه الا أمثلة على الفلك العربي في حالة من حالات تطوره .

لقد بنى الفلكيون العرب الاسبان على اساس ما سبق من تآليف زملائهم واخوانهم في الدين المشارقة . فأخرجوا نظام ارسطو مستقلاً عن نظام بطليموس - وهاجموا باسم ارسطو فكرة بطليموس في تصوير الحركات الفلكية . وكان في مقدمة رجال هذا الميدان عند العرب الاسبان المجريطي القرطبي [١] (المتوفى نحو ١٠٠٧) والزرقلي الطليطلي (نحو ١٠٢٩ - نحو ١٠٨٧) وابن افلح الاشبيلي (المتوفى بين ١١٤٠ و ١١٥٠) .

وكان ابو القاسم مسلمة المجريطي اول علماء الاسلام الاندلسيين من ذوي الشأن وقد حرر زيج الخوارزمي [٢] ونقحه وهو اول زيج ألفه مسلم . ولعل اصول هذا الزيج من التقويم القديم الذي يعود لعهد يزدجرد وقد بناها على التقويم الهجري . ويدل كذلك خط الطول

---

١) ولد في مجريط (مدريد) .

٢) صاعد ، ص٦٩ ونقل عنه ابن ابي اصيبعة ج٢ ص٣٩ . قابل القفطي ص٣٢٦ . وقد كان صاعد فلكياً وانتقد المجريطي .

الآرينسي بخط طول قرطبة . وفي عـام ١١٢٦ وضع ادلارد اوف باث نصباً لاتينياً للزيج المنسوب للخوارزمي . و بعد ذلك بأربع عشرة سنة نقل افلاطون التيفولي (Plato of Tivoli) الى اللاتينية زيجاً هاماً آخر هو زيج البتاني الراجع الى عام ٩٠٠ ثم نقل هذا الزيج نفسه الى الاسبانية من العربيـة مباشرة وكان ذلك باشراف الفونسو العاشر (المتوفى ١٢٨٤) الملقب بالحكيم والفلكي . وكان من القـاب المجريطي الفخرية لقب « الحاسب » لأنه كان يعد إماماً في العلوم الرياضية ومنها علم القياس . وكان المجريطي او تلميذه القرطبي ابو الحكم عمرو الكرماني [١] (المتوفى ١٠٦٦) اول من أدخل الى الاندلس رسائل اخوان الصفاء .

وهناك الزيج المعروف بالطليطلي وقد وضع على أساس ارصاد قام بها فلكيون مسلمون ويهود اخصهم الزرقالي (نحو ١٠٢٩ ـ ٨٧) وابو اسحاق ابراهيم ابن يحيى . وقد حوى هذا الزيج معلومات جغرافية مستقاة من كتب بطليموس والخوارزمي وقد نقله الى اللاتينية في القرن الثاني عشر جرارد الكرموني . اما كتب ريموند المرسيلي فانها كذلك مستقاة بالاكثر (١١٤٠) من قوانين الفلك التي وضعها الزرقالي . وكان بطليموس قد بالغ في تخمين طول البحر المتوسط فجعله ٦٢ درجة ثم انقصه الخوارزمي الى ٥٢ والراجح ان الزرقالي انقصها الى ٤٢ وهو اقرب رقم الى الطول الصحيح . ومن الواضح ان الزرقالي كان ابرع الراصدين في عصره [٢] فقد وضع نوعـاً من الاسطرلاب فيه شيء من التحسين عما سبقه يسمى « الصفيحة » [٣] فكان اول من اثبت حركة الاوج الشمسي بالنسبة الى النجوم . و بموجب قياساته بلغت هـذه الحركة $\frac{٤}{١٠٠}$ ١٢ دقيقة بينما قياسها الحقيقي $\frac{٨}{١٠}$ ١١ دقيقة . وقد اقتبس كوبرنيكس عن الزرقالي وعن البتاني في كتابه *De revolutionibus orbium coelestium* .

وقد انتقد جابر ابن أفلح في « كتاب الهيئة » [٤] بطليموس واثبت بحق ان السيارات

---

١) صاعد ص ٧١ .

٢) صاعد ص ٧٥ .

٣) القفطي ص ٥٧ ؛ قابل الخوارزمي ، مفاتيح ص ٢٣٣ ـ ٤ .

٤) قابل القفطي ص ٣١٩ ، ٣٩٣ ؛ حاجي خلفه ج ٦ ص ٥٠٦ . ولم يصلنا هذا الكتاب الا بشكل مخطوطـة شأن اكثر المؤلفات الفلكية .

السفلى عطارد والزهرة ليس لزواياهما اختلاف مرئي اذا نظر اليهما من نقطتين مختلفتين . وقد نقل هذا الكتاب جرارد الكرموني الى اللاتينية . ويمتاز بفصل في المثلثات المسطحة والكروية وكان البتاني قبل ذلك بمئتي وخمسين سنة قد عم ان لم نقل اكتشف الفِكَرَ الاولى عن النسب المثلثية كما نعهدها اليوم . ان علم المثلثات كالجبر والهندسة يعود الفضل في تأسيسه بالاكثر الى العرب !

وكان في طليعة علماء الفلك الاندلسيين في الحقبة الاخيرة نور الدين ابو اسحاق البطروجي [١] (المتوفى نحو ١٢٠٤) وهو تلميذ ابن طفيل . وله « كتاب الهيئة »[٢] وقد عالج فيه صورة الاجرام الفلكية . ويتميز هذا الكتاب ببحثه للنظرية الخاطئة القائلة بان للاجرام الكروية مراكز متناسبة ومحاولته احياءها مع شيء من التعديل . ولئن كان البطروجي يعتبر من اعلام الفلك المجددين فانه في الواقع من معيدي النظام الارسطوطاليسي . ويعد كتابه قمة الحركة الاسلامية المقاومة لآراء بطليموس في الفلك . وفي ختام القرن الثاني عشر كان قد نقل الى اللاتينية من العربية كثير من مؤلفات ارسطو في الفلك والطبيعيات والمترولوجيا وقد ظهرت في هذه الكتب معظم آراء ارسطو الجغرافية .

وقد ترك علماء الفلك العرب آثاراً خالدة في اسماء النجوم التي يتحلى بها الفلك تدل على مدى نشاطهم واجتهادهم وليست معظم اسماء النجوم في اللغات الاوربية الآن مثل « العقرب » و « الجدي » و « الطائر » و « والذنب » و « الفرقد » [٣] عربية الاصل فقط ، بل ان كثيراً من المصطلحات الفلكية الفنية يرجع الى اصل عربي كـ « السموت » و « النظير » و « السمت » وغيرها . وفي مفردات علم الرياضيات في اللغات الاوربية شاهد آخر لأثر العرب العلمي . ففي ما عدا الكلمات المستعارة امثال «algebra» و «algorism» المشار اليهما سابقاً هناك كلمات عربية نقلت الى اللاتينية واستعملت في شكلها المترجم . من

---

١) نسبة الى بدروخه شمالي قرطبة .
٢) نقله الى اللاتينية مخائيل سكوت سنة ١٢١٧ ونقل الى العبرانية سنة ١٢٥٩ .
٣) راجع امين معلوف ، المعجم الفلكي (القاهرة ، ١٩٣٥) .

هذه كلمة «surd» ومعناها « أصم » وقد وصلت الى الانكليزية عن اللاتينية في القرن السادس عشر وهي ترجمة « الجذر الأصم » في العربيــة . وفي علم المثلثـات لفظة «sine» وهي ترجمة لكلمة « جيب » العربية المأخوذة بدورها من لفظة « جيفا » السنكريتية . وكان اول من استعمل لفظة «sinus» للتعبير عن معنى « جيب » في علم المثلثات الرياضي روبرت اوف تشستر «Robert of Chester» الانكليزي الذي لمع في منتصف القرن الثاني عشر .

ومن أهم الالفاظ المستعارة من العربية لفظة « cipher » أو « zero » (صفر) فمع ان العرب لم يخترعوا الصفر كما اشرنا فانهم اول من ادخله مع الارقام الهنـدية الى اوربا فعلّموا الغربيين طريقة استعمال هذه الأداة المصطلح عليها و بذلك سهلوا استعمال الحساب في الحياة اليومية . وللصفر في نظام الارقام أهمية عظمى وتوضع الاصفار لحفظ المراتب في المواضع التي ليس فيها اعداد (١) .ولولا الصفر لاضطررنا الى ترتيب الارقام في قوائم للآحـاد والعشرات والمئات الى آخره ولجأنا الى استعمال آلة للحساب .

وقد رأينا فيما سبق ان الخوارزمي كان اول من دعا الى استعمال الارقام ومنها الصفر عوضاً عن الحروف وقد دعا الى ذلك في ما كتبه في الشطر الاول من القرن التاسع وسمى هذه الارقام بالارقام الهندية اشارة الى اصلها . ثم ان كتابـه في اصول الحساب الهنـدي نقل الى اللاتينية وقد نقله ادلارد اوف باث في القرن الثاني عشر وفُقد بعد ذلك الاصـل العربي . وفضلاً عن ذلك فان المسلمين في اسبانيــة استعانوا في الشطر الثـاني من القرن التاسع بارقام تختلف نوعاً ما في صورتها عن الارقام الهندية تسمى حروف الغبار وكانت تستعمل في الاصل للحساب على آلة رملية « sand abacus » . ويرجع اكثر العلماء منشأ ارقام الغبار الى بـلاد الهند بينما يقول البعض انها رومانية الاصل وقد عرفت في اسبانية قبل مجيء العرب(٢) . وان اول من وصف حروف الغبار وصفاً علمياً غربرت (Gerbert) وكان قد زار اسبانية قبل ان

---

١) الخوارزمي ، مفاتيح ص ١٩٤

٢) David E. Smith and Louis C. Karpinski, *The Hindu - Arabic Numerals* (Boston and London, 1911), pp. 65 *seq*; Solomon Gandz in *Isis*, vol. xvi (1931), pp.393 - 424.
وانظر ابن خلدون، المقدمة ص ٤ .

بصبح البابا سلفستر الثاني (٩٩٩ ـ ١٠٠٣) وقد ظهر كتابه بعد تاريخ اقدم مخطوطة عربية (٨٧٤) بنحو مئة سنة وفيه هذه الارقام . اما الارقام الاوربية الحديثة فهي اكثر شبهاً بحروف الغبار منها بالارقام الهندية .

على ان انتشار الارقام الهندية في اوربا غير المسلمة كان بطيئاً جداً . وقد ظل علماء الحساب النصارى طوال القرن الحادي عشر والثاني عشر وبعض الثالث عشر يستعملون الارقام الرومانية القديمة وال« ابكس » او انهم كانوا يتساهلون فيستعملون ارقام الخوارزمي مع الارقام الرومانية . وفي عام ١٢٠٢ نشر ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci) من اهالي بيزا كتاباً هو اول دليل على ادخال الارقام الهندية الى اوربا بل دشن هذا الكتاب فوق ذلك اول عهد لعلم الرياضيات الاوربي . وكان ليوناردو قد ارتحل الى شمالي افريقية في طلب العلم بعد ان اخذ بعض الدروس العربية على احد الاساتذة المسلمين . ولو بقيت اصول الارقام القديمة لتعذر ارتقاء علم الحساب في بعض فروعه . والواقع ان علامة الصفر والارقام الهندية هي اصل علم الحساب كما نعرفه اليوم .

النبات والطب

ولقد أغنى كذلك المسلمون الغربيون العالم ببحوثهم في التاريخ الطبيعي (١) لا سيما علم النبات المجرد والمطبق وفي الفلك والرياضيات وأبدوا ملاحظات صائبة في موضوع الفرق الجنسي التناسلي بين بعض النباتات كالنخيل والقنب مثلاً . وقاموا بترتيب النباتات على اساس ما ينمو منها من الفسائل وما ينمو من البزور وما ينمو بنفسه كما يستدل من اجوبة العالم ابن سبعين عن احد الاسئلة التي وجهها اليه الامبراطور فردريك . اما الطبيب القرطبي الغافقي (٢) ابو جعفر احمد ابن محمد (المتوفى ١١٦٥) فانه قد جمع نباتات اسبانية وافريقية وسمى كلاً منها باسمائها العربية واللاتينية والبربرية . ووصف هذه النباتات بطريقة يصح ان

---

١) انظر في موضوع الخيل والفروسية ابن هذيل ، حلية الفرسان وشعار الشجعان ، نشر مرسيه (باريس ، ١٩٢٢) ـ وابن هذيل اندلسي عاش في القرن الرابع عشر .

٢) كانت غافق بلدة بجوار قرطبة .

يقال فيها انها أوفى وادق ما في اللغة العربية في هذا الموضوع . اما اشهر مؤلفاته « الادوية المفردة »(١) فقد كان من الاهمية بحيث ان مواطنه وزميله ابن البيطار الذي أتى بعده وفاقه شهرة لم يكتف بالاقتباس عنه بل عمد فعلاً الى أخذ جانب كبير منه . وفي نهاية القرن الحادي عشر لمع في اشبيلية ابوزكرياء يحيى ابن محمد ابن العوام ووضع رسالة في الزراعة اسمها « كتاب الفلاحة » هي اهم ما صنفه المسلمون في الزراعة بل هي اهم مؤلفات العصور الوسطى في هذا الموضوع . فضلاً عما اخذه من الاصول العربية واليونانية فانه قد اقتبس كثيراً من المواد لكتابه من اختبارات الزارعين المسلمين في اسبانية وعالج فيه نحو خمسمئة وخمسة وثمانين نوعاً من النبات وشرح الطرق الزراعية لما يزيد عن خمسين نوعاً من الاشجار المثمرة . وفيه ملاحظات جديدة في موضوع التطعيم وخصائص التربة والسماد وابحاث في اعراض عدد من امراض الاشجار والنباتات المتعرشة مع وصف لطرق معالجتها . وبرغم ما لهذا الكتاب من اهمية فانه لم يكن معروفاً عند كتاب العرب . فلم يذكره ابن خلكان او ياقوت او حاجي خليفه . اما ابن خلدون (٢) فقد توهم انه رواية لكتاب ابن الوحشية (٣) .

ابن البيطار

كان عبد الله ابن احمد ابن البيطار أشهر علماء النبات والصيدلة في الاندلس بل في العالم الاسلامي كله ويعتبر خير خلف لـ « ديسكوردس » . وقد ولد ابن البيطار في مالقة وتجول يدرس النبات في انحاء اسبانية وشمالي افريقية ثم دخل بعد ذلك في خدمة الملك الايوبي

---

١) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٥٢ . وهناك نسخة مختصرة للمؤرخ النصراني الشهير ابن العبري نشرها اخيراً تحت عنوان « منتخب كتاب جامع المفردات » ماكس مايرهوف وجورجي صبحي (القاهرة ، ١٩٣٢ ؟) مع ترجمة انكليزية . اما الترجمة السريانية المختصرة لهذا الكتاب التي قام بها ابن العبري فمفقودة .

٢) المقدمة ص ٤١٢ .

٣) كان العالم اللبناني ميخائيل الغزيري اول من اشار الى كتاب ابن العوام المحفوظ في الاسكوريال وذلك في *Bibliotheca Arabico — Hispana Escurialensis*, vol. I (Madrid , 1760), pp. 323 seq. ثم قام تلميذ الغزيري يوسف انطونيو بانكري فنشر الكتاب وارفقه بترجمة اسبانية في مجلدين (مدريد ، ١٨٠٢) . ولكن لا الطبعة ولا الترجمة تفي بالغرض العلمي .

الكامل بالقاهرة فجعله معتمداً له في امور النبات (١) . ورحل من مصر مراراً الى نواحي الشام وآسية الصغرى . وكانت وفاته بدمشق سنة ١٢٤٨ . وله من الكتب مصنفان اشتهر بهما قدمهما لولي نعمته الثاني الصالح ايوب الذي كان سلفه قد اتخذ دمشق عاصمة لملكه في سورية . وكان احد هذين الكتابين كتاب « المغني في الادوية المفردة » وهو اقراباذين والآخر « الجامع في الادوية » (٢) وهو عبارة عن مجموعة للادوية البسيطة المركبة من المواد الحيوانية والنباتية والمعدنية وفيه معلومات يونانية وعربية تغنيها اختبارات المؤلف وبحوثه . ويعتبر هذا الكتاب اعظم كتاب في العصور الوسطى من نوعه . ففيه نجد عرضاً لنحو ١٤٠٠ مادة منها ٣٠٠ مادة جديدة بينها نحو ٢٠٠ نبات . اما عدد المؤلفين الذين اورد الكتاب ذكرهم فيبلغ نحو ١٥٠ منهم عشرون من الاغارقة . وقد ظلت بعض الاقسام من كتاب ابن البيطار في ترجمته اللاتينية حتى سنه ١٧٥٨ حتى طبع في كرمونا .

الطب

كان معظم الاطباء من عرب الاندلس قد اتخذوا الطبابة كحرفة كمالية الى جانب عمل آخر يتعاطونه . فابن رشد وابن ميمون وابن باجه وابن طفيل كانوا في الدرجة الاولى فلاسفة وسنلم بهم في باب الفلسفة . اما ابن الخطيب فكان كما قدمنا كاتباً مؤرخاً وتقلد منصب الوزارة شأن الكثيرين من الاطباء . وبمناسبة انتشار مرض الطاعون الهائل في اوربا في منتصف القرن الرابع عشر ووقوف النصارى حياله مكتوفي الايدي على اعتبار انه من قضاء الله وقدره وضع هذا الطبيب الغرناطي المسلم رسالة (٣) دافع فيها عن نظرية العدوى كما يتضح من الفقرة التالية ، قال :

« فان قيل كيف نسلم بدعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك قلنا وقد ثبت وجود

---

١) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص١٣٣ ؛ المقري ج١ ص٩٣٤ ؛ الكتبي ج١ ص٢٦١ . ولقد كان ابن ابي اصيبعة من تلامذة ابن البيطار وقد عمل معه في دراسة النبات في جوار دمشق .

٢) الجامع لمفردات الادوية والاغذية ، ٤ أجزاء (بولاق ، ١٢٩١).

٣) مقنعة السائل عن المرض الهائل نشر ملر وترجمه : M.J. Müller, *Sitzungsberichte der konigl. bayer. Akademie der Wissenschaften zu München*, vol. ii (Munich, 1863), pp. 6—7, 18—19.

العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة وهذه مواد البرهان. وغير خفي عمن نظر في هذا الأمر او أراد ادراكه هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالباً وسلامة من لا يباشره كذلك ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوب او آنية حتى أن القرط اتلف من علق باذنه وأباد البيت باسره ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة ثم اشتعاله منها في افراد المباشرين ثم في جيرانهم واقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق وفي مدن السواحل المستصحبة حال السلامة الى ان يحل بها في البحر من عدوة أخرى قد شاع عنها خبر الوبا ... وصح النقل بسلامة أهل العهود والرحالين من العرب بافريقية وغيرها لعدم انحصار الهواء وقلة تمكن الفساد منـه » .

الزهراوي

لم يظهر جراحون كثيرون عند العرب ، وكان اعظم الجراحين المعروفين ابو القاسم خلف ابن عباس الزهراوي (١) (المتوفى حوالي سنة ١٠١٣) طبيب البلاط عند الحكم الثاني . وسبب تفوقه هو انه مؤلف الرسالة القيمة « التصريف لمن عجز عن التأليف » (٢) وهي في جزئها الأخير جامعة لما كان يعرف عن الجراحة في ذلك العصر . وقد ورد في هـذه الرسالة آراء جديدة في الجراحة ابرزها المؤلف واكد عليها ؛ منها ما يتعلق بكي الجراحات وسحق الحصاة في المثانة ولزوم تشريح الاجسام الحية والميتة . وقد نقل هذا الجزء الى اللاتينية جرارد الـكرموني وصدرت منه طبعات مختلفة منها واحدة في البندقية سنة ١٤٩٧ وأخرى في باسل سنة ١٥٤١ وأخرى في اكسفورد سنة ١٧٧٨ (٣) . وظل لهذا الـكتاب مكانة ككتاب مدرسي للجراحة قروناً كثيرة في مدرستي سالرنو ومونبليه وغيرهما من مدارس الطب المتقدمة. وكان فيه اشكال وصور لآلات طبية تأثر بها مؤلفون آخرون من العرب وساعدت على وضع

١) نسبة الى الزهراء المشهورة في ضاحية قرطبة وهي مسقط رأسه .
٢) « تأليف » في ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٥٢ .
٣) تحتوي نسخة اكسفورد على قسم من النص العربي مع ترجمة لاتينية قام بها جون تشانينغ « John Channing » ولكن النص العربي بكامله لم ينشر بعد .

أسس الجراحة في اوربا . وكان من زملاء الزهراوي الطبيب حسداي ابن شبروط الاسرائيلي وهو الذي نقل الى العربية بمؤازرة راهب بيزنطي اسمه نقولا، مخطوطة ديسكوريدس المصورة النفيسة في المواد والعقاقير الطبية ، وكانت هذه المخطوطة قد ارسلت هدية دبلوماسية الى عبد الرحمان الثالث من الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (١) .

ابن زهر

كان لأبي مروان عبد الملك ابن ابي العلاء الملقب بابن زهر (٢) مقام في علم الطب يوازي مقام الزهراوي في الجراحة . وهو ألمع شخص في أسرة عرفت بتفوقها في الطب في اسبانية . ولد في اشبيلية بين سنتي ١٠٩١ و ١٠٩٤ وفيها توفي سنة ١١٦٢ بعد ان خدم سنيناً كثيرة طبيباً ووزيراً في بلاط عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين . وكانت ميزته في انه اقتصر في عمله على التأليف في علم الطب وحده بينما وزع زملاؤه جهودهم على فروع العلم الكثيرة . وقد حفظت لنا الايام من كتب الطب الستة التي ألفها ثلاثة اعظمها واكثرها نفعاً « التيسير في المداوة والتدبير » (٣) . وقد صنفه باشارة من صديقه ابن رشد ليكون مقابلاً لكتابه « الكليات » ، وقد عالج التيسير مواضيع أخص من مواضيع « الكليات » (٤) . وكان ابن رشد من المعجبين بابن زهر وقد اثنى عليه كثيراً في كلياته واعتبره أعظم طبيب عرفه العالم بعد جالينوس . واقل ما يقال فيه انه أعظم طبيب سريري في الاسلام بعد الرازي. وقد ذهب البعض الى ان ابن زهر هو اول الباحثين في موضوع الاحساس بالعظام واول من وصف « صؤابة الجرب » غير انه ظهر اخيراً ان احمد الطبري (في الشطر الثاني من القرن العاشر) سبقه الى وصف الصؤابة في كتابه « المعالجة البقراطية » (٥).

---

١) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٤٧ وفيه ان باعث الهدية هو رومانس .

٢) انظر ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٦٦ — ٧ .

٣) نقلت الترجمة العبرانية الى لهجة عامية لعلها لهجة البندقية ثم نقلت الى اللاتينية سنة ١٢٨٠ بمساعدة يهودي مقيم في البندقية حيث طبعت مراراً .

٤) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٧٥ — ٦ .

٥) Mohamed Rihab in *Archiv für Geschichte der Medizin*, vol. xix (1927) , pp. 123 - 68

وقد انجبت هذه الاسرة ـ اسرة ابن زهر ـ نحو ستة اجيال متتابعة من الاطباء ، وقد ظهر بعد ابي مروان المذكور ابنه ابو بكر محمد (المتوفى ١١٩٨ ـ ٩) اعظم افراد هذه الاسرة مقاماً ، وترجع مكانته الى تفوقه في فروع الآداب العربية لا لمقدرته الطبية . وهو المشهور بالحفيد ابن زهر واليه تنسب كثير من الاشعار الجيلة ومنها موشحات غنية بالعواطف الرقيقة (١) . وقد عينه ابو يوسف يعقوب المنصور سلطان الموحدين طبيباً له في مراكش ومات فيها مسموماً بيد وزير من حساده . وحضر الخليفة جنازته وصلى عليه صلاة الجنازة . ومن ابناء زهر الاوائل جدُّ ابي مروان عبدالملك وسميه وقد مارس الطب لا في اسبانية فحسب بل في بغداد والقيروان والقاهرة ايضاً (٢) . وكان من الاطباء العرب الاندلسيين طبيب آخر مارس الطبابة في المشرق هو عبيد الله ابن المظفر الباهلي وأصله من المرية . وكان شاعراً وطبيباً وقد دخل سنة ١١٢٧ في خدمة محمود ابن ملكشاه السلجوقي في بغداد وأنشأ له في معسكره مارستاناً نقالاً كان ينقل على اربعين جملاً (٣) . ثم عاد الى دمشق ومات فيها سنة ١١٥٤ .

انتقال العلوم الى اوربا

كانت الثقافة الشرقية في القرون الاولى التي مرت على السلطة الاسلامية في الاندلس تسري الى البلاد الاندلسية من مستوى عال كما يتضح من لائحة المقري (٤) لاسماء الذين رحلوا في طلب العلم الى مصر والشام والعراق وفارس حتى الى ما وراء النهر والصين . غير ان الآية انعكست في القرن الحادي عشر والقرون اللاحقة كما يستدل من مسير ابن زهر والباهلي الى المشرق لافادة اهله . وقد فاض سيل المعارف الاندلسية في القرن الثاني عشر بحيث طما على اوربا نفسها . وقد لعبت افريقية الشمالية الغربية واسبانية و بنوع خاص طليطلة حيث عاش جرارد الكرموني وميخائيل سكوت دوراً هاماً في حركة انتقال الطب العربي الى

---

١) راجع امثلة منها في المقري ج ١ ص ٦٢٥ ـ ٨ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٥ ـ ٦ .
٢) صاعد ص ٨٤ ونقل عنه ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٦٤ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٦ ـ ٧ .
٣) المقري ج ١ ص ٨٩٩ .
٤) ج ١ ص ٤٦٣ ـ ٩٤٣ .

اوربا . وكان الرائد في هذه الحركة الهامة حركة ايقاف الغرب على علوم العرب بواسطة الترجمات اللاتينيـة قسطنطين الافريقي (المتوفى ١٠٨٧) وهـو مـترجم القسم النظري من « كتاب الملكي » (١) لعلي ابن عباس . وقد ولد قسطنطين في قرطجنة من اصل وضيع ثم التحق بالمدرسة الطبية في سالرنو وهي اول مدرسة طبية في اوربا وتذهب تقاليدها الى انه قـد أسسها أربعة أساتذة لاتيني ويوناني ومسلم ويهودي . وقـد كانت اوربا في العصور الوسطى مدنية فيما انتقل اليهـا من العلوم الطبية الى طائفـة من العلماء منهم قسطنطين هـذا وجرارد الكرمـوني (المتوفى ١١٨٧) مـترجم « التصريف » للزهراوي و « المنصوري » للرازي و « القانون » لابن سينا ، وفرج ابن سالم الاسرائيلي الصقلي مترجم « الحاوي » للرازي سنة ١٢٧٩ و « تقويم الأبدان » لابن جزلة . وهكذا تسنى للتقاليد الطبية الثلاثة الاسلامية واليهودية والنصرانية ان تصل الى مركز واحد اندمجت فيه . وقد انتقل الى اللغات الاوربية بواسطة هذه الترجمات وامثالها طائفة من المصطلحات والألفاظ العربية الفنية مثل لفظة « julep » من جلاب (كولاب الفارسية) وهو شراب طبي معطر ولفظة « rob » من « رُب » وتطلق على المربى الذي يصنع من مزج عصير التمر بالعسل ولفظـة « syrup » من « شراب » وهو عبارة عن محلول السكر في الماء وكان يصنع حسب وصفة طبية يضاف اليها مواد للعلاج . اما لفظة « soda » التي كانت تستعمل في اللغة اللاتينية في العصور الوسطى بمعنى « وجع الرأس » ومنها « sodanum » وهو اسم علاج لوجع الرأس فقد أتت من لفظة « صُداع » العربية .وقد ترجمت بعض الاصطلاحات الطبية الى اللاتينية كما ترجمت المصطلحات الرياضية . من ذلك « dura mater » و « pia mater » في اللاتينية فهما ترجمة حرفية لـ « الأم الجافية » و « الأم الرقيقة » في العربية . ومن الألفاظ الكيماوية ما اتصل بلغات اوربا عن طريق اللاتينيـة بواسطة الكتب العربية المنسوبة الى جابر ابن حيان وسواه من كيماويي الاسلام كلفظة « alcohol » (الكحل) و « alembic » (الانبيق) و « alkali » (القلي) و « antimony » (ثمد) و « aludel » (الأثال) و « realgar » (رهج الفار) و « tutty » « توتياء » .

١) نقل الجزء الجراحي منه الى اللاتينية يوحنا الشرقي (١٠٤٠ ـ ١١٠٣) احد تلامـذة قسطنطين وكان من اطباء سالرنو .

الفلسفة

ان اعظم مأثرة للطبقة المثقفة العربية في الاندلس انما كانت في الفكر الفلسفي .. فقد وضع العرب في هذا الميدان آخر حلقة من سلسلة الفكر التي ربطت فلسفة اليونان بالغرب اللاتيني بعد أن ألبس العرب هذه الفلسفة ثوباً جديداً أفاضته عليها العقلية الاسلامية في المغرب والمشرق معاً وكان أهم ما في هذا الثوب الجديد المقارنة والتوفيق بين الايمان والعقل وبين الدين والعلم . وقد اعتبر مفكرو الاسلام تعاليم أرسطو وتعاليم أفلاطون انها الحقيقة المطلوبة كما اعتبروا تعاليم القرآن من قبل. ولما كانت الحقيقة واحدة أصبح من المحتم التوفيق بين هذه التعاليم كلها وشملها جميعاً في نظام موحد وهذا ما شغلوا أنفسهم به . وقد جابه فلاسفة النصارى المدرسيون المعضلة نفسها اي معضلة التوفيق بين فلسفة اليونان وتعاليم الكتاب الا ان أمرهم كان أشد تعقيداً لما حواه اللاهوت عندهم من متراكم الطقوس والأسرار الكنسية. ولقد كانت الفلسفة كما هذبها الأغارقة وديانة التوحيد كما أنشأها أنبياء العبران كما مر معنا أثمن تراث خلده الغرب والشرق القديمان وكان من المفاخر الخالدة لمفكري الاسلام في بغداد والأندلس في العصور الوسطى ان وفقوا بين هذين المجريين الفكريين وقربوا وآلفوا بين أجزائهما ثم أوصلوهما الى اوربا . وان هذه المأثرة لتعتبر في المقام الاول من الأهمية والعظمة اذا ذكرنا أثرها في الفكر العلمي والفلسفي وفي اللاهوت طيلة العصور اللاحقة .

ان تدفق الفكر الجديد وبنوع أخص الفكر الفلسفي الى اوربا الغربية ليعين بدء زوال العصور المظلمة وفجر عصر النهضة المدرسي . وقد كان من اثر احتكاك اوربا بالفكر العربي والفلسفة الاغريقية القديمة أن انتعشت فيها الروح العلمية الفلسفية فقادتها الى حياة فكرية مستقلة خاصة لا نزال الى اليوم ننعم بأثمارها .

ابن جبيرول

وكان من اوائل الفلاسفة في اسبانية العربية سليمان ابن يحيى ابن جبيرول (١) الاسرائيلي وقد ولد في مالقة نحو سنة ١٠٢١ ومات في بلنسية نحو سنة ١٠٥٨ . ويشار اليه غالباً باسم

١) سليمان ابن يحيى ابن جبيرول . قابل صاعد ص ٨٩ .

افلاطون اليهود لأنه اول المشاهير الذين قاموا بتدريس الفلسفة الافلاطونية الجديدة في الغرب وكان مثل ابن مسرة (١) الذي عاش قبله يدافع عن نظام فلسفي يعزى الى امبدوكليس. وكانت الفلسفة الافلاطونية قبل ذلك بالف سنة قد انطبعت بالطابع الشرقي بمساعي فيلو الفيلسوف الاسكندري اليهودي الهليني ثم لم تلبث بعد ذلك ان انطبعت بطابع النصرانية فالاسلامية وها هي الآن تبرز بشكل يوناني اسلامي وتعود باتجاه غربي الى اوربا على يد ابن جبيرول. اما كتاب ابن جبيرول الرئيسي فهو « ينبوع الحياة » (٢) وقد نقل الى اللاتينية سنة ١١٥٠ فلعب دوراً هاماً في الفلسفة المدرسية (السكولاستيكية) للعصور الوسطى وساعد على قيام المدرسة الفرنسسكية.

ابن باجه.

كان القرن الثاني عشر اعظم قرن في تاريخ الفكر الفلسفي باسبانية الاسلامية وقد استهل القرن بظهور ابي بكر محمد ابن باجّه الفيلسوف والعالم والطبيب والموسيقي وشارح ارسطو. ولقد لمع ابن باجّه في غرناطة وسرقسطة ومات في فاس سنة ١١٣٨ والف عدة رسائل في الفلك انتقد فيها افتراضات بطليموس فمهد بذلك السبيل لابن طفيل والبطروجي. والف كذلك رسائل اخرى في المواد والعقاقير الطبيّة اقتبس عنها فيما بعد ابن البيطار. ووضع رسائل في الطب تأثر بها ابن رشد (٣). غير ان اهم تصانيفه وهو الكتاب الوحيد الذي تخلف من آثاره « تدبير المتوحد » وقد حفظ لنا مختصراً في العبرانية. وكان قصد ابن باجه من وضع هذا الكتاب اثبات ان في مكنة الانسان الاتحاد بالعقل الفعال دون معونة وان تطهير النفس البشرية التدريجي بواسطة الاتحاد بالله هو مطلب الفلسفة. على ان كتاب السير والتراجم المسلمين يعتبرون ابن باجه من الهالكين (٤).

١) انظر- Miguel Asin, *Abenmasarra y su escuela. Origenes de la filosofia hispano-musulmana* (Madrid, 1914).

٢) اما كتابه « اصلاح الاخلاق » فقد نشره وترجمه ستيفن س. وiز (نيويرك، ١٩٠١).

٣) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٦٣ يجعل ابن رشد المولود سنة ١١٢٦ تلميذاً لابن باجه.

٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٢.

ابن طفيل

وجاء بعد ابن باجه من خطا بآرائه الفلسفية خطوة جديدة الى الامام وهو ابو بكر محمد ابن عبد الملك ابن طُفيل (١) الفيلسوف الارسطوطاليسي وكان يحترف الطب في غرناطة ثم تعين وزيراً لابي يعقوب يوسف (١١٦٣ — ٨٤) سلطان الموحدين ورئيساً لاطبائه فجمع الوزارة والطب كما كان مألوفاً أغلب الاحيان في الدولة الاسلامية . وفي سنة ١١٨٢ اعتزل الطبابة في البلاط فخلفه فيها صديقه ابن رشد وهو اصغر منه وكان ابن طفيل قد قدمه للخليفة وقد افاض هذان العالمان على بلاط الموحدين نوراً يتألق مدى الازمان . وقد عرفت دولة الموحدين بميولها الدينية السلفية المحافظة ولكنها رعت الفلسفة وعززتها وكرمت اصحابها .

ولد ابن طفيل في العقد الاول من هذا القرن ومات سنة ١١٨٥ في مراكش عاصمة الموحدين وقد حضر جنازته ولي نعمته الثاني الخليفة ابو يوسف المنصور (١١٨٤ — ٩٩) . ومن أهم آثاره قصة فلسفية مبتكرة عنوانها « حي ابن يقظان » (٢) فكرتها الأساسية ان المقدرة الانسانية قد تستطيع ان تصل الى ادراك العالم العلوي دون اللجوء الى مساعدة قوة خارجية ، وبوسعها الوقوف تدريجياً على ضرورة اعتمادها على الكائن الاعلى . وتعد هذه القصة من امتع ما في ادب العصور الوسطى واروع القطع الفنية المبتكرة فيها . وقد نقلها الى اللاتينية ادورد بوكوك الصغير « Edward Pococke, » سنة ١٦٧١ (٣) . ثم نقلت الى اكثر لغات اوربا ومنها الهولاندية (١٦٧٢) والروسية (١٩٢٠) والاسبانية (١٩٣٤) . وحاول البعض ان يجد فيها مصدراً لقصة روبنصن كروزو « Robinson Crusoe » وان النظرية التي تظهر في القصة هي نشوئية ، وقد استعار ابن طفيل اسماء الاشخاص فيها من قصة قصيرة ليس فيها أثر للحياة وضعها ابن سيناء بالعنوان نفسه . غير ان ابن طفيل استمد الالهام والفكر

---

١) « ابن الطفيل » في ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٧٨ . قابل ابن ابي زرع ج ١ ص ١٣٥ ؛ ابن خلكان ج ٣ ص ٤٦٧ .

٢) اي العقل الانساني مستمد من العقل الالهي .

٣) نشرت الترجمة في اكسفورد مع النص العربي لمحررها ادورد بوكوك الكبير . ونشرت عدة طبعات للنص العربي في القاهرة والقسطنطينية سنة ١٢٩٩ . وليس هناك الا طبعة واحدة علمية قام بها ليون غوتيه (الجزائر ، ١٩٠٠) و (بيروت ، ١٩٣٦) مع ترجمة افرنسية .

فيها من مؤلفين سابقين اولهم الفارابي .

ابن رشد

أن اعظم فيلسوف مُسلم ـ باعتبار الأثر الذي تركه ولا سيما في الغرب ـ هو ابو الوليد محمد ابن احمد ابن رشد الطبيب الفلكي العربي الاسباني شارح ارسطو . ولد ابن رشد في قرطبة سنة ١١٢٦ وهو يمت بنسبه الى اسرة عريقة انجبت عـدداً من الفقهاء والقضاة . وقد تولى هو نفسه القضاء على اشبيلية سنة ١١٩٦ ـ ٧٠ و بعد ذلك بسنتين تولى القضاء على قرطبة . وفي سنة ١١٨٢ استدعاه الى مراكش ابو يعقوب يوسف ليكون طبيب البلاط بدلا من ابن طفيل . غير أن المنصور خلفه اقصاه سنة ١١٩٤ لما اتهم به من المروق عن الدين بسبب دروسه في الفلسفة ثم استدعاه الى وظيفته في مراكش حيث مات بعد ذلك بأمـد يسير في العاشر من كانون الاول سنة ١١٩٨ (١) ولا يزال قبره ظاهراً هناك .

وأعظم آثار ابن رشد في الطب مصنف كبير شامل عنوانه « الكليات في الطب » فيه ذكر صريح للحقيقة المعروفة اليوم وهي ان الجدري لا يصيب المرء مرتين وفيه ايضاح لوظيفة شبكية العين . غير ان ابن رشد لم يتميز بطبه كما تميز بفلسفته وشروحه . واذا استثنينا شروحه فان اهم كتبه الفلسفية « تهافت التهافت » (٢) وهو ردّ على الغزالي الذي حمل على اتباع الفلسفة العقلية في كتابه « تهافت الفلاسفة » (٣) . وقد قامت شهرة ابن رشد على هـذا الكتاب الذي اكسبه نقمة واحنق عليه الـكثيرين في العالم الاسلامي . اما شهرته في العالمين المسيحي واليهودي فقائمة في الدرجة الاولى على مكانته كشارح لارسطو . ولنذكر ان عمل الشارح في العصور الوسطى انمـا كان ينطوي على وضع مؤلف علمي او فلسفي معتمداً على كتاب قديم كأساس او اطار لبحثه . ومن هنا فقد كانت شروح ابن رشد سلسلة رسائل

١) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٧٦ ـ ٧ ؛ ابن ابي زرع ج ١ ص ١٣٥ ؛ ابن خلكان ج ٣ ص ٤٦٧ .
٢) نشره موريس بويج (بيروت ، ١٩٣٠) .
٣) نشره موريس بويج (بيروت ، ١٩٢٧) . ويقصد بالفلاسفة اصحاب ارسطو والافلاطونيـة الجديدة وقد صرح بآرائه هذه في كتابه « مقاصد الفلاسفة » (القاهرة ، ١٣٣١) .

اطلق عليها اسماء كتب ارسطو مع التفصيل والتأويل لمحتوياتها . ولما كان ابن رشد لا يحسن اليونانية فانه اكتفى بترجمات من سبعة من علماء بغداد . اما اهم شروحه على ارسطو فهي ثلاثة « جامع » موجز و « تلخيص » متوسط و « تفسير » او « شرح » مطول (١) . واكثر شروح ابن رشد محفوظة في ترجمات عبرانية او لاتينية منقولة عن العبرانية . ولم يبق في العربية منها الا القليل وهي على العموم مكتوبة بحروف عبرانية (٢) .

وكان ابن رشد آخر علماء الفلاسفة الذين ألفوا في اللغة العربية ولم يقم في الاسلام بعده من بلغ درجته . والواقع ان لاوربا النصرانية من الحق في الادعاء انه منها اكثر مما كان لآسية او افريقية الاسلامية . فلقد عرف في الغرب بـ « الشارح » كما عرف ارسطو بـ « المعلم » ومع ان الغرب اعتمد في اكثر الاحيان على ترجمة لاتينية منقولة عن العبرانية وكانت هذه بدورها منقولة عن شرح عربي على ترجمة عربية وكانت الترجمة العربية منقولة عن السريانية وهذه عن اليونانية فان عقول فلاسفة النصارى قد تأثرت بارسطو ابن رشد اكثر مما تأثرت باي مؤلف آخر . وظلت فلسفة ابن رشد مسيطرة على عالم الفكر من اواخر القرن الثاني عشر حتى آخر السادس عشر وذلك برغم المعاكسة التي واجهها اولا من أهل السنة في اسبانية وثانياً من أهل التلمود وثالثاً من الاكليروس المسيحي . وليس من شك في ان ابن رشد كان من دعاة تحكيم العقل في جميع الامور الا عقائد الايمان المنزلة ولكنه لم يكن، كما ادعى الكثيرون، أبا حرية الفكر والالحاد وعدو الدين والايمان . وكان اتباع ارسطو من المسلمين قد اعتبروا كثيراً من الكتب الملفقة على انها من وضع ارسطو ومنها بعض الكتب ذات النزعة الافلاطونية الجديدة فجاءت فلسفة ابن رشد تدعو الى التعويل على فلسفة ارسطو الصحيحة غير الملفقة . وعمد رجال الكهنوت الى كتاباته فنفوا منها بعض المواد غير المرغوب فيها من وجهة نظرهم ـ ثم جعلوها كتباً للتدريس في جامعات باريس وسواها من معاهد العلم العالية .

١) راجع القائمة كاملة في كتاب Ernest Renan, *Averroès et l'averroisme*, 2nd ed. (paris, 1851), pp. 58 - 79; Sarton, *Introduction*, vol. ii, pp. 356 - 61.

٢) وله « تلخيص كتاب المقولات » وهو كما يدل اسمه ملخص لكتاب المقولات لارسطو وقد نشره موريس بويج (بيروت ، ١٩٣٢) .

وقد ظلت الحركة الفكرية التي بدأها ابن رشد ، بما فيها من محاسن وما اضيف اليها من اوهام ، عاملاً حياً في الفكر الاوربي حتى مولد العلم الحديث المبني على الاختبار .

ابن ميمون

وليس هناك بين فلاسفة ذلك العصر من يحتل المقام الاول بعد ابن رشد سوى معاصره ومواطنه اليهودي القرطبي ابو عمران موسى ابن ميمون اشهر اطباء اليهود وفلاسفتهم في كل هذه الحقبة العربية . ولد ابن ميمون في قرطبة سنة ١١٣٥ (١) وهاجرت عائلته من الاندلس بسبب الاضطهاد الذي أثاره الموحدون فنزلت القاهرة نحو سنة ١١٦٥ . اما زعم القفطي (٢) وابن ابي اصيبعة (٣) ان ابن ميمون كان في الاندلس يدّعي الاسلام علانية ويبطن اليهودية سراً فقد سفهه النقاد المحدثون . وفي القاهرة اصبح ابن ميمون طبيب البلاط عند صلاح الدين الايوبي الشهير وعند ابنه الملك العزيز . واسندت اليه منذ سنة ١١٧٧ رئاسة الملة اليهودية في القاهرة وظل عليها حتى مماته في القاهرة نفسها سنة ١٢٠٤ . وبموجب وصيته حمل جثمانه على الاكف وسير به على الطريق التي قطعها النبي موسى قبلاً ودفن في طبرية حيث لا يزال ضريحه الوضيع مقصداً يزوره الكثيرون . والى اليوم نرى المرضى من فقراء اليهود في مصر يطلبون الشفاء من امراضهم بالمبيت ليلاً في دهليز تحت كنيس موسى ابن ميمون في القاهرة .

ولقد امتاز ابن ميمون في علم الفلك واللاهوت والطب وكان فوق ذلك فيلسوفاً . اما علومه الطبية فمبنية على مبادىء جالينوس المعروفة آنذاك المأخوذة عن الرازي وابن سيناء وابن زهر بعد ان اكسبها النقد العقلي الفلسفي المستند الى الملاحظة الشخصية شيئاً من الحياة . وقد حسّن ابن ميمون طريقة الختان وقال بان سبب البواسير هو الامساك ووصف لها علاجاً هو الطعام الخفيف المؤلف اكثره من الخضار . وكان عنده كذلك آراء راقية بشأن حفظ الصحة.

---

١) احتفي بمرور ثمانمئة عام على مولده في جميع انحاء العالم المتمدن .
٢) ص ٣١٨ — ١٩ .
٣) ج ٢ ص ١١٧ .

واشهر كتبه الطبية « الفصول في الطب » وأهم تآليفه الفلسفية « دلالة الحائرين » [١] وقد سعى فيه الى التوفيق بين الفلسفة اليهودية والارسطوطالية الاسلامية . وبكلمة اخرى فانه سعى الى التوفيق بين الايمان والعقل . اما الرؤى النبوية فقد عللها على انها اختبارات ذاتية نفسانية . ولقد وقف نفسه ، الى هذا الحد على الاقل ، على الدفاع عن الفكر العلمي تجاه فكرة التوراة « المحافظة » فاستوجب سخط اللاهوتيين المحافظين الذين سموا كتابه « ضلالة » . اما آراؤه الفلسفية المعبر عنها في هذا المصنف وسواه فانها على غرار مصنفات ابن رشد مع العلم انه لم يعتمد على كتب ابن رشد في وضعها . ولم يكن ابن ميمون يعرف اليونانية بل اعتمد كابن رشد على الترجمات العربية . اما نظرية الخلق التي اذاعها دون ان يؤمن بها فانها النظرية الذريّة التي تختلف عن النظريتين الاخريين اللتين نادى بهما مفكرو العربية اي نظرية الكتب المقدسة التي قالت بان الله خلق كل شيء والنظرية الفلسفية التي قال بها اتباع الافلاطونية الجديدة واتباع ارسطو . اما كتبه فقد وضعت كلها بالعربية ولكنها كتبت بحروف عبرانية ما عدا واحداً ثم لم تلبث ان نقلت الى العبرانية ونقل بعضها بعد ذلك الى اللاتينية . وكان تأثيرها بعيد المدى طويل الامد ولكنه انحصر في الغالب في طبقات اليهود والنصارى . وظلت كتبه حتى القرن الثامن عشر الواسطة الوحيدة التي اوصلت الفكر اليهودي الى الاوساط غير اليهودية . ويرى النقاد الحديثون بقايا تأثيرها في جماعة الدومنيكان كما يظهر من كتب البرتس ماغنس (Albertus Magnus) وخصمه دنس سكوتس (Duns Scotus) ومن فلسفة سبينوزا (Spinoza) و كانت (Kant) .

ابن عربي الصوفي

كان امام المتصوفين في هذا العصر من عرب الاندلس ايضاً وهو ابو بكر محمد ابن علي محيي الدين ابن عربي [٢] اعظم عبقرية خيالية في الصوفية الاسلامية . ولد ابن عربي في

١) نشره بحرف عبراني وترجمه الى الافرنسية سالمون منك Salomon Munk, 3 vol. (Paris, 1856 - 66).

٢) يعرف في الشرق بابن عربي تمييزاً له من مواطنه المحدث ابي بكر ابن العربي . وقد نسب الى حاتم الطائي نقيل في نسبه الحاتمي الطائي .

مرسية سنة ١١٦٥ ولمع بالاكثر في اشبيلية حتى سنة ١٢٠١ ـ ٢ حين قصد الحج . ثم مكث في الشرق حتى مماته بدمشق سنة ١٢٤٠[١] . ولا يزال قبره مزاراً قائماً في احد مساجدها . وشهد القرن الثاني عشر في الشرق طلائع تنظيم جديد في الحياة الاسلامية الدينية يقابل نشوء الرهبنات المسيحية في العصور الوسطى وكان ابن عربي هو الذي اتحف هذه الحركة الصوفية باطارها الخيالي الفلسفي وقد مثل المدرسة الاشراقيـة المعزوة الى امبدوكليس والافلاطونيـة الجديدة والمدرسة القائلة بشمول الالوهية التي اسسها ابن مسرة وابن جبيرول . وكان رجـل هذه الحركة او المدرسة الصوفية في المشرق السهروردي (المقتول ١١٩١) ويشير اصله الفارسي وتشديده على مذهب النور الراجع لفلسفة مـا وراء الطبيعة الى تأثره بآراء ماني وزرادشت ، وكان اعظم تآليفه في هذا الباب كتـاب « حكمة الاشراق » ويرجع السر في تسمية هـذه المدرسة بالاشراقية الى أنها اقرت بموجب نظريتها الصوفية بان الله وعوالم الروح نور وان عملية الاطلاع على الغيب انما هي اشراق يشع من العلاء بواسطة ارواح عالم الافـلاك[٢] . وعرف ابن عربي عند اتباعه بالشيخ الاكبر . اما نظامـه الصوفي فقد اودعه في مؤلفاتـه الكثيرة واهمها « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » . وفي الفصل المئة والسابع والستين من « الفتوحات »[٣] تحت عنوان « كيمياء السعادة » بحث مجـازي باطني يشير الى صعود الانسان الى السماء . وفي كتاب آخر لم يطبع بعـد ـ « الاسراء الى مقام الاسرى » ـ اورد ابن عربي قصة الاسراء وتوسع في عرض زيارة النبي للسماء السابعة فسبق ما جاء بـه دانتي من بعد .

كان ابن عربي من حيث العبادات ظاهري المذهب اسمياً مشايعاً لمواطنه ابن حزم اما في مسائل الايمان الخيالي فقد كان باطني[٤] النظر . وكان يذهب من حيث الفلسفة الى ان

١) ابن الجوزي ، مرآة الزمان نشر جويت (شيكاغو ، ١٩٠٧) ص ٤٨٧ ؛ المقري ج ١ ص ٥٦٧ ؛ الكتبي ج ٢ ص ٣٠١ ؛ الشعراني ، اليواقيت والجواهر (القاهرة ، ١٩٠٥) ص ٨ .

٢) راجع حاجي خلفه ج ٣ ص ٨٧ وما يلي ؛ Carra de Vaux in *Journal asiatique*, ser. 9, vol. xix (1902), pp. 63 - 94.

٣) ج ٢ ص ٣٥٦ ـ ٧٥ .

٤) المقري ج ١ ص ٥٦٩ وما يلي .

الكون جوهر فرد وكان يؤمن بشمول الألوهية ووحدة الوجود . اما فكرته الاساسية فهي ان الاشياء موجودة من البدء كأعيان ثابتة في معرفة الله وهي صادرة عن الله راجعة اليه . ولم يأخذ ابن عربي بفكرة الخلق من العدم بل قال ان الكون مظهر الله الخارجي والله سرّ الكون المكنون . وليس ثمة فارق بين الذات والصفات اي بين الله والكون . وقد استحال هنا التصوف الاسلامي الى فلسفة قوامها القول بشمول الألوهية وفيها تتجلى الالوهية في البشر ويُعتبر محمد الانسان الكامل . كذلك غدا محمد الكلمة كما كان المسيح الكلمة (لوغوس في اليونانية) . وليس للمتصوف الحقيقي في رأي ابن عربي الا مرشد واحد هو النور الداخلي ومن هنا فهو يجد الله الحق في جميع الديانات (١) .

وكان لهذه المدرسة الاشراقية التي تصدّرها ابن عربي في الاندلس تاثير ظاهر ليس في حلقات المتصوفين الفارسية والتركية (٢) فحسب بل في مدرسة الفلاسفة النصارى للعصور الوسطى ايضاً اي المدرسة الاوغسطينية وفي افراد منها مثل دنس سكوتس (Duns Scotus) وروجر باكن (Roger Bacon) وريموند لل (Raymond Lull) (٣) . وجارى ابن عربي في تفكيره وكتاباته مواطن له من مرسية اسمه ابو محمد عبد الحق ابن سبعين (نحو ١٢١٧ - ٦٩) . وقد اكسبته زعامته في طبقات المتصوفين لقباً يُحسد عليه هو «قطب الدين» وقد شهر في الدرجة الاولى برسالته « الاجوبة عن الاسئلة الصقلية » (٤) وهي اجوبة عن اسئلة بشأن ازلية المادة وطبيعة النفس وخلودها وغرض العلوم الالهية وما شاكل مما وجهه الملك فردريك الثاني الهوهنستوفي واوصله الى ابن سبعين عبد الواحد الرشيد الموحد (١٢٣٢-٤٢) فقد وضع ابن سبعين - وكان يقيم آنذاك في سبتة - جواباً مستوفياً من الناحية الاسلامية

---

١) ابن عربي ، ترجمان الاشواق نشر نكلسن وترجمته (لندن ، ١٩١١) ص ١٩ ، ٦٧ .

٢) ان جلال الدين الرومي - اعظم شعراء التصوف - وقد توفي بعد مرور ثلاثين سنة على وفـاة ابن عربي قد ربطته بابن عربي علاقة عن طريق احد تلامذة ابن عربي نفسه .

٣) يذهب اسين الى القول بان التصوف الاسلامي الذي يمثله ابن عربي انما كان تقليداً مقصوداً للتصوف النصراني عند الرهبان . انظر Asim, *El Islam cristianizado* (Madrid, 1931).

٤) لم تنشر بعد . انظر M. Amari, *Biblioteca Arabo - Sicula* (Leipzig, 1855 - 7), pp. 573 - 7 ; *Journal asiatique*, ser. 5, vol. i (1853), pp. 240 - 74 ; A. F. Mehren, *loc. cit.* vol. xiv (1879), pp. 341 - 454.

الصريحة وعرض على امبراطور صقلية النصراني أن يسدد له خطاه اذا سمح له بمقابلته. ورفض في الوقت نفسه قبول المكافئة المالية التي ارسلها الامبراطور مع الاسئلة. ولابن سبعين كتاب آخر مشهور اسمه «اسرار الحكمة المشرقية» لم ينشر بعد. وكان ابن سبعين من الافراد القلائل في تاريخ الاسلام الذين قضوا على انفسهم بالانتحار. فقد كان بمكة وبعد اتمامه فريضة الحج فصد يديه وترك الدم يجري حتى تصفى ومات (١).

طليطلة مركز الترجمة

ظلت طليطلة الى ما بعد الفتح النصرانى سنة ١٠٨٥ بمدة طويلة محافظة على مقامها كمركز هام للدراسات الاسلامية. وفي اثناء عملية الترجمة ونقل الكنوز العلمية العربية الى الغرب كانت هذه المدينة المركز الرئيسي لهذا النقل. فقد نشأت فيها بمساعي رئيس الاساقفة ريموند الاول (١١٢٦ - ٥١) مدرسة نظامية للترجمة. وقد لمع فيها نخبة من المترجمين ظهروا ما بين سنة ١١٣٥ و ١٢٨٤ وقصدها العلماء من انحاء اوربا ووفد اليها من الجزر البريطانية ميخائيل سكوت (Michael Scot) وروبرت اوف تشستر (Robert of Chester). وفي سنة ١١٤٥ نقل روبرت كتاب الجبر للخوارزمي لاول مرة. وفي سنة ١١٤٣ اكمل مع هرمن (Hermann) الدلماطي لبطرس المحترم (Venerable) اول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم. وفي طليطلة نفسها ايضاً تأسست اول مدرسة للدروس الشرقية في اوربا وذلك سنة ١٢٥٠ وقد أسستها جمعية الوعاظ بقصد تدريب المبشرين قبل ارسالهم لتبشير المسلمين واليهود.

أما ادلارد اوف باث الذي يقال انه زار اسبانية في هذا الزمن فأنه من كبار العلماء الانكليز قبل روجر باكن. وبعد ان ارتحل الى صقلية وسورية نقل الى اللاتينية في سنة ١١٢٦ التقاويم الفلكية التي وضعها المجريطي وهي مبنية على تقاويم الخوارزمي وتضم تقاويم جيوب القوس في الدائرة. ونقل كذلك عدداً من الرسائل الرياضية والفلكية. فاصبح بهذا في طليعة ذلك الموكب الكبير من المستعربين الانكليز. اما ميخائيل سكوت

---

١) الكتبي ج ١ ص ٣١٦.

الاسكتلندي (المتوفى حوالي ١٢٣٦) فهو احد ناقلي فلسفة ابن رشد الى اللاتينية وقد درس في اسبانية قبل ان يصبح منجماً في بلاط فردريك الثاني بصقلية . وقد نقل فيما نقله وهو في طليطلة كتاب « الهيئة » وهو كتاب في الفلك للبطروجي وكتاب ارسطو المسمى «De coelo et mundo» مع شرح ابن رشد . وترجم في صقلية كتباً عربية اخرى قدمها لفردريك أهمها رواية ابن سيناء لكتاب ارسطو في علم الحيوان . ولكن اكثر علماء طليطلة أثراً في الترجمة والنقل هو جرارد الكرموني المتوفى سنة ١١٨٧ وقد كان مما نقله الى اللاتينية رواية الفرغاني لكتاب بطليموس المسمى بـ « المجسطي » وشرح الفارابي على ارسطو واصول الهندسة لاقليدس ورسائل متفرقة لارسطو وجالينوس وابقراط وجملتها واحد وسبعون مؤلفاً عربياً .

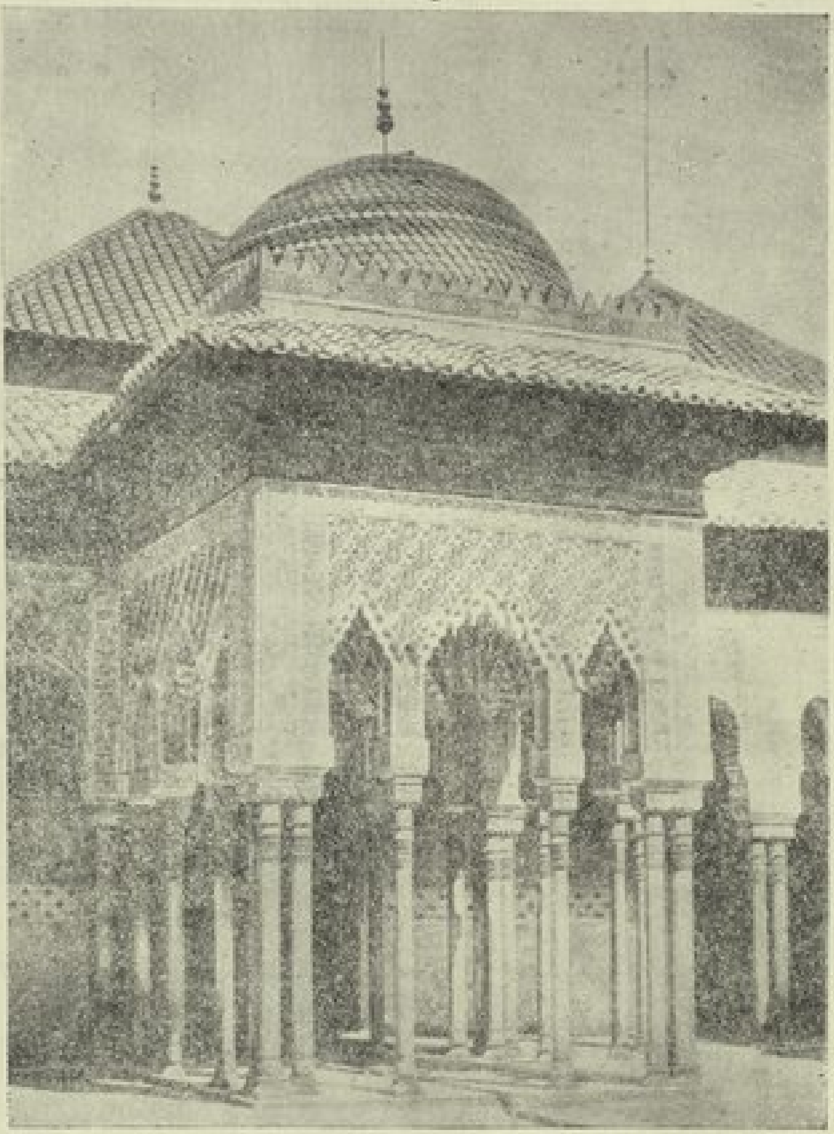
وقد لعب اليهود كما رأينا دوراً كبيراً في عملية الترجمة التي نصف . سواء منهم من أسلم ومن لم يسلم . ومن أوائلهم ابراهيم ابن عزرا الطليطلي (المتوفى ١١٦٧) وهو احد شارحي التوراة البارزين وقد ترجم رسالتين في التنجيم ليهودي آخر مشرقي سبقه اسمه ما شاء الله (١) توفي عام ٨١٥ . وترجم كذلك شرح البيروني على زيج الخوارزمي . وكان هناك عالم معاصر لابن عزرا اسمه يوحنا الاشبيلي وهو يهودي متنصر لمع في طليطلة نحو ١١٣٥ الى ١١٥٣ تحت رعاية رئيس الاساقفة ريموند فترجم كتباً في الحساب والفلك والتنجيم والطب والفلسفة للفرغاني وابي معشر والكندي ولابن جبيرول والغزالي . واهم هذه الكتب « علم الهيئة » للفرغاني . وهناك ما يدعو الى الاعتقاد بان يوحنا هذا كان يترجم من العربية الى اللغة الكاستيلية العامية وان احد اعوانه كان ينقلها من الكاستيلية الى اللاتينية .

وعند انتهاء القرن الثالث عشر كان العلم والفلسفة العربيان قد اتصلا باوربا وانجزت اسبانية مهمتها كوسيطة في هذا الميدان . وامتدت الطريق الفكرية من ابواب طليطلة شمالا فقطعت جبال البرنه ثم سارت متعرجة حتى جازت بروفانس وثنايا الالب ونفذت منهما الى

---

١) ذكره الفهرست ص ٢٧٣ .

اللورين فالمانيا واوربا الوسطى كما انها عبرت الخليج واتصلت بانكلترا (١) . ومن جملة مدن فرنسا الجنوبية التي تستحق الذكر في هذا الصدد مدينة مرسيليا حيث قام ريموند في عام



جناح في باحة الاسود في الحمراء

١١٤٠ بوضع صورة لتقاويم السيارات الفلكية مبنية على ما وضع قبلاً في طليطلة . ومدينة

(١) ان اول كتاب طبع في انكلترا William Caxton, *The Dictes and Sayengis of the Philosophres* (Westminster, 1477) قد وضع على اساس كتاب عربي اسمه مختار الحكم ومحاسن الكلم تأليف امير سوري مصري يعرف بابي الوفاء مبشر ابن فاتك وقد لمع في منتصف القرن الحادي عشر .

تولوز حيث نشط هرمن الدلماطي فأنهى عام ١١٤٣ ترجمة المجريطي لكتاب بطليموس « بلانسفوريم » (*Planisphoerium*) . ومدينة اربونة حيث نقل ابراهيم ابن عزرا في عام ١١٦٠ شرح البيروني على تقاويم الخوارزمي . ومدينة مونبليه التي اصبحت في القرن الثالث عشر اهم مراكز الدراسات الطبية والفلكية في فرنسا . اما في شرقي فرنسا فان بلدة كلوني (Cluny) اصبحت في القرن الثاني عشر ، بعد ان أوى الى ديرها الشهير عدد من الرهبان الاسبان مركزاً خطيراً لنشر العلوم العربية وفيها وقف الراهب بطرس المحترم (Venerable) على وضع اول ترجمة للقرآن الى اللاتينية وكتابة بعض الرسائل التي تعرضت للاسلام . وكان من نتيجة ادخال العلوم العربية الى لورين في القرن العاشر ان اصبحت تلك المنطقة مركزاً علمياً هاماً طوال القرنين التاليين. وغدت لياج (Liége) وغورز (Gorze) وكولون (Cologne) وسواها من مدن اللورين اخصب تربة لنمو العلوم العربية . ومن اللورين سرت موجة الدراسات العربية في سائر انحاء المانيا ومنها انتقلت الى انكلترا النورمندية على ايدي علماء نشأوا أو تهذبوا في اراضي اللورين . وقد كثر تبادل السفارات بين ملوك الجرمان في الشمال وملوك الاسلام في اسبانية وعمّ نفعها الادبي والفكري . وفي عام ٩٥٣ بعث اتو (Otto) الاكبر ملك الجرمان راهباً لورينياً اسمه يوحنا مندوباً الى قرطبه فنزلها مدة ثلاث سنين والراجح انه تعلم العربية فيها وعاد منها بمخطوطات علمية وهكذا تسربت مبادىء العلوم العربية الاندلسية الى غربي اوربا كلها .

الفصل الحادي والاربعون

الفن وهندسة البناء

مارس العرب في اسبانية معظم الفنون الفرعية والعملية التي انشأها المسلمون او ساعدوا على تقدمها في البلدان الاخرى. وامتازت مدرسة الفن الاندلسي بصناعة المعادن (١) وما تشمله من فن الزخرفة وعمل النقوش البارزة او المحفورة والترصيع بالذهب والفضة (٢) ونقش الحروف العربية. ومن اقدم النماذج الدالة على ذلك أثر لهشام الثاني (٩٧٦ ـ ١٠٠٩) محفوظ في كاتدرائية جيرونا بشكل صندوق خشبي مصفح بصفائح من الفضة والذهب مزخرفة باوراق النبات على شكل ملف وقد رسمت بواسطة المطرقة. وعلى الصندوق كتابة عربية تفيد ان هذا عمل صانعين هما بدر وطريف وقد امر بصنعه حاجب للحكم الثاني (٩٦١ ـ ٧٦) هدية لولي العهد هشام. واشتهرت طليطلة واشبيلية بصنع الآلات المعدنية كالسكاكين وشفرات السيوف والاسطرلابات (٣). وقد كانت تعتبر سيوف طليطلة بعد السيوف الدمشقية أجود السيوف والينها. اما الاسطرلاب وهو آلة فلكية اخترعها الاغريق فقد حسنها المسلمون وادخلوها الى اوربا في القرن العاشر. وللاسطرلاب فائدة خاصة عند الملاحين والمنجمين علاوة على فائدته في تعيين ساعات الصلاة وموقع مكة الجغرافي. وفي قصة الخياط في الليلة التاسعة والعشرين من « الف ليلة وليلة » خبر مزين فضولي يعيي زبونه باستشارة الاسطرلاب لايجاد الساعة الملائمة للحلاقة. ويعد الاسطرلاب المتقن الصنعة قطعة نفيسة من قطع الفن.

---

١) وتسمى في الاسبانية «alhaja» اي جوهرة وهي محرفة عن « الحاجة » العربية.
٢) تعرف عموماً في اوربا بالصناعة الدمشقية.
٣) المقري ج ١ ص ١٢٤.

صناعة الخزف

لم يعن أهل صناعة المعادن في الاسلام بزخرفة المعادن بالميناء ولكنهم اعتنوا بالاطلية الملونة يدهنون بها سطح الأواني الخزفية فبرعوا فيها منذ عهد قديم واصبحت بلنسية مركز هذه الصناعة الاسلامية في الغرب وكانت مصنوعاتها التي صدرت لبواتيه هي العامل في وضع الأساس لصناعة الفخار فيها. ونجد في القرن الخامس عشر ان تقليد هذا الفخار الاسلامي أصبح منتشراً في اراضي الشمال حتى هولاندا. ومن اسبانية انتقلت هذه الصناعة الى ايطاليا. ويلحظ الأثر العربي في الاوعية الاسبانية المتأخرة بما عليها من كتابات عربية غير أصلية وشارات نصرانية. وتميزت مدرسة الفن الاسلامي الاندلسي بأشكال أخرى من صناعة الخزف والفسيفسا، اخصها الآجر المتعدد الألوان الذي لا يزال رائجاً الى اليوم في اسبانية والبرتغال وهو مما اخذ عن العرب [١]. ويعتبر هواة الفخر في هذا العصر ان النوع المعروف بالـ « مديخار » ذا البريق المعدني هو افخر الانواع بعد الصيني. وامتازت طليطلة وقرطبة منذ حوالي منتصف القرن الحادي عشر بصناعة الخزف البديع ثم سبقتهما قلعة ايوب [٢]. ومالقة و بنوع خاص ماسس في بلنسية. اما صناعة الالوان التي تطلى بها انواع الزجاج فلم تستطع اسبانية مزاحمة سورية فيها.

المنسوجات

وكان لعرب اسبانية نصيب في ترقية صناعة النسيج النفيس [٣] هذه الصناعة التي جعلت الشعوب العربية في مقدمة منتجي الاقمشة والحرائر في العصور الوسطى. اما في حياكة السجاد فلم يكن في استطاعة اسبانية مزاحمة الاسواق الشرقية واخصها الفارسية. وكانت قرطبة مركزاً من مراكز الحياكة، وكان في المرية على ما قيل اربعة آلاف وثمانمئة نول [٤]

---

١) يدلنا على ذلك لفظه «ازليخو» التي تطلق على هذا الآجر فهي مأخوذة من «الزليجي» العربية. انظر المقري ج ١ ص ١٢٤.

٢) الادريسي، صفة المغرب (ليدن) ص ١٨٩.

٣) ابن حوقل ص ٧٩؛ الاصطخري ص ٤٤؛ ابن الخطيب، اللمحة ص ١٣؛ المقري ج١ ص١٢٣–٤.

٤) المقري ج١ ص١٠٢.

وكما اصدرت الموصل الى ايطاليا القماش المسمى باسمها (١) واصدرت بغداد الى الاسواق نفسها الحرائر الغالية الثمن المعروفة باسمها (٢) والستائر الحريرية التي كانت تغطى المذابح بها في معظم الكنائس الغربية هكذا قامت غرناطة فيما بعد فزودت حوانيت الملابس في اوربا بالانسجة الرقيقة المعروفة بال « غرنادين » وكانت امثال هذه المنسوجات الشرقية بالوانها الزاهية ورسومها الهندسية والنباتية مطلوبة الى حد ما كألبسة لرجال الكنيسة ولف آثار القديسين وكانت تخاط جبباً يرتديها ابناء الطبقة الارستقراطية الملوكية . ولما ازداد الوارد الى اوربا من هذه المصنوعات الجميلة المعمولة في البلدان الاسلامية رأى اولياء المشاريع الغربية في هذه الصناعة مصدراً للثروة فأخذوا ينشئون الانوال في مراكز متفرقة من فرنسا وايطاليا . ولا شك في ان العاملين بهذه المصانع الاوربية الاولى كان في عدادهم بعض المسلمين .

وكما كانت الحال في صناعات المعادن والزخرف والزجاج والخزف والعمارة وسواها من فروع الفن الزخرفي كذلك كانت في المنسوجات بين القرن الرابع عشر والسادس عشر فغدت ممهورة بطابع الزي الاسلامي . والواقع ان الحاكة الاوربيين منذ القرن الثاني عشر كثر تعلقهم بالمواضيع الاسلامية ومنذ ذلك الحين اخذت تكثر لدينا النماذج التي استعمل فيها زخرف يعتمد على تقليد الحروف والكلمات العربية دون ان يكون لها معنى . ولنذكر ايضاً ان الصناع الشرقيين في اسبانية وصقلية ايضاً لم يهجروا البلاد عند الجلاء بل ظلوا فيها الى ما بعد تقلص الاسلام عن هذه الارجاء بزمن طويل . ومن هنا تم ائتلاف العناصر النصرانية والاسلامية في اشكال الفن وهندسة البناء المعروف بالمدّجن « Mudejar » و بدت ظواهر اسلامية في الفن الصقلي وفي هندسة البناء في الحقبة النورمندية . وقد تفوق صناع الفن المدجن بصناعة الخشب والفخار والمنسوجات . ولا يزال النجار الاسباني الى هذا اليوم يطلق على بعض مناحي صناعته ألفاظاً اكثرها عربية الاصل .

---

١) «موسلينا» (*mussolina*) بالايطالية ومنها لفظة «مزلن» (*muslin*) الانكليزية .

٢) « بلدكو » (*baldacco*) بالايطالية و « بلدكن » (*baldachin*) في الانكليزية بمعنى القبة الحريرية .

صناعة العاج

اما نوع الزخرف الذي اعتمده النقاشون العرب الاسبان والرسامون في النقوش النائشة فهو تابع للنظام نفسه الذي سيطر على اعمالهم في تزويق السطوح المنبسطة وغيرهـا من انواع التعبير الفني . وقد ظهرت في القرن العاشر مدرسة حفاري العاج بقرطبة فانتجت كثيراً من الصناديق الجميلة والعلب المصنوعة كلها او اجزاؤها من العاج المزخرفة بالزينة وهي محفورة او مطعمة او مدهونة . ومن هذه الزينة ما اعتمد على موضوعات زخرفية شتى تمثل بعض مشاهد العزف على آلات الطرب او مشاهد الصيد وفيها رسوم بعض الحيوانات والطيور . وكانت هذه العلب تستعمل في الاكثر لتوضع فيها الحلي او الروائح العطرية او الحلوى . ويؤخذ من الكتابات المنقوشة عليها انها كانت في الغالب تقدم هدايا . ومن ابدع نماذج هذه الصناعة صندوق اسطواني صنع عام ٣٥٣/٩٦٤ وتدل الكتابة المنقوشة على مدار غطائه انه صنع بأمر الخليفة الحكم الثاني هدية لامرأته ، وبرزت على جوانبه رسوم اوراق النخيل والغزلان ورسوم الطواويس وغيرها من الطيور .

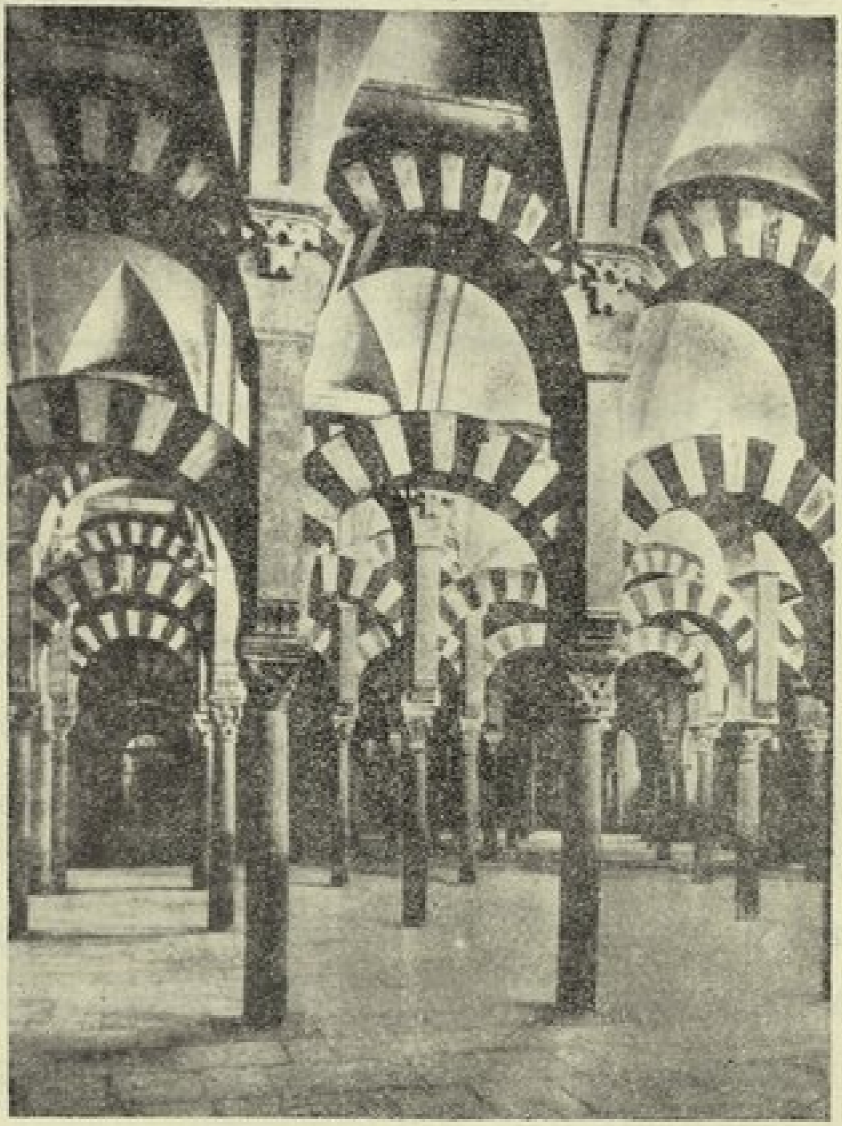
هندسة البناء

لقد انقرضت جميع معالم الفن الديني في الاندلس ما عدا مسجد قرطبة وهو من اقدم تلك الآثار وافخمها . وقد وضع اساسه عبد الرحمان الاول عـام ٧٨٦ على مشهد كنيسة كانت في الاصل هيكلاً رومانياً وتولى ابنه هشام الاول العمل بعده فاكمل عام ٧٩٣ الجانب الرئيسي من المسجد وأضاف اليه مئذنة مربعة الشكل . وكانت المآذن الاسبانية تابعة في شكلها للزي الافريقي الراجع الى اصل شامي . وأضاف الخلفاء الذين تلوا هشاماً الى الجامع بعض الزيادات . وكان يدعم سقفه الف ومئتان وثلاثة وتسعون عموداً ظهرت بمظهر غابة كثيفة الاشجار . وانير فضاء المعبد باضواء تتألق من ثريات نحاسية مصنوعة من أجراس الكنائس منها واحدة كان يوقد فيها الف مصباح وكانت اصغرها تحمل اثني عشر مصباحاً (١) .

---

١) العمري ، مسالك الابصار في ممالك الامصار ، نشر احمد زكي (القاهرة ، ١٩٢٤) .

واستخدم في زخرفة البناء صناع بيزنطيون مهرة اسوة بما فعل الامويون الذين يقال انهم استخدموا البيزنطيين في بناء مساجد الشام . وكان المؤسس قد انفق ثمانين الف قطعة ذهب من غنائم القوط على البناء . واستمرت عملية التوسيع والاصلاح تتناول انحاء هذا الجامع حتى



مسجد قرطبة الكبير من الداخل

زمن الحاجب المنصور (٩٧٧ ـ ١٠٠٠) وهو اليوم كاتدرائية باسم عذراء الصعود .

اما الآثار المدنية الباقية فابدعها القصر « الكازار » في اشبيلية والحمراء في غرناطة بزينتها

الرشيقة . ولم يبق من مدينة الزهراء (١) التي بناها عبد الرحمان الثالث وخلفاؤه باعمدتها المستوردة من رومة والقسطنطينية وقرطجنة ما يدل على عظمتها وفخامتها السابقة الا القليل ويجب ان نذكر هنا أن الخليفة نصب على بابها تمثالا لاحدى جواريه التي سمى القصر باسمها . ويقال انه نصب في مدينة الزهراء فوارة ماء ازدانت حافاتها بتماثيل الآدميين . وفي غضون ثورة البربر سنة ١٠١٠ سُبي ساكنو الزهراء واضرمت النار فيها . وخرب البربر آنئذ مدينة المنصور المسماة بالمدينة الزاهرة وليس لها ادنى أثر اليوم .

واقدم قسم في القصر في اشبيلية بناه مهندس طليطلي لعامل الموحدين سنة ١١٩٩ - ١٢٠٠ ثم أعيد بناؤه على الزيّ الاسلامي بامر الملك بطرس الصارم سنة ١٣٥٣ فشيّده له بعض الصنّاع المدجّنين ونزلته الاسرة المالكه بضع سنين . ولم يكن بين قصور الاندلس الشهيرة في قرطبة وطليطلة وسواها من المدن ما يضارع هذا القصر شهرة وليس منها ما بقي قائماً الى اليوم سواه. ولأشبيلية ان تعتز ايضاً بأثر آخر للموحدين هو برج الجرالدا الذي كان في البدء مئذنة بالمسجد الجامع . وقد بنى هذا البرج في سنة ١١٨٤ وازدان بقناطر مسننة قبل ان ينشأ الزي القوطي المسنن .

الحمراء

لقد بلغت اصول الزخرفة الاسبانية العربية اوجها في الحمراء (٢) قصر بني نصر . وفي الواقع ان هذا القصر الشامخ بغرناطة وما فيه من الافراط في التزويق بالقيشاء والاشكال المقرنصة والنقوش المختلفة قد جرى تصميمه وانشاؤه على مثل ذلك النطاق من السعة والحجم بحيث يعتبر بحق اروع أثر معروف في صناعة البناء . وكان محمد الاول الغالب قد شرع في بناء الحمراء نحو سنة ١٢٤٨ فانهاها ابو الحجاج يوسف (١٣٣٣ - ٥٤) وخلفه محمد الخامس الغني (١٣٥٤ - ٩) وتشير الكتابات المنقوشة على الحيطان الى ان اكثر الزخرفة الداخلية

---

١) وتسمى اليوم بـ « كوردوبا لافيخا » «Cordoba la Vieja» .

٢) راجع احسن صور طباق Albert F. Calvert, *The Alhambra*, 2 nd. ed. (London, 1907).

هي من عهد ابي الحجاج . واشهر قسم في القصر هو القسم المعروف ببلاط الاسود وفي وسطه اثنا عشر اسداً من الرخام قائمة في دائرة يخرج من فم كل حيوان فوّارة ماء . وتعتبر هذه الاسود وما يحيط بها من زخرف وما على سقف دار العدل من تزاويق اهم الآثار الفنية المحفوظة من هذا النوع . ويظهر في السقف مناظر مصورة على الجلد تمثل اساطير الفروسية ومشاهد الصيد فضلاً عن صورة عشرة امراء وهم جلوس على مقعد بيضاوي الشكل . وهناك كتابات فيها ذكر الشعار المعروف شعار الغالب « ولا غالب الا الله » واخرى الزينة فيها كلام موجه الى الزائر كما هي الحال في محراب نقش عليه :

واعتبر تاجي تجده مشبهاً تاج الهلال

ونقش في « دار الاخوات » هذه الابيات :

انا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
به القبة الغرّاء قل نظيرها ترى الحسن فيها مستكناً وباديا
تمد لها الجوزاء كف مصافح ويدنو لها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها ولم تك في افق السماء جواريا

القنطرة

ان القنطرة ذات الشكل النعلي التي تميزت بها هندسة البناء الاسلامية في الغرب كانت معروفة في شمالي سورية والمدائن قبل الاسلام وقد ظهرت في ايوان كسرى وغيره من الابنية . اما القنطرة المروّسة التي اصبحت فيما بعد الصفة البارزة في هندسة البناء القوطية الغربية فقد عرفت اول الامر في الاسلام بالمسجد الاموي في دمشق وقصير عمرة (١) . وقد ظهر في المسجد الاموي نفسه ايضاً نماذج من القنطرة المستديرة بشكل نعل وقد عرف هذا النوع الاخير في الغرب بالقنطرة المغربية وكان دون شك معروفاً في اسبانية قبل الفتح العربي ولكن الاسبان و بنوع اخص مسلمي قرطبة ادركوا ميزاته الزخرفية والبنائية فتبنوه بوجه عام . وهناك

---

١) Bell, *Ukhaidir*, pp. 5,9,12;C. Leonard wooley, *The Samerians* (Oxford,1928), pp. 36-7.

مأثرة اخرى لقرطبة في عهد العرب فيها ابتكار حقاً وهي بناء الاقبية المشتملة على قبب متقاطعة وضلوع ظاهرة متقاطعة ايضاً .

هذه الظواهر وغيرها من امور الهندسة البنائية التي نشأت او ارتقت في قرطبة اتصلت بطليطلة وسواها من المراكز في شمالي الجزيرة على ايدي المستعربين . فنشأ هناك بتمازج التراث النصراني والتراث الاسلامي زي خاص للعمارة عمت فيه القنطرة النعلية والاقبية المذكورة . وبلغ هذا الزي المختلط بمساعي الصناع المدجنين درجة عالية من الكمال والجمال ولم يلبث ان اصبح فناً اسبانياً قومياً . ولا تزال هذه الطريقة المدجنة في البناء منتشرة في طول البلاد وعرضها . وقد حفظت اللغة الاسبانية عدداً من المصطلحات المعارية التي ترجع الى اصل عربي (١) .

الموسيقى

كان زرياب واضع حجر الاساس في فن الموسيقى الاسبانية وهو تلميذ مدرسة الموصلي البغدادية . وقد نزل زرياب قرطبة عام ٨٢٢ واستطاع بفضل اتساع معرفته بالموسيقى والاصوات التي لا يعرفها احد غيره وتضلعه من العلوم الطبيعية وشخصيته الجذابة واطف معاشرته وظرفه وتأدبه وحضور ذهنه ان يكون مثال الرجل الاجتماعي الممتاز . وكان في قرطبة تحت رعاية عبد الرحمان الثاني ان اخترع زرياب مضرب العود من قوادم النسر معتاضاً به من مضرب الخشب فابدع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الاصابع وزاد في اوتار عوده وتراً خامساً (٢) وانشأ مدرسة غدت معهداً كبيراً للموسيقى الاندلسية ثم تبعتها مدارس اخرى في اشبيلية وطليطلة و بلنسية وغرناطة .

ويتلو زرياب مرتبة ابو القاسم عباس ابن فرناس (المتوفى ٨٨٨) واليه يعزى الفضل الاكبر في ادخال الموسيقى الشرقية الى اسبانية وتعميمها . ويقال انه اول من استنبط في

---

١) منها مثلا *adoquin, alacena, albanil, alcoba, azotea, andamio, algibe,* واصلها في العربية على الترتيب نفسه : « كذان » ، « الخزانة » ، « البناء » ، « القبة » ، « السطيحة » ، « الدعامة » ، « الجب » .

٢) المقري ج ٢ ص ٧٦ — ٨٧ .

الاندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وانه صنع آلة في منزله على هيئة السماء يخيل للناظر فيها انه يرى النجوم والغيوم والبروق . وكان ابن فرناس اول رجل في تاريخ العرب حاول الطيران بطريقة علمية . وكانت عدته عبارة عن رداء من ريش كسا نفسه به وجعل له فيه جناحين وقد قيل انه طار في الجو مسافة ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذى في مؤخره لانه لم يعمل له ذنباً (١). على ان الموسيقى النظرية والتطبيقية التي ادخلها زرياب وابن فرناس كانت فارسية عربية فحسب و بتوالي الاعوام اخذت اصول الموسيقى اليونانيه والفيثاغورية تحل محلها بينما كانت الكتب اليونانية التي تدور على هذا الموضوع تنقل الى العربية .

ومما يدل على سلطان الموسيقى والالحان على قلوب أهل الاندلس ما اورده ابن عبد ربه (٢) في عقده عن فضلها قال :

« هي الصناعة التي هي مراد السمع ومرتع النفس وربيع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب وانس الوحيد وزاد الراكب ... وقد يتوصل بالالحان الحسان الى خير الدنيا والآخرة فمن ذلك انها تبعث على مكارم الاخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذبّ عن الاعراض والتجاوز عن الذنوب . وقد يبكي الرجل بها على خطيئته ويرقق القلب من قسوته ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله في ضميره » .

وعلى العموم فان المسلمين الغربيين كانوا اكثر ميلاً الى فن السماع والطرب من زملائهم الشرقيين . ولم يأت آخر القرن الحادي عشر حتى كانت الموسيقى الاندلسية قد كسفت شهرة بغداد في هذا الموضوع . وفي هذه الحقبة أصبحت أشبيلية تحت حكم بني عباد الذين حكموا قرطبة ايضاً مدة وجيزة مركزاً للموسيقى والغناء وغيرهما من ضروب اللهو التي تقرن عادة بعصور العرب الزاهية في ربوع الاندلس . فالمعتمد العبادي (١٠٦٨ - ٩١) لم يكن شاعراً ملهماً فحسب بل كان يحسن الانشاد ايضاً والضرب على العود . واشتهرت عاصمة بني العباد بصناعة الآلات الموسيقية وتصديرها . وهنـاك رسالة في الموسيقى ترجع الى عصر المرابطين

---

١) المصدر نفسه ص ٢٥٤ .

٢) العقد ج ٣ ص ٢٢٥ - ٦ .

للفيلسوف ابن باجه (المتوفى ١١٣٨) الذي زها في أشبيلية وفاس وهي مفقودة الآن ولكنها كانت عند أهل الغرب توازي من حيث قيمتها واهميتها الرسالة التي الفها الفارابي في الشرق . وظهر في عهد الموحدين فيلسوف آخر هو ابن سبعين (المتوفى ١٢٦٩) بحث في تناسب الانغام الموسيقية في كتاب اسمه « كتاب الادوار المنسوب »منه نسخة وحيدة محفوظة في القاهرة (١) وحدث مرة في مناظرة جرت في حضرة المنصور (١١٨٣ ـ ٩٩) ثالث ملوك الموحدين بين ابن رشد والرئيس ابي بكر ابن زهر في المفاضلة بين قرطبة وأشبيلية ان ردّ ابن رشد على ابن زهر بهذا الكلام مدافعاً عن قرطبة :

ما ادري ما تقول غير انه اذا مات عالم بأشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فاريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية (٢) .

اثرها في اوربا

وكان كلما ازداد ارتياح النصارى في الاندلس الى النماذج الغنائية العربية ازدادت الاغاني العربية انتشاراً وشعبية في انحاء الجزيرة . وقد لمع من العرب موسيقيون في قصور الملوك بكاستيل والاراغون . وعرف كثيرون من اهل الرقص والغناء العرب في الجزيرة بعد سقوط غرناطة بيد الافرنج بزمن طويل وكانوا لا يزالون يعملون بواسطة فنهم على تسلية ابناء اسبانية والبرتغال . وتشير ابحاث ريبيرا (٣) الاخيرة الى ان الموسيقى الشعبية في اسبانية بل موسيقى الجنوب الغربي من اوربا باسرها في القرن الثالث عشر وما بعده كانت كالروايات الغرامية الغنائية والتاريخية في الاقاليم مشتقة من منبع اندلسي انبثق في نشأته من مصادر عربية وفارسية وبيزنطية ويونانية . وكما انتقلت الفلسفة وعلم الرياضيات والطب من بلاد الاغريق وروما الى بيزنطة وفارس وبغداد ثم الى اسبانية ومنها الى انحاء اوربا هكذا انتقلت ايضاً

---

١) احمد تيمور في الهلال ج ٢٨ (١٩١٩) ص ٢١٤ .

٢) المقري ج ١ ص ٩٨ ، ٣٠٢ .

٣) Ribera, *Historia de la musica arabe medieval y su influencia en la espanola* (Madrid, 1927); *Music in Ancient Arabia and Spain....* tr and abr. Eleanor Hague and Marion Leffingwell (Stanford University. 1929), ch. xiii *Disertaciones*, vol. ii, pp. 3-174

عدة فروع من الموسيقى النظرية والعملية . والواقع ان كثيراً من الآلات الظاهرة في الرسوم الاسبانية الدقيقة وصور بعض الاشخاص الضاربين عليها هي دون جدال اسلامية الاصل .

ومن الرسوم الاسبانية الدقيقة ما يظهر فيها موسيقيون عرب يلعبون الشطرنج (١) . وقد ورد في اللغة الاسبانية نفسها اول وصف لهذه اللعبة بلغة اوربية وذلك في مؤلف لألفونسو العاشر ملك كاستيل وليون من عام ١٢٥٢ الى ١٢٨٢ . وكان الفونسو من اعظم دعاة العلوم الاسلامية في اسبانية النصرانية واليه يرجع الفضل في وضع تلك المجموعة الشعرية الرائعة Cantigas de Santa Maria التي ترجع موسيقاها في رأي ريبيرا الى اصل اندلسي اسلامي . واذا استثنينا هذه المجموعة والتقاويم التي جمعها ألفونس في الفلك وعرفت باسمه فان هذا العاهل قد جمع مجموعة من الشرائع في كتاب تظهر فيه المؤثرات الاسلامية . وقد أصبح هذا الكتاب نفسه اساساً للتشريع الاسباني .

وقد سبقت الاشارة الى تأثير الشعر العربي في ظهور طبقة « التروبادور » الذين اخذوا يحاكون منشدي العرب لا من حيث العاطفة والطبيعة فحسب بل من حيث الصور والاشكال نفسها التي اخرجوا فيها اناشيدهم . وقد كانت بعض العناوين التي أطلقها شعراء البرفنسال هؤلاء على مقطعاتهم الغنائية ترجمة لعناوين عربية . والراجح ان ادلارد اوف باث الذي درس الموسيقى في باريس هو الذي ترجم رسالة الخوارزمي في الرياضيات وكان فيها قسم عن الموسيقى . ومن هنا فان هذه الرسالة هي من اقدم الرسائل التي ادخلت الموسيقى العربية الى عالم اللاتينية . وكان في حوزة العرب منذ ايام ادلارد ـ في الشطر الاول من القرن الثاني عشر ـ رسائل اغريقية قديمة تعنى بالموسيقى مترجمة الى العربية وعرفوا كذلك مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا وابن باجه التي وضعوها هم انفسهم في هذا الفن . ولم يأت آخر القرن حتى اصبحت اكثر هذه المؤلفات الجديدة معروفة في اوربا بفضل ترجماتها اللاتينية التي وضعت

---

١) مستعارة من السنكريتية بواسطة الفارسية . وليس غريباً ان يكون ورق اللعب اما عربي الاصل او مما نقله العرب الى اوربا . واسمه في الاسبانية naipe وفي الايطالية naib وكلاهما مستعار من لفظة «نائب» العربية وقد ظهرت على «شدة» محفوظة الآن في الاستانة ويرجع عهدها الى القرن الخامس عشر . انظر L. A. Mayer, *Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale*, vol, xxxviii. (1939), pp. 113 *seq.*

في طليطلة . ومما يجدر ذكره هنا انه في هذا العهد نفسه ظهر نظام جديد للموسيقى المسيحية الاوربية يقوم على ان للنوتات او الارقام الموسيقية قيماً وقتية محدودة او نسبة معينة فيما بينها . واول من شرح حقيقة هذه الموسيقى القياسية او الغناء المقاس رجل غامض الهوية اسمه فرانكو الكولوني (نحو ١١٩٠) وليست رقمه الموسيقية المعروفة بالرقم الفرنكونية لتختلف في اصلها عن رقمنا الحديثة . ولكن هذه الموسيقى القياسية نفسها كانت تشكل قسماً قائماً بذاته من الموسيقى العربية وكانت تعرف باسم الايقاع وذلك قبل عصر فرانكو المذكور بما لا يقل عن اربعة قرون . وقد أفاض الكندي (لمع نحو ٨٧٠) في ايضاحها . وقد ظهر بعد فرانكو رسالة منسوبة الى جون اوف غارلند (John of Garland) عولجت فيها اصول الـ « اوكيتس » (ochetus) اي « اسلوب التوقيع » ولعل لفظة « اوكيتس » نفسها هي تحريف لفظة « ايقاعات » العربية .

والراجح ان الموسيقى القياسية هي اعظم ما نفح العرب به هذا الفن ولم تكن المأثرة الوحيدة في هذا المضمار . زد على هذا ان الآلتين اللتين كان لهما السهم الاوفر في تقدم فن الموسيقى في الغرب هما « العود والرباب » (١) وكلاهما دخيلان نقلهما العرب الى غربي اوربا .

١) ومنها *laud* و *rabel* في الاسبانية و *lute* و *rebec* في الانكليزية . ومن الفاظ الموسيقى التي استعارتها الاسبانية *anafil* من « النفير » و *pandero* من « بندير » (العامية) و *sonajas* من «صنوج» وقد ادخل المسلمون الى اوربا ايضاً القيثارة (*guitarra* في الاسبانية) والبوق (*alboque* في الاسبانية) والطبل (*atambal* في الاسبانية) .

الفصل الثاني والأربعون

العرب في صقلية

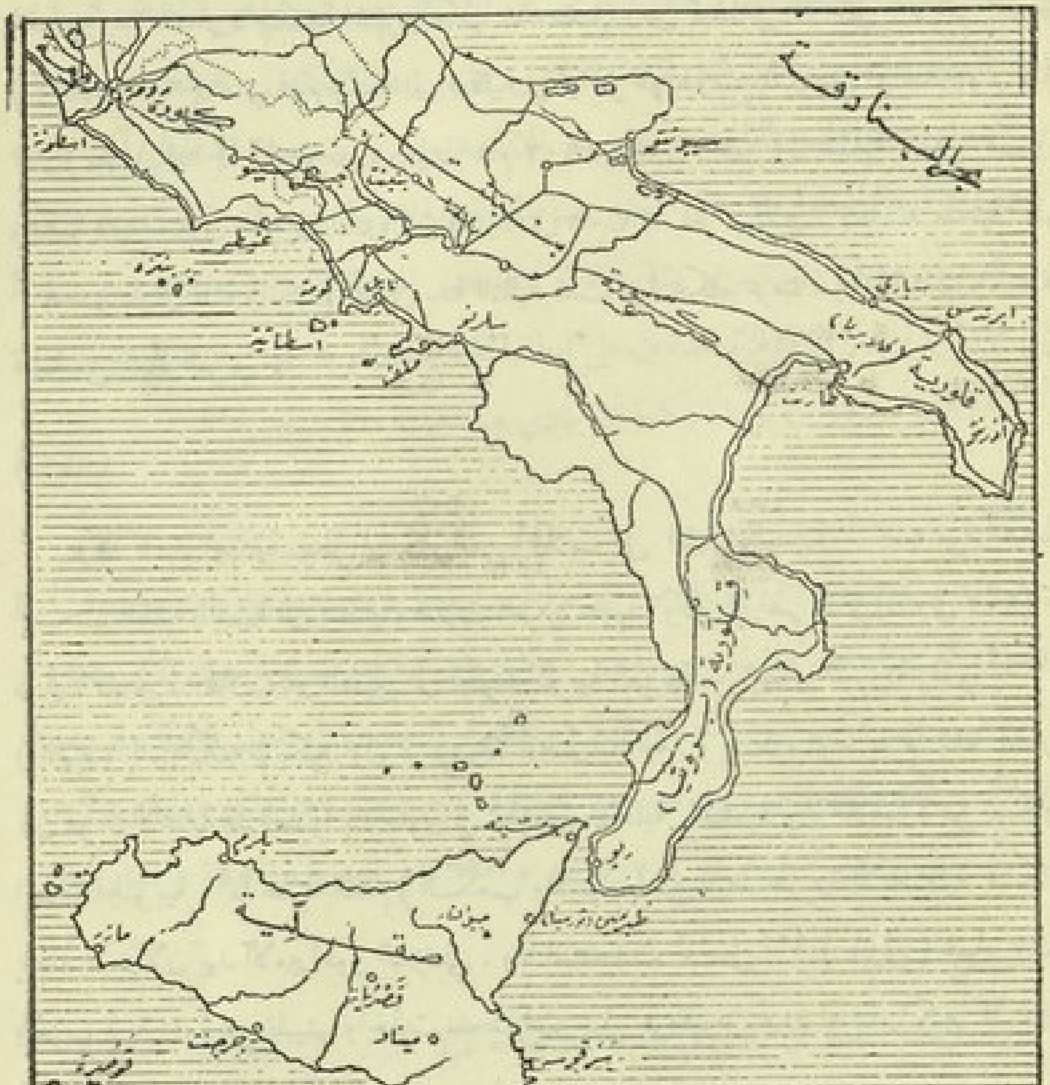
كان فتح المسلمين لصقلية آخر موجة من موجات الفتح التي دفعت بالعرب الى شمالي افريقية واسبانية . ويرجع الفضل في هذا التوسع الاخير الذي بلغ في القرن التاسع جزيرة صقلية واوربا الوسطى الى الاغالبة حكام القيروان . الا انه كانت هناك محاولات للغزو متقطعة قام بها بعض المغامرين والقرصان قبل الاغالبة بزمن طويل . فقد أغار احد قواد معاوية على صقلية البيزنطية في ٦٥٢ وهي السنة نفسها التي غلب فيها المسلمون الاسطول البيزنطي عند الاسكندرية وانتزعوا منه السيادة البحرية (١) . ثم ان خيرات سرقوسة وغنائمها التي انتهبها العرب عند غزوهم المدينة في هذه المحاولة الاولى كانت تشتمل على النساء وكنوز الكنائس وغيرها من الاسلاب الثمينة التي حدت بالمسلمين الى ان يجددوا الكرة عليها مراراً في اثناء الشطر الثاني من القرن السابع . وفي القرن الثامن اخذت جماعات من غزاة البربر والعرب تتسلل من شمالي افريقية واسبانية الاسلامية الى الجزائر الواقعة شمالا وشرقاً فتوقع الذعر في قلوب سكان صقلية وكورسكا وسردينيا . ويجب ان نذكر هنا ان القرصنة واللصوصية البحرية كانتا من المهن المشروعة في ذلك العصر يقرها الناس جميعاً المسلمون والنصارى . ولكن لم يكن وراء هذه الغارات القرصنية في تلك الايام اي خطة او سياسة مدبرة .

وكان في قيام دولة الاغالبة وتثبيت سلطتها في القيروان في السنة الاولى من القرن التاسع ما غير الحالة ودعا الى الاحتلال الرسمي . وكان ان استنجد احد ثوار سرقوسة بجماعة الاغالبة على الحاكم البيزنطي في عام ٨٢٧ فكان ذلك مبرراً لغزو الجزيرة وجرّد زيادة الله الاول (٨١٧ ـ ٣٨) العاهل الاغلبي الثالث سبعين سفينة ، عليها نحو عشرة آلاف مقاتل وسبعمئة

---

١) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٢٢٤ ؛ Theophanes, p. 348

فارس بقيادة اسد ابن الفرات (١) وكان هذا في السبعين من عمره ويشغل منصب الوزارة والقضاء معاً عند الاغالبة . وهكذا بدأت الفتوحات الحقيقيـة ونزل الجيش الافريقي في مازر (٢) ثم زحف على سرقوسة ولكن الطاعون الذي تفشى بالمعسكر اهلك اسداً وجانباً



الفتوح الاسلامية في صقلية وجنوبي ايطاليا

١) ابن عذاري ج ١ ص ٩٥؛ النويري، نشر فاسبار ج ٢ ص ٢٤١؛ Amari, *Biblioteca*, p. 527.

٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٣٦؛ الادريسي ، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نشر اماري وشياريلي (رومة، ١٨٧٧)؛ Amari, *Storia*, ed. Nallino, vol. i, pp. 394 *seq.*

كبيراً من رجاله (١) . وجاءت الامداد الى الجيش من اسبانية واستولى العرب عام ٨٣١ على بلرم (بالرمو) وهي مستعمرة فينيقية قديمة ، فجعلوها نقطة ارتكاز لمتابعة الفتح واصبحت قاعدة للامارة الجديدة . وحوالي عام ٨٤٣ سقطت مسيني (٢) وفي ٨٧٨ سقطت سرقوسة الحصينة بعد حصار دام تسعة اشهر ولكنها هدمت في زمن العاهل الاغلبي ابراهيم الثاني (٨٧٤ ـ ٩٠٢) الذي قدم بنفسه الى صقلية في اواخر عهده وفتح الاراضي الواقعه بجوار جبل النار (جبل اتنا) (٣) وخرب تورمينا عام ٩٠٢ . وتوفي ابراهيم في صقلية ودفن فيها . وهكذا فان احتلال الجزيرة الذي كان قد بدأ في عام ٨٢٧ قد تم الآن . وغدت صقلية كلها أو بعضها طوال المئة والتسع والثمانين سنة التالية تحت امرة حكام عرب سيطروا عليها وجعلوها قطعة من العالم العربي .

في ايطاليا

وكما كانت اسبانية نقطة ارتكاز لشن الحملات على الشمال واحتلال أراضيه موقتاً هكذا أصبحت صقلية بالنسبة الى ايطاليا وحملات العرب عليها . وكان ابراهيم الثاني (المتوفى ٩٠٢) كما ذكرنا قد جرّد حملات عبر المضيق الى الجهة الجنوبية الغربية من ايطاليا المعروفة بقلّورية (٤) (كلابريا) . ولكنه لم يكن اول عربي وطأ ارضاً ايطالية . و بعد سقوط بلرم بمدة قصيرة كان قوّاد الأغالبة قد اخذوا يتدخلون في الحروب الاهلية المستعرة بين اللامبارد من سكان ايطاليا الجنوبية . أما طرفا القدم (الكعب والابهام) من شبه الجزيرة الايطالية فكانا يومئذ لا يزالان بيد الامبراطور البيزنطي . ولما استنجدت نابل (٥) (نابولي) عام ٨٣٧ بالعرب لم يترددوا عن تلبيتها وأخذت منحدرات جبل فزوفيوس تردد اصداء تكبير المسلمين

---

١) ابن عذاري ج ١ ص ٩٦ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٩ .

٢) او مسينه : ياقوت ج ٤ ص ٥٣٥ ؛ ابن جبير ص ٣٢٠ .

٣) ابن الاثير ج ٦ ص ٢٣٩ ؛ ياقوت ج ٣ ص ٨٠٤ ؛ Amari, *Biblioteca*, app. 2 (Leipzig, 1887), p. 2.

٤) ياقوت ج٤ ص ١٦٧ وقلورية في ابن حوقل ص٨٠، ١٢٨ ؛ انظر ابن خلدون ج٤ ص٢٠٠، ٢٠٢.

٥) ابن الاثير ج ٧ ص ٣ ؛ الادريسي ص ١٧ ؛ Amari, *Biblioteca*, index

وصيحاتهم كما رددتها من قبل منعطفات جبل النار في الجنوب. وبعد مضي اربع سنوات وقعت باري (على البحر الادرياطيقي) في قبضة الغزاة فجعلوها القاعدة الرئيسية لهم مدى الثلاثين عاماً التالية . وفي هذه الآونة ظهر المسلمون الظافرون بجوار البندقية . وعام ٦٤٦ تهددوا رومة نفسها بعد ان نزلت فيالقهم عند مرفأها البحري اوستيا . الا انهم عجزوا عن اختراق اسوار (المدينة الازلية) فسلبوا كنوز كاتدرائيات القديس بطرس والفاتيكان والقديس بولس خارج الأسوار وعبثوا بقبور الباباوات . و بعد ثلاث سنوات رست سفن اسطول آخر في مياه اوستيا الا أن الاسطول الايطالي تمكن بمساعدة عاصفة بحرية هوجاء من القضاء على اسطول العرب . وهناك صورة من ريشة رفائيل تمثل هذه الموقعة البحرية وخلاص رومة العجيب . ولم يؤثر هذا في سيطرة المسلمين على ايطاليا فقد ظلت قوية بحيث ان البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ ـ ٨٢) رأى من الحكمة أن يؤدي لهم الجزية مدة سنتين (١) .

عبر الألب

ولم يقتصر الاغالبة في اعمالهم الحربية على شواطىء ايطاليا بل انتزعوا عام ٨٦٩ مالطة (٢) وُجردت في القرن العاشر حملات هجومية من ايطاليا واسبانية فعبرت ثنايا جبال الألب حتى اوربا الوسطى . وفي الألب اليوم عدد من القلاع والأسوار الضخمة التي يقول الادلاء للسياح عنها انها ترجع للفتح الاسلامي . وفي سويسرا نفسها اماكن وردت اسماؤها في «دليل بدكر» بحيث يشتم منها انها من اصل عربي كـ «Gaby» و «Algabi» فلعلهما من لفظة « الجابي ».

الانسحاب من ايطاليا

كان استرجاع النصارى لباري في عام ٨٧١ فاتحة عهد جديد زال فيه الخطر الذي كان جاثماً على صدر ايطاليا واواسط اوربا . وكان امراء الجيش العربي في باري قد بلغ بهم الأمر قبل ذاك أن اعلنوا انفسهم « سلاطين » مستقلين عن الامير المقيم في بلرم . وفي عام ٨٨٠ نشط الامبراطور البيزنطي باسيل الاول فسار الى طارنت (ترنتو) وهي قلعة خطيرة وانتزعها

١) Amari, *Storia*, ed, Nallino, vol. i, pp. 588-93.
٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠١ .

من ايدي المسلمين . و بعد بضع سنوات انهزمت بقية الحامية العربية التي كانت في قلورية وانتهت بذلك آخر مراحل ذلك التوسع العظيم الذي كان قد بدأ في جزيرة العرب البعيدة قبل قرنين ونصف . ولا تزال الابراج الاسلامية التي كانت تذاع منها انباء وصول الاساطيل العربية القادمة من صقلية او من افريقية قائمة حتى يومنا هذا على شاطىء نابولي الجنوبي مضيفة الى جماله الطبيعي الذي لا مثيل له جمالاً آخر .

الامارة الصقلية

كان امراء صقلية في اول امرهم تابعين للاغالبة المقيمين في القيروان (١) ثم ظهرت الخلافة الفاطمية الفتية في شمالي افريقية فغلبت الدولة الاغلبية عام ٩٠٩ وادى ذلك الى ان تصبح صقلية قسماً من الامبراطورية الفاطمية التي اسسها عبيد الله المهدي . غير ان مسلمي صقلية استطاعوا بعد اربع سنوات أن يعلنوا استقلالهم تحت زعامة أحمد ابن قُرهب (٩١٢ ـ ١٦) عن الفاطميين بل ان زعيمهم هذا دعا الناس الى طاعة الخليفة العباسي المقتدر عدو الفاطميين وخُطب له على المنابر بصقلية وقُطعت خطبة المهدي (٢) . وحدث اخيراً ان تخلت عن الامير احمد عساكره البربر فتمكن المهدي من القبض عليه عام ٩١٧ وامر بقتله . واستعاد بذلك الفاطميون سيطرتهم على صقلية واتخذوها قاعدة بحرية جردوا منها الحملات حتى جنوى التي نهبوها عام ٩٣٤ او ٩٣٥ .

ولم تكن الحالة الداخلية مرضية في صقلية . فالعنصران الاسباني والافريقي اللذان تكون منهما المسلمون فيها لم يكونا على اتفاق . وزاد الطين بلة استمرار الخلاف القديم في صفوف العرب انفسهم بين اليمانية والكلبية اي بين اهل الجنوب واهل الشمال .

وفي عام ٩٤٨ استعمل المنصور الخليفة الفاطمي الثالث على صقلية الحسن ابن علي ابن ابي الحسين الكلبي (المتوفى ٩٦٥) فاقر السلم في الجزيرة وأنشأ حكومة ثابتة الاركان (٣) وفي عهده

١) راجع قائمة أسمائهم في : Zambaur, p.67 . وانظر Edward Sachau, *Ein Verzeichnis Muhammedanischen Dynastien* (Berlin, 1923), p. 26.

٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٣ ـ ٤ .

٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٥٤ .

وعهود خلفائه تسنى لهذه الدولة الكلبية ان تزرع بذور الثقافة العربية في الجزيرة وتهيء لها فرصة للنمو . وكان في عهد ابي الفتوح يوسف ابن عبد الله (٩٨٩-٩٨) وهو من المتحدين من الحسن ابن علي ان بلغت صقلية اوج مجدها .

وعاش الامراء الكلبيون عيشة الترف والرخاء في قصورهم الانيقة في بلرم وانشأوا المجالس الراقية في مدينتهم المزدهرة . وقد وضع ابن حوقل [١] (لمع ٩٤٣ - ٧٧) الرحالة الجغرافي الشرقي وصفاً لمدينة بلرم في ذلك العصر يعدّ اقدم وصف لها بل لعله الوصف الوحيد الذي تخلف لنا بقلم شاهد عيان مسلم . وقد جاء فيه انه وجد في تلك المدينة اكثر من مئة وخمسين حانوتاً للقصابين لبيع اللحوم واكثر من ثلاثمئة مسجد . وهو عدد بعيد عن التصديق وأضاف الى ذلك ان مسجدهم قام فيه اكثر من ستة وثلاثين صفاً للصلاة كل صف يحتوي على ما يقارب مئتي رجل مما جعل عدد المصلين يبلغ سبعة آلاف . وروى: «ان فيها ازيد من ثلاثمئة معلم يؤدبون الصبيان . واهل بلرم يعتبرون هؤلاء المعلمين افضلهم واجلهم وانهم أهل الله. هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم وخفة الادمغة وانما لجأوا الى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونكولا عن الحرب » .

الفتح النورمندي

ونجم عن الحروب الاهلية والتدخل البيزنطي ان سقطت الدولة الكلبية وفسح المجال في صقلية بذلك للفتح النورمندي. وقد بدأ هذا الفتح باحتلال الكونت روجر ابن تانكرددي هوتفيل في عام ١٠٦٠ لمسينا فافضى ذلك بدوره الى سقوط بلرم في عام ١٠٧١ وسرقوسة في ١٠٨٥ بايدي النورمنديين واستيلاء هؤلاء على كل الجزيرة في عـام ١٠٩١ . وفي عام ١٠٩٠ اخذ روجر مالطة . وكان النورمنديون قد تركزوا واطمأنوا الى امرهم في القـارة الاوربية وها هم الآن يثبتون اقدامهم في الممتلكات الجديدة .

الثقافة العربية النورمندية

وشاهدت صقلية في عهد النورمنديين ازدهار ثقافة نصرانية اسلامية جديرة بالاهتمام .

---

١) ص ٨٢ - ٧ .

ففي اثناء الحقبة العربية سرت الى الجزيرة الغنية بذكريات الحضارات الماضية مجاري الثقافة الشرقية وقد امتزجت بتراث اليونان وروما الثمين واكتسبت لوناً خاصاً في ظل الحكم النورمندي واكسبت الثقافة النورمندية مزيتها الخاصة . وكان العرب حتى هذا الزمن شديدي الانهماك بحروبهم ومشاحناتهم فلم يعنوا كثيراً بالفنون التي تزدهر ايام السلم . اما الآن فانهم اطلقوا العنان لمواهبهم الخصبة واخرجوا نتاجاً قيماً في الفن والثقافة العربية النورمندية .

اما روجر الاول (المتوفى ١١٠١) فبالرغم من انه كان نصرانياً غير مثقف فانه قد اعتمد على المسلمين في حشد اكثرية المشاة في جيشه وقد شمل العلوم العربية برعايته فقرّب منه الفلاسفة الشرقيين والمنجمين والاطباء ومنح غير النصارى حق ممارسة طقوسهم الدينية بحرية تامة . اما قصة عبد الجبار ابن حمديس الصقلي (حوالي ١٠٥٥ ـ ١١٣٢) الذي هجر بلاده صقلية عند الفتح النورمندي بالرغم من انه ولد في سرقوسة نفسها وقصد بلاط المعتمد في الاندلس فتستثنى مما قدمنا [١]. وعلى العموم فان روجر احتفظ بنظام الادارة السابق واستعان في ادارة شؤون الدولة بالموظفين المسلمين ، بحيث ان بلاطه في بلرم كان شرقياً اكثر منه غربياً . وبقيت صقلية الى ما بعد هذا العهد بنحو قرن وهي في وضع فذ نادر من حيث انها كانت مملكة نصرانية اسندت فيها بعض الوظائف العليا الى المسلمين .

وقد ظلت التجارة في هذا القرن الى حد كبير بايدي المسلمين وتقدمت زراعة الاراضي تقدماً مطرداً باشراف المزارعين العرب الذين عرفوا كما عرف اخوانهم في الاندلس كيف يستغلون الارض فتدر عليهم حاصلات وافرة . وادخل العرب الى البلاد زراعة قصب السكر والكتان والزيتون وسواها من النباتات والاشجار المثمرة . اما صناعة الحرير فقد تركزت على ايدي النورمنديين في البلاد بعد عام ١١٤٧ . وكذلك زراعة البردي فقد ازدادت وازدهرت في الجزيرة وقد ذكر ابن حوقل [٢] انه لم ير مثله الا في مصر . وكانت تصنع حبال السفن من

١) لقد ظل ابن حمديس ملازماً لولي نعمته الاشبيلي حتى في ايام بؤسه ورافقه الى منفاه في افريقية اما ديوانه فقد نشره شياپرلي في رومة سنة ١٨٩٧ . وهناك اقسام منه في : Amari, *Biblioteca*, pp. 517-73

٢) ص ٨٦ .

ألياف هذا النبات . وقد اعجب ابن جبير (١) بخصب هـذه الجزيرة حين زارها عام ١١٨٤ فذكر مواردهـا الغنية ومرافق الرزق الواسعة فيهـا واشار بنوع خاص الى اغراس الكرمة وغيرها من الاشجار المنصوبة في صفوف متناسقة .

وان اقدم وثيقة اوربية مكتوبة على الورق هي امر اداري اصدرته باللغتين اليونانية والعربية زوجة روجر الاول وذلك عام ١١٠٩ على الارجح . ويظهر ان هذه الوثيقة كتبت على ورق استورده عرب صقلية من الخارج . ولدينا من عهد الملك روجر الثاني اقدم النقود التي تحمل تاريخاً مكتوباً بالارقام العربية (١١٣٨) ومعها نقش عربي .

وكان روجر اول محبي العربية من ملوك صقلية وقد بزه في ذلك ابنه روجر الثاني وتابعهما فردريك الثاني . اما روجر الثاني فقد كان يلبس كالمسلمين بحيث سماه منتقدوه « الملك الوثني » وكانت جبته مزينة بالحروف العربية . وظل الزي الاسلامي شائعاً حتى ولاية حفيده وليم الثاني (١١٦٦ ـ ٨٩) وقد شاهد ابن جبير (٢) النساء النصرانيات في بلرم في ذلك العهد خارجات في ازياء المسلمات . اما سقف المعبد الذي شاده روجر الثاني في بلرم عاصمته فقد ازدان بالصور والاشكال التي كان فيهـا نقوش كوفية . وليس من شك في ان الصناع العرب اشتركوا في تشييد هذه الكاندرائية وغيرها من العمارات في صقلية . وهناك عدد من المصنوعات العاجية منها علب للزينة وصوالجة للكهنة محفوظة في متحف كريستيانو بالفاتيكان وغيره من المتاحف تمثل الصناعة الصقلية العربية لهذه الحقبة (٣). اما اسطول روجر الذي رفع صقلية الى تسلم الزعامة البحرية في البحر المتوسط فقد بناه وتولى قيادته امراء اعظمهم جرجي الانطاكي (٤) وهو يوناني خدم في اول عهده احد امراء المسلمين في المهدية بافريقية . وكان اعظم منصب في الدولة يسمى باسم مشتق من العربية ـ اميرانس اميراتورم ـ اي امير الامراء .

---

١) ص ٣٢٨.

٢) ص ٣٢٣ .

٣) انظر Perry. B.Cott, *Siculo-Arabic Ivories.*(Princeton,1939)

٤) Amari, *Biblioteca*, p. 657.

الادريسي

كان ابو عبد الله محمد ابن محمد الادريسي ألمع شخصية ازدان بها بلاط روجر الثاني وكان اعظم علماء الجغرافية وراسمي الخرائط في العصور الوسطى . وقد ولد في سبتة عام ١١٠٠ من ابوين عربيين اندلسيين ونبغ في بلرم حيث مارس عمله تحت رعاية روجر الثاني وتوفي عام ١١٦٦ . اما رسالته « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق »(١) المعروفة بكتاب روجار فلا تقتصر اهميتها على تلخيص المواضيع الرئيسية في الكتب السابقة بهذا المضمار كمؤلفات بطليموس والمسعودي فحسب بل تعود اهميتها ايضاً الى انها مبنية في الاساس على تقارير مبتكرة اتصلت به عن طريق رواة كان قد انفذهم الى بلدان متفرقة لكي يأتوه بالمعلومات . وقد اظهر الادريسي في بحث المواد التي اتصلت به ونقدها وتحري الحقيقة فيها رجاحة عقل ورحابة صدر وكشف عن فهم لبعض القضايا الهامة كادراكه لكروية الارض. وعلاوة على هذا الكتاب فان الادريسي صنع لولي نعمته النورمندي كرة سماوية وخريطة للعالم في شكل قرص وكلاهما من الفضة (٢).

فردريك الثاني

كان روجر الثاني أحد « سلطاني صقلية المعمدين » (٣) وكان السلطان الآخر حفيده فردريك الثاني الهوهنستوفي (١٢١٥ ــ ٥٠) وهو الذي بسط حكمه على صقلية والمانيا .وتمتع بعد سنة ١٢٢٠ بلقب « امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة » واصبح فوق هذا ملك بيت المقدس وذلك بفضل زواجه سنة ١٢٢٥ بولية العهد ايزابل البرينية . ومن هنا فقد كان الامبراطور فردريك الثاني اعظم ملك في العالم المسيحي لذلك العهد.ولم يكد ينقضي على زواجه ثلاث سنوات حتى جرد حملة صليبية عاد منها وقد تأثر اكثر من قبل بالافكار الاسلاميـة .

---

١) طبعت خلاصته مع احدى وسبعين خريطة في رومة منذ سنة ١٥٩٢ بحيث كانت من اقدم الكتب العربية المطبوعة . وقد نقلها الى اللاتينية دون تدقيق كثير عالمان مارونيان هما جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني بعنوان : *Geographia Nubiensis* (Pars, 1619) » وقد نشرت اقسام من النص الاصلي في ليون ومدريد ورومة وبون وسواها .

٢) Amari, *Biblioteca*, p. 658.

٣) Amari, *Storia*, ed. Nallino, vol. iii, p. 372.

وكان في عاداته وحياته الرسمية شبه شرقي فقد أقام لنفسه بيت حريم على طريقة الملوك المسلمين ولمع في بلاطه فلاسفة من سورية و بغداد ذوو لحى مستطيلة وجبب فضفاضة وكان في قصره قيان وراقصات شرقيات و يهود من الشرق والغرب. وانشأ علاقات سياسية وتجارية مع العالم الاسلامي و بنوع خاص مع سلطان مصر الكامل محمد ابن اخي صلاح الدين الايوبي (١) (١٢١٨ – ٣٨). وقد جاءه من سلطان مصر هذا هدايا شرقية بينها جمال عربية كان يصطحبها معه في اسفاره وزرافة هي اول زرافة جيء بها الى القارة الاوربية.

واستدعى اهل اختصاص من مصر لاجراء التجارب في بيض النعام وحضانته اوتفقيصه بحرارة الشمس. وفي عام ١٢٣٢ وصله من السلطان الاشرف الايوبى ايضاً آلة بديعة فيها اشكال الشمس والقمر قد رتبت بصورة تتعين بها الساعات في مواعيد دورانها. فارسل الامبراطور مقابل ذلك دباً وطاووساً ابيضين أدهشا الدمشقيين كما ادهشت معاصريهما اهل صقلية الزرافة التي وصلتهم من مصر. وقد طلب فردريك من السلطان الكامل هذا ما طلبه من حكام مسلمين آخرين الا وهو حل الغاز مبنية على مسائل رياضية وفلسفية وفلكية والاستفهام عن بعض المسائل الاخرى. وقد تمكن من شرح المسائل الرياضية والفلسفية عالم مصري (٢) اما المسائل الهندسية الفلكية ومنها تربيع قطع الدائرة فقد تم حلها في الموصل. وهي الاسئلة نفسها التي وجهت الى ابن سبعين.

واستحضر فردريك من سورية رجالا ماهرين في ترويض البزاة واخذ يشاهدهم وهم يدربون الطيور وكان يمتحن الطيور بان يغطي عيونها و يطلقها تفتش عن الطعام بواسطة حاسة الشم. وعهد الى ترجمانه ومنجمه ثاذري (ثيودور) وهو نصراني يعقوبي من انطاكية (٣) بنقل رسالة عربية عن تربية البزاة. وقد اصبحت هذه الترجمة مع ترجمة أخرى من الفارسية اساساً للكتاب الذي وضعه فردريك نفسه في ترويض البزاة وهو اول مصنف في التاريخ الطبيعي عندهم. كذلك وضع ثاذري للامبراطور رسالة في حفظ الصحة تلخيصاً عن « سر

---

١) ابو الفداء ج٣ ص ١٤٨.

٢) Amari, *Biblioteca*. p. 522; cf. p. 514

٣) ابن العبري ص ٤٧٧ – ٨.

الاسرار » وهو الكتاب المنسوب خطأ الى ارسطو . وكان قد سبق تاذري في وظيفة منجم البلاط عالم اسمه ميخائيل سكوت وقد تمثلت به في صقلية وايطاليا من ١٢٢٠ الى ١٢٣٦ الحركة العلمية في اسبانية الاسلامية. وقد انجز سكوت للامبراطور ترجمة من العربية الى اللاتينية فيها موجز مؤلفات ارسطو في علم الحياة وعلم الحيوان مع شرح ابن سينا وقدمها الى ولي نعمته.

ان هذه الروح العلمية في البحث والتنقيب والاختبار التجريبي التي تكاد تكون حديثة والتي ميزت بلاط فردريك لتعيّن بدء عصر النهضة الايطالية . فقد اخذت حركة الشعر والأدب والموسيقى تزدهر تحت تأثير الأدب البروفنسالي والعربي (١) والظاهر ان نظم الشعر باللغة العامية في ايطاليا قد تم جرياً على عادة الشعراء والمغنين العرب وان بحور الشعر الشعبي الاول في ايطاليا كما يبدو من اغاني اعياد المرافع والاغاني الوطنية ballata هي في اساسها كبحور الشعر الاندلسي الشعبي (٢) .على أن اعظم ما تي فردريك هو تأسيسه جامعة نابولي في عام ١٢٢٤ وهي اول جامعة في اوربا تأسست ببراءة خاصة ، وقد اودع فيها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية اما مصنفات ارسطو وابن رشد التي امر فردريك بترجمتها فانها قد استعملت كتباً مدرسية . وارسلت من هذه الترجمات نسخ الى جامعات باريس و بولونيا وكان من الطلاب في جامعة نابولي توماس الاقويني . وفي القرن الرابع عشر والقرون التي تلته اخذ الاقبال على الدراسات العربية يزداد في كثير من جامعات اوربا ومنها جامعتا اكسفورد وباريس . ولكن الغاية اختلفت عما كانت عليه قبلاً . لقد اصبح غرض هذه الحركة الآن اعداد المرسلين النصارى لنشر الدعوة في البلاد الاسلامية .

مقام صقلية في نقل الفكر

كانت صقلية ملتقى ثقافتين ومن هنا تهيأ لها ان تكون الواسطة في نقل حضارة العصور القديمة والعصور الوسطى الى الغرب . اما سكانها فكانوا عنصرين ، عنصراً يونانياً يتكلم اليونانية وآخر اسلامياً يتكلم العربية وكان فيها فوق ذلك طائفة من العلماء الباحثين يعرفون

---

(١) Amari, *Storia*, ed. Nallino, vol. iii, pp. 760 seq; G. A. Cesareo, *Le origini della poesia lirica e la poesia siciliana sotto gli suevi*, 2nd ed. (Milan,1924) pp. 101, 107

(٢) José M. Millas in *Revista de archives*, vol. xli. (1920), pp. 550-64, xlii (1921), p.37-59

اللاتينية . وكانت هذه اللغات الثلاث مستعملة في المدونات الرسمية والبراءات الملكية كما كانت شائعة ايضاً بين اهالي بلرم المتعددي الالسنة . ففي صقلية تم نقلُ كتاب « المجسطي » الى اللاتينية حوالي عام ١١٦٠ رأساً عن اليونانية بمؤازرة عالم صقلي يتكلم اليونانية اسمه يوجين البلرمي ويلقب بالامير . وقد لمع يوجين في عهد روجر الثاني وخلفه وليم الاول وكان يحسن



خارطة عربية للعالم وضعت في القاهرة سنة ١٤٥٦ بناء على جغرافية الادريسي . لاحظ منابع النيل وكان يظن انها من مكتشفات القرن التاسع عشر

العربية واللاتينية ايضاً . وقد وضع نصاً لاتينياً لـ « كتاب العين » (optica) العربي المنسوب أصله الى بطليموس ، وكان الاصل اليوناني مفقوداً . واعان كذلك على نقل كتاب « كليلة ودمنة » من العربية الى اليونانية . ولم يقتصر التشجيع في عهد وليم على النقل عن العربية فقط بل تعداه الى النقل عن المصادر اليونانية ايضاً .

وساهم يهود صقلية كما ساهم يهود اسبانية في حركة الترجمة وقد نقل كتاب الرازي

الشامل في الطب الى اللاتينية عام ١٢٧٩ طبيب يهودي من صقلية اسمه فرج ابن سالم وكان ذلك تحت رعاية شارل الاول وانتشر الكتاب في مخطوطات عديدة خلال القرون التي تلت. وهو المصنف الطبي الوحيد الذي نُقل الى اللاتينية في صقلية فقد اقتصرت اكثر المصنفات المترجمة على الفلك والرياضيات . ولم تكن الخدمات العلمية التي قامت بها صقلية قليلة القدر برغم ان بعض الترجمات التي تم نقلها عن العربية واليونانية فيها قد اعيد نقلها بعدئذ بشكل أتم وافضل في طليطلة .

عن طريق ايطاليا

ولما كان الملوك النورمنديون وخلفاؤهم على عرش صقلية يحكمون ايضاً ايطاليا الجنوبية فقد تسنى لمملكتهم ان تكون جسراً تعبر عليه شتى العناصر الثقافية الاسلامية الى شبه الجزيرة الايطالية واوربا الوسطى . ولم يكد ينتصف القرن العاشر حتى اخذت آثار العلوم العربية تظهر في شمال جبال الالب ، فآراء دانتي في الآخرة وان لم تكن مستقاة رأساً من نص عربي معين فهي دون شك شرقية الاصل استمدها الشاعر من ادب اوربا الشعبي في ذلك العهد . واخذت هذه المؤثرات الشرقية طرقاً مختلفة نفذت منها الى الغرب وظهرت في ميادين الفن كما ظهرت في ميادين العلم والادب . ويلوح لنا الآن أن شكل بناء ابراج الاجراس المعروف بـ « كامبانلي » *Campanili* في عصر النهضة انما استمد من شكل المئذنة المربعة المعروفة في شمالي افريقية وبالاخص تلك التي كانت تابعة للزي المصري . وقد ظل كثير من الصناع المسلمين ورجال الفن يمارسون صناعاتهم في صقلية وجنوبي ايطاليا الى ما بعد تحول الملك فيها الى حكومة مسيحية كما تشهد بذلك اشكال الفسيفساء والنقوش في كنيسة البالاتين . وكان معمل الحياكة المشهور الذي أنشأه امراء المسلمين في قصر بلرم الملكي يجهز العائلات الملكية في اوربا بالملابس الرسمية وقد طرزت عليها الكتابات العربية . ومن صقلية نفسها استمد صناع المنسوجات الاول في ايطاليا معرفتهم الفنية ونماذج الرسوم التي رسموها . وفي اول القرن الثالث عشر كانت حياكة الحرير قد اصبحت الصناعة الرئيسية في عدة مدن ايطالية واخذت هذه المدن تصدر المنسوجات تقليداً للمصنوعات الصقلية الى انحاء متفرقة من اوربا . وكان في

البندقية وفرارا و بيزا كما كان في بلرم وقادس من قبل جماعات من الصناع الشرقيين يعلمون ابناء البلاد ويساهمون معهم في العمل . و بلغ الطلب على المنسوجات الشرقية درجة عظمى بحيث ان الاوربي لم يكن يحسب نفسه حسن الهيئة والهندام ما لم يكن في حوزته بذلة شرقية على الاقل .

وفي اثناء القرن الخامس عشر حين اخذت مدينة البندقية الغنية في تبني الازياء الاسلامية في الفن ونشرها وتعميمها اخذت الكتب التي كانت تجلد في المصانع الايطالية تظهر بحلة شرقية . وظهرت الكتب المسيحية متسمة بخصائص فن التجليد العربي و بنوع خاص تعريض احدى دفتي الكتاب المجلد بحيث تطوى الدفة على الكتاب فتصون حافتيه . وظهرت في الوقت نفسه في عدد من المدن الايطالية طرق جديدة لزخرفة جلدة الكتاب وطبع الرسوم فيها نقلوها عن الصناع الشرقيين . زد على هذا ان البندقية نفسها اصبحت موطن صناعة اخرى تقوم على ترصيع النحاس الاصفر بالذهب او الفضة او النحاس الاحمر وهو فن تميزت به الموصل في القرن الثاني عشر .

وعلى الاجمال فان صقلية تعد ثانية بعد اسبانية من حيث الدور الذي لعبته في نقل الثقافة الاسلامية الى الغرب ولكن دورها دون شك يفوق الدور الذي لعبته سورية زمن الحروب الصليبية .



وشاح التتويج الذي لبسه روجر الثاني ، وترى على حاشيته المدوّرة تطريزاً بالخط الكوفي

القسم الخامس

آخر الدول الإسلامية في العصور الوسطى

الفصل الثالث والاربعون

خلافة شيعية في مصر : الفاطميون

الدعاية الاسماعيلية

كانت الخلافة الفاطمية وهي الخلافة الشيعية الوحيدة الكبرى في الاسلام (١) قد تركزت في تونس سنة ٩٠٩ متحدية خلفاء بغداد العباسيين ومتعمدة منازعتهم على الزعامة الاسلامية التي كانت بيدهم . وكان مؤسس الخلافة الفاطمية سعيد ابن حسين ويرجع نسبه على ما يرجح الى عبد الله ابن ميمون الفارسي المؤسس الثاني لحركة الاسماعيلية (٢) . وكان ظهور سعيد الرائع وقيامه بالأمر خلفاً لابن ميمون نتيجة لدعاية اسماعيلية مدبرة بدهاء، وحذق لا توازيها الا تلك الحركه السابقة التي قضت على شوكة الخلافة الاموية . اما نجاح الحركة فعائد بالأكثر الى مساعي داعي الدعاة ابي عبد الله الحسين الشيعي الخاصة . وكان هـذا في الاصل من اهل صنعاء اليمن وقد اعلن نفسه في اواخر القرن التاسع رائداً للمهدي وغرس بذور الفتنة في صفوف البربر بشمالي افريقية لا سيا قبيلة ـ كتامة (كُتامة) وكان قد تعرف الى بعض افرادها بمكة في موسم الحج (٣) . وكانت افريقية آنذاك خاضعة لحكم الاغالبة .

شخصية سعيد الفاطمية

وكان نجاح ابي عبد الله الباهر في تلك البقعة النائية حافزاً لسعيد أهاب به الى مغادرة مقر الاسماعيلية بسلمية والسفر متخفياً في زي تاجر الى شمالي افريقية الغربية . وعندما سيق

---

١) أما الامارات العلوية القديمة المستقلة فراجع امرها تحت عنوان الادارسة والحمودية . وترجم سيادة الشراف مراكش الى سنة ١٠٤٤ وهم يربطون نسبهم بالحسن ابن علي ويكادون يقاربون السنة في عقائدهم

٢) كان المؤسس الاول الامام اسماعيل (المتوفى ٧٦٠)

٣) ابن عذاري ج ١ ص ١١٨ .

سعيد الى السجن في سجلماسة بامر زيادة الله الاغلبي (٩٠٣ ـ ٩) انتذه ابوعبد الله الشيعي (١) وما زال هذا يسعى حتى هدم دولة الاغالبة سنة ٩٠٩ وطرد زيادة الله آخر ملوكها من البلاد. وكانت دولة الاغالبة قد دامت نحو قرن وكان اصحابها آخر معقل للسنة في ذلك الجزء من افريقية. ونودي بسعيد اميراً فلقب بالامام (٢) عبيد الله المهدي وتقبله الناس على انه من ذرية فاطمة من نسل الحسين واسماعيل. وتغلب الاشارة الى الدولة التي انشأها باسم العبيدية لا سيما عند الذين لا يسلمون بالنسب الذي ادعاه.

وانقسم المؤرخون المسلمون الى فريقين بشأن صحة نسبه الفاطمي. ولا يقل عدد الانساب التي ذكرها له مشايعوه وخصومه عن الثمانية. وقد بالغ بعض اعدائه فنسبه الى أب يهودي. ومن اشهر القائلين بصحة نسبه الفاطمي ابن الأثير (٣) وابن خلدون (٤) والمقريزي (٥). ومن جملة من يرتاب في نسبه او ينكره او يزعم انه محتال ابن خلكان (٦) وابن عذاري (٧) والسيوطي (٨) وابن تغري بردي (٩). وجدير بالذكر أن هذا الخلاف على نسبه لم ينشأ حتى سنة ١٠١١ وذلك حين كتب ببغداد محضر بامر القادر تضمن القدح في نسب خلفاء مصر القاطميين. وقد وقع على المحضر جماعة من اعيان السنة والشيعة وجاء فيه ان هذا الناجم بمصر المتلقب بالحاكم لا نسب له في ولد علي ابن ابي طالب بل ينتسب الى ديصان ابن سعيد الخارجي (١٠).

---

١) يظن البعض خطأ ان السجين الحقيقي انما قتل قبل تسليم سجلماسة الى الشيعي.
٢) لقد آثر الفاطميون ـ وهم شيعة ـ لقب « امام » على لقب « خليفة ».
٣) ج ٨ ص ١٧ ـ ٢٠ ؛ واختصره ابو الفداء ج ٢ ص ٦٧ ـ ٨.
٤) ج ٤ ص ٣١.
٥) خطط (بولاق، ١٢٧٠) ج ١ ص ٣٤٨ ـ ٩.
٦) ج ١ ص ٤٨٧.
٧) ج ١ ص ١٥٠، ١٥٧ ـ ٨.
٨) تاريخ الخلفاء (القاهرة، ١٣٠٥) ص ٢١٤.
٩) نشر بير ج ٢ قسم ٢ ص ١١٢.
١٠) محضر الجلسة محفوظ في ابي الفداء ج ٢ ص ١٥٠.

الفاطمي الاول

نزل عبيد الله (٩٠٩ ـ ٣٤) اول الامر في الرقادة مسكن الاغالبة بضاحية القيروان وثبّت نفسه فيها وأحسن الحكم فدانت له الرقاب . ولم يمض على تسلمه الزعامة سنتان حتى قتل ابا عبد الله الشيعي كبير دعاته وقواده ثم لم يلبث طويلاً حتى نشر لواء دولته على كل الاراضي الافريقية الممتدة من مراكش الادارسة حتى تخوم مصر . وفي عام ٩١٤ احتل الاسكندرية و بعد ذلك بسنتين انزل الدمار بارض الدلتا وملك صقلية و بعث اليها حاكماً من ابناء قبيلة كتامة يليها عنه . وعقد مع ابن حفصون الثائر في اسبانية علاقات الصداقة . وانتقل اليه اسطول الاغالبة فاكتسب صولة بحرية هائلة شعرت بوطأتها مالطة وسردينيا (١) وكورسكا والجزائر الشرقية وغيرها . واتخذ لنفسه حوالي عام ٩٢٠ مسكناً في « المهدية » (٢) عاصمته الجديدة التي بناها على الساحل التونسي على بعد ستة عشر ميلاً الى الجنوب الشرقي من القيروان وسماها باسمه .

الاسطول

وسار خلفاء عبيد الله على خطته فتابعوا سياسة الهجوم والتوسع وانفذ ابنه (٣) ابو القاسم محمد القائم (٩٣٤ ـ ٤٦) اسطولا في عام ٩٣٤ او ٩٣٥ أغار على ساحل فرنسا الجنوبي فأخذ جنوى ومر بجانب كلابريا حاملاً الارقاء الذين سباهم وغنائم اخرى . غير ان هذه الحملات كلها لم تصل الى فتح دائم . وفي عهد ابي معدّ المعز (٩٥٢ ـ ٧٥) حفيد القائم عظم شأن الاسطول المصري وقوي بما اضيف اليه من وحدات جديدة بنيت في مَقس ميناء القاهرة النهري قبل بولاق فغزا في عام ٩٥٥ سواحل اسبانية وكان ذلك في ايام الخليفة الناصر المشهور. و بعد ثلاث سنوات امعن الجيش الفاطمي في افريقية في تقدمه غرباً حتى بلغ المحيط الاطلسي

---

١) وقد انتزعت اخيراً من اسبانية سنة ١٠٠٣ .

٢) ياقوت ، بلدان ج ٤ ص ٦٩٠ ـ ٦ ؛ المسعودي ، تنبيه ص ٣٣٤ ؛ ابن حماد ، اخبار ملوك بني عبيد نشر فندرهيدن (الجزائر ، ١٩٢٧) ص ٩ ـ ١٠ .

٣) حارسه كما يستنتج من مصدر اسماعيلي ، انظر : Bernard Lewis, *The Origins of Ismā'ilism* (Cambridge, 1940), pp.51 - 2

حيث نزل امير الجيش فاصطاد منه سمكاً ارسله الى الخليفة حياً في جرار . وفي عام ٩٦٩ انتزع الفاطميون مصر من ايدي اصحابها الاخشيديين .

جوهر الصقلي

كان بطل هذه الحملات الأخيرة جوهر الصقلي الرومي وكان هذا في الأصل نصرانياً وُلد في بلادٍ بيزنطية لعلها صقلية ومنها جاء رقيقاً الى القيروان (١) . ولم يكد جوهر يدخل ظافراً سنة ٩٦٩ الى الفسطاط عاصمة مصر حتى اخذ في تخطيط محلة جديدة سماها القاهرة (٢) واصبحت عاصمة الفاطميين سنة ٩٧٣ . و بعد ان بنى جوهر العاصمة الجديدة وهي اليوم اكبر مدن افريقية واكثرها سكاناً شيّد سنة ٩٧٢ الجامع الازهر الكبير (٣) وجاء الخليفة العزيز بعد وقت يسير فجعله ايضاً داراً للعلوم .

وهكذا اصبح جوهر المؤسس الثاني للدولة الفاطمية بعد مؤسسها الاول ابي عبدالله الشيعي. وكانت هذه الدولة تشمل في العصر الذي ندرسه جميع افريقية الشمالية . اما غربي الجزيرة العربية فقد ورثه الفاطميون عن الاخشيديين المغلوبين الذين كان قد عهد اليهم العباسيون امر حماية الحرمين الشريفين . ولما استتب الأمر لجوهر في وادي النيل ارسل بعض قواده الى سورية فبلغ دمشق سنة ٩٦٩ واحتلها موقتاً (٤) . وقد واجه هناك اشد خصومة ومقاومة من القرامطة الذين كانت سطوتهم نافذة في كثير من انحاء البلاد السورية .

سلطة الفاطميين في ذروتها

وفي ايام ابي منصور نزار العزيز (٩٧٥-٩٦) خامس خلفاء مصر الفاطميين واول من ولي الخلافة وهو في مصر نفسها عم السلام البلاد و بلغت سلطة الفاطميين ذروتها. فقد خُطب لهذا الخليفة في جميع الاقطار الواقعة ما بين المحيط الاطلسي والبحر الاحمر وفي اليمن ومكة ودمشق ، حتى الموصل فانه قد خُطب له فيها مرة واحدة . وخفقت راية العزيز على هذه

---

١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٠٩ - ١٣ ؛ المقريزي ج ١ ص ٣٥٢ ، ٣٧٧ وما يلي .
٢) على اسم النجم السيار المريخ (قاهر الفلك) الذي كان في صعود اذ ذاك .
٣) من الزهراء لقب فاطمة بنت الرسول .
٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٨ ؛ المقريزي ج ١ ص ٣٧٨ .

البلدان وحكم ، ولو بالاسم على الأقل ، جميع هذه الاراضي المتسعة . ولم تكن خلافة مصر في عهده أعظم سلطة نافست خلافة بغداد فحسب بل انها فاقت هذه الأخيرة واخملت ذكرها واكتسبت لنفسها قوة بحرية بحيث اصبحت الدولة الاسلامية الكبرى الوحيدة في شرقي المتوسط . ولما تم امر العزيز واخذ في تمهيد امور بلاده بنى قصراً في القاهرة انفق عليه نحو مليوني دينار فيما يُروى وهيأه لاسكان منافسيه بني العباس الذين كان يأمل أن يقبض عليهم عند استيلائه على بغداد . وكان كأسلافه يطمح ان يكتسح اسبانية نفسها يوماً ما وقد ارسل بالفعل الى صاحبها يهجوه ويتهدده . وكان في جواب صاحب الاندلس الاموي حين وصله كتاب العزيز « اما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك » . (١)

ولعل العزيز كان أحكم الخلفاء الفاطميين واسمحهم يداً . وقد عاش في ترف وبذخ فابتنى في القاهرة وجوارها عدة جوامع وقصور واقنية وجسور وتساهل مع النصارى فمنحهم قسطاً من الحرية لم يعرفوه من قبل . وليس من شك في انه اقدم على هذا بفضل وزيره النصراني عيسى ابن نسطور وبتأثير زوجته الروسية ام ولده ووريثه الحاكم واخت بطريركي الاسكندرية واورشليم الملكيين .

واخذ صرح هذه الخلافة الفاطمية يتداعى بعد ملك العزيز السمح بمدة قصيرة . وكان العزيز نفسه اول خليفة فاطمي نسج على منوال العباسيين ونهج نهجهم الخاطىء في اعتماده على العساكر التركية ومرتزقة الجند من الزنج فكان هياج هذه العساكر على اوليائها وقتالها فيما بينها ونزاعها مع حرس الخليفة البربر من اهم العوامل التي ادت الى انحلال الامر وسقوط المملكة . وكان اخيراً ان الجند الشراكسة والترك والارقاء هم الذين اغتصبوا السيادة العليا وأنشأوا دويلات مستقلة .

الخليفة الحاكم

كان ابو علي منصور الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١) ابن احدى عشرة سنة فقط حين ولي الخلافة بعد العزيز . وقد تميز حكمه بالشدة والقسوة وسفك الدماء فقد قتل عدداً من وزرائه

---

(١) ابن تغري بردي نشر بيرج ٢ قسم ٢ ص ٢ .

وأمر بهدم عدد من الكنائس كانت منها كنيسة القيامة (١٠٠٩) . وأرغم اليهود والنصارى على لبس السواد ومنعهم ان يركبوا الا الحمير . وامر ان يكون في اعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان وفي اعناق اليهود الجلاجل ليتميزوا عن المسلمين . ثم افرد حمامات اليهود والنصارى من حمامات المسلمين وحط على حمامات النصارى الصلبان وعلى حمامات اليهود صور القرامي[١] وكان الحاكم ثالث خليفة في الاسلام بعد المتوكل وعمر ابن عبدالعزيز يضع الاحكام الصارمة على غير المسلمين[٢] . وفيما عدا ذلك فان العهد الفاطمي تميز بالتساهل مع اهل الذمة والعطف عليهم . والواقع ان الامر الصادر بهدم كنيسة القيامة انما كان موقعاً من قبل وزير الحاكم النصراني ابن عبدون . وكان هذا العمل من جملة العوامل التي مهدت الطريق للحروب الصليبية . واخيراً بلغ من امر هذا الخليفة الازرق العينين ذي الشخصية الغامضة انه ادعى الالوهية عملاً بمعتقد الغلاة من الاسماعيلية . وقبلته طائفة جديدة من الناس سموا بالدروز نسبة الى الدرزي (المتوفى ١٠١٩) اول كبار دعاتها [٣] . وفي ١٣ شباط سنة ١٠٢١ قتل الحاكم على جبل المقطم والراجح ان اخته ست الملوك دست عليه من يقتله وكان الخليفة قد اتهمها بسوء السيرة .

دور الانحطاط

وولي الخلافة بعد الحاكم فتيان غير راشدين فكانت السلطة الحقيقية بايدي وزراء تنعم بعضهم فيما بعد بلقب ملك ايضاً . فابن الحاكم وخلفه الظاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٥) انما كان في السادسة عشرة من عمره عند تسنمه العرش، وهو الخليفة الذي سمح قسطنطين الثامن بذكر اسمه في الخطبة بجوامع دار الروم وخوله الحق في اعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل سماح الخليفة له بترميم كنيسة القيامة [٤] . وولي الخلافة بعد الظاهر ابنه معد المستنصر (١٠٣٥ ـ ٩٤) وله من العمر احدى عشرة سنة وطال عهده فملك ستين سنة وهو اطول حكم في

---

١) ابن خلكان ج ٣ ص ٥ ؛ ابن حماد ص ٥٤ وقابل يحيى بن سعيد ، نشر شيخو ص ١٨٧ .

٢) اما الاحكام التي وضعها عليهم الشرع الشافعي فانظر بشأنها الابشيهي ، المستطرف ج ١ ص ١٠٠ .

٣) راجع ايضاً : Hitti, *Origins of Druze People.*

٤) المقريزي ج ١ ص ٣٥٥ ؛ قابل يحيى ابن سعيد ص ٢٧٠ ـ ٧١ .

الاسلام (١) . واستأثرت أمه في اول عهده بالحكم وهي جارية سوداء كانت قد اشتريت من يهودي فأدارت شؤون البلاد واستوزرت سيدها السابق وتمتعا معاً بالسلطة . وكانت مملكة الفاطميين في هذا الوقت قد تقلصت واقتصر سلطانهم على مصر وجزء صغير غيرها . وبعد سنة ١٠٤٣ اخذت سيطرة الفاطميين تضمحل في سورية وكانت في اساسها ضعيفة هناك . وسادت الفتنة فلسطين واخذت قوة مسلحة هائلة تتقدم من الشرق تحت لواء التركمان السلاجقة متهددة آسية الغربية . وفي الوقت نفسه كانت أمصار الفاطميين بافريقية تمتنع عن تأدية ما عليها من ضرائب وتعلن استقلالها او تعود الى طاعة العباسيين . وتحركت قبائل بني هلال وسليم العربية النجدية الأصل سنة ١٠٥٢ من مصر العليا نحو الغرب واخذت تعيث فساداً في طرابلس وتونس (٢) مدة طويلة . اما صقلية التي اذعنت بعد عهد الاغالبة لسلطان الفاطميين فقد اخذ الآن يغشاها النورمنديون . وما جاءت سنة ١٠٧١ الا وقد احتلوا اكثرها وكادوا بعد ذلك ان يحتلوا بعض الانحاء في القارة الافريقية نفسها . وكانت الجزيرة العربية هي الوحيدة في المحافظة على ولائها لدعوة الشيعة . ولم يكن في الافق الا نور ضئيل مصدره ظهور القائد التركي المغتصب البساسيري (٣) (المتوفى ١٠٦٠) ونجاحه ببغداد واقامته الخطبة على منابرها لخليفة مصر مدة اربعين اسبوعاً متعاقبة . وسلكت واسط والبصرة سبيل بغداد في هذا الأمر واقصي الخليفة العباسي القائم عن عاصمته بعد ان تخلى لمنافسه الفاطمي عن الولاية وانتزعت منه عمامته وبردة النبي التي كان يلبسها وشرفة جميلة من شرفات قصره فاخذت كلها الى القاهرة شعاراً للظفر . ولقد اعاد صلاح الدين ، بعد مرور قرن ،العمامة والبردة مع وثيقة التخلي الى بغداد اما الشرفة التي انتقلت من قصر الى قصر فقد اتصلت اخيراً بالسلطان المملوك بيبرس جاشنكير فاضافها الى ضريحه الذي كان يهيئه ودفن فيه سنة ١٣٠٩ .

---

١) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٥٠ .

٢) لقد كانت تنقلات بني هلال وغزواتهم اساساً تاريخياً لسيرة بني هلال المشهورة .

٣) ابن خلكان ج ١ ص ١٠٧-٨ .

السقوط

واخذت تظهر الفتن والاضطرابات في الداخل بين فصائل الترك والبربر والسودان وشلت سلطة الحكومة واجتازت البلاد مجاعة دامت سبع سنوات وافنت الثروة والعمران . وفي سنة ١٠٧٣ استقدم الخليفة الضعيف المستنصر بدر الجمالي الارمني من مركز حكمه العسكري عكا – وكان هذا الوالي في سابق عهده عبداً – واسند اليه الوزارة وامارة الجيوش (١) . فقام بدر بالامر وحكم بهمة ونشاط فحفظ النظام والامن واسترد ماضي الخلافة واعاد الى الدولة الفاطمية حياة جديدة . ولكن هذه الانتعاشة لم تدم طويلا ، ولم تكن جهود بدر لرد الكارثة كافية ولا جهود ابنه الملك الافضل (٢) الذي خلفه بعد وفاته ١٠٩٥ . واتصفت السنوات الاخيرة للعهد الفاطمي بالنزاع المستمر بين وزراء اختلفوا فاخذت بعض فرق الجيش تناصر الواحد على الآخر. وعند وفاة المستنصر رأى الملك الافضل ان يضع على العرش المستعلي اصغر ابناء المستنصر آملا ان يكون الخليفة اداة في يده . وولي بعد المستعلي ابنه وله من العمر خمس سنوات وقد عينه الملك الافضل ايضاً ومنحه لقب الآمر (١١٠١ – ٣٠) . وجاء الحافظ (١١٣٠–٤٩) بعده . ولم يكن سلطان الخليفة يمتد عند موت الحافظ الى ما وراء قصر الخلفاء . وكان ابنه الظافر (١١٤٩–٥٤) الذي خلفه شاباً يحب الملاهي فاغتصب الملك منه وزيره الكردي ابن السلار الملقب بالملك العادل . وفي مذكرات اسامة (٣) الذي نزل بلاط الفاطميين بين سنتي ١١٤٤ و ١١٥٤ ما يشير الى ان الدسائس والخصومات والمآثم في قصور الفاطميين آنذاك بلغت حداً لم يُعرف في بلاط دولة أخرى . وكان اغتيال ابن السلار (١١٥٣) بيد حفيد زوجته نصر ابن العباس، وتولي ابن العباس الوزارة، ومحاولة نصر قتل ابيه العباس بتحريض من الخليفة، ومقتل الظافر سراً بيد هذا الفتى المجرم نفسه – كانت هذه كلها فصولا سوداء لم يعهد تاريخ مصر افظع منها . وفي اليوم التالي لاختفاء الخليفة اقام عباس على العرش الفائز ابن الظافر (١١٥٤–٦٠) وله من العمر اربع سنوات ومات هذا الخليفة الصبي في الحادية عشرة من عمره فخلفه ابن عمه

١) ابن خلكان ج ٤ ص ٦٤ ؛ ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٠ ، ١٦٠ .
٢) ابو القاسم شاهنشاه ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٣٩٦ – ٧ .
٣) نشر فيليب حتي (برنستون ، ١٩٣٠) ص ٦ – ٣٣ .

العاضد وله من العمر تسع وهو الخليفة الرابع عشر بين الخلفاء الفاطميين وآخر رجال دولتهم التي دامت أكثر من قرنين ونصف . وساءت احوال الشعب بتعاقب المجاعات والاوبئة . وكانت حياة الشعب متوقفة الى حد كبير على فيضان النيل لتأمين أود عيشه فنتج عن ذلك كله ان ازداد الفقر في سني القحط وقلت الموارد فازدادت الضرائب و كثرت المصادرات وقد لجأ اليها الخلفاء وجنودهم سداً لنهمهم الذي لم يقف عند حد . وازداد الموقف ارتباكاً بقدوم الصليبيين ومواصلة امالرك (Amalric) ملك القدس غاراته على مصر بحيث وقف سنة ١١٦٧ على ابواب القاهرة . وقد انتهت هذه المحن بظهور صلاح الدين الذي وضع حداً لها وخلع سنة ١١٧١ آخر الخلفاء الفاطميين (١) .

---

١) قائمة الخلفاء الفاطميين :

١) المهدي (٩٠٩ ـ ٣٤)
٢) القائم (٩٣٤ ـ ٤٦)
٣) المنصور (٩٤٦ ـ ٥٢)
٤) المعز (٩٥٢ ـ ٧٥)
٥) العزيز (٩٧٥ ـ ٩٦)
٦) الحاكم (٩٩٦ ـ ١٠٢١)
٧) الظاهر (١٠٢١ ـ ٣٥)
٨) المستنصر (١٠٣٥ ـ ٩٤)

٩) المستعلي (١٠٩٤ ـ ١١٠١)
١٠) الآمر (١١٠١ ـ ٣٠)

محمد
١١) الحافظ (١١٣٠ ـ ٤٩)
١٢) الظافر (١١٤٩ ـ ٥٤)
١٣) الفائز (١١٥٤ ـ ٦٠)

يوسف
١٤) العاضد (١١٦٠ ـ ٧١)

الفصل الرابع والأربعون

الحياة في مصر الفاطمية

كانت مصر هي البلاد الوحيدة في المملكة الفاطمية المترامية الاطراف التي ترك فيها خلفاء عبيد الله المهدي طابع مميزاتهم الثقافية . وقد تعذر طبع الامصار الواقعة في شمال افريقية وغربي آسية بمثل ذلك الطابع لعدم متانة العلاقات التي ربطتها بالقاهرة . ويجوز اعتبار الحقبة الفاطمية في تاريخ مصر الثقافي وما سبقها من عهد الاخشيديين والطولونيين عصراً عربياً فارسياً يتميز عن العصر الفارسي التركي الذي شمل عهد الايوبيين والمماليك . اما المدة السابقة للطولونيين فقد كانت عربية صرفة . وجاءت الدولة الايوبية على اثر الفاطمية فأدخلت الى افريقية روح الامبراطورية السلجوقية العظمى وثقافتها كما يظهر ذلك من آثارها الفنية وصناعتها وحركاتها السياسية والفكرية . اما في عصر الفاطميين فقد كانت صبغة الثقافة الفارسية هي الغالبة . على ان قوام الشعب المصري طوال العصور الوسطى والحديثة كان العنصر القبطي المستعرب وقد بقي في الاكثر على مذهب السنة برغم ميول دولته الشيعية المتطرفة كما يستدل من سهولة الانقلاب الذي قام به صلاح الدين حين اعاد للسنّة مكانتها وجعلها مذهب مصر الرسمي .

وكانت الحقبة الفاطمية من الناحية السياسية فاتحة عصر جديد في تاريخ وادي النيل فقد اصبح لمصر فيها لاول مرة منذ ايام الفراعنة سيادة قومية تامة ممثلة في حكومة عزيزة الجانب شديدة الحيوية تقوم على اساس ديني . اما الدولتان السابقتان فلم تكن لهما اسس قومية او دينية في البلاد بل كانتا مدنيتين في نشأتهما وكيانهما لنشاط مؤسسيهما العسكريين وانحلال الخلافة العباسية .

ومع ان عصر مصر الذهبي في الخلافة الفاطمية بدأ بالمعز وبلغ اوجه في عهد العزيز فانها كانت في عهد المستنصر لا تزال في طليعة الاقطار الاسلامية . ولما زارها ناصر خسرو (١) الداعية الاسماعيلي الفارسي من سنة ١٠٤٦ الى ١٠٤٩ اي قبل الكارثة الاقتصادية السياسية وصفها فدل وصفه الشائق لها على انها كانت مثار الاعجاب . فقد كان في قصر الخلافة ثلاثون الف ناس منهم اثنا عشر الف خادم والف فارس وحارس . وكان الخليفة الشاب الذي رآه ناصر في احد الاعياد على بغلة فتىً وسيم الطلعة حليق الوجه عليه ملابس بسيطة منها قفطان ابيض وعلى رأسه عمامة . وقد وقف حاجب يحمل فوق رأس الخليفة مظلة مرصعة بالحجارة الكريمة . وكان لهذا العاهل الشاب سبع سفن راسية الى ضفة النيل طول الواحدة مئة وخمسون ذراعاً وعرضها ستون . وكان الخليفة يملك في العاصمة عشرين الف بيت اكثرها مبني باللبن فيها خمسة او ستة طوابق وفي اسفلها مثل ذلك العدد من الحوانيت يؤجر واحدها بما بين الدينارين والعشرة في الشهر . وكانت الشوارع الرئيسية مسقوفة ومضاءة بالقناديل . ولاصحاب الحوانيت اسعار محدودة للبيع فاذا بدر من احدهم غش في معاملته أركب على جمل وطيف به في اسواق المدينة مع ضرب الاجراس واجبر على المناداة بذنبه . حتى حوانيت الصاغة والصرافين كان يتركها اصحابها مفتوحة ليلا . وكان في الفسطاط القديمة سبعة جوامع وفي القاهرة ثمانية (٢) . وتمتعت البلاد كلها بقسط من الامن لا يستقل و بنصيب من الثروة جمل ناصر خسرو يقول بشيء من الحماسة : « لم استطع حصر ثروتها ولا قدرها ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر » (٣) .

وكان المستنصر اغنى الخلفاء المصريين على الاطلاق . فقد ورث الملايين عن اسلافه وعاش عيشة البذخ والرخاء . وكان من عادته كل سنة ان يركب على النجب مع النساء والحشم الى موضع نزهة أنشأه فيخرج اليه بهيئة انه خارج الى الحج على سبيل الهزء والمجانة ومعه الخمر

١) Sefer Nameh, ed. Schefer, pp. 36—56, tr. pp. 110—62.

٢) قابل المقريزي طبعة بولاق ج٢ ص٢٦٤ ؛ ياقوت ج٣ ص٩٠١ .

٣) ص٥٣ من النص و ص١٥٥ من الترجمة .

في الروايا عوضاً عن الماء يسقيه الناس كما يفعل بالماء في طريق مكة . وذكر المقريزي [1] لائحة باسماء كنوز المستنصر فاذا بها تحوي الحجارة الكريمة والمزهريات البلورية وصحون الذهب المغشاة والعاج ومحابر من الابنوس واقداحاً من العنبر وقوارير المسك والمرايا الفولاذية والمظلات ذوات الاعمدة الفضية والذهبية وموائد الشطرنج وبيادقها من فضة وذهب وخناجر مرصعة باللآلىء وسيوفاً ومنسوجات مطرزة مصنوعة في دبيق ودمشق . وكان عنده تحف نفيسة رائعة وزعت في افراد الجند الترك . ومع ذلك فقد قلب الدهر لهذا الخليفة ظهر المجن وحلت بالبلاد الشدة العظمى فاضطر سنة ١٠٧٠ الى ارسال امه وزوجته وبناته الى بغداد وسورية هرباً من الطاعون والمجاعة .

الادارة

تمشت الدولة الفاطمية عموماً في نظامها الاداري على نظام العباسيين وبالاحرى على نظم الفرس القديمة . ولقد ترك لنا القلقشندي [2] (المتوفى ١٤١٨) في مصنفه الكبير، الذي وضعه ليستعين به المرشحون لوظائف الحكومة ، وصفاً مجملاً لترتيب جيوش الدولة الفاطمية وادارتها . فقد كان رجال الجيش على ثلاث مراتب : ١ً الامراء وهم بمثابة مقدمي الجيش ومنهم ارباب القضب اي السيوف الذين يركبون في المواكب مع الخليفة . ٢ً خواص الخليفة اي رؤساء الحرس ومنهم النوع الاول اي الاستاذون ارباب الوظائف الخاصة بالخليفة وهم اقربهم اليه واخصهم به والنوع الثاني صبيان الخاص وهم خصيان . ٣ً طوائف الاجناد وهي فرق كثيرة كالحافظية والآمرية والجيوشية والافضلية والسودانية نسبة الى خليفة او وزير أو قوم . وكانت الوزارة على انواع ارفعها في « ارباب السيف » الذين يشرفون على الجيش وادارة الحرب ثم وظيفة « اصحاب الباب » وهؤلاء حجاب كبراء يعهد اليهم بتقديم السفراء الاجانب الى الخليفة . ومن « ارباب القلم » قاضي القضاة ووظيفته النظر في الاحكام الشرعية ومراقبة دور الضرب وضبط عيارها . و « المحتسب » وشأنه النظر في الاوزان والقياسات . ثم

---

١) ج١ ص٤١٤ وما يلي ، قابل ابن تغري بردي ج٢ قسم٢ ص ١٨١–٢ .

٢) صبح الاعشى ج٣ ص٤٨٠ وما يلي .

« وكالة بيت المال » ويتصرف صاحبها في شؤون الخزينة . اما صغار الموظفين فهم اصحاب الاموال الديوانية ومنهم الكتاب والمستخدمون في ديوان الانشاء والمكاتبات . ويقال ان ادارة الدولة الداخلية ابتدعها يعقوب ابن كلّس (المتوفى ٩٩١) اليهودي البغدادي وزير المعز والعزيز . وكان يعقوب قد دخل الاسلام و بدأ سيرته السياسية في بلاط كافور . وكانت مهارته الادارية اساس الرخاء السياسي بوادي النيل في ظل الخلفاء الفاطميين الأول (١) .

تقدم العلم والادب

كان ابن كلس ابرز رجال مصر الذين رعوا العلم في العصر الفاطمي . فقد افتتح دار علوم كان ينفق عليها في الشهر الف دينار . وفي عهده لمع الطبيب محمد التميمي وكان قد ولد في بيت المقدس ثم انتقل الى مصر في عام ٩٧٠ . وقبله لمع في زمن الاخشيديين المؤرخ محمد ابن يوسف الكندي (٢) المتوفى في الفسطاط عام ٩٦١. وزميله المؤرخ ابن سلامة القضاعي (٣) المتوفى في الفسطاط ايضاً بعده بنحو قرن (١٠٦٢) .

و بالرغم من ان اوائل الخلفاء الفاطميين كانوا من اهل الثقافة فان عصرهم لم يكن خصباً بالعلماء والكتاب البارزين فقد كان العزيز كغيره من خلفاء بغداد وقرطبة شاعراً محباً للعلوم . وهو الذى جعل الجامع الازهر دار دراسات عالية . ولكن اكثر العلماء في هذا العصر لا في الشرع فحسب بل في التاريخ ايضاً والشعر كانوا ينتمون الى طبقة الفقهاء ، وكان من رجال هذه الطبقة ايضاً القضاة ، ومن هنا لم يبرز احد من العلماء في ميدان خاص . ولعل السبب في امتناع علماء السنة وادبائها عن الالتحاق ببلاط هذه الدولة راجع الى صبغتها الدينيه الخاصة . وهناك سبب آخر هو ارتباك الحياة الاقتصادية طوال النصف الثاني لهذه الحقبة . و بهذا يعلل العقم الفكري في عصر الفاطميين .

دار العلم

وكان من اعظم المؤسسات التي أقامها الفاطميون وأبدعها دار الحكمة او دار العلم وقد

١) ابن الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة ، نشر عبد الله مخلص (القاهرة، ١٩٢٤) ص ٩٤ وما يلي.
٢) مؤلف « كتاب الولاة وكتاب القضاة » نشر غوست (ليدن، ١٩٠٨-١٢) .
٣) مؤلف « عيون المعارف وفنون اخبار الخلائف » (لم ينشر بعد)

انشأها الحاكم عام ١٠٠٥ لتدريس تعاليم الشيعة المتطرفة وتعميمها . ووقف الحاكم وقفاً خاصاً لهذه المدرسة ينفق ريعه البالغ ٢٥٧ ديناراً على نسخ المخطوطات واصلاح الكتب والمقاصد المتفرقة التي تدعو اليها الحاجة (١) . وكانت دار العلم هذه تابعة للبلاط الملكي وفيها مكتبة وغرف لعقد الاجتماعات . اما المنهاج فيها فقد تضمن عدا العلوم الاسلامية الفلك والطب . وبالرغم من ان الملك الافضل اغلق ابواب هذه الدار عام ١١١٩ بسبب تعاليمها المتطرفة فانها بقيت تعمل حتى قيام الايوبيين .

الفلك وعلم البصريات

وكان للحاكم شغف خاص بحسابات المنجمين وكان صاحب نجوم ورصد ، فبنى مرصداً في جبل المقطم كان يركب بغلته الشهباء اليه فيخلو فيه بنفسه للرصد والتنجيم . ونقل المؤرخ المعاصر ابن حماد (٢) عن مخبر انه رأى بمصر آلة الرصد وهي من نحاس على هيئة الاسطرلاب أقامها الحاكم على برجين وقال المخبر : « قست بشبري في احد بيوت البروج الاثني عشر وهو برج الحوت ثلاثة اشبار » .

وازدان بلاط الحاكم بعلي ابن يونس (٣) (المتوفى ١٠٠٩) وهو المع من انجبتهم مصر من الفلكيين وبابي علي الحسن ابن الهيثم (٩٦٥ — حوالي ١٠٣٩) كبير علماء الطبيعيات المسلمين والاخصائي في علم البصريات . وكان ابن يونس من المختصين بعلم النجوم وعرف بصحبة الحاكم فألف له الزيج الكبير على رصد رصده . وكان قصده فيه تحرير زيج جامع كبير يدل على ان صاحبه أعلم الناس بالحساب والتسيير . وقد اصلح فيه الزيوج الشائعة في عصره وذلك بارصاد مبتكرة قام بها بواسطة الآلة ذات الحلق (كرة اسوارية) ودوائر السموت . وطلب الحاكم الى ابن الهيثم البصري مؤكداً ان يُحكم له امر فيضان النيل من زيادة ونقص فباشر الدرس واختبر النهر من جانبيه مستعيناً باشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير

١) المقريزي ج١ ص٤٥٩ .
٢) ص ٥٠ .
٣) القفطي ص ٢٣٠ — ٣١ ؛ ابن خلكان ج٣ ص٦ .

معجز فتحقق له ان الذي يقصده ليس بممكن فاظهر الجنون واقام على ذلك متنسكاً حتى وفاة الحاكم . ولا تقل المصنفات المنسوبة اليه في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب عن المئة (١) . واهم الكتب التي اشتهر بها « كتاب المناظر » الذي فقد نصه العربي ولكنه ترجم في ايام جرارد الكرموني او قبله وطبع في اللاتينية سنة ١٥٧٢ وكان له اثر كبير في نشوء علم البصريات في العصور الوسطى . واغلب كتاب العصور الوسطى الذين عالجوا هذا الموضوع يبنون مؤلفاتهم على كتاب ابن الهيثم المذكور الذي يسمونه Opticae Thesaurus . وفي مؤلفات روجر باكن وليونارد دي فنشي ويوهان كبلر (Johann Kepler) آثار لهذا الكتاب . ولقد ناقض ابن الهيثم في كتابه نظرية اقليدس وبطليموس القائلة بان العين ترسل شعاعاً بصرياً الى الشيء المرئي . ووضع تجربات لامتحان زاويتي الوقوع والانعكاس . وقارب في بعض تجرباته حد اكتشاف العدسيات المكبرة نظرياً . وقد تم الاكتشاف بالفعل في ايطاليا بعد ثلاثة قرون .

وهناك كتاب آخر هام جرى وضعه بمصر في زمن الحاكم هو « المنتخب في علاج العين » (٢) لعمار ابن علي الموصلي . وقد اظهر المؤلف في هذا الكتاب ابتكاراً فاق به معاصره ابن عيسى واضع « التذكرة » غير ان « التذكرة » اصبحت المرجع والعمدة في هذا البحث باعتبار انها تامة كاملة . ولقد وصف ابن عمار عملية جراحية جديدة لمعالجة المرض الذي تُظلم به عدسية العين المعروف بالماء الازرق وذلك بطريقة الامتصاص بواسطة انبوب استنبطه لهذا الغرض .

المكتبة الملكية

ولقد ادت الشدة العظمى في ايام المستنصر الى تبديد كنوزه بل نتج عنها ما هو أشر وأنكى من ذلك الا وهو دمار المكتبة الملكية التي انشأها العزيز . وكان فيها عند خرابها فيما يذكرون مئتا الف كتاب . وكان من نفائسها الفان واربع مئة مصحف مزخرف . ومن تحفها النادرة مخطوطات من خط ابن مقلة وسواه من كبار الخطاطين . وكان للعزيز فيها

١) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ٩١ وما يلي ؛ القفطي ص ١٦٧ــ٨ . مصطفى نظيف ، ابن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية (القاهرة ، ١٩٤٢) ص ٠ــ١٤ من المقدمة .

٢) محفوظ قسم منه في مخطوطة مكتبة الاسكوريال . Casiri, vol. i, p. 317

نسخة من تاريخ الطبري مكتوبة بيد المؤلف . ولما نهبت خزائن المكتبة سنة ١٠٦٨ روى شاهد عيان انه رأى خمسة وعشرين جملاً موقرة كتباً . واستعملت المخطوطات الثمينة وقيداً للنار في منازل الضباط الترك واستخدمت جلودها لتصليح احذية عبيدهم . اما خلفاء المستنصر فالظاهر انهم اوجدوا مجموعات جديدة اذ انه عند استيلاء صلاح الدين على القصر ودخوله الى خزانة الكتب كان لا يزال فيها اكثر من مئة الف مجلد وزع بعضها مع نفائس اخرى في رجاله (١) .

الفن وهندسة البناء

ومع ان العصر الفاطمي لم يكن ملائماً لتقدم العلم والأدب فانه امتاز بشيء من الانتاج في عالمي الفن وهندسة البناء وقد بلغ بعض هذا الانتاج ذروة الاتقان . والظاهر ان الرخاء الذي ادركته البلاد في زمن الخليفتين الاولين من خلفاء القاهرة ثم في زمن الوزيرين الارمني الأصل ـ وهو رخاء يماثل ما كان في عصر الفراعنة والبطالسة ـ قد انعكس في دائرة الفن .

واقدم الابنية الباقية الجامع الازهر وقد بناه كما اسلفنا جوهر سنة ٩٧٢ . واعيد بناؤه من بعد ولكن القسم الأقدم وهو القسم الاوسط لا يزال حافظاً شكل البناء الأصلي وقد بني هذا القسم باللبن على زي جامع ابن طولون وفيه قناطر مروسة وهو ينم في العموم عن تأثير ايراني . اما مئذنته فانها على النموذج المربع الثقيل . ويلي هذا الجامع في القدمية جامع الحاكم الذي شرع في تشييده ابوه سنة ٩٩٠ وانهاه الحاكم سنة ١٠١٢ . وهو يشاكل الازهر في تصميمه وله قبة من اللبن مرتكزة على قاعدة في هيئة طبل مثمن الجوانب مرتفع فوق المحراب . وكان جامع الحاكم مبنياً بالحجارة ولكنه متردم اليوم . وبما ان المئذنة فيه لم تكن مربعة الشكل فالراجح ان البنائين الذين بنوها جيء بهم من شمال العراق وليس من سورية . ولم يغلب استعمال الحجارة على استعمال اللبن حتى اواخر العصر الفاطمي . والمثال على ذلك واجهة الجامع الاقمر المبني سنة ١١٢٥ . ولعل باني هذه الواجهة مهندس ارمني . واننا نلاحظ في الاقمر اول ظهور لتلك المزية التي اصبحت فيما بعد ظاهرة عامة في هندسة البناء الاسلامية الا وهي المحراب

١) المقريزي ج١ ص٤٠٨ـ٩ ؛ ابو شامة ج١ ص٢٦٨ .

المقرنس . وتبدو في هذا الجامع ذي الاعمدة وجامع الصالح ابن رزيك (نحو ١١٦٠) الخطوط البارزة والكتابات الكوفية الخشنة التي اشتهر بها فن الفاطميين . وان هذه المزايا الجديدة التي ادخلها المهندسون الفاطميون تدريجياً بما فيها من المتدليات السقفية (الاشكال المقرنسة) والتجاويف الرحبة في الواجهات لم تلبث ان طرأ عليها تقدم ظاهر في دور الايوبيين والمماليك. كذلك قل في طريقة النقش واخراج الكتابات على الحجر او على الالواح الخشبية التي مهدت السبيل لنفائس الفن التي عرفت فيما بعد . وفي سنة ١٠٨٥ نشأت عادة الجمع بين المساجد وقبور بناتها . وقد بدئت ببدر الجمالي فان قبره ومسجده في سفح المقطم يعتبر المثال الاول لهذا النوع من الابنية .

ولا يزال باقياً من الابواب الكبرى الشاهدة بعظمة الابنية الفاطمية ثلاثة : باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح [1]. فهذه الابواب الضخمة التي لا تزال قائمة في القاهرة هي من عمل بناة من الرهاء اتبعوا فيها اصولا بيزنطية وهي من امتن ما اتصل بنا من آثار العصر الفاطمي .

الفنون الزخرفية والصناعية

وبين كنوز دار الآثار العربية في القاهرة ألواح وقطع من الخشب المحفور ترجع الى العصر الفاطمي فيها رسوم لحيوانات حية منها غزال قد وثبت عليه السباع المفترسة وارنب تحت مخالب النسور وازواج من الطيور متقابلة بعضها مع بعض . ويستدل من هذه المواضيع التصويرية تأثرها بالنماذج الساسانية . وهذا التأثر نفسه ملحوظ في البرونز الفاطمي الذي تحدر الينا بشكل مرايا او اباريق او مباخر . واهم قطع البرونز الفاطمي تمثال العقاب الموجود الآن في بيزا في ايطاليا وارتفاعه ١٠٥ سنتيمترات وطوله ٨٥ . ولقد سرى التأثير الساساني نفسه على المنسوجات وقد اتصلت نماذج منها بالغرب على زمن الصليبيين . وكانت الحياكة صناعة قومية معروفة في المراكز التي يكثر فيها الاقباط ولكنها على ذاك قد تأثرت بالنماذج الايرانية وبنوع خاص الساسانية منها . وتكثر في المنسوجات الفاطمية صور الحيوانات في اشكال خاصة

١) انظر المقريزي ج١ ص٣٨٠ وما يلي .

اصطلح عليها للشعارات الحربية وغيرها . وكان الكتان والقطن والحرير ينسج في انحاء عديدة من الديار المصرية ولا سيما في تنيس والاسكندرية ودمياط ودبيق والفرماء . وان القماش المعروف في زمن شوسر الانكليزي بالفستياني قد صدر من الفسطاط كما يستدل من اسمه . وكان يصدر الى بيزنطة وروما والجمهوريات التجارية في ايطاليا كثير من الاقمشة النفيسة التي كان يوهب جزء كبير منها الى الكنائس والاديرة . وهذا ما يبرر بقاء بعض التحف المشهورة في اوربا .

وكان فن الخزف الفاطمي كغيره من الفنون التي مارسوها متأثراً بالنماذج الايرانية وهنا كما في المنسوجات نجد المواضيع الحيوانية وقد عولجت بصورة عامة . ولقد اورد المقريزي في بيانه عن الكنوز الفاطمية ذكر عدد من مساطر الفن الخزفي والمعدني في الشرق العربي و بينها الفخار الصيني وهذه من الاخبار الاولى المدونة التي تشير الى وجود خزف صيني في الشرق العربي (١) . وأشار ناصر خسرو (٢) الى صناعة الخزف في العصر الفاطمي فقال ان المصريين كانوا يصنعون انواع الخزف المختلفة وان الخزف المصري كان لطيفاً وشفافاً حتى كان ميسوراً ان ترى من باطن الاناء الخزفي اليد الموضوعة خلفه .

واقدم غلافات الكتب الاسلامية مصرية الاصل ويمكن عزوها الى القرنين الثامن والتاسع . اما تزويقها واصول عملها فيشعرنا بتأثرها بما سبق من صناعة التجليد القبطي في اوائل العصر العربي ويمكننا ان نرى فيها ما كان لصناعة التجليد القبطية من تأثير بالغ في نشأة هذه الصناعة عند المسلمين . و بعد نشوء هذه المدرسة المصرية اصبح طبع الرسوم في الغلافات وختمها بالاختام اهم مزايا صناعة التجليد الاسلامية .

---

١) قابل كرنكو في مجلة المجمع ج ١٣ (١٩٣٥) ٣٨٦ـ٨ حيث يذكر البيروني الفخار الصيني ؛ سلسلة التواريخ ص ٣٥ـ٦ ؛ الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر نشر مهرن (سانت بيترزبرغ ، ١٨٦٦) ص ٤٣ حيث قد يلاحظ بعض الاشارة الى وجود الخزف .

٢) Ed Schefer, p. 52, tr. p. 151 .

الفصل الخامس والأربعون

علاقات حربية بين الشرق والغرب : الحروب الصليبية

لما زحفت افواج الصليبيين في اواخر القرن الحادي عشر الى سورية لانتزاع الاراضي المقدسة من ايدي المسلمين كانت البلاد السورية مشهداً للانقسام والوهن وكانت مجزأة الى مقاطعات عليها عدة زعماء من العرب يتمتعون باستقلال محلي بينما كان الترك السلاجقة يسيطرون في الشمال وفاطميو مصر في الجنوب . ولم يكن للشعب صبغة واحدة تتسم بها عناصره المختلفة حتى اللغة التي تخاطب بها ابناء البلاد لم تكن واحدة. فهناك الدروز في جنوبي لبنان والنصيرية في جبالهم الشمالية وجيرانهم الاسماعيلية (الحشاشون فيما بعد) قد تقسموا فرقاً ثلاثاً تختلف كل واحدة منها عن السنّة . اما بين الطوائف النصرانية فكان الموارنة في شمالي لبنان لا يزالون يتكلمون السريانية وكانت طائفتهم اكبر طائفة بين الاقليات المسيحية .

سلاجقة سورية

عالجنا في الفصل الثاني والثلاثين ظهور السلاجقة الرّحل في اواسط آسية واندفاعهم الى الامصار الغربية من ممتلكات العباسيين وتثبيت سلطتهم في ادوار متعاقبة في خراسان وفارس والعراق وارمينية وآسية الصغرى ثم انشاءهم (١٠٥٥) سلطنة ببغداد كان الخليفة العباسي تابعاً لها. اما سلاجقة سورية فانهم كانوا كسلاجقة الروم (آسية الصغرى) من الفروع الصغرى في العائلة السلجوقية ولم تكن لهم زعامة موحدة بل كان لكل مدينة من المدن السورية الهامة في عهدهم اميرها الخاص العربي او السلجوقي ولكن طرابلس استقلت بعد سنة ١٠٨٩ في ظل بني عمّار [١] وكانوا من الشيعة . وبعد سنة ١٠٨١ ملك بنو منقذ بلدة

١) راجع G. Wiet, *Memorial Henri Basset* (Paris, 1928), vol. ii, pp. 279 - 84.


الاسلام والمسيحية
قبل بدء الحروب الصليبية
أميال انكليزية
نصارى
في طريق التنصر (القرن الحادي عشر)
المناطق المفتوحة منذ ١٠٥٠
المسيحية
مسلمون
في طريق الاسلام (القرن الحادي عشر)
المناطق المفتوحة منذ ١٠٥٠
الاسلام

شيزر . وكان البيزنطيون يحاولون فتح مدن الساحل ومدن الحدود الشمالية فيستولون على بعضها احياناً وتفلت منهم احياناً أخرى .

وظهرت اول شراذم السلاجقة في سورية قبيل عام ١٠٧٠ . وفي هذا العام قام السلطان ألب ارسلان فاستلحق امير حلب العربي به ثم تقدم اتسز قائد جيشه الى مدينة بيت المقدس فاخذها وانتزع فلسطين من الفاطميين . ولما كان السلاجقة على مذهب السنة فانهم ناهضوا الفاطميين وعملوا على محق مذهبهم ولم تمض سوى خمس سنوات حتى اخذ اتسز دمشق منهم. وفي عام ١٠٩٨ عاد الفاطميون الى القدس وكان اسطولهم القوي قد تمكن من الاستيلاء (١٠٨٩) على جميع مدن الساحل ومنها عسقلان وعكا وصور حتى جبيل شمالا . وكان تتش ابن ألب ارسلان هو المؤسس الحقيقي للدولة السلجوقية في سورية فقد استطاع في ربيع عام ١٠٩٤ ان يثبت سلطته في حلب والرهاء والموصل وقد اضافها كلها الى املاكه في خراسان . ولكنه قتل في السنة التالية في ساحة الحرب وتداعى بعد موته الصرح السوري الذي شيده وذلك بسبب التنافس الذي نشأ بين ابنيه رضوان ودقاق وتحاسد قواده الذين اخذ كل منهم يعمل في سبيل اغراضه الخاصة . واتخذ رضوان حلباً عاصمة له فملك فيها من عام ١٠٩٥ الى ١١١٣ . أما اخوه دقاق (١٠٩٥ ـ ١١٠٤) فقد اختار دمشق (١) . ودارت رحى الحروب بين الاخوين منذ عام ١٠٩٦ وقد تركزت حول هذه الحروب معظم الحوادث في عهديهما .

تعدد الاسباب والبواعث وتعقيدها

اذا نظرنا الى الحروب الصليبية في وضعها الصحيح وجدناها فصلاً متوسطاً بين فصول

---

١) سلاجقة سورية : ١٠٩٤ ـ ١١١٧

١) تتش ابن ألب ارسلان (١٠٩٤ـ٥)

٢) رضوان (١٠٩٥ـ١١١٣) — دقاق (في دمشق ١٠٩٥ـ١١٠٤)

٣) ألب ارسلان الاخرس (١١١٣ـ١٤) — ٤) سلطان شاه (١١١٤ـ١٧)

تلك القصة الطويلة التي تصف التفاعل بين الشرق والغرب مبتدئة بحروب طروادة وفارس في الازمنة الغابرة ومنتهية بالتوسع الاستعماري الاوربي في عصرنا الاخير . وليس الفارق الجغرافي بين الشرق والغرب في الواقع على شيء من الاهمية لولا الفوارق الدينية والجنسية واللغوية . وكانت الحروب الصليبية بنوع خاص كناية عن حركة قامت بها اوربا النصرانية رداً على آسية الاسلامية . وكانت هذه قد اتخذت خطة الهجوم منذ عام ٦٣٢ ليس على سورية وآسية الصغرى فحسب بل على اسبانية وصقلية ايضاً . وللحروب الصليبية بواعث اخرى منها الصفات الحربية والميول القومية الى الهجرة ـ هذه الميول والصفات التي تميزت بها قبائل التوتون الذين غيروا خريطة اوربا منذ ظهروا على مسرح التاريخ . ومنها هدم كنيسة القيامة بامر الحاكم بامره عام ١٠٠٩ وهي مزار كان يحج اليه الوف الاوربيين وكانت مفاتيحها قد ارسلت الى شارلمان عام ٨٠٠ بركة من بطريرك اورشليم (١) والمصاعب والمحن التي لحقت بالنصارى الذاهبين لزيارة بيت المقدس خلال مرورهم في آسية الصغرى الاسلامية . اما الباعث المباشر لهذه الحروب فاستنفار ارسله عام ١٠٩٤ الامبراطور الكسيوس كومنينوس الى البابا اربانوس الثاني عندما غشا السلاجقة املاك الامبراطور الآسيوية فاكتسحوها حتى بحر مرمرا وهدد الاسلام بهم القسطنطينية نفسها . ولعل البابا رأى في ذلك الاستنجاد فرصة لارجاع الكنيسة اليونانية الى حظيرة رومة وكان انشقاق الطائفتين الاخير قد حدث عام ١٠٥٤ .

وحين القى البابا اربانوس في ٢٦ تشرين الثاني عام ١٠٩٥ خطبته في كلرمونت من اعمال فرنسا الجنوبية الشرقية واستحث المؤمنين على سلوك الطريق المؤدية الى كنيسة القيامة وانتزاعها من ايدي من سماهم بالقوم الاشرار وامتلاكها فانه قد لفظ اعظم خطبة في التاريخ أثراً فقد تنادى الفرنجة للحرب وصاحوا صيحتهم المشهورة «دوس لو فولت» (Deus lo volt) بمعنى انها ارادة الله ورددت ارجاء البلاد تلك الصيحة فنفذت الى اعماق القلوب . وكان ان استجاب الى دعوة البابا الى السلاح في ربيع السنة التالية نحو مئة وخمسين الف رجل

---

١) راجع Einar Joranson in *American Historical Review*, vol. xxxii (1927), pp. 241-61; A. Kleinclausz in *Syria*, vol.vii (1926), pp.211-33.

اكثرهم من الفرنج والنورمنديين وقسم منهم من صعاليك الناس توافدوا الى القسطنطينية وبذلك بدأت الحملة الصليبية الاولى وسميت صليبية اشارة الى الصليب الذي حمله اعضاؤها علامة على صدورهم .

وجدير بالذكر ان ليس كل الذين حملوا شارة الصليب فعلوا ذلك عن دوافع روحية فقد كان عدد من زعمائهم ومنهم بوهمند قد قصدوا بحركتهم هذه ان يفتتحوا اراضي جديدة لهم يرفعون رايتهم عليها . اما تجار بيزا والبندقية وجنوى فقد كان رائدهم خدمة مصالحهم التجارية . ومن هنا فقد كانت عوامل هذه الحروب الصليبية كثيرة تشمل مطامح المغامرين واهل الخيال فضلاً عن آمال الاتقياء المخلصين. زد على هذا ان كثيراً من المجرمين رأوا ان ينخرطوا في سلك هذه الحملات تكفيراً عن معاصيهم . والواقع ان حمل شعار الصليب عند جمهور الناس في فرنسا واللورين وايطاليا وصقلية في ذلك الزمن بالنسبة لحالة البؤس التي كانوا فيها وللازمة الاقتصادية وانحطاط الحالة الاجتماعية لم يكن تضحية من قبلهم بل تفريجاً لكربتهم .

١ . حقبة الظفر

اما تنسيق التجريدات الصليبية المألوف الذي يجعلها سبعاً او يوصلها الى تسع فليس مرضياً في اي حال من الاحوال . فقد كان او كاد يكون مجرى هذه الحملات متواصلاً وكان الحد الفاصل بين الواحدة والاخرى غير واضح ، ولهذا فالأولى تقسيم هذه الحروب الى حقب اولها حقبة الظفر وتمتد الى عام ١١٤٤ عند قيام الاتابك زنكي امير الموصل واسترجاعه الرهاء ، ثم حقبة رد الفعل الاسلامي التي تصدرها زنكي وتنتهي بانتصارات صلاح الدين الباهرة ، ثالثاً حقبة الحروب الاهلية والمعارك الصغرى التي برز فيها رجال الدولة الايوبية السورية المصرية وسلاطين المماليك حتى عام ١٢٩١ حين فقد الصليبيون آخر موطىء لأقدامهم في بر الشام (١) وقد انتهت حقبة الظفر برمتها قبل ما هو معروف عند المؤرخين بالتجريدة الثانية (١١٤٧–٩)

١) انظر W. B. Stevenson, *The Crusaders in the East* (Cambridge, 1907), p. 17.

وطابقت الحقبة الثانية القرن الثالث عشر وكان من حملاتها واحدة على القسطنطينية (١٢٠٢ـ٤) واثنتان فاشلتان على مصر (١٢١٨ـ٢١) وواحدة على تونس (١٢٧٠) .

بيزنطة تسترجع آسية الصغرى

وكانت طريق الحملة الصليبية الاولى بعد احتشاد رجالها في القسطنطينية تسير عبر آسية الصغرى وكانت هذه خاضعة اذ ذاك للغلام الحدث قلج ارسلان سلطان السلاجقة لقونية (١٠٩٢ ـ ١١٠٧) وحين اصطدم الصليبيون برجاله كان ذلك الاصطدام اول التحام بينهم و بين المسلمين . وحاصر الصليبيون نيقية عاصمة سليمان ابن قطلمش والد قلج ومؤسس دولة السلاجقة في بلاد الروم فسقطت في حزيران ١٠٩٧ بعد حصار دام نحو شهر . ولم يشتبك الصليبيون مع المسلمين في معركة فاصلة بعد ذلك الا في اسكي شهر حيث غلبوا في اول تموز (١) قوات قلج . واسترد الكسيوس قائد الصليبيين بهذا الظفر النصف الغربي من شبه جزيرة الاناضول و بذلك تأخرت غزوة الترك لاوربا مدة ثلاثة قرون ونصف . وكان الكسيوس قد اخذ من جميع زعماء الحملة تقريباً يمين الطاعة الاقطاعي .

الامارة اللاتينية الاولى

وجاز جيش الصليبيين جبال طورس وقبل أن يتابع سيره جنوباً تحولت فصيلة منه يرأسها بلدوين ابن كونت بولونيا الى الناحية الشرقية التي كان يسكنها الارمن النصارى وفيها مدينة الرهاء (٢) فوقعت هذه في ايدي الصليبيين في مطلع سنة ١٠٩٨ (٣) . وهنا قامت في منطقة نصرانية اول مستعمرة لاتينية وجلس بلدوين اميراً على عرشها . وسارت فصائل أخرى تحت امرة تانكرد النورمندي (٤) في جهة معاكسة ميممة كليكية وسكانها ايضاً من

Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum, ed. Heinrich Hagenmeyer (١
(Heidelberg, 1890), p. 197, n. 11, p. 208, n. 62; Fulcher, *Historia Hieros*
ed. Hagenmeyer (Heidelberg, 1913), p. 192, n. 10 . وقابل ابن القلانسي نشر امدروز ص ١٣٤

٢) دسا في اليونانية ، اورفا في التركية .

٣) Matthew of Edessa, *Chronique* ed. E. Dulaurier (Paris, 1858). p. 218

٤) من جنوبي ايطاليا .

الارمن المختلطين باليونان فاحتلت طرسوس مسقط رأس القديس بولس .

سقوط انطاكية

وفي هذه الاثناء وصل الجيش الرئيسي نفسه الى انطاكية (١) وكان يحكمها امير سلجوقي اسمه باغي سيان (٢) وكان قد عينه ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة الكبار . وبعد حصار شديد طويل (٢١ تشرين الاول ١٠٩٧ الى ٣ حزيران ١٠٩٨) سقطت عاصمة سورية الشمالية بيد بوهمند اثر خيانة قائد ارمني كان عهد اليه الدفاع عن احد ابراجها . وكان بوهمند من أقارب تانكرد ومن أشد الزعماء وادهاهم . ولم يصل المدينة امداد قط الا ان رضوان حاول ان يسعفها من حلب فلم يتيسر له ذلك .

ولم يكد المحاصرون يدخلون المدينة حتى وافاهم كربوقا (٣) فطوق المدينة بدوره وضرب عليها حصاراً شديداً . وكان كربوقا هذا امير الموصل وقد اسرع من عاصمته ومعه المدد . وحدث أن اكتشفت في هذه الاثناء « الحربة المقدسة » التي طعن بها المخلص على الصليب وكانت مدفونة بكنيسة في انطاكية فاشتدت حماسة النصارى وخرجوا وأغاروا على المحاصرين حتى كشفوا صفوفهم (٢٣ حزيران) وكادوا يفنون جيش كربوقا كله . وبقيت انطاكية في حوزة بوهمند واصبحت عاصمة الامارة الثانية الجديدة . وظلت هذه المدينة نحو مئة وخمس وسبعين سنةً في ايدي النصارى .

اما ريموند ده تولوز اغنى زعماء فرنسا فقد استاء من تفرد بوهمند في السلطة وكان رجاله هم الذين اكتشفوا الحربة بانطاكية فزحف جنوباً واحتل معرة النعمان مسقط رأس ابي العلاء ولكن رجاله اخلوها في ١٣ كانون الثاني عام ١٠٩٩ بعد ان قتلوا ما يزيد على مئة الف من

١) من انتيوكيا اليونانية نسبة الى انتيوكس والد سلوكس الاول مؤسسها (٣٠٠ ق. م) وهي هامة في تاريخ النصرانية لكونها موطن الكنيسة المسيحية الاولى .

٢) باغي سيان في ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٧ ؛ ابو الفداء ج ٢ ص ٢٢٠ ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ٢٠ .

٣) قابل ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٨ ؛ ابو الفداء ج ٢ ص ٢٢١ . وكان كربوقا تركياً مغامراً انتزع في سنة ١٠٩٦ الموصل من بني عقيل وهم عرب وادمجها في الامبراطورية السلجوقية .

أهلها وسلموها للنار [١] . ثم سار ريموند بعدئذ غرباً فاحتل حصن الاكراد [٢] وهو نقطة عسكرية خطيرة تتحكم في الممر الواقع بين سهول العاصي والبحر المتوسط . وحاصر عرقة [٣] على الحافة الغربية من لبنان الشمالي ونزل انطرطوس [٤] على الساحل دون مقاومة . وامده موارنة لبنان بعدد من الادلاء والجنود . الا ان ريموند تنازل عن جميع هذه الاملاك استجابة لنداء غودفري ده بويون كونت لورين شقيق بلدوين فرافق الجيش الزاحف على القدس وهي الهدف المقصود .

احتلال بيت المقدس

واتجه الفرنجة جنوباً فنزلوا الرملة التي كان اخلاها أهلها فاستولوا عليها واصبحت اول منطقة لاتينية في سورية الجنوبية اي فلسطين[٥] . وفي ٧ حزيران عام ١٠٩٩ سار الصليبيون الى بيت المقدس وعددهم نحو اربعين الفاً منهم نحو عشرين الف جندي محارب [٦] فوقفوا امام ابواب المدينة . وكانت حامية المدينة من الجند المصري تقدر بنحو الف . وكان الافرنج يأملون ان تسقط اسوار المدينة كما سقطت اسوار اريحا فطافوا حولها حفاة نافخين في الابواق . غير ان الحصار الذي ضيقوه على المدينة مدة شهر كان دون شك انجع وانفع . وفي الخامس عشر من تموز هاجم العدو البلدة واعمل السيف برجالها ونسائها واطفالها حتى شوهدت اكوام الرؤوس والايدي والارجل في شوارع المدينة وطرقاتها [٧] . و بعد شهر أدرك الافرنج ظفراً

---

١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٠ وقد نقل عنه ابو الفداء في الموضع نفسه اعلاه ؛ كمال الدين ، منتخبات من تاريخ حلب في *R.   orientaux* vol. iii, pp. 586-7.

٢) هي قلعة الحصن اليوم وسميت حصن الاكراد لانها في الاصل قلعة بناها امير حمص سنة ١٠٣١ وجعلها مقراً لحامية كردية ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ١٨٧ .

٣) مسقط رأس اسكندر سيفرس (٢٢٢ــ٣٥) من الاسرة السورية من اباطرة الرومانيين .

٤) طرطوس اليوم و Tortosa في المدونات اللاتينية .

٥) ابن القلانسي ص ١٣٦ .

٦) قابل « Annales de Terre Sainte », *Archives de l'orient latin*, vol. ii (Paris, 1884), pt. 2, p. 429; Raimundus de Agils, « Historia Francorun qui ceperunt Jerusalem », in Migne, *Patrologia Latina* vol. clv, p. 657.

٧) Agiles, p. 659 وقد زاد عدد القتلى في المسجد الاقصى على ٧٠ الفاً حسبما جاء في ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٤ ؛ ابن خلدون ج٥ ص٢١ . اما ماثيو فيذكر انهم بلغوا ٦٥الفاً Matthew, *Chronique*, p. 226

ثانياً على الجيش المصري عند عسقلان وقد ثبّت هذا الظفر اقدام اللاتين في القدس . الا ان عسقلان بقيت مقراً للاسطول المصري ومركز حامية اعتمد عليها الوزير المصري الملك الافضل للوقيعة بالعدو (١) . وهكذا نشأت ولاية لاتينية ثالثة اصبحت اعظم الولايات مرتبة . ويقال ان العرش عرض على ريموند فابى هذا ان يلبس تاج الذهب في الموضع الذي لبس فيه المخلص تاج الشوك (٢) . فعهد بالملك الى غودفري (٣) وكان زعيماً اميناً وجندياً باسلاً وجعل له لقب « بارون القبر المقدس وحاميه » . وشعر كثيرون من الصليبيين والحجاج أنهم قد وفوا نذورهم فابحروا عائدين الى اوطانهم الاوربية .

الاساطيل الايطالية تخضع مدن الساحل

وكان اول ما وجه اليه غودفري اهتمامه هو اخضاع مدن الساحل لتيقنه ان احتلال داخلية البلاد لا يتم دون ذلك وكذلك يصعب الاتصال مع اوربا اذا كانت مدن الساحل لا تزال بايدي المسلمين . وعقد النية على أن يستعين لهذا الأمر بالسفن الايطالية التي كانت تنقل الحجاج وقد ادرك اصحابها ان امتلاك تلك المدن الساحلية يفتح اسواقاً جديدة وموانئ حرة لبضائعهم . وفي مستهل السنة التالية (١١٠٠) نال أهل بيزا حقوقاً خاصة في يافا . و بعد زمن يسير رضيت ارسوف وقيسارية وعكا بتقديم الجزية مقابل هدنة موقتة (٤) . واستولى اسطول البندقية على حيفا بعد مضي شهر على وفاة (٥) غودفري وكان في صيف تلك السنة نفسها منصرفاً الى الاعمال الحربية في مياه عكا . ودعيت حامية حيفا وسكانها الى الاجتماع حول صليب قيل لهم انه الملجأ الامين ثم صار قتلهم عنده بلا رحمة . اما الاسطول المصري وهو الاسطول الوحيد الذي كان يمكن الاستغاثة به لحماية مدن الساحل فانه لم يؤد خدمة تستحق الذكر .

---

١) ابن ميسر ، اخبار مصر نشر ماسي (القاهرة ، ١٩١٩) ص ٣٩ وما يلي .

٢) Agiles, p. 654

٣) كندفري في ابن القلانسي ص١٣٨ ؛ كندهري في ابن تغري بردي نشر بير ج٢ قسم٢ ص٣٠٤ .

٤) Albert of Aix, « Historia Hierosolymitanae expeditionis», Migne. vol. clxvi, p. 575.

٥) راجع ابن خلكان ج ١ ص ١٠١ .

وظل تانكرد (١) يتوغل في داخلية البلاد حتى المنطقة الملاصقة للاردن . وكانت بيسان الواقعـة على طريق الجيوش بين شاطىء البحر ودمشق من اول المواقع التي استولى عليهـا تانكرد . وخضعت نابلس دون مقاومة . وأقـام تانكرد في طبرية كعامل تابع لحكومة غودفري . غير انه تنازل عن اقطاعه هذا في آذار عام ١١٠١ مفضلاً انطاكية امارة عمه بوهمند وكان هذا قد وقع اسيراً في يد كمشتكين (٢) في احدى حملاته التي قام بها بجوار مرعش . وفي عام ١١٠٣ أطلق بوهمند لقاء فدية معلومة .

بلدوين الاول ملك القدس

وقبل ان يموت غودفري (٣) عين اخاه بلدوين خلفاً له ، فسار بلدوين (٤) من الرهـاء الى بيت المقدس واحتفل بتتويجه يوم عيـد الميلاد عام ١١٠٠ في بيت لحم بـدلا من بيت المقدس احتراماً لحزب الاكليروس الذي كان يطمح الى ان تكون القـدس جزءاً من اراضي الكنيسة . وهكذا فقد ضن بلدوين على نفسه بلقب « ملك اورشليم » في حفـلة التتويج ، ولكنه عاد فانتحله بعد حين .

وكان للاتين في شخص بلدوين زعيم ممتاز فقـد اظهر مقـدرة ونشاطاً و بـالة حربيـة فاتسعت مملكته في عهده (١١٠٠ ـ ١٨) وامتدت من العقبـة على رأس البحر الاحمر الى بيروت . وخلفه ابن عمـه بلدوين الثاني (١١١٨ ـ ٣١) فأضاف الى ولايته بضع مدن اكثرها من ثغور البحر المتوسط . ولم تتسع المملكة عرضاً لأبعـد من نهر الاردن . وتم فتح بيروت وصيدا في عام ١١١٠ . ولم يكن لهذه المدن سبيل الى الحصول على الامـداد الا من دمشق وكان يحكمها اذ ذاك الاتابك طغتكين وكان هذا في سابق عهده مملوكاً للسلطان

١) « طنكري » في ابن القلانسي ص ١٣٨ ؛ « دنكري » في اسامة ص ٦٥ .

٢) مؤسس الدولة التركمانية في سيواس التي تسمى امراؤها بالدانشماند واندمجت بعدئذ في دولة جيرانهـم السلاجقة .

٣) ابن القلانسي ص ١٣٨ .

٤) « بغدوين » في ابن القلانسي ص ١٣١ ؛ ابن تغري بردي ج ٢ قسم ٢ ص ٣٤٣ ؛ قابل ص ٣٢٧ (بردويل) .

السلجوقي تتش ووصياً على ابنه دقاق [١]. غير ان طغتكين عقد محالفة مع بلدوين دامت بضع سنين . وكان ان سقطت ارسوف وقيسارية في عام ١١٠١ بيد اسطول جنوي بعد هدنة قصيرة فاستولى الاسطول على ثلث الغنائم وخصصت له مواضع خاصة في الميناء . اما صور المنيعة في شبه جزيرتها فقد ظلت بايدي المسلمين حتى عام ١١٢٤ كما ظلت عسقلان حتى عام ١١٥٣ . وابتنى بلدوين عام ١١١٥ قلعة الشوبك [٢] في المنطقة الواقعة الى الجنوب من البحر الميت فسيطرت على طريق الصحراء الذي يربط دمشق بالحجاز ومصر .

قيام امارة افرنجية ثالثة

وكانت طرابلس اعظم مرافىء سورية آنذاك وكانت هدف الكونت ريموند [٣] منذ ان تجنبها في زحفه الطويل من انطاكية الى بيت المقدس . وعندما تثبتت اركان المملكة عاد اليها وبدأ حصارها عام ١١٠١ . ولكي يجعل البلدة بمعزل عما حولها ويقطع عنها المدد بنى بعد سنتين من وصوله قلعة [٤] على تل مجاور تطل على نهر ابي علي (قاديشا) وسُمي التل (تل الحجاج) Mons Pelegrinus ولم يطل الامر حتى اصبح هذا التل مركزاً نما حوله حي لاتيني كبير . وطال الحصار ولم تستسلم المدينة بالرغم من ان اهل الجبل والنصارى من السكان كانوا يعاونون الافرنج [٥] . وكان ريموند يهاجم من وقت الى آخر بعض المدن المجاورة ويستولي عليها . واستطاع بمعاونة اسطول جنوي مؤلف من اربعين مركباً ان يستولي في عام ١١٠٤ على جبيل فكانت الحد الجنوبي الاقصى لكونتية طرابلس . ومات ريموند في قلعته

---

١) وقد اقتدى بغيره من الاتابكة فاغتصب الملك في سنة ١١٠٣ واصبح مؤسس الدولة البورية التي عاشت حتى سنة ١١٥٤ .

٢) يسميها اللاتين Mons Regalis اي الجبل الملوكي (Mont Royal, Montréal) وبموجب النصوص القديمة اطلق اسم كراك ده مونت ريال على اخذها في الشمال الشرقي Crac des Moabites (الكرك؛ والكرك العربية من كرخا الارامية اي بلدة ومنها الكرخ اسم الجانب الغربي من بغداد).

٣) ولانه كان يسمى ريموند اف سانت جيل (Raymond of Saint - Gilles) دعاه العرب صنجيل او ابن صنجيل .

٤) اصبح الترك هذه القلعة من بعد وصارت تستعمل كسجن الى ايام متأخرة.

٥) ابن خلدون ج ٥ ص ١٨٦ .


سلطنة الروم
قونية
مملكة أرمينية
كونتية الرها
الرها
مقاطعة
منبج
حلب
انطاكية
اللاذقية
ولاية الأتابكة
قبرس
طرابلس
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
قيسارية
يافا
القدس
عسقلان
غزة
العريش
بصرى
الخلافة الفاطمية
البحر الأحمر
دول الصليبيين
في سورية
حوالي ١١٤٠
أميال انكليزية

عـام ١١٠٥ دون ان يحقق امنيته في احتلال طرابلس فـان المدينة لم تسقط حتى ١٢ تموز عام ١١٠٩ .

وهكذا تأسست كونتية طرابلس بعد كونتية الرهاء وامـارة انطاكية (ومنها كليكية) وكانت كلها تابعة لمملكة القدس . وكانت الرهاء امارة برغندية ومثلها القدس اما انطاكية فنورمندية وطرابلس فبروفنسالية . وهذه المقاطعات الاربع هي كل ما أنشأه اللاتين في رقعة البلاد الاسلامية . وقد انحصرت سيطرتهم كما يلاحظ بناحية سورية الشمالية و بالشقة الساحلية فكانت منطقة نصرانية ضيقة يجاورها من الخلف ارض اسلامية واسعة . ولم يكن بيد الافرنج بلدة واحدة تبعد عن اعدائهم اكثر من مسير يوم حتى في الولايات التي أنشأها اللاتين فانهم لم يكونوا فيها غير أقلية ضئيلة . اما مدن الداخل كحلب وحماة وحمص و بعلبك ودمشق فلم تذعن للافرنج ابداً مع ان بعضها أدى الجزية أحياناً . وفي عام ١١٥٦ أدت دمشق للافرنج في عهد نور الدين ابتداء من ايلول ثمانية آلاف دينار مقاطعةً (١) .

العلاقات الاجتماعية

اما اخبار التعاقب على الملك في هذه الولايات اللاتينية وما دار فيها من مشاحنات واحن فليست مما يعنينا في هذا الكتاب لأن ذلك جزء من تاريخ اوربا وليس من تاريخ العرب ، ولكننا لا نستطيع ان نهمل امر العلاقات الودية والسلمية بين الغربيين وابناء البلاد .

ويجب ان نذكر اولا ان الافرنج قصدوا الاراضي المقدسـة وهم يحسبون انفسهم ارفع منزلة من اهلها وكانوا يظنون ان اهلها وثنيون يعبدون محمداً ولكنهم مـا كادوا يتصلون بهم حتى زالت الغشاوة عن عيونهم . أما الأثر الذي تركه الفرنج في مخيلة المسلمين فان اسامة ابن منقذ (٢) عبّر عنه بقوله : « انهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » . غير ان الاختلاط الذي لم يكن هناك محيص عنه بين الجانبين زمن السلم – الذي طالت مدتـه كثيراً عن زمن الحرب – قد أدى الى تبدل ظاهر في شعور كل من الفريقين وقـد استحكمت بين

---

٢) ابن القلانسي ص ٣٣٦ .

٢) الاعتبار ص ١٣٢

الفريقين اثر ذلك علاقات ودية وروابط صداقة وحسن جوار . وقد اخذ الفرنج يستأجرون صناعاً وفلاحين في اعمالهم ويأتمنونهم ثم ما لبث النظام الاقطاعي الذي اوجدوه ان تحور واصبح مع مرور الايام ملائماً لاحوال البلاد . واتخذ الافرنج لانفسهم الخيول والبواشق وكلاب الصيد ولم يطل الامر حتى عقدت بين الفريقين اتفاقات لحماية الصيادين من خطر الاعمال العدائية . كذلك اتفق الفريقان على صيانة المسافرين والتجار ووضعوا لذلك انظمة راعوها وتقيدوا بشروطها . واقلع الافرنج عن لباسهم الاوربي وتعلقوا بالازياء الوطنية التي كانت أدعى الى الراحة . واكتسبوا شيئاً من الذوق الشرقي في الاطعمة والاشربة اخصه ما يتعلق بالسكر والتوابل . وآثروا لسكناهم البيوت الشرقية الطراز وما فيها من ايوانات واسعة ومياه جارية . وتزوج بعضهم من الوطنيات فنشأ عن ذلك جيل جديد مهجن متوسط بين الجنسين وكان يعرف افراده بـ« بولان » « pou a ins » (١). وبلغ تعلقهم ببعض العادات والعقائد المحلية ان كانوا يصلون احياناً في المزارات التي يقدسها المسلمون واليهود . وكان اللاتين في خصوماتهم الخاصة والقتال المستمر فيا بينهم يرحبون بالمساعدة التي تأتيهم من أعدائهم المسلمين . وكذلك كان المسلمون كثيراً ما يعولون على طلب النجدة من بعض اللاتين ضد اخوانهم المسلمين في نزاعهم معهم .

٢ . رد الفعل الاسلامي : قيام زنكي ونور الدين

كان ظهور عماد الدين زنكي اتابك الموصل الازرق العينين (١١٢٧ ـ ٤٦) فاتحة عصر جديد كان النصر فيه حليف المسلمين . وقد كان زنكي هذا اول الابطال الذين تعاقبوا على قيادة الجيوش الاسلامية لمقاومة الصليبيين، واعظمهم صلاح الدين . وامتدت هذه المقاومة حتى ايام السلاطين المماليك في الشطر الثاني من القرن التالي . وكان زنكي ابن رقيق تركي لملكشاه وقد بنى لنفسه ملكاً يشمل حلب وحران والموصل . وقد اسس في الموصل الدولة الزنكية (١١٢٧ ـ ١٢٦٢) وهي دون جدال في مقدمة الدول التي انشأها الاتابكة . وتولى زنكي الهجمات الاولى على الصليبيين وظلت هذه الهجمات تتوالى حتى قضت على ملكهم

١) الفتيان وفي اللاتينية *(pullani)* . قابل « فلان » العربية .

في هذه البلاد ، وكان اول ما ابلى في حروبه بالرهاء . وكانت هذه المدينة لقربها من بغداد وسيطرتها على الخطوط الرئيسية بين العراق وشواطىء البحر الابيض كناية عن ترس اتقت به الولايات اللاتينية في سورية الخطر المجاور . وقد استطاع زنكي بعد حصار دام اربعة اسابيع ان ينتزعها (١١٤٤) من جوسلين الثاني [١] فكانت اولى الولايات الصليبية ظهوراً وسقوطاً . وكانت حصينة جداً الا ان حاميتها كانت ضعيفة وبسقوطها في ايدي المسلمين نُزع الاسفين الذي كان الافرنج قد دقوه بين سورية الاسلامية والعراق . اما في اوربا فقد كان هذا الفشل الذي اصاب الافرنج سبباً للحملة المعروفة بالتجريدة الصليبية الثانية (١١٤٧–٩) التي قادها كونراد الثالث الالماني ولويس السابع الافرنسي. وسار الجيش وقد تألف من فرسان فرنسا والمانيا ومن الفرسان المعروفين بالداوية [٢] (الهيكليين) وبالاسبتارية [٣] ومن الجند الذي جمعته القدس فضرب الحصار على دمشق مدة اربعة ايام دون جدوى [٤] ولم تترك هذه الحملة اثراً يذكر .

وخلف زنكي في الزعامة والدفاع عن الاسلام ابنه نور الدين محمود وولي ممتلكات ابيه السورية وجعل حلباً عاصمته . وفاق نور الدين أباه مقدرة وقوة فلم يكن غرماؤه الافرنج يفوقونه في شيء من امور الحرب . وفي سنة ١١٥٤ انتزع دمشق من احد خلفاء طغتكين دون قتال وبذلك أزال آخر حاجز كان يحول بين المنطقة الزنكية وبين بيت المقدس . ولم يلبث أن اتم احتلال كونتية الرهاء بعد أن غلب اميرها جوسلين الثاني وحمله أسيراً سنة ١١٥١ [٥] ثم ان نور الدين فتح ايضاً أقساماً من امارة انطاكية وقبض على صاحبها بوهمند الثالث الحدث في سنة ١١٦٤ وعلى حليفه ريموند الثالث صاحب طرابلس ولكنه اطلق الاسيرين

---

١) ابن الاثير «تاريخ الدولة الاتابكية» في *Recueil : orientaux*, vol.ii, pt.2, pp. 118 *seq*

٢) لفظة عربية تحريف كلمة سريانية بمعنى فقير وكان اسم هذه المنظمة في الاصل اللاتيني Pauperes Commilitones Christi (فرسان المسيح الفقراء)

٣) او فرسان القديس يوحنا .

٤) ان اوضح بيان لذلك موجود في ابن القلانسي ص ٢٩٨–٩ وكان لابن القلانسي منصب سام في حكومة المدينة .

٥) ابن العبري ص٣٦١ ؛ ابن الاثير ج١١ ص١٠١ ؛ قابل كمال الدين، زبدة الحلب من تاريخ حلب ترجمة بلوشة Blochet (Paris, 1900), p. 25.

لقاء فدية قدماها وقد اطلق الاول بعد سجن سنة والثاني بعد تسع سنين .

اما فلسطين فلم يلاق المسلمون فيها من النصر ما لاقوه في الانحاء الاخرى فقد سقطت عسقلان معقلها الاكبر (١١٥٣) في يد بلدوين الثالث صاحب اورشليم بعد ان كانت حصناً يقي البلاد المقدسة من غارات الافرنج و بعد ان ظلت تقاوم الافرنج نحو نصف قرن .

ظهور صلاح الدين

وكان من اعوان نور الدين في جنده ضابط ملازم قدير اسمه شيركوه فانتهز نور الدين فرصة تضعضع الامر في الدولة الفاطمية وانفذه لاكتساح مصر فحقق انتصارات حربية وسياسية يسرت له ان يتقلد الوزارة سنة ١١٦٩ في خلافة العاضد (١١٦٠ – ٧١) آخر الخلفاء الفاطميين (١) . اما شاور سلفه في الوزارة فقد استنجد على شيركوه باملرك الاول أخا بلدوين الثالث وخلفه . على ان شيركوه لم يطل عمره ومات بعد ولايته بزمن يسير وخلفه ابن اخيه صلاح الدين ابن ايوب .

ولد الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف في تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ من ابوين كرديين وفي السنة التي تلتها عين الاتابك اباه ايوب محافظاً على بعلبك . ولسنا نعلم الا القليل عن نشأة صلاح الدين وتربيته وسني دراسته الاولى في سورية . ولكن الظاهر ان ميوله اتجهت نحو الابحاث الدينية . ولم يشتهر اسمه في الناس حتى سنة ١١٦٤ حين سار « على كره منه » (٢) في صحبة عمه في حملته الاولى على مصر . واذ ذاك اخذ نجمه في الصعود . وكان لصلاح الدين امنيتان جاهد طول حياته في سبيلهما الاولى احلال السنّة محل الشيعة في مصر والثانية مواصلة الجهاد والحرب على الافرنج . وفي سنة ١١٦٩ اسندت اليه الوزارة بمصر واستطاع بعد عامين ان يقوّض خلافة الفاطميين ثم امر الخطباء ان يقطعوا خطبة العاضد آخرهم ويخطبوا للخليفة العباسي المستضيء. وقد تم له ذلك دون اي عناء او اضطراب بحيث زعم ابو الفداء انه « لم ينتطح فيه عنزان » (٣) .

١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٠٥ – ٧ ؛ قابل ياقوت ج ٢ ص ٢٤٦ – ٧ .
٢) ابو شامة ج ١ ص ١٥٥ ؛ ابو الفداء ج ٣ ص ٤٧ .
٣) ابو الفداء ج ٣ ص ٥٣ .

وفي سبيل تحقيق امنيته الثانية وهي الاهم رأى انه لا بد له اولا من السيطرة على سورية الاسلامية وكان حاكمها اذ ذاك رئيسه نور الدين . ولم تلبث العلاقات بينهما أن توترت وساءت الحال . وعند وفاة نور الدين في سنة ١١٧٤ اعلن صلاح الدين استقلاله بمصر ثم خاض غمار الحرب على خلف نور الدين وتم له في المعركة الأخيرة - معركة قرون حماة - ان يغتصب سورية من يد حاكمها الصبي اسماعيل ابن نور الدين وخلفه وكان لا يزال في الحادية عشرة من عمره . وفي هذه الاثناء أفلح توران شاه اخو صلاح الدين الأكبر في الاستيلاء على اليمن . اما بلاد الحجاز وفيها الحرمان الشريفان فانها قد انضمت الى مصر كسابق عادتها . وفي ايار سنة ١١٧٥ صدرت ارادة من الخليفة العباسي بناء على طلب صلاح الدين أسندت فيها اليه السلطة على مصر والمغرب والنوبة وغربي الجزيرة العربية وفلسطين وسورية الوسطى . و بذلك جاد الخليفة بما لم يكن في الواقع ملكه ولكنه لم يسعه ان يرفض هذا الشرف . وتفرد صلاح الدين بالسلطنة حسبما اعلمنا نسيبه المؤرخ ابو الفداء (١) واستطاع بعد عشر سنين أن يخضع الموصل ويستلحق امراء العراق بطاعته . وهكذا فان امنية نور الدين في الاحاطة بالافرنج وحصرهم ثم اهلاكهم بين حجري رحى - الواحدة سورية والعراق والأخرى مصر - قد اخذت تتحقق في عهد خلفه صلاح الدين الذي بزّه وتفوق عليه .

وكان في اثناء هذه المعارك في شمالي سورية أن حاول الحشاشون مرتين اغتيال صلاح الدين بتحريض من بعض اعدائه من المسلمين . وقد حاول الحشاشون من قبل ان يغتالوا نور الدين ففشلوا ولكنهم أفلحوا في اغتيال الخليفة الفاطمي الآمر (١١٣٠) . وكان رجال هذه الحركة الهدامة يظهرون نشاطاً ملموساً في سورية في تلك السنين . وكان اعظم ضحاياهم من رجال الافرنج ريموند الثاني امير طرابلس (١١٥٢) وملك اورشليم كونراد ده مونتفرات (١١٩٢) (٢) بعد اعتلائه العرش بزمن يسير . وفي عام ١١٧٦ حاصر صلاح الدين قلعة مصياد معقل راشد الدين سنان زعيم الاسماعيلية ولكنه ارتد عنه بعد عهد قطعه له الشيخ

١) ج ٣ ص ٦٠ .
٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٥١ .

راشد (شيخ الجبل) في ان لا يتعرض له فيما بعد .

وكان سنان قد استقل عن فارس وقد امتنع في الحصون التي ملكها وكان يدير دائرة استخبارات سرية ويستعين بالحمام الزاجل لتسلم الاخبار من مختلف الجهات بحيث حسب اتباعه امره من المعجزات . اما رجاله المعروفون بالفدائية فقد تميزوا بصناعة السكاكين المسمومة (١) واستعمالها فكانوا يغتالون بها من كلفوا اغتياله . ويحكى ان هنري (Henry of Champagne) الملقب بملك اورشليم زار سناناً في سنة ١١٩٤ فاراد هذا ان يُري ضيفه جرأة رجاله وبسالتهم وعظم طاعتهم لاوامره فاعطى اشارة لاثنين منهم كانا على برج الحصن فوثبا للحال الى اسفل وتمزق جسداهما (٢) .

حطين

ولما أمن صلاح الدين شر الحشاشين تفرغ لمكافحة الافرنج . وفي اول تموز سنة ١١٨٧ استولى على طبرية بعد حصار دام ستة ايام. ثم تلت ذلك معركة حطين وقد وقعت في الثالث والرابع من تموز . وكانت حطين بالقرب من طبرية وقد شرع في القتال يوم الجمعة وهو يوم كثيراً ما اختاره صلاح الدين للجهاد ووفق فيه وكان هذا اليوم يوم بؤس على الافرنج فقد كان معسكرهم نحو عشر بن الفاً انهكهم العطش والحر فوقع جلهم بايدي المسلمين . وكان في مقدمة الاسرى النبلاء غي ده لوسينيان «Guy de Lusignan» ملك اورشليم . وقد احسن السلطان صلاح الدين النبيل معاملته واستقبله خير استقبال اما زميله رجنلد «Reginald of Châtillon» الذي كان يخرق الهدنة ويعبث بالامن فقد نال معاملة اخرى . ولعل رجنلد كان اشد زعماء اللاتين مغامرة واكثرهم تعدياً واوفرهم الماماً باللغة العربية وقد اقدم مراراً حين كانت الكرك في عهدته على مداهمة القوافل الآمنة يسلبها امتاعها حين تمر قرب اسوار حصنه خارقاً بذلك شروط المحالفة المعقودة مع المسلمين . و بلغ منه الكيد أن جرّد اسطولا من أيلة يعيث بشواطىء

---

١) ابن بطوطه ج ١ ص ١٦٦-٧ .

٢) Marinus Sanuto " Liber secretorum " in Bongars, *Gesta Dei per Francos* (Hanau, 1611), vol. ii. p. 201.

الحجاز متعرضاً لحجاج بيت الله . وكان صلاح الدين قد نذر على نفسه ان يقتله بيده ان مكنه الله منه ، وقد تم له ان يفي نذره . واحتال رجنلد للنجاة بان طلب ماء في خيمة صلاح الدين وشربه ظناً منه أن هذا التقليد العربي كافٍ لحمايته ولكنه لم يشرب الماء باذن من صلاح الدين فلم يحظ بأمانه بل جوزي على غدره وضرب صلاح الدين رقبته وجمع من كان معه من الداوية والاسبتارية فامر بهم فضربت اعناقهم على مشهدٍ من الناس (١) .

وكان النصر في يوم حطين نصراً حاسماً قرر مصير المملكة اللاتينية وقضى عليها القضاء المبرم ولم يطل الأمر على بيت المقدس اكثر من اسبوع حتى استسلمت (٢ تشرين الاول ١١٨٧) لصلاح الدين وكانت حاميتها قد فني اكثرها في واقعة حطين ودوى صوت المؤذن في المسجد الاقصى بدلا من ناقوس النصارى وانزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من فوق قبة الصخرة .

وبسقوط بيت المقدس عاصمة المملكة اللاتينية دانت لصلاح الدين اكثر المدن التي كانت بايدي الافرنج في سورية وفلسطين . وبعد سلسلة من الحملات العسكرية الباهرة سقطت أغلب القلاع دون ان تستطيع اي منها الدفاع عن نفسها وكان قد هلك معظم ابطالها في يوم حطين . وقد التهبت نفس صلاح الدين بطل الاسلام بروح الجهاد التي كان الصليبيون قد فقدوها فتابع عمليات الفتح شمالا حتى اللاذقية وجبلة وصهيون وجنوباً حتى الكرك والشوبك . وقبل انتهاء سنة ١١٨٩ سلمت هذه المدن كلها هي وشقيف ارنون (٢) وكوكب (٣) وصفد وسواها من القصبات بعد أن كانت اشواكاً في جنب جيوش المسلمين. وكادت هزيمة الافرنج أن تؤدي الى جلائهم التام عن البلاد . ولم يبق في حوزتهم عندئذ

---

١) ابو شامة ج ٢ ص ٧٥ وما يلي يورد بياناً لشاهد عيان ؛ ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٢–٥ ؛ Ernoul and Bernard le Trésorier, *Chronique*, ed. M. L. de Mas Latrie (Paris, 1871), pp. 172—4.

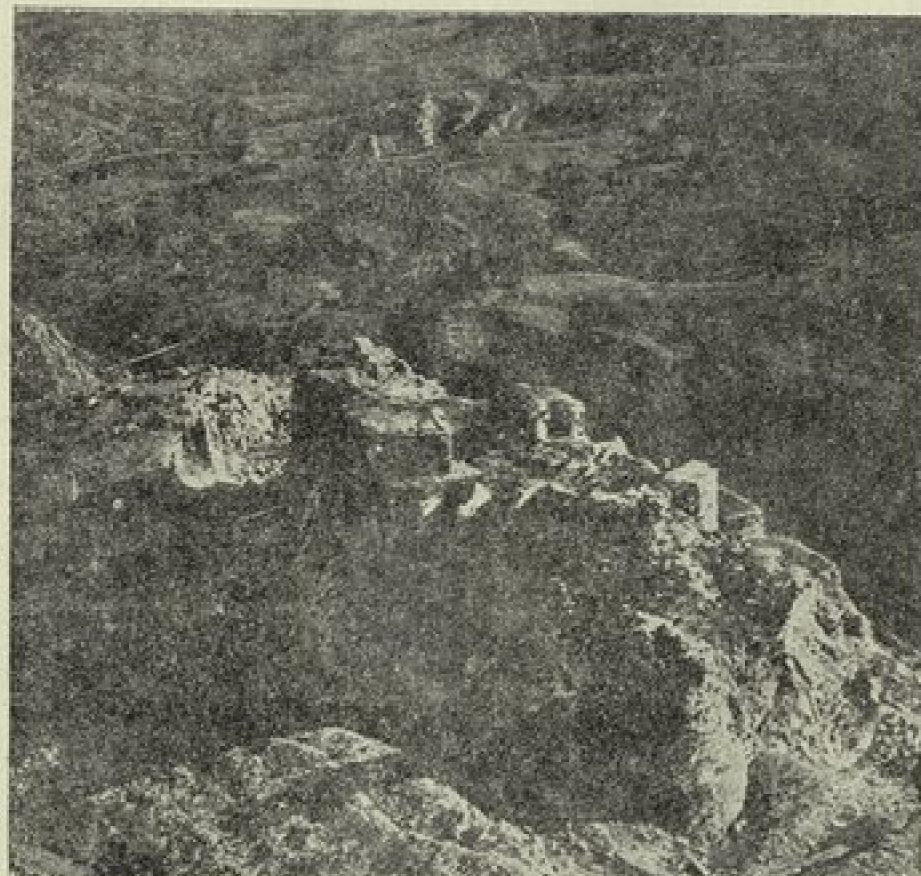
٢) وهي قلعة ارنون على الليطاني وتعرف في المدونات اللاتينية بـ بلفورت Belfort . اما صاحبها فكان يعرف بـ رجنلد « Reginald » الصيداوي .

٣) قلعة صليبية بنيت في ذلك العهد في شمالي بيسان قرب الاردن . وكان اسمها الكامل عند العرب « كوكب الهواء » وهي بلفوار Belvoir في المصادر اللاتينية .

الا انطاكية وطرابلس وصور مع بعض المدن الصغيرة والقلاع .

حصار عكا

وارتاعت اوربا عندما بلغها سقوط المدينة المقدسة فنسي حكامها خصوماتهم القديمة ونشطوا الى الجهاد . وانبرى فردريك بربروسا «Frederick Barbarossa» امبراطور المانيا ورتشرد قلب الأسد « Richard I Cœur de Lion » ملك انكلترا وفيليب اغسطس



قلعة الشقيف

«Philip Augustus» ملك فرنسا الى حمل الصليب . ويعد هؤلاء الثلاثة اعظم ملوك اوربا الغربية وبهم بدأت التجريدة الصليبية المعروفة بالثالثة (١١٨٩ ـ ٩٢) . وهي من اكبر التجريدات من حيث عدد المحاربين . وكانت هذه الحملة وما ظهر فيها من شخصيات بارزة

في كلا الجانبين و بنوع خاص صلاح الدين وقلب الاسد قد أمدت الاساطير والروايات الشرقية والغربية باحسن المواضيع وغذتها باغنى المواد وامتع الاخبار .

وكان اول الناشطين الى الحرب فردريك وقد سلك طريق البر فغرق خلال عبوره نهر بكليكية . وعاد معظم رجاله الى اوطانهم . اما رتشرد فقد عرج بطريقه على قبرس فاخذها وقد اصبحت قبرس بعدئذ آخر ملجأ للصليبيين المنهزمين من السواحل السورية .

وايقن اللاتين في غضون ذلك ان عكا هي المفتاح الذي به يمكن ان يستعيدوا ما خسروه فحملوا عليها بجحافلهم مع من تبقى من جيش فردريك وكتائب ملك فرنسا . اما الملك غي الذي كان صلاح الدين قد اطلقه بعد أن استحلفه الا يعود الى قتال المسلمين فانه حنث بيمينه وخرج ثانية للقتال يقود الهجوم على عكا ووصل صلاح الدين لانقاذ المدينة في اليوم الثاني وجعل معسكره قبالة العدو . ونشب القتال براً وبحراً وكان ان وصل رتشرد قلب الاسد ايضاً فاحتفى الافرنج بمقدمه وتهللوا واشعلوا نيران البشرى . وفي اثناء الحصار جرت عدة حوادث نادرة دونها مؤرخو العرب واللاتين المعاصرون منها أن رجلا من أهل دمشق كان مشرفاً على آلات النفط وتحضير المواد اللازمة للمفرقعات فاحرق ثلاثة ابراج للعدو فامر صلاح الدين بالاحسان اليه فرفض قائلا : « انما فعلته لله ولا اريد الجزاء الا منه » (١) . وكان للافرنج حجر كبير من الصوان اشتركت في حمله ثلاثة مراكب وقد نقله رتشرد من صقلية ليستعمله في منجنيقاته و يقال انه قتل به ثلاثة عشر شخصاً من عكا. ولكن المسلمين استولوا عليه اخيراً وقدموه للسلطان صلاح الدين ليراه . ومن الادلة على الاحترام المتبادل بين صلاح الدين ورتشرد انهما كانا يتبادلان الهدايا الا انهما لم يتلاقيا قط .

وكان صلاح الدين يتصل بحامية عكا حين طوقها الافرنج وقطعوا عنها طريق البحر بواسطة حمام الزاجل والسباحين . ومن هؤلاء السباحين رجل نزل ذات ليلة وقد شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها الف دينار ورسائل للعسكر فغرق و بعد ايام قذف به البحر فاخذ المكاويون ما كان معه من مال ورسائل. واوحت هذه الحادثة لكاتب سيرة صلاح الدين ان يقول : (٢)

١) ابن خلدون ج ٥ ص ٣٢١ .
٢) ابن شداد ،سيرة صلاح الدين: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة،١٣١٧) ص ١٢٠ .

« فما رؤي من أدي الامانة في حال حياته وقد ردها في مماته الا هـذا الرجل » . وكان رتشرد ينعم على كل من زحزح حجراً من اسوار المدينة فقام المحاربون والنساء باعمال عظيمة من البسالة والبطولة . وان هذا الحصار الذي يُعد من اعظم الاعمال الحربية في العصورالوسطى قد دام نحو سنتين (٢٧ آب سنة ١١٨٩ — سنة ١٢ تموز سنة ١١٩١) . واستفاد الافرنج من اسطولهم وعدتهم الحديثة للحصار . اما المسلمون فانحصرت ميزتهم في ان القيادة كانت موحدة في شخص واحد . وطلب صلاح الدين النجدة من الخليفة فلم يلبه . ولما ضاق الامر بالحامية طلبت الصلح واستسلمت .

وكانت أهم شروط الصلح ان لا يتعرض الافرنج للحامية بسوء مقابل مئتي الف دينار وأن يُرجع المسلمون الصليب المقدس [1] . ولكن رتشرد لما رأى تأخر صلاح الدين شهراً عن دفع المال أمر بالاسرى فجمعوا وقتلوا [2] وكانوا زهاء الفين وسبعمئة . وهو عمل يختلف عما فعله صلاح الدين بالاسرى حين دخل بيت المقدس ظافراً . فقد كان هو الواضع لشروط الصلح هناك وكان منها ان يؤدي الافرنج عن انفسهم مالا ولكن عدداً من فقرائهم يبلغ ثلاثة آلاف عجز عن تأدية ما فرض عليهم فاخلى صلاح الدين سبيل الف منهم نزولا عند رغبة أخيه . وتوسط البطريرك لفريق آخر منهم فاطلقهم السلطان . ثم رأى صلاح الدين ان أخاه والبطريرك قد زكيا عن نفسيهما وان دوره في الزكاة قد اتى فاطلق سراح الباقين بمن فيهم من نساء واطفال دون فدية .

واخذت عكا تحتل مكانة اورشليم [3] في الزعامة واخذت مخابرات الصلح تدور في هذا العهد بين الفريقين المتحاربين دون انقطاع . ولما كان رتشرد من المغامرين الخياليين فانه اقترح زواج اخته من الملك العادل اخي صلاح الدين على ان تعطى القدس هدية للزوجين

---

١) ابو شامة ج ٢ ص ١٨٨ ؛ عماد الدين الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي نشر لاندبرغ (ليدن ، ١٨٨٨) ص ٣٥٧ ، ابن العبري ص ٣٨٦ — ٧ ؛ ابو الفداء ج ٣ ص ٨٣ — ٤ .

٢) Benedict of Peterborough, ed. W. Stubbs (London, 1867), vol. ii p. 189. ابن شداد ص ١٦٤ — ٥ .

٣) ابن العبري ص ٤١٣ يشير الى « ملك عكا » .

فينتهي بذلك العداء المستحر بين النصارى والمسلمين [١] . وفي احد الشعانين (٢٩ ايار عام ١١٩٢) أقام رتشرد حفلة رسمية أنعم فيها على الملك الكامل ابن العادل برتبة الفروسية واخيراً تم الصلح في ٢ تشرين ثاني سنة ١١٩٢ على ان يكون الساحل للاتين وداخلية البلاد للمسلمين وعلى ان لا يتعرض أحدٌ بأذى للحجاج الوافدين على بيت المقدس . ولم يُكتب لصلاح الدين من العمر سوى اشهر قليلة بعد ذلك ينعم فيها بثمرات الصلح . وفي ١٩ شباط من السنة التالية اصابته حمى في دمشق فمات بعد اثني عشر يوماً وهو في سن الخامسة والخمسين ولا يزال قبره في العاصمة السورية قبلة الزائرين .

ولم يكن صلاح الدين بطلاً وحامياً من حماة الدين والسنّة فحسب بل كان ايضاً منشطاً للعلم والعلماء فهو الذي شجع الدراسات الدينية وافتتح المدارس وأنشأ المساجد وابتنى السدود وحفر الاقنية . ومن آثاره قلعة الجبل بالقاهرة [٢] . وقد اخذ في تشييدها مع اسوار المدينة في سنة ١١٨٣ واستجلب لها حجارة من الاهرام الصغرى. وكان بين الذين استوزرهم عالمان كبيران هما القاضي الفاضل [٣] وعماد الدين الكاتب الاصفهاني [٤] الشهيران باسلوبهما واناقة رسائلهما وآخر من خدم السلطان كاتماً لاسراره بهاء الدين ابن شداد [٥] وقد دون هذا سيرة سيده فيما بعد . ولما استولى صلاح الدين على قصر الخلافة الفاطمية اخرج ما فيه من كنوز ونفائس فوزعها في خدمه وحشمه ولم يُبقِ لنفسه شيئاً . ومن الجواهر التي وجدت في مقتنيات الفاطميين عقد ياقوت وزنه ابن الاثير [٦] نفسه فكان سبعة عشر درهماً كذلك عفّ صلاح الدين عن املاك نور الدين فتركها لابن الملك الراحل . اما هو فلم

---

١) قابل ابا الفداء ج ٣ ص ٨٤ .
٢) لا تزال الكتابة التي خلفها ظاهرة على البوابة القديمة .
٣) ابن خلكان ج ١ ص ٥٠٩ وما يلي ؛ السبكي ج ٤ ص ٢٥٣—٤ .
٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٥ وما يلي ؛ السيوطي حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٠ . ولقد استعنا بكتاب « الفتح القسي » لعماد الدين الاصفهاني في وضع هذا الفصل .
٥) ابن خلكان ج ٣ ص ٤٢٨ وما يلي . ولقد اعتمدنا على سيرة صلاح الدين لابن شداد في مواضع كثيرة من هذا الفصل .
٦) ج ١ ص ٢٤٢ .

يخلف في خزانته يوم وفاته سوى سبعة وار بعين درهماً وحرم واحد صوري (١) (قطعة نقود ذهبيــة) . و يُعد صلاح الدين عند العرب في مصاف الرشيد و بيبرس وفي مقدمة الذين نالوا شهرة شعبية عند العرب عامة وخاصة . اما في اوربا فقد اطنب بذكره المنشدون في العصور الوسطى وكذلك فعل الروائيون العصريون (٢) ولا يزال يعتبر مثال البطولة والفروسية .

٣ . حقبة الحروب الاهلية والمناوشات : الايوبيون

ان السلطنة التي انشأها صلاح الدين من دجلة حتى النيل قد تقسمت بين ابنائه الذين لم يكن لأحد منهم ماله من الدهاء . ففي دمشق خلفه ابنه الملك الافضل وفي القاهرة ابنه العزيز وفي حلب الظاهر . اما اخوه الاصغر وامين اسراره العادل فقد ولي الكرك والشوبك حتى كانت سنة ١١٩٦ ونشبت الفتنة بين ابناء اخوته فاغتنم العادل الفرصة واغتصب لنفسه السلطة على مصر ومعظم سورية . وكان سيف الدين العادل هـذا أهم ممثلي الاسلام في مخابرات الصلح سنة ١١٩٢ وحافظ طول حكمه على حسن العلاقات مـع الصليبيين . ومع ان المناوشات البسيطة لم تكن معدومة بين الطرفين فان سياسته العامة انما ارتكزت على السلم وتنشيط التجارة بين المسلمين والمستعمرات الافرنجية . وقد سمح لاهل البندقية ان يفتحوا اسواقاً وفنادق (٣) خاصة بهم في الاسكندرية كما قبل ان يكون فيها لاهل بيزا قناصل . ولا يزال اسمه خالداً في دمشق بالمدرسة العادلية التي ساهم في بنائها (٤) .

و بعد وفاة العادل سنة ١٢١٨ نشأت عدة أسر ايوبية كلها متحدرة منه وملكت في مصر ودمشق والعراق . وقامت اسر ايوبيــة أخرى متحدرة من سواه فتولت امور حمص

---

١) ابو الفداء ج ٣ ص ٩١ .

٢) انظر مثلا ولتر سكوت (Walter Scott) في قصة تلسمان (*Talisman*) ولسنغ (Lessing) في ناثان در فيزه (*Nathan der Weise*) .

٣) فندق في العربية من *pandokeion* اليونانية ؛ وبندق العربية (الشجر المعروف) من بنتكوس *pontikos* اليونانية (وهي صفة من بنتوس Pontos) ، اما البندقية اسم مدينة Venice العربي (ابو الفداء ، تقويم البلدان نشر رينو ودوسلان ، باريس ، ١٨٤٠ ص ٢١٠) فمن Veneticum .

٤) لقد انجبت هذه المدرسة السبكي وابن خلكان وغيرهما من العلماء وهي اليوم مقر المجمع العلمي العربي .

وحماة واليمن . وكان اصحاب مصر من الايوبيين هم الفرع الرئيسي لهذه الدوحة وكثيراً ما نافسوا انسباءهم الدمشقيين على سيادة سورية . اما الفروع التي حكمت شمالي سورية فقد قضى عليها التتر سنة ١٢٦٠ بزعامة هولاكو ما عدا أصحاب حماة الذين بقيت دولتهم في ظل المماليك ومن هؤلاء ابو الفداء (المتوفى ١٣٣١) الملك المؤرخ الذي يرجع نسبه الى أخي صلاح الدين .

معسكر الفرنج

ولم يقتصر شرّ هذه المنازعات العائلية على فقدان الاسلام سطوته بل تعدّى ذلك الى درجة ان المدن التي كان صلاح الدين قد فتحها عادت الى ايدي الافرنج الواحدة تلو الاخرى من بيروت الى صفد فطبرية فعسقلان ، حتى بيت المقدس فانهم قد استولوا عليها سنة ١٣٢٩ . على ان الافرنج لم يستطيعوا ان يستغلوا الموقف تماماً لأنهم ابتلوا بما ابتلي به المسلمون من انقسام في كلمتهم وتضعضع في شؤونهم . وكانوا يستندون في عيشهم في المستعمرات المختلفة الى ورود الامدادات من اوربا فما انقطعت هذه اضطربت امور الحياة ودارت بين الصليبيين الفتن لاسيما بين أهل جنوى منهم واهل البندقية كما استشرت الضغائن بين الداوية والاسبتارية . وامتلأت قلوب الزعماء بروح التحاسد فكانوا يتنافسون على الملك و يتخاصمون في ايهم يحظى بذلك اللقب الفارغ «ملك اورشليم» . تلك كانت حالهم وكانوا كما اسلفنا يستنجدون احياناً بالمسلمين حين يستفحل الشر بين فريق منهم واخر .

مصر نقطة الاهتمام

أما المعارك الخطيرة التي دارت رحاها بين الافرنج والوطنيين عقب وفاة صلاح الدين فقد جرت بوادي النيل في عهد الكامل (١٢١٨ — ٣٨) وكان الكامل قد خلف أباه العادل على اريكة الحكم في مصر ويُعد اعظم شخصية في الايوبيين . ولقد أذعنت له سورية اذعاناً اسمياً . وكان همّه الاول ان يطهّر البلاد من الصليبيين الذين كانوا قبيل وفاة ابيه قد نزلوا بالقرب من دمياط واستولوا عليها في السنة التالية . وكان الباعث لغزوة

الصليبيين على مصر الآن ان جمهوريات ايطاليا البحرية كانت قد ادركت ان مركز الثقل في السياسة الاسلامية قد انتقل من سورية الى مصر وان سفنهم لا يتسنى لها الاتصال بالبحر الاحمر والمساهمة بتجارة المحيط الهندي الرابحة ما لم تتم لها السيطرة على وادي النيل. وبعد كفاح دام نحو سنتين (تشرين الثاني ١٢١٩ الى آب ١٢٢١) ارغم الكامل الافرنج على التخلي عن دمياط واذن لهم في الرجوع الى بلادهم (١).

وشابه الكامل أباه في تشجيع الري والزراعة وعقد عدة معاهدات تجارية مع البلدان الاوربية . وبلغ عطفه على رعاياه النصارى درجة جعلت الكنيسة القبطية تعده اكثر الملوك احساناً الى ابنائها . وفي السنة الثانية من ملكه زاره القديس فرنسيس الاسيزي «St. Francis of Assisi» وباحثه في بعض امور الدين . ويمكن ان يستدل على رغبته في العلم من اقدامه مرة على زيارة عمر ابن الفارض (١١٨١ — ١٢٣٥) اعظم شاعر صوفي انجبته العرب . ويقال ان الشاعر رفض ان يستقبل ضيفه الملك . وكان من اصدقاء رتشرد ، ثم نشأت بعد ذلك صداقة بينه وبين فردريك الثاني الذي قاد في سنة ١٢٢٧ حملة صليبية. وفي سنة ١٢٢٩ عقد الكامل صلحاً شائناً مع فردريك رضي فيه بتسليم القدس للافرنج والسماح لهم بالاستيلاء على الشقة التي تصل عكا بالقدس . وقطع لفردريك عهداً على نفسه في انه سيساعده على اعدائه واكثرهم من الايوبيين (٢) . ولسنا نعرف معاهدة بين الفرنجة والمسلمين قبل العهد العثماني اغرب من هذه . وظلت القدس بايدي الافرنج حتى سنة ١٢٤٤ حين دعا الملك الصالح نجم الدين ايوب (١٢٤٠ — ٤٩) ثاني خلفاء الكامل جيشاً من اتراك خوارزم كان جنكيز خان قد اجلاهم عن ديارهم في آسية الوسطى فاعادوها للاسلام .

القديس لويس

وبينما كان الملك الصالح على فراش الموت بلغه نبأ حملة الافرنج على دمياط وكان

---

١) ابو الفداء ج ٣ ص ١٣٥ — ٧ ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٤٩ — ٥٠ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٤٥١ ؛ ابن اياس بدائع الزهور في وقائع الدهور (بولاق ١٣١١) ج ١ ص ٧٩ — ٨٠ .
٢) ابو الفداء ج ٣ ص ١٤٨ ؛ ابن الأثير ج ١٢ ص ٣١٥ .

زعيمهم هذه المرة لويس التاسع ملك فرنسا وكان فرسانه من رجال «التجريدة الصليبية السادسة» فسلمت لهم البلدة (٦ حزيران ١٢٤٩) دون مقاومة. وفي اثناء زحف الجيش الفرنسي على القاهرة في ارض مصر التي تتقاطعها الاقنية الكثيرة كان النيل في اعلى ارتفاعه فكثرت المستنقعات وتفشى الوبأ في الجند وانقطعت عنه الامدادات فهلك الجيش كله (نيسان ١٢٥٠) وأسر الملك لويس ومعظم نبلائه (١).

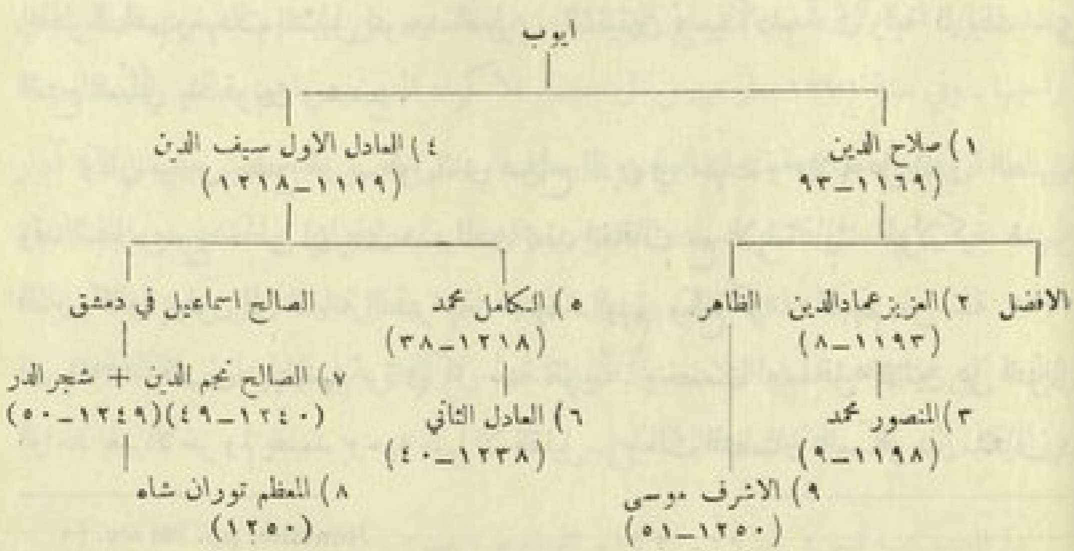
الايوبيون يخلون للمماليك

وكان الصالح قد مات في تشرين ثاني ١٢٤٩ فكتمت ارملته شجر الدر النشيطة الباسلة خبر موته ثلاثة اشهر حتى عاد ابنه توران شاه من العراق وخلفه (٢) ولم يرض عنه المماليك عبيد ابيه وتآمروا مع امرأة ابيه شجر الدر وقتلوه سنة ١٢٥٠. وملكت شجر الدر وقامت بالامر ونقشت على السكة اسمها: «المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين» (٣) وجيء بالاشرف موسى الايوبي من دمشق فأقيم معها وعمره نحو ست سنين وصارت المراسيم تصدر

---

١) المقريزي ج ٢ ص ٢٣٦–٢٤٧؛ Joinville, *Histoire de Saint Louis* ed. N. de Wailly (Paris, 1874), pp. 169 *seq.*

٢) شجرة انساب الايوبيين المصريين وكلهم الا العزيز والمنصور والاشرف اعترفت بهم دمشق على الاقل مدة من الزمن:



ابو الفداء، ج ٣) ٣ ص ١٩٠؛ السيوطي، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩.

عن الملكين . غير ان الأمر كان في الواقع بيد المملوك ايبك مؤسس دولة المماليك . وفي هذه الآونة وقع لويس في الاسر شهراً ثم اطلق سراحه هو ورجاله لقاء فدية دفعها ورضي بتسليم دمياط (١) . وأقام لويس في سورية من سنة ١٢٥٠ الى ١٢٥٤ وكانت أهم أعماله فيها تحصين ثغور عكا وحيفا وقيسارية وصيدا. وقاد في سنة ١٢٧٠ حملة صليبية أخرى على تونس كانت فاشلة ايضاً ومات هناك . ويمتاز لويس على غيره من الزعماء الصليبيين بحسن سيرته ونبل اخلاقه حتى قيل فيه : « ان كل حياته كانت عبارة عن صلاة وكان قصده الاسنى العمل لمشيئة الله ».

الضربات الاخيرة : بيبرس

وقامت دولة المماليك فكان اميرها الرابع الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ـ ٧٧) اول السلاطين الذين انزلوا بالصليبيين الضربات الاخيرة . وقد سبق له ان امتاز في قيادة جيوش سلفه قطز حين اناخ في ٣ أيلول سنة ١٢٦٠ على التتر عند عين جالوت ومزق شملهم . وكان قائد المغول في تلك الموقعة كتبغا النسطوري وكانت طلائع جيشه قد نفذت في فلسطين حتى غزة (٢) . اما انتصار بيبرس عليه في تلك المعركة فحادث هام في تاريخ المدنية اذ لو قيّض للمغول ان ينتصروا وينفذوا الى القاهرة ويستولوا عليها فالمرجح انهم كانوا افنوا كنوزها وذخائرها وخزائن مخطوطاتها . اضف الى ذلك ان هذه الموقعة ردت عن سورية ومصر الخطر الداهم ومهدت السبيل لتوحيد القطرين الشقيقين توحيداً دام تحت راية المماليك حتى الفتح العثماني بعد قرنين ونصف .

وكان بيبرس يطمح ان يكون ثاني صلاح الدين في جهاده وحملاته على المدن الصليبية وقد استفزه بنوع خاص ان يرى هذه المدن تعقد اتفاقات مع الايلخانات الهولاكية بفارس الذين كانوا يميلون الى الديانة النصرانية . فنهد اليهم وتابع كراته عليهم من سنة ١٢٦٣ الى ١٢٧١ وكان يهاجمهم مرة في كل سنة تقريباً . وخضعت له معاقل اللاتين على التوالي الواحد بعد الآخر ولم يصمد بوجهه منها الا القليل . ونالت المنظمتان العسكريتان اللتان

---

١) Joinville, pp. 201 *seq.*

٢) المقريزي ترجمة كاترمر Quatremère, vol. i (pt. 1), pp. 98, 104

تمركزتا في امهات القلاع الافرنجية بسورية ووقفتا في وجه المسلمين اشد ضرباته وعجز الصليبيون في كل البلاد عن الصمود بحيث لم يجرأوا ان يلقوا المسلمين في معركة هامة واحدة.

وفي سنة ١٢٦٣ احتل بيبرس الكرك وخرب كنيسة الناصرة على عظم اجلال النصارى لها. وفي ١٢٦٥ فاجأ قيسارية فاخذها ثم حاصر ارسوف التي كانت بيد الاسبتارية فاستسلمت بعد اربعين يوماً . اما قلعة الداوية في صفد فقد صالحته في ٢٣ تموز في سنة ١٢٦٦ على ان يمنح الأمان لحاميتها المؤلفة من الفي فارس . ولكنه لم يتردد بعد ذلك برغم الأمان الذي اعطاه ان يجمع هؤلاء الفرسان على تل بجوارها ثم قتلهم عن آخرهم [١] . ولا تزال اخبار انتصار بيبرس ــ اسكندر زمانه وعماد دينه ــ محفورة على اسوار صفد . ولا يزال الجسر الذي بناه على الاردن قائماً الى الآن وعليه نقش له يحيط به رسم أسد من كل جانب . وفي سنة ١٢٦٨ سقطت يافا دون مقاومة واستسلمت شقيف ارنون بعد دفاع يسير . وفوق هذا فقد سلمت انطاكية (٢١ ايار) وكان لها علاقات ودية مع التتر فقتل من أهلها وحاميتها نحو ١٦ الفاً وسبي ما يبلغ مئة الف بيع بعضهم في اسواق مصر . وغنم بيبرس فيها اموالا طائلة فكانوا يكيلون المال كيلاً وقد بلغ ثمن الطفل اثني عشر درهماً وثمن الطفلة خمسة دراهم . اما المدينة وقلعتها وكنائسها الشهيرة فقد احرقها كلها وكانت كارثة لم تنهض منها انطاكية حتى اليوم [٢] . وعند سقوط انطاكية خف الافرنج الى الجلاء عن كثير من قلاعهم الصغرى الواقعة في نواحيها . وفي سنة ١٢٧١ سار بيبرس الى حصن الاكراد المنيع وهو اهم معاقل الاسبتارية بل لعله اروع بناء حربي ابقته لنا العصور الوسطى فاستسلم الحصن بعد حصار دام من ٢٤ آذار الى ٨ نيسان ثم احتل قلاع مصياد والقدموس والكهف والخوابي وانتزعها من الحشاشين الموالين للاسبتارية وكانوا في الغالب يؤدون الجزية لهم . وقضى بذلك على آخر اعشاش تلك الطغمة التي عاثت فساداً في البلاد سنيناً طويلة . وسارع الداوية في انطرطوس والاسبتارية في المرقب الى طلب الامان وعقد الصلح .

---

١) المصدر نفسه قسم ٢ ص ٢٩ــ٣٠ ؛ ابو الفداء ج ٤ ص ٣ .
٢) المقريزي ترجمة كاترمر Quatremére, vol. i (pt. 2) pp. 52-4 ابو الفداء ج ٤ ص ٤ــ٥ .

قلاوون

وكان قلاوون (١٢٧٩ ـ ٩٠) خير خلف لبيبرس فنهد الى مكافحة الصليبيين بنشاط يكاد يعادل نشاط سلفه . وفي ١٥ نيسان ١٢٨٢ جدد الصلح الذي كان قد عقده بيبرس مع الداوية بانطرطوس عشر سنين اخرى وعشرة اشهر وعقد في ١٨ تموز ١٢٨٥ معاهدة مماثلة مع اميرة صور التي كانت تهيمن على بيروت (١) . ودلل قلاوون في ساحة القتال على انه أهل لأن يحمل اللقب الذي صار يعرف به « الملك المنصور » . وبعد حصار دام ثمانية وثلاثين يوماً آخرها ٢٥ آيار سنة ١٢٨٥ خضعت له قلعة المرقب وهي قلعة لا تزال قائمة الى اليوم في شكل دارعة حربية على رأس احدى الهضبات المطلة على البحر بجوار طرطوس ويرى الزائر اليوم رؤوس السهام التي رماها المحاصرون على القلعة لا تزال مغروسة في اسوارها الخارجية . وكانت هذه اول مرة شهد فيه ابو الفداء (٢) الحرب وله من العمر اثنتا عشرة سنة. وسيق من في القلعة من فرسان القديس يوحنا مخفورين الى جهات طرابلس . وكانت طرابلس من فتوحات الصليبيين الاولى وقد أصبحت في ذلك الوقت اهم ما بقي بايديهم من المدن وقد سقطت أخيراً في نيسان سنة ١٢٨٩ فهدمت ودُكت قلعتها . وكان ابو الفداء (٣) يومئذ مع المحاربين وعبر الى الجزيرة المجاورة للميناء فوجدها ملأى من القتلى بحيث لم يستطع الوقوف فيها من نتن رائحتها . وسقطت بعد طرابلس بلدة البترون الى الجنوب منها وارخ قلاوون انتصاراته كما فعل بيبرس قبله بنقوش على جدران القلاع التي استولى عليها .

عكا

ولم يبق من مراكز الافرنج العسكرية الهامة سوى عكا . وفيما كان قلاوون عازماً على غزوها وفتحها ادركته الوفاة فخلفه ولده الاشرف (١٢٩٠ ـ ٩٣) فاخذ في اكمال ما شرع به ابوه . وبعد قتال دام شهراً استخدم فيه اثنان وتسعون منجنيقاً لضرب حاميتها

---

١) لقد اورد المقريزي نص المعاهدتين ، نشر كاترمر ج ٢ قسم ٣ ص ١٧٢ـ٦ ، ١٧٧ـ٨ .
٢) ج ٤ ص ٢٢ .
٣) ج ٤ ص ٢٤ .

فتحها المسلمون (ايار ١٢٩١) وكانت آخر معاقل اللاتين في الشرق . ولم يتمكن الافرنج من الاحتفاظ بها برغم ما جاءهم من مدد من قبرس . وكان فرسانها الداوية المدافعون عنها قد قبلوا الصلح على ان يخلى سبيلهم ولكنهم قتلوا عن آخرهم . وغنم المسلمون من عكا غنائم كثيرة وهدموا ابراجها ودكوا تحصيناتها واحرقوا منازلها (١) .

ولم يبق بعد سقوط عكا مجال للافرنج ان يصمدوا طويلاً أو أن يحتفظوا بالمدن الست الساحلية التي كانت لا تزال بايديهم فاخلوا صور في ١٨ أيار وصيدا في ١٤ تموز وسلمت بيروت في ٢١ تموز . ونزل المسلمون انطرطوس في ٣ آب وحوالي منتصف الشهر دمروا قلعة عتليت بعد ان هجرتها الداوية (٢) و بذلك اسدل الستار على احد الفصول الحربية الرائعة في تاريخ سورية (٣) .

---

١) ابو الفداء (وكان قد ساهم في الحصار) ج ٤ ص ٢٥-٦ ؛ المقريزي ترجمة كاترمر Quatremère, vol. ii (pt. 3), pp. 125-9, *Archives*, vol. ii, pt. 2, p. 460 ; *Les gestes de Chiprois*, ed. G. Raynaud (Geneva, 1887), p. 256.

٢) انظر Sanuto in Bongars, vol. ii, pp. 23:, *seq.*

٣) وقد جردت حملات صليبية متأخرة على رودس وازمير والاسكندرية واراضي تركيا في اوربا انتهت بحملة نيكوبوليس في سنة ١٣٩٦ . انظر : A. S. Atiya, *The Crusade in the Later Middle Ages* (London, 1938) .

الفصل السادس والاربعون

العلاقات الثقافية

لما كانت الحروب الصليبية غنيّة بالوقائع الرائعة والحوادث النادرة كان من الطبيعي ان يُبالغ في أهميتها التاريخية . وقد كان أثرها ملموساً في الغرب اكثر مما كان في الشرق واقتصر من الناحية المدنيّة على الفن والصناعة والتجارة دون العلم والادب . اما في سورية فقد تركت هذه الحروب آثار الدمار والتلف وجاءت المماليك فزاد هذا الدمار بتخريبهم مدن الساحل التي كان الافرنج قد نزلوها . وكان مما ورثه الشرق الادنى عن هذه الحروب ذكريات التنافر بين المسلمين والنصارى والحزازات الدينية التي لم تنطفىء جذوتها بعد .

مآثر نور الدين وخلفائه

ولقد تمتعت سورية برغم الحروب الاهلية والدينية في عهد الدولة النورية والدولة الايوبية ـ وبنوع أخص في عهد نور الدين وصلاح الدين ـ بازهى حقبة من تاريخها الاسلامي باستثناء العصر الاموي . ولا تزال الى اليوم في دمشق مخلفات العمارات والمدارس التي انشأها ابناء هاتين الاسرتين . ولم يكتف نور الدين بترميم أسوار المدينة بما فيها من ابراج وابواب وبناء دُور للحكومة ظلت تستعمل حتى الايام الاخيرة بل أسس في دمشق اقدم مدرسة مختصة بعلم الحديث (١) . وانشأ البيمارستان الشهير المعروف باسمه والمدارس الاولى التي اخذت تزهو في البلاد في العصور التالية . وكان البيمارستان النوري (٢) ثاني مستشفيات دمشق بعد المستشفى الذي بناه الوليد وقد اصبح من بعد داراً لدراسة الطب (٣) . ولا يزال قائماً لليوم . اما

---

١) هي «دار الحديث النورية» وقد درس فيها في ذلك العصر ابن عساكر (ج١ ص ٢٢٢) .
٢) ابن جبير ص ٢٨٣؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٥٢١ .
٣) قابل ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٩٢ .

المدارس فكانت ملحقة بالمساجد وكان بعض الطلاب داخليين يأكلون فيها وقد روعي فيها الطراز الذي قامت عليه المدرسة النظامية. وهذه المدارس الملحقة بالمساجد انما كانت على المذهب الشافعي وقد أسسها نور الدين في حلب وحمص وحماة و بعلبك. وان الكتابات الموجودة على هذه الابنية وسواها من آثاره لذاتُ أهمية خاصة لدراسة علم الخط العربي حيث أنه حوالي هذا الزمن استبدل الخط الكوفي ذو الزوايا الهندسية الذي كان يستعمل على الابنية بالخط النسخي المدوّر. ولنور الدين كتابة على قلعة حلب لا تزال واضحةً الى اليوم. وما



قلعة حلب

نجده الآن من تحصينات في القلعة المذكورة في المدونات الاشورية والحثية - وهي تعدّ من روائع الابنية الحربية القديمة - فانه من ترميمات ذلك السلطان السوري. وان ضريحه في المدرسة التي انشأها - المدرسة النورية - بدمشق لا يزال موضوع احترام الناس حتى زمننا الحاضر. و بواسطة هذه المدرسة نفسها اخذت تجري في سورية عادة الجمع بين القبور الفخمة

والمساجد في بناء واحد (١) . وفي خلال حقبة المماليك التي كان الفن فيها تكملة للفن الايوبي صارت العادة المتبعة ان يدفن مؤسس كل مدرسة تحت قبة في ذلك البناء .

و بز صلاح الدين سلفه في الانفاق على البناء والتعليم وكان من سياسته مكافحة التشيع والميول الفاطمية بواسطة التربية والتعليم ومن هنا فقد اشتهر في انه يعد اعظم مشيد لدور العلم في الاسلام بعد نظام الملك وقد أصبحت دمشق في عصره مدينة المدارس . ولما زارها ابن جبير (٢) سنة ١١٨٤ أشار الى وجود عشرين مدرسة فيها و بيمارستانين مجانيين ورباطات او خوانق (٣) عديدة ، وقد ادخل صلاح الدين هذه الخوانق الى مصر ايضاً .

آثار الايوبيين

ويمثل الفن العربي المدرسي في المشرق عمارات دمشق وحلب التي يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر زمن الايوبيين وخلفائهم من اوائل المماليك (٤) . وقد نسج المماليك في مصر على منوال المدرسة الايوبية في العمارة السورية فاخرجوا ابدع ما يفاخر به الفن العربي. ومن مزايا المدرسة الايوبية القوة والمتانة . وعلى مادة البناء الصلبة فيها من الحجر الناعم يمكن ان تظهر ابسط المواضيع الزخرفية في منتهى الاناقة ولكنها كانت كالمدرسة الاندلسية تستند على قاعدة الاغراق في الزخرفة لاظهار ما فيها من سحر وجمال .

والى صلاح الدين يرجع الفضل في ادخال طراز المدرسة من بين معاهد العلم المختلفة ـ الى بيت المقدس ومصر (٥) . وفي عصره ايضاً شاهدت بلاد الحجاز اول معهد من هذا النوع . وفي مقدمة المدارس التي شيدها بمصر تلك التي سميت بالصلاحية (٦) في القاهرة على

---

١) انظر ص من هذا الكتاب .

٢) ص ٢٨٣ـ٤ .

٣) المفرد في العربية خانقاه من خانكاه الفارسية . السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٨ .

٤) René Grousset, *The Civilizations of the East*, vol. i, *The Near and Middle East*, tr. Catherine A. Phillips (New York, 1913), p. 235; M. van Berchem, *Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum*. pt. 2, vol. i (Cairo, 1922), pp. 87 *seq.*

٥) ابن خلكان ج ٣ ص ٥٢١ .

٦) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٧ـ٨ .

اسمه . ولقد وجد ابن جبير (١) في الاسكندرية عدة مدارس . ولئن لم تعش من هذه المدارس المصرية أي واحدة فان أثرها في فن العمارة واضح . فقد نجم عنها في السنين التالية ابدع العمارات في العهد العربي بمصر ومن افخمها الجامع المدرسي المعروف بجامع السلطان حسن في القاهرة . ويشتمل تصميمه العام عن صحن مربع داخلي مكشوف تلاصقه اربعة جدران واربعة ليوانات قائمة في شكل جانحي صليب . وكان التدريس يجري في كل ليوان بموجب مذهب من مذاهب السنّة الاربعة .

وقد تعهد صلاح الدين في القاهرة عدا المدارس بيمارستانين (٢) . والراجح ان البنائين وضعوا تصميمهما على طراز البيمارستان النوري في دمشق . وكان ابن طولون وكافور الاخشيدي قد انشأا في مصر قبل ذلك مؤسسات علمية شبيهة بهذه . وقد جرت عمارة البيمارستانات على غرار عمارة المساجد ولكن آثارها مطموسة اليوم . ولم يتخلف لنا آثار الا في دائرة العمارة الحربية وأهم هذه الآثار قلعة القاهرة ويتضح منها ان صلاح الدين اقتبس بعض معلوماته في التحصين عن القلاع النورمندية التي كانت قد ظهرت في ذلك الزمن في فلسطين . ولعله استخدم بعض الاسرى من النصارى في تشييدها . وقد اتخذ لنفسه مسكناً في هذه القلعة فكان يسكنه عند نزوله القاهرة يحيط به رجال العلم والفهم وكان من هؤلاء وزيراه اللامعان وطائفة من العلماء البارزين كطبيبه اليهودي الممتاز ابن ميمون والعالم العراقي البارع ذي القريحة المنتجة عبد اللطيف البغدادي (١١٦٢ - ١٢٣١) الذي ترك في وصف مصر (٣) رسالة وجيزة تعدّ في طليعة المؤلفات الطوبوغرافية في العصور الوسطى .

في العلم والفلسفة

وبرغم ما تجلى في عصر الصليبيين من الحركات الفكرية والعلمية فان الثقافة الاسلامية كانت قد انحطت في الشرق وكانت قوة الابتكار قد ماتت قبل ذلك العصر بزمن غير يسير .

---

١) ص ٤١-٤٢ .

٢) ابن جبير ص ٥١-٥٢ .

٣) الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر نشر هوايت (توبنغن ١٧٨٩) . ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٠٧ ؛ الكتبي ج ٢ ص ١٠ .

وكان الدهر قد أتى على مشاهير الاعلام في الفلسفة والطب والموسيقى وغيرها من الانظمة الفكرية والفنية . ومن هنا نستطيع ان نعلل ولو جزئياً كيف ان سورية التي تركزت فيها العلاقة بين الاسلام والنصرانية الغربية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر لم تصل الى درجة اسبانية او شمالي افريقية او حتى الامبراطورية البيزنطية من حيث نقل المؤثرات العربية الى الغرب . ومع ان الاسلام في سورية أثر في النصرانية الاوربية عن طريق اتصاله المباشر بالصليبيين وبواسطة اصداء ذلك الاتصال في الغرب وبواسطة ما رشح او تسرب عن طرق التجارة فان آثاره الروحية والفكرية لم تكن ملحوظة . وعلينا من الوجهة الاخرى ان نذكر ان ثقافة الافرنج في سورية كانت دون ثقافة اعدائهم وكانوا في الغالب عدا ذلك جماعات من العساكر الاجنبية نازلة في قلاع ومسالح وعلى اتصال وثيق بطبقة الفلاحين والصناع وليس بطبقة العلماء والمفكرين الراقين . زد على هذا انه قامت موانع قومية ودينية وعداوات متأصلة حالت دون تبادل الافكار والثقافات . ولم يكن عند الافرنج من العلم والفلسفة ما يعلمونه ابناء البلاد . اما المقابلة في الطب عند الفريقين فتمثلها بعض النوادر التي رواها اسامة ابن منقذ (١) بشيء من الفن واللباقة . وقد هزأ اسامة ايضاً من طرق الافرنج القضائية وكيف كانوا يعتمدون في محاكماتهم على المبارزة والرمي في الماء .

ولا يخلو الامر من حوادث أو امثلة صريحة تدل على انتقال الافكار العلمية والفلسفية . ففي القرن الثاني عشر وفد الى المشرق ادلارد اف باث الذي اسلفنا الاشارة الى ترجماته الفلكية والهندسية من المصادر العربية وزار انطاكية وطرسوس . وبعد نحو قرن زار مصر ليوناردو فيبوناتشي اول عالم بالجبر في اوربا وقد قدم رسالة في الاعداد المربعة لفردريك الثاني . وكان فردريك هذا طامعاً في التوفيق بين الاسلام والنصرانية وقد شمل برعايته عدة نقلة عن العربية . وترجم اسطفان الانطاكي وهو من اهل بيزا كتاب المجوسي الهام في الطب وذلك في انطاكية عام ١١٢٧ . وهذا هو المؤلف العربي الوحيد الذي حمله الافرنج معهم . ولما صرنا نرى عدداً من دور المعالجة والبيمارستانات وبنوع اخص من دور البرص تنشأ في القرن الثاني

(١) ص ١٣٢ وما يلي .

عشر في جميع انحاء اوربا اصبح من الجائز لنا الاستدلال على ان طريقة التداوي المنظم استمدت بعض حوافزها من الشرق الاسلامي . والى هذا الشرق نفسه يعود الفضل في استعادة اوربا للحمامات العمومية وقد كانت هذه الحمامات رائجة في عهد الرومان الا ان النصرانية لم تحبذها . وكان في انطاكية ايضاً ان عثر فيليب الطرابلسي في عام ١٢٤٧ على مخطوطة عربية هي « سر الاسرار » (١) وقد نسبت خطأ الى ارسطو وقيل انه أنشأها لارشاد تلميذه العظيم الاسكندر . فنقلها فيليب هذا الى اللاتينية فأصبحت اكثر كتب العصور الوسطى المتأخرة انتشاراً .

الآداب

وكان أثر الصلة في الآداب اوسع مدى . ففي الاساطير الموضوعة حول قصة الكأس التي استعملها المسيح في العشاء الاخير عناصر لا ريب في انها سورية الاصل . والراجح ان الصليبيين سمعوا قصص « كليلة ودمنة » فحملوها معهم الى اوطانهم . وما حكاية تشوسر Chaucer المسماة « *Squieres Tale* » الا قصة من « الف ليلة وليلة » . ومن الحكايات التي تنوقلت سماعاً استمد بوكاتشيو Boccaccio حكايات شرقية ادخلها في كتابه « ده كامرون » (*Decameron*). والى زمن الحروب الصليبية يعود اقبال الارساليات التبشيرية في اوربا على دراسة اللغة العربية وسواها من اللغات الاسلامية ونشوء رجال مثل ريموند لل « Raymond Lull » (المتوفى ١٣١٤) اقتنعوا من فشل الصليبيين بان الطرق الحربية لا تجدي فتيلاً في نشر الدين المسيحي . وكان لل من اهل كاتلونيا وهو اول اوربي سعى الى تشجيع الدراسات الشرقية واتخاذها واسطة لتجريد حملة صليبية سلمية يحل الاقناع فيها محل الارغام . وفي عام ١٢٧٦ اسس في ميرامار Miramar كلية للرهبان لدراسة اللغة العربية . والراجح انه هو الذي اثر على مجلس ڤينا حين قرر هذا في عام ١٣١١ ان ينتدب اساتذة لتدريس العربية والتترية في جامعات باريس ولوڤين وسلامنكا .

---

١) فهرست برنستون عدد ٧٧٩ ، ٧٨٠ .

في الحرب

اما في ميدان الحرب فقد كان الاثر كما هو منتظر اشد ظهوراً . فاستعمال النشابة المصلبة واتباع الفرسان عادة لبس الدروع والباسها دوابهم ايضاً واستعمال الوسائد القطنية تحت السلاح في اوربا ـ كانت كلها من اصل صليبي . وقد جرى الافرنج في سورية على استعمال الطنبور في جوقات الموسيقى الملحقة بالجيش ولم تكن تستعمل قبلاً الا البوق والصور . وقد تعلموا من اهل البلاد استخدام حمام الزاجل (١) لارسال المعلومات الحربية واقتبسوا عنهم عادة اشعال الانوار احتفالا بالظفر واجراء حفلات السبق ولعب الخيل ورمي الجريد . والواقع ان جانباً كبيراً من مبادىء الفروسية نشأ في سهول سورية . اما انتشار استعمال الاوسمة وشارات الفرسان فقد نتج عن الاحتكاك بالفرسان المسلمين . ونذكر من تلك الشارات النسر ذا الرأسين (٢) وزهرة الزنبق (٣) والمفتاحين فقد كانت من بعض عناصر الفروسية الاسلامية وشاراتها في تلك الحقبة . والراجح ان صلاح الدين كان قد اتخذ النسر شارة له كفارس وكان اكثر المماليك يسمون باسماء الحيوانات وقد زينوا رؤوسهم بصور تمثلها . وكان لامراء المماليك كتائب متنوعة قضت في ان تميز الواحدة عن الاخرى بواسطة الشارات النوعية (الرنكية) تنقش على التروس والاعلام والاوسمة والطراز . وكانت شارة بيبرس الاسد اسوة بابن طولون قبله . اما شارة السلطان برقوق (المتوفى ١٣٩٨) فالبازي . وقد ظهرت في اوربا الجبة العسكرية بشاراتها المختلفة (coat of arms) بشكلها الاولي في آخر القرن الحادي عشر . اما بدء حركة الفروسية في انكلترا فيرجع الى اوائل القرن الثاني عشر . ولعل النجمة والهلال والاسد والشمس هي كل ما تبقى من هذه الشارات . وتشهد لفظة azure (لازوردي) وسواها من الالفاظ المستعملة في لغة الفروسية على العلاقة بين هاتين الحركتين في اوربا والعالم الاسلامي .

---

١) صالح ابن يحيى، تاريخ بيروت نشر شيخو (بيروت، ١٨٩٨) ص ٦٠ ـ ٦١ ؛ الظاهري، زبدة كشف الممالك، نشر رافيس (باريس ، ١٨٩٤) ص ١١٦ ـ ١١٧ ؛ قابل السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٦ .

٢) ان نقود زنكي التي وجدت في سنجار تظهر هذا الرمز الذي يرجع الى ايام سومر القديمة .

٣) ان هذه الزهرة من اشهر عناصر الزخرفة وقد كانت معروفة في اشور L. A. Mayer, *Saracenic Heraldry : A. Survey* (Oxford, 1933), pp. 23-4.

البارود

وقد نشّطت هذه الحروب الصليبية ايضاً علم الحيل الحربية الحصارية وحسنته بما فيه من طرق الهدم واللغم واستخدام المجانيق والكبوش والاعتماد على انواع المشتعلات والمفرقعات. والظاهر أن البارود اخترع اما في سورية او في اوربا اللاتينية كما يُرجح وذلك في آخر هذه الحقبة. اما نسبة اختراعه الى الصين فلا دليل يؤيدها. ولكن لم يستعن بقوته الانفجارية لرمي القذائف اي لم تخترع الاسلحة النارية ـ وهي الأمر الذي يهم في هذا الصدد ـ قبل الربع الثاني من القرن الرابع عشر. ونجد اول وصفة اوربية لتركيب البارود في ذيل كتاب وضعه نحو سنة ١٣٠٠ رجل اسمه مارك الاغريقي. اما الوصفة المنسوبة الى باكن فمزورة. وقد ظهر حسن الرمّاح نجم الدين الاحدب قبل سنة ١٣٠٠ ولعله سوري فالف رسالة موضوعها « الفروسية والمناصب الحربية » [١] ورد فيها ذكر ملح البارود وهو من المواد التي يتكون منها البارود. وفي الرسالة وصفات مختصة بالمواد النارية بينها و بين الوصفات المنسوبة الى مارك شبه عظيم. ومن اقدم ما ورد من الاشارات الى استعمال البارود عبارات في كتاب العمري [٢] المتوفى ١٣٤٨.

في هندسة البناء

وقد نقل الصليبيون معهم الى المشرق من ايطاليا ونورمنديا فوائد كثيرة تتعلق باصول البناء الحربي وقد اوصلوا بعض هذا العلم الى العرب على ما يستدل من فن العمارة في قلعة القاهرة. اما أهم عمارات الصليبيين فالحصون والكنائس. ولا تزال قائمة حتى اليوم معظم قلاعهم ومنها حصن الاكراد والمرقب وشقيف ارنون. اما في بيت المقدس فان اقساماً من كنيسة القيامة و « اسطبلات سليمان » بالقرب من الجامع الاقصى وغيرها من الاسواق المسقوفة هي من عمل الصليبيين. ونشأت في الغرب ابنية اعتمد بناتها تقليد بعض المعابد ككنيسة القيامة وقبة الصخرة وهي من النوع المستدير ومنها اربعة موجودة في انكلترا

١) Reinaud and Favé, *Journal asiatique*, ser. 4, vol. xiv (1849), pp. 527-,327 vol. xii, pp. 193 *seq.*

٢) تعريف (القاهرة ، ١٣١٢) ص ٢٠٨ .

وغيرها في فرنسا واسبانية والمانيا . اما في بيروت فان المسجد العمري بناه بلدوين الاول سنة ١١١٠ وسماه كنيسة القديس يوحنا . والقنطرة الصليبية هي على العموم ذات شكل مروس والعقد بسيطة من النوع المصلب . واهم بقايا الفن الافرنجي في القاهرة بوابة اخذت سنة ١٢٩٣ من كنيسة بعكا وهي الآن في مسجد الناصر .

الزراعة والصناعة

أما في الزراعة والصناعة والتجارة فقد توصل الصليبيون الى نتائج اعظم مما وصلوا اليه في العلوم . منها انتشار نباتات جديدة في البلدان الواقعة في غربي البحر المتوسط مثل السمسم (١) والخروب والذرة البيضاء والارز والليمون والبطيخ والمشمش وبصل عسقلان «scallion» ولهذه النباتات اسماء اوربية محرفة عن لغات الشرق . اما المشمش فكان الغربيون يسمونه اول الأمر « خوخ دمشق » وظل معروفاً بهذا الاسم سنيناً كثيرة . وكذلك فان اشجاراً أخرى ومنتوجات شتى انتشرت في الحقبة نفسها في نواحي اسبانية الاسلامية وصقلية . ويصعب في بعض الحالات ان نقطع في هل كانت سورية هي الطريق لهذا الانتقال أم بلد آخر من هذين البلدين .

وفي اثناء اقامة الافرنج في بلاد الشرق اكتسبوا اسواقاً جديدة اخصها ما يتعلق بالروائح العطرية والتوابل والحلويات وسواها من حاصلات البلاد الحارة التي تمتاز بها بلاد العرب والهند والتي كانت اسواق سورية زاخرة بها . ثم ان هذه الاذواق الجديدة أدت فيما بعد الى انعاش التجارة في المدن الايطالية ومدن البحر المتوسط .فراجت أنواع البخور وسواها من صموغ الجزيرة العربية الزكية الرائحة ، وماء الورد الدمشقي ، والروائح العطرية التي امتازت بها دمشق وانواع من الزيوت والعطور الخفيفة الزكية الرائحة التي اشتهرت بها فارس واستطيبت كلها . ومن العقاقير الجديدة التي اخذوا يعرفونها حجر الشب والند . وعند الاستيلاء على قيسارية في سنة ١١٠١ استلم الجنويون فيما يروى اكثر من ستة عشر الف ليبرة من الفلفل كحصة من الغنائم التي اصابتهم . وقد اخذ يشيع استعمال كبش القرنفل

١) اللفظة من اصل اشوري وقد انتقلت بواسطة اليونانية .

بانواعه والتوابل الزكية والطيوب وسواها من التوابل في الغرب خلال القرن الثاني عشر، ومنذ ذلك العهد اصبحت الوان الطعام لا تستقيم في اي مأدبة دون أن يكون بينها مأكولات دخلت فيها التوابل . وقد تعرف الصليبيون في مصر الى الزنجبيل واخذوا يضيفونه الى الوان طعامهم . وكان اهم من كل هذا السكر فقد كان الاوربيون قبلاً يستخدمون العسل لتحلية اطعمتهم . وعلى ساحل سورية حيث لا يزال الصبية الى اليوم يمصون قصب السكر تعرّف الافرنج الى هذا النبات الذي اخذ منذ ذلك الحين يلعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية وفي تركيب الوصفات الطبية . وقد ظهر وليم الصوري [١] (المتوفى نحو ١١٩٠) وكان يحسن العربية والف افضل بيان طبي للحروب الصليبية (من سنة ١٠٩٥ ـ ١١٨٤) فترك لنا معلومات قيمة في شأن مزارع قصب السكر في مسقط رأسه . وهكذا فقد كان السكر اول الأطايب التي ادخلت الى الغرب ولم تجد الاذواق الغربية مطعماً اطيب منه . وقد ادخل معه الاشربة الخفيفة والماء الممزوج بخلاصة الورد والبنفسج وسواهما من الزهور العطرة وجميع انواع القندى والحلويات وقد نقلت مع معظم هذه المواد اسماؤها العربية الى لغات الافرنج .

النواعير

ظهرت الطواحين الهوائية لاول مرة في نورمنديا سنة ١١٨٠ وهي تنم عن اصل صليبي ولقد كانت النواعير معروفة في اوربا قبل هذه الحقبة ولكن الصليبيين عادوا الى الغرب ومعهم نوع مستحدث منها . وهذا النوع سوري لا تزال نماذج منه تستعمل في المانيا بنواحي بيروت . اما نشوؤه في سورية فراجع الى ايام الرومان مع ان المهندسين العرب حسنوا صنفه كقيصر ابن مسافر تعاسيف (المتوفى ١٢٥١) [٢] المصري الذي كان في خدمة حاكم حماة وهو صانع كرة سماوية [٣] تعد اقدم ما خلفه العرب من هذه الآلة باستثناء واحدة

---

١) « Historia rerum » in *Recueil : occidentaux*, vol. i, p. 559; Jacques de Vitry, « Historia Hierosolimitana », in Bongars, p. 1075.

٢) في ابن بطوطة ج ٤ ص ٢٥٥ اشارة الى النواعير في كانتون ، الصين .

٣) هي الآن في المتحف الوطني بنابولي .

فقط . ومنذ عصر ياقوت (١) (المتوفى ١٢٢٩) وابي الفداء (٢) (المتوفى ١٣٣١) كانت حماة مشهورة بنواعيرها — تلك الدواليب التي نامت على انينها المتواصل اجيال لا تحصى من الحمويين وهي لا تزال الى يومنا من امجاد تلك المدينة .

ولم تكن كل الاذواق الجديدة التي اكتسبها الغربيون مقتصرة على المآكل . ففي مضمار الازياء والملابس وأثاث المنازل نشأت عندهم مطالب وعادات جديدة . وانتشرت في ذلك العهد عادة تربية اللحى . وأدخل الصليبيون العائدون الى اوطانهم انواع البسط والسجاجيد والانسجة الموشاة التي امتازت بها آسية الغربية والوسطى مدة طويلة . اما الاقمشة الموصلية والبغدادية (baldachin) والدمشقية (damask) والشرقية (sarcenet) والاطلسية والمخملية والحريرية والزيتونية (٣) فقد كان اقبال الناس عليها عظيما . واصبحت الحلي التي كان يصوغها اليهود في دمشق والقاهرة مع ادوات الحمام والمساحيق رائجة مرغوبة . وصنعت المرايا الزجاجية المطلية القفا بغشاء معدني فاحتلت مكان الفولاذ الصقيل المستعمل حتى ذلك العهد . وشاع بين الناس استعمال المخملة وانواع الفرو والوبر وشاعت السبحة . وارسل الحجاج الاوربيون الى اوطانهم صناديق عربية تحفظ فيها الذخائر النصرانية . وانتقل مع الملابس الانيقة والمصنوعات المعدنية محلول اللك في الكحل والاصباغ النيلية والالوان الجديدة كالليلك والقرمزي (٤) . وظهرت بالتدريج مراكز في اوربا لصناعة الخزف والسجاد والانسجة تقليداً لما في الشرق من اقمشة . من ذلك ما نشأ في مدينة أراس التي صارت منسوجاتها عزيزة مرغوبة . اما الشبابيك الزجاجية الملونة فان استعمالها اخذ يشيع يومئذ في الكنائس . ولقد ذكر بنيامين التوديلي (٥) الذي زار انطاكية في عهد الافرنج صناعة الزجاج فيها . اما المصنوعات الفنية الشرقية في الزجاج والفخار والذهب والفضة والميناء فقد اصبحت نماذج لمصنوعات اوربا .

---

١) ج ٢ ص ٣٣١ .
٢) تقويم ص ٢٦٣ .
٣) لفظة « زيتوني » العربية هي تحريف « تسوثونغ » وهو اسم مدينة في الصين كان الحرير يستجاب منها .
٤) وقد نقل الافرنج اسماء هذه الالوان الى لغاتهم .
٥) Tr. Asher, p. 58.

التجارة

وان ظهور اسواق جديدة في اوربا لمنتوجات الزراعة الشرقية والبضائع الصناعية وضرورة نقل الحجاج والصليبيين في اسفارهم ذهاباً واياباً قد نشطا حركة الملاحة البحريـة والتجارة العالمية الى درجة لم تكن معروفة منذ العهد الروماني . فأخذت مرسيليا تزاحم مدن ايطاليا ـ الجمهوريات المستقلة ـ كمركز لشحن البضائع واخذت تشاركها في الثروة الناجمـة عن تلك الحركة . وقد اوجبت الحاجات المادية الناشئة عن تطور الحال ايجـاد اوفر كمية من النقـد وتداولاً فيه اسرع وأعم فنتج عن ذلك طريقة استعمال الحوالات المالية . وظهرت شركات الصيارفة في جنوى و بيزا وصار لها فروع في المشرق . وصارت الفرسان الداوية تستعمل الصكوك المالية وتأخذ الاموال المستودعة اليها وتديّن المال وتتقاضى عنه الربا . ولعل اقـدم النقود الذهبية التي سكها اللاتين تلك التي ضربها البندقيون في البلاد المقدسة حاملة كتابة عربية . وظهرت لأول مرة وظيفة القنصل وهي في الاصل وظيفة تجاريـة لا سياسية . واول قنـاصل التاريخ كانوا من اهـالي جنوى ارسلتهم دولتهم الى عكا عام ١١٨٠ . ثم تلاهم اولئك الذين ارسلوا الى مصر .

الحك

كان الحك من الاختراعات الخطيرة التي لها علاقـة بهذه الحركة الصليبية البحرية . والراجح ان الصينيين هم اول من اكتشف ما للابرة المغناطيسية من طبيعة الاتجاه الى جهـة معينة . ولكن المسلمين الذين سبق لهم في عصر متقـدم ان تعاطوا التجارة مـا بين الخليج الفارسي و بحـار الشرق الاقصى كانوا اول من وضع ذلك الاكتشاف في حـيز العمل اذ استخدموا الابرة في الملاحة . وقد جرى ذلك في أغلب الظن في القرن الحادي عشر او قبـله ولكن الاسباب التجارية قضت بحفظه سراً . وكان بحارو ايطاليا هم اول من استعمل الحك في اوربا . والواقع ان استعماله كان قبيل ورود ذكره في المؤلفات واولها كتاب اسلامي جمعت فيه نوادر فارسية تحت موضوع « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » (١) صنفه محمود العوفي

(١) انظر Muhammad Nizâmu' d-Din, *Introduction to the Jawâmi'* ... (London, 1929), p. 251.

نحو عام ١٢٣٠ . ففي احدى قصصه ان المؤلف وهو بحار استدل عن ناحية مسيره بواسطة سمكة حكها بقطعة مغناطيس . واول اشارة الى الحك في المصادر اللاتينية ترجع الى اوائل القرن الثالث عشر اي قبل الاشارة الفارسية المذكورة .

امتزاج الشعبين

يصعب تعيين عدد الافرنج الذين اذابتهم سورية ومنها فلسطين وهضمتهم وجعلتهم قسماً من كيانها القومي . وليس غريباً اليوم مشاهدة عدد من الناس من ذوي العيون الزرق والشعر الاشقر في مدن مثل اهدن في شمالي لبنان و بيت لحم والعريش . وهناك أسر اغلبها لبنانية نصرانية مثل عائلة كرم وفرنجية وصليبي قد حفظت تقاليد تحدرها عن اسلاف افرنج . ويقال ان اسماء بعض الأسر الاخرى كصوايا مأخوذ من سافوا «Savoie» والدويهي من ده دُوَي «de Douai» . اما بردويل فليس من شك انه تحريف بلدوين «Baldwin» ويظهر الاسم الأخير في اسماء الاماكن في فلسطين وسيناء . ومن اسماء القرى بفلسطين سنجل التي خلدت اسم سانت جيل «Saint Gilles» وقرية أخرى هي الرينة من رنود «Renaud» اما ادعاء بعض الدروز ان اسمهم ذو علاقة بالكونت ده درو «de Dreux» فانه وهم شائع لا يقره اساس علمي (١) .

(١ Hitti, *Druze People*, p. 15.

الفصل السابع والأربعون

المماليك آخر دول العالم العربي في العصور الوسطى

يصعب على المرء ان يتصور في غير التاريخ الاسلامي نشوء دولة كالمماليك و بلوغها اوج الفلاح . حتى في العصور الاسلامية فان نشوء هذه الدولة لامر عجيب يكاد ان يكون فريداً في بابه . فالمماليك كما يدل اسمهم دولة انشأها ارقاء مختلفو الاجناس والقوميات جعلوا من انفسهم طبقة عسكرية حاكمة في بلاد غريبة . وقد أفلح هؤلاء السلاطين الارقاء فى تطهير مملكتهم المصرية السورية من بقايا الصليبيين . وصدوا الى الابد تقدم جيوش المغول المخيفة التي قادها هولاكو وتيمور . ولولا المماليك لكانت هذه الجيوش قد غيرت مجرى التاريخ والثقافة في غربي آسية ومصر . و بذلك وفرت هذه الدولة على مصر الويلات التي نزلت بسورية والعراق ومهدت للبلاد سبيل التنعم بثقافة متصلة وانظمة سياسية مستمرة لم تتحقق لاي بلد اسلامي خارج الجزيرة العربية . وقد سيطر المماليك نحو مئتين وسبعين سنة (١٢٥٠ - ١٥١٧) على بقعة كانت من اكثر البقاع فتناً واضطراباً وحافظوا طوال تلك الحقبة على مميزاتهم الجنسية . ومع انهم كانوا بوجه عام دون ثقافة وقساة سفاكي دماء فان عنايتهم بالفن والعمارة كانت تعادل عناية اي دولة متمدنة ، وقد جعلت القاهرة الى اليوم من اجمل البقع في العالم الاسلامي . واخيراً قام السلطان سليم العثماني فغلبهم على امرهم سنة ١٥١٧ و بذلك سقطت آخر الدويلات المحلية التي نشأت على انقاض الخلافة العربية ومُهد السبيل لقيام خلافة جديدة غير عربية هي خلافة الأتراك العثمانيين .

نشوء الدولة

ولقد وضع اساس سلطنة المماليك امرأة هي شجر الدر ارملة الصالح الايوبي (المتوفى

١٢٤٩) وقد كانت في اول نشأتها امة تركية او ارمنية ثم صارت جارية للخليفة المستعصم وبعدئذ دخلت في جواري الصالح فأعتقها بعد ان ولدت له صبياً . ولما وليت الحكم ارسل سيدها السابق الخليفة يعاتب امراء مصر في ذلك قائلاً : « ان كان ما بقي عندكم رجل تولونه فقولوا لنا لنرسل اليكم رجلاً » [١]. واقامت شجر الدر في السلطنة ثمانين يوماً وهي المرأة المسلمة الوحيدة التي حكمت بلاداً في شمالي افريقية وغربي آسية وظلت تمارس سلطتها المطلقة في تلك البلدان التي انجبت فيما مضى من العصور كليوباطرة وزنوبيا . وضربت النقود باسمها [٢] وامرت بان يُخطب لها يوم الجمعة من على المنابر . ولما اختار الامراء شريكها وقائد جيشها اتابك العسكر عز الدين ايبك [٣] سلطاناً تزوجت منه . وانصرف ايبك في اوائل سني ملكه الى سحق الحزب الايوبي المطالب بالملك في سورية فخلع الاشرف وهو طفل وتخلص من قائده الخاص الذي كان قد امتاز في جهاده ضد لويس التاسع . ولم تكتف السلطانة في اثناء ذلك كله بمشاركة ايبك في الملك بل سعت الى فرض ارادتها عليه . ولما بلغها انه يريد الزواج من امرأة ثانية دبرت له مكيدة قُتل بها في الحمام الملكي بقلعة القاهرة بعد عودته من لعب الكرة . غير ان شجر الدر نفسها لم يطل عمرها بعد ذلك اذ قُتلت هي بدورها بايدي جواري زوجة ايبك الاولى ضرباً بالقباقيب وطُرحت جثتها من برج القلعة [٤] .

المماليك البحرية والبرجية

كان ايبك (١٢٥٠ ـ ٥٧) اول سلاطين المماليك وهم ينقسمون عادة الى دولتين : البحرية (١٢٥٠ ـ ١٣٩٠) والبرجية (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) وكان اصل المماليك البحرية من الحرس الذين كان اشتراهم الصالح الايوبي [٥] واسكنهم في ثكنات بجزيرة الروضة في

---

١) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩ .
٢) باستثناء بعض النقود المضروبة في الهند وفارس فهذه فريدة من حيث ظهور اسم امرأة مسلمة عليها .
٣) كان تركياً كابدل اسمه (اي=قمر + بك=امير) Maqrizi, tr. Quatremère, vol. i. (pt. 1), p.1.
٤) المصدر نفسه ص ٧٢ ؛ خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٣٧ ؛ ابو الفداء ج ٣ ص ٢٠١ .
٥) ابو الفداء ج ٣ ص ١٨٨ ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧٣ .

النيل (١) . وكان اكثرهم من الترك والمغول (٢) . وقد سار الايوبيون على خطة خلفاء بغداد واتبعوا سياسة استخدام الارقاء الاجانب حرساً فجنوا من جراء ذلك ماجناه بنو العباس واصبح الارقاء قواد الجيش ثم صاروا سلاطين الدولة بعدئذ .

اما المماليك البرجية فقد جيء بهم الى مصر بعد البحرية . وكانوا في اول امرهم ايضاً حرساً خاصاً ولكن لمملوك هو قلاوون (١٢٧٩ ـ ٩٠) من سلاطين المماليك البحرية وكان معظمهم ارقاء شراكسة وكانوا يقيمون في ابراج القلعة بالقاهرة . وكان عدد السلاطين البحرية اربعة وعشرين (٣) باستثناء الملكة شجر الدر . اما البرجية فقد كانوا ثلاثة وعشرين . ولم يقرّ المماليك البرجية قاعدة الاستخلاف الوراثية ولا مارسوا عادة محاباة الاقرباء واختصاصهم بالولاية بل كان عرشهم ملكاً لمن استطاع ان يغلب منافسيه عليه او لمن قدر على اقناع الامراء بانتخابه . وكثيراً ما حدث في الدولتين البحرية والبرجية ان تبوأ العرش عند موت السلطان احد مماليكه لا احد ابنائه . وكان من سلاطينهم نفر كبير لاقوا حتفهم قتلاً وهم صغار السن . وكان معدل السنين التي ملكها الواحد منهم لا يزيد عن الست .

صد الايوبيين

وكان اول ما ترتب على الدولة الجديدة جمع شمل المملكة والذبّ عن تخومها . وقد قضى ايبك معظم ايامه في ساحة القتال في سورية وفلسطين ومصر . وتمكن المظفر سيف الدين قطز (١٢٥٩ ـ ٦٠) وهو لا يزال نائب السلطنة ان يرد هجوم السلطان الايوبي الزاحف عليه من الكرك . ثم خلع المنصور علي ابن ايبك واغتصب العرش لنفسه . وكانت الأسرة الايوبية في سورية تدعي انها الوارثة الشرعية لملك اقربائها في مصر . ولم يكد قطز يرد الايوبيين عن مصر حتى وصل جيش هولاكو التتري بقيادة كتبغا الى سورية وهدد

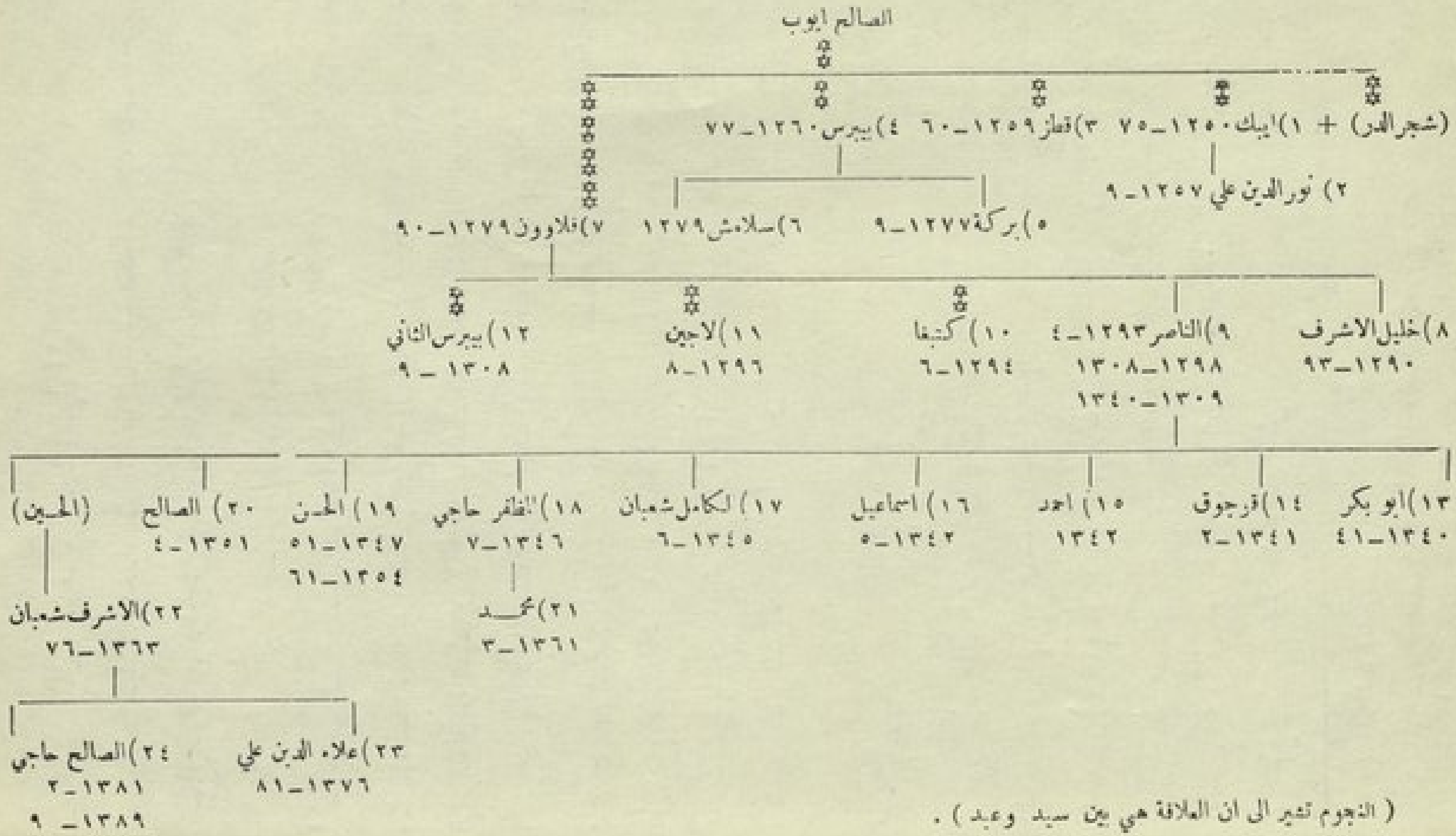
---

١) البحر عند العامة .

٢) ابن خلدون ج ٥ ص ٣٦٩ والسيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٠ يسميانهم « دولة الاتراك » .

٣) انظر في الصفحة التالية شجرة المماليك البحرية .

المماليك البحرية



(النجوم تشير الى ان العلاقة هي بين سيد وعبد) .

مصر . اما رسل هولاكو [١] الى قطز فقد لاقوا حتفهم قتلاً على يده ثم حسم الخلاف بين الفريقين في وقعة عين جالوت (١٢٦٠) وقد تولى بيبرس في هذه المعركة قيادة طليعة الجيش المصري وابلى بلاءً حسناً ، ولكن قطز تولى قيادة الجيش بنفسه قبيل انتهاء القتال. وانهزم جيش التتر وقتل قائده كتبغا وعدد من الزعماء . و بذلك سلمت مصر من الدمار الذي حل بجارتها سورية عندما وطأها التتر ، واحتل المماليك سورية . وكان بيبرس يأمل ان ينال حلباً مكافئة له على بلائه في الحرب ولكن السلطان قطز خذله . ولما كان قطز عائداً من سورية الى الديار المصرية اتفق بيبرس مع مملوك على قتله . وكان قطز في الصيد هو و بيبرس فاهوى المملوك على يد قطز يقبلها وقبض عليها فحمل بيبرس على قطز ووجأه بالسيف في عنقه فقتله (٢٤ تشرين الاول ١٢٦٠) [٢] وخلفه في السلطنة . وكان قطز يدعي انه حفيد اخت احد شاهات خوارزم [٣] ويقال ان التتر قبضوا عليه ثم باعوه في دمشق حيث اشتراه أيبك .

بيبرس

كان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (١٢٦٠ – ٧٧) اعظم سلاطين المماليك واشدهم . وقد كان في الاصل رقيقاً تركياً اشتراه في صغره احد اهالي دمشق بثمانمئة درهم ثم ارجعه لصاحبه لعيبٍ في احدى عينيه الزرقاوين . اما نعته بالبندقداري فنسبة الى مولاه البندقدار (الرامي بالنشاب) الذي كان عنده في حماة قبل ان يشتريه الصالح الايوبي [٤] . وقد انتدبه الصالح اولا لقيادة جماعة من حرسه الخاص ثم ارتقى من هذه الوظيفة الى اعلى منصب في البلاد . وكان طويل القامة اسمر اللون جهوري الصوت شجاعاً نشيطاً يمتاز بصفات الزعامة .

ويعتبر بيبرس اول المماليك العظماء ومؤسس سلطان المماليك الحقيقي . وقد فاز في اول

---

١) ان الكتاب الذي حملوه محفوظ نصه في المقريزي ، السلوك ترجمة كاترمير vol.i(pt.1),pp.101-2.
٢) ابو الفداء ج ٣ ص ٢١٦ ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٨٠؛ قابل المقريزي المصدر نفسه p. 113
٣) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٠ .
٤) ابو الفداء ج ٤ ص ١١ ؛ الكتبي ج ١ ص ١٠٩ .

عهده في قهره المغول في عين جالوت كما اسلفنا . وتستند عظمته بالاكثر الى الحملات الموفقة التي جرّدها على الصليبيين ـ تلك الحملات التي كسرت ظهر المقاومة الافرنجية ومهدت السبيل للانتصارات الاخيرة التي جناها خلفاه قلاوون والاشرف . بل قد تسنى له في احدى غاراته الاخيرة في شمال سورية ان قضى على سطوة الحشاشين قضاءً ابدياً . وفي الوقت نفسه قام قواده بنشر سلطانه غرباً على البربر وجنوباً على النوبة (١) التي اصبحت بعد هذا تحت حكم السلطة المصرية الدائم .

ولم يكن بيبرس رجل حرب فحسب ولم تنحصر امجاده في تنظيمه الجيش وتعميره الاسطول وتحصينه قلاع سورية فقط بل تجاوز ذلك الى حفر الاقنية وتحسين الموانىء وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصلحة بريد منظم سريع يصل بين المدينتين في اربعة ايام . وكانت الخيل تقف على أهبة الجري في شوطها في كل محطة للبريد . وقد تمكن السلطان من لعب البولو في كلتا العاصمتين خلال اسبوع واحد . وقد اتقن المماليك عدا البريد العادي مصلحة استعمال الحمام الزاجل وكان يربى منذ أيام الفاطميين وتحفظ أنسابه في سجلات خاصة ونشّط بيبرس الاشغال العامة وحسن الجوامع وانشأ المؤسسات الدينية والخيرية . اما الابنية التي شيدها (٢) فلا يزال باقياً منها الجامع الكبير (١٢٦٩) والمدرسة التي تحمل اسمه . وقد جعل نابليون هذا الجامع قلعة ثم اصبحت القلعة فيما بعد مستودع ارزاق لجيش الاحتلال البريطاني . وتقوم المكتبة الظاهرية في دمشق اليوم في بناء شيّده هذا العاهل ودفن تحت قبته . وكان بيبرس اول سلطان بمصر عيّن اربعة قضاة يمثلون مذاهب السنة الاربعة . ورتب امور المحمل المصري على أسس منظمة دائمة . وكانت حياته التي جرى فيها على طريق السنّة وغيرته الدينية والمجد الذي أكسبه الاسلام في جهاده من الامور التي جعلت اسمه صنواً لاسم هارون الرشيد . وقد لمع صيته في الاساطير والأدب الشعبي اكثر مما لمع صيت صلاح الدين . ولا يزال الاقبال الى اليوم في الشرق العربي على « سيرة بيبرس » و « سيرة عنتر » اشد

---

١) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٠٠ .

٢) راجع الكتبي ج ١ ص ١١٣ — ١٥ .

من الاقبال على « الف ليلة وليلة » .

ومن مميزات عهد بيبرس المحالفات العديدة التي عقدها مع ملوك المغول وملوك اوربا . ومنها محالفة عقدها بعد تقلده السلطنة بمدة يسيرة مع زعيم خانات المغول في قبشاق من وادي الفولكا. وكانت تلك السياسة نتيجة اتفاق مصلحة الجانبين على معاداة ايلخانات فارس. وسارت رسل مصر بطريق القسطنطينية حيث أباح ميخائيل باليو لوغوس (Michael Palaeologus) عدو المسيحية اللاتينية للمصريين ترميم الجامع القديم الذي كان الصليبيون قد اتلفوه خلال احتلالهم تلك المدينة . وارسل بيبرس تلبية لطلب الامبراطور ـ بطريركاً للقسطنطينية يرعى شؤون النصارى الملكيين فيها وفي ملحقاتها . وامضى اتفاقات تجارية مع شارل ده آنجو (١٢٦٤) ملك صقلية وشقيق لويس التاسع كما أمضى اتفاقات مع جايمس ملك اراغون والفونسو ملك اشبيلية .

مسألة الخلافة

ومن ابهر الحوادث في ملك بيبرس اقدامه على تجديد الخلافة العباسية وتكريسه سلسلة من الخلفاء حكموا بالاسم . وكان قصده من ذلك ان يجعل سلطته شرعية ويكسب بلاطه تفوقاً في نظر بقية الاقطار الاسلامية ويقمع الفتن التي كان يوقدها بمصر العلويون منذ ايام الفاطميين . وقد استقدم لهذا الامر من دمشق في حزيران ١٢٦١ عم المستعصم آخر خلفاء بغداد العباسيين وابن الخليفة الظاهر وكان قد نجا من مذبحة بغداد وجعله خليفة . وبايع له بيبرس والناس على طبقاتهم وكتب الى النواحي بأخذ البيعة له والخطبة على المنابر ونقش اسمه في السكة . واتخذ الخليفة لقب المستنصر [١] وكان قدومه الى مصر من سورية صحبة جماعة من امراء الاعراب . وخرج السلطان للقائه ومعه الوزير والعلماء والاعيان والشهود والمؤذنون وتلقوه وكان يوماً مشهوداً وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ودخل من باب النصر

١) المقريزي ترجمة كاترمير Quatremère, vol. i (pt.1), pp. 146–68 ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٨٢ـ٣ ؛ ابو الفداء ج ٣ ص ٢٢٢ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٩ـ٥٢ ؛ ابن اياس ج ١ ص ١٠٠ـ١٠١ .

بابهة عظيمة . واثبت نسب الخليفة واشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة امام قاضي القضاة ومجلس العلماء . ثم جاء دور السلطان فألبسه الخليفة بيده شارات السلطنة وفوض اليه الامور في البلاد الاسلامية وقلده على مصر وسورية وديار بكر والحجاز واليمن والبلاد الفراتية . وتوجه بيبرس بعد ثلاثة اشهر من القاهرة ومعه الخليفة الى المشرق طمعاً في اعادة بغداد الى املاك الخلافة ولكنه لم يرافقه الا الى دمشق فودعه فيها وعاد الى مصر وقبل ان يصل المستنصر الى بغداد أغار عليه حاكم المغول ببغداد في الصحراء فكان ذلك آخر عهد به .

وبعد سنة وصل القاهرة عباسي آخر فبايعه بيبرس ولُقب بالخليفة الحاكم وتعاقب بنوه على كرسي الخلافة مدة قرنين ونصف القرن وليس لهم منها الا الاسم وقد قنعوا بنقش اسمائهم في السكة والخطبة لهم من على منابر مصر وسورية . وباستثناء واحدمنهم فانه لم يُخطب لهم من على منابر مكة قط . وانحصرت واجباتهم في ادارة شؤون الاوقاف والتصدر في الاحتفال بتثبيت السلطان . وقد استلم منهم وثائق التقليد في الولاية بعض الامراء المسلمين من حكام الهند والسلطان العثماني بايزيد الاول (١٣٩٤) ولكن هذه الوثائق هي في الواقع دون قيمة . وفي عام ١٤١٢ عند وفاة السلطان الناصر البرجي اعلن الخليفة العادل المستعين نفسه سلطاناً فحكم بضعة ايام الى ان خلعه المؤيد شيخ (١٤١٢–٢١)[١] . ومن الخلفاء من عُزل بحجة عدم الوفاء للسلطان علي البحري (١٣٧٦ – ٨١) ولبرقوق (١٣٨٢ – ٩٨) واينال (١٤٥٣ – ٦٠) البرجيين . وعندما انتزع السلطان سليم العثماني مصر في عام ١٥١٧ من ايدي المماليك نقل معه الى القسطنطينية الخليفة المتوكل آخر هذه الاسرة .

قلاوون

يُعتبر الملك المنصور سيف الدين قلاوون (١٢٧٩ – ٩٠) اعظم سلاطين المماليك بعد بيبرس . وهو مثل بيبرس من حيث الاصل رقيق تركي من قبشاق جيء به في حداثته الى مصر وبيع للصالح ايضاً حسبما يستدل من نسبته – الصالحي . اما نسبته الاخرى – الالفي –

---

١) ابن تغري بردي ج ٦ قسم ٢ ص ٢٦٧ – ٨ ، ٣٠٣ – ٢١ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨ – ٧١ ؛ ابن اياس ج ١ ص ٣٥٧ – ٩ .

فاشارة الى انه اشتري بالف دينار (١). وفي ذلك ما يدل على ان هؤلاء السلاطين لم يأنفوا من ذكر اصلهم الوضيع. وقد استولى قلاوون على العرش بعد ان خلع سلامش (١٢٧٩) ابن بيبرس وكان هذا ابن سبع سنين وكان قلاوون وصياً عليه. اما سلامش فقد ملك بعد اخيه بركة (١٢٧٧ ـ ٩) المتهتك الذي خلع نفسه وله من العمر سبع عشرة سنة. وتفرد قلاوون بين المماليك في انه السلطان الوحيد الذي دامت السلطنة في ذريته اربعة اجيال. وكان آخر المماليك البحرية الصالح حاجي ابن حفيد لقلاوون.

وما كاد يستوي قلاوون على العرش حتى قام ايلخانات المغول الفرس يهددون نفوذه في سورية. وكان من هؤلاء اباقا (١٢٦٥ـ٨١) ابن هولاكو وخلفه وارغون (١٢٨٤ـ٩١) ابن اباقا قد عرفا بميول نصرانية فاتصلا بالبابا وملوك اوربا وحثاهم على تجريد حملة صليبية ترمي الى اقصاء المصريين عن سورية. على ان ذلك لم يتحقق فان جيش اباقا على كثرة عدده وانضمام الارمن والافرنج والكرج اليه قد انكسر في عام ١٢٨٠ عند حمص (٢). وبعد هذا بامد يسير اعتنق المغول الاسلام. ونشط السلطان الى تقوية العلاقات الودية بينه وبين قبائل التتر المسماة بـ «القوم الذهبي» وامبراطور بيزنطة وجمهورية جنوى وملوك فرنسا وكاستيل وصقلية. حتى امير سيلان فانه ارسل الى بلاط القاهرة رسلاً معهم كتاب لم يستطع احد في القاهرة ان يقرأه. اما ارمينية الصغرى فقد نهبها قلاوون اقتصاصاً لما قام به اهلها من مساعدة المغول ثم فتح قلاع الصليبيين ايضاً. ودك ابنية طرابلس الى الارض ولكن اعيد بناؤها بعد بضع سنين انما في غير موضعها السابق بل على بعد عدة اميال من البحر في الموقع الذي تظهر فيه اليوم على ضفتي نهر ابي علي (قاديشا). واصدر قلاوون في آخر عهده الاوامر مانعاً استخدام رعاياه النصارى في مناصب الدولة.

مستشفى قلاوون المعروف بالمارستان المنصوري

وامتاز قلاوون في ميادين اخرى فقد أعاد بناء قلاع حلب وبعلبك ودمشق وابتنى في

١) السيوطي، حسن المحاضرة ج٢ ص ٨٠ ؛ المقريزي ترجمة كاترمير vol. ii (pt. 3), p.1
٢) ابو الفداء ج٤ ص١٥ـ١٦ ؛ المقريزي ترجمة كاترمير . vol. ii (pt. 3), pp. 36—40

القاهرة مستشفى ملحقاً بجامع ومدرسة وعمّر قبة[1] لا يزال عليها الى اليوم آثار من التوشية العربية والفسيفساء الرخامي النفيس . غير ان البيمارستان المعروف بالمارستان المنصوري هو اعظم مآثره في البناء . وتعد آثار هذا البيمارستان اقدم ما وصل الينا من البيمارستانات الاسلامية . وقد قيل انه اوحي الى السلطان ان يبني هذا البيمارستان خلال اقامته في البيمارستان النوري في دمشق مصاباً بوجع البطن فنذر ان ينشىء مثله في القاهرة اذا أبلّ من مرضه . وقد أكمل البناء ومنه المستشفى الرئيسي والاجنحة الملحقة به والجامع والمدرسة عام ١٢٨٤ . وكان في المستشفى اقسام خاصة يُفصل المرضى فيها حسب امراضهم فالحميات في مكان خاص وهكذا الرمد والاسهال وغيرها . وفيه مختبرات وصيدلية وحمامات ومطابخ ومخازن . وكان رئيس الطبابة فيه يلقي الدروس في غرفة مجهزة باللوازم . وكان للمستشفى وقف يدر عليه ما يزيد عن مليون درهم في السنة وفيه خَدَمة من الرجال والنساء وابوابه مفتوحة لمداواة المرضى من الجنسين[2] . وبلغ من مساعدة هذا السلطان للطب واتصاله الشديد بامر معالجة المرضى وشفائهم ان اصبحت جبته المحفوظة في قبته بعد وفاته مقصد الالوف من الاولاد الخرس والنساء العاقرات والموبوئين يلمسونها مؤملين ان ينالوا الشفاء بمجرد لمسها .

الاشرف

اما ابن قلاوون وخلفه الملك الاشرف خليل (١٢٩٠ ـ ٩٣) فقد كانت مفخرته الوحيدة فتح عكا في ايار عام ١٢٩١ . وقد نجم عن فتحها سقوط المرافىء القليلة الباقية في قبضة الافرنج. وساد سكون حزين موحش على منطقة الساحل كلها ـ تلك المنطقة التي كانت تعج بالحوادث وتردد اصداء الحوار العالي[3] . وفي سنة ١٣٠٢ قام الناصر بعد الاشرف وهو اخوه الاصغر فقهر الداوية الذين كانوا قد تمركزوا المرة الاخيرة في جزيره ارواد قبالة

---

١) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٠٣ .
٢) المقريزي ، الخطط ج ٢ ص ٤٠٦ ـ ٧ .
٣) Gibbon, *Decline*, ed. Bury, vol. vi, p. 365

الشاطىء السوري وطردهم منها بعد ان معن فيهم تقتيلاً .

صد المغول

كان الملك الناصر محمد يشاطر المتمسك فضل التفرد في انه ارتقى كرسي الملك في ثلاث دورات : ١٢٩٣ – ٤ ، ١٢٩٨ – ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ – ٤٠ . وقد كان في سن التاسعة اول ما اعتلى العرش ومن هنا فقد كان عهده اطول عهود سلاطين المماليك ومن اطول عهود الملوك في التاريخ الاسلامي . وفي ولايته جرت آخر غارات المغول بزعامة الايلخان غازان محمود واصبح الاسلام في عهد غازان دين الدولة في مناطق الايلخانات . وكان يقدر الجيش المصري بنحو ثلث عدد الجيش المغولي فاندحر (٢٣ كانون الاول ١٢٩٩) امامه شرقي حمص وكان عدد المغول يقدر بنحو مئة الف [١] يساندهم جموع من الارمن والكرج . وواصل المغول زحفهم ظافرين وفي مطلع عام ١٣٠٠ احتلوا دمشق دون ان ينهبوها . اما بقية سورية الشمالية فقد أنزلوا فيها ألواناً من الخراب والدمار . وفي آذار من تلك السنة جلوا عن العاصمة السورية التي كانوا قد احتلوها دون ان يستولوا على قلعتها وعاد المصريون فاحتلوا البلاد بكاملها . وبعد ثلاث سنين عاد غازان بحملة اخرى فقهره المصريون عند مرج الصفّر جنوبي دمشق [٢]. وهي المرة الرابعة التي قوي المماليك فيها على التنكيل باشد عدو عرفته مصر منذ الفتح الاسلامي ، ولم يجرأ احد من خلفاء غازان على مقاتلة المصريين بعد ذلك .

وبعد ان جلا المغول عن دمشق بأمد يسير نشط الناصر لمعاقبة دروز لبنان الذين كان رماتهم الاثنا عشر الفاً قد اوقعوا البلاء بجيشه المكسور قبل اشهر فاقتص منهم ونكل بهم تنكيلاً . ومن الفرق الاخرى التي انزل بها القصاص العلويون في كسروان . اما موارنة جبل لبنان فكاد يسحقهم . وفي سنة ١٣٠٢ وما بعدها والى الغارات على بلاد الارمن المنكودة [٣] ووضع على رعاياه النصارى واليهود احكاماً مرهقة جددت عهد الاحكام البالية

---

١) المقريزي ترجمة كاترمير vol. ii (pt.4), p. 146

٢) ان ابا الفداء (ج ٤ س ٥٠) وهو صديق الناصر الذي اعاد اليه امارة اجداده فيما بعد قد شاهد بعينيه الجيش الهاجم عن بلدة حماة مسقط رأسه .

٣) ابو الفداء ج ٤ س ٤٨ ، ٥٣–٤ ، ٩٠–٩١ ؛ ابن خلدون ج ٥ س ٤١٩ – ٤٢٩،٢٠–٣٠.

التي كان عمر الثاني والمتوكل قد اصدراها في شأنهم .

ولكن الناصر في عهده الطويل اشتهر بمآثره في ميدان السلم لا الحرب . وكان السلطان قصير القامة اعرج الا انه امتاز بتذوقه للجمال و بتمتعه بانواع النعيم والبذخ في حياته وتزيينه جميع ما يحيط به بالزخارف الباهرة . وقد حدث مرة عند عودته الى مسكنه في القلعة بعد رحلة خارج البلاد ان فرش له اهل خاصته السجاد والطنافس الثمينة على الارض فوطأتها فرسه مسافة اربعة آلاف ذراع . وكان في صحبته عند خروجه الى الحج اربعون جملاً تحمل محاير الخضروات مزروعة فكان في كل منزلة ينزلها في صحراء العرب يقدم له من تلك الخضروات مع الطعام (١) واستهلك من السكر يوم الاحتفال بزواج ابنه ١٨ الف رأس ، وذبح من الحيوان ٢٠ الفاً واضاء البلاط الملكي بثلاثة آلاف شمعة احرقت كلها . اما قصره الابلق (٢) فقد بناه على طراز دمشقي . وكان له ولع خاص بالالعاب والصيد والخيل وقد ترك لنا كتاباً في تربية الخيل ولم يتردد عن دفع ٣٠ الف دينار ثمناً لحصان اعجبه (٣) .

مصر فى أوج ثقافتها

ولم ينحصر اسراف الناصر في اشباع شهواته الشخصية بل كان له من المنشآت العامة ابنية عديدة جميلة سخر مهرة الصناع في بناء بعضها . ومن هنا فقد حق لعهده ان يعتز بثقافة هي ارقى ما عرفه عهد المماليك. وحفر قناة اشتغل فيها مئة الف عامل وصلت الاسكندرية بالنيل ، و بنى (١٣١١) مجرى للمياه يسير من النيل الى قلعة القاهرة وانشأ في انحاء مملكته نحو ثلاثين مسجداً غير عدد من الرباطات والسبل والحمامات والمدارس . وشمل مكة بنوع خاص من بذخه. اما جامعه الخاص في القلعة فانه زوّقه (١٣١٨) بمواد نقلها اليه من انقاض كاتدرائية عكا . ولا تزال المدرسة التي اكملها سنة ١٣٠٤ المعروفة بالناصرية — على اسمه — قائمة في القاهرة الى يومنا هذا . ويمثل جامعه ما تمثله المدرسة من اوجه المعاني التي ابدع فيها

---

١) ابو الفداء ج ٤ ص ٨٩ .

٢) المقريزي ، الخطط ج ٢ ص ٢٠٩—١٠ ؛ قابل المسعودي ، التنبيه ص ٢٠٨ .

٣) وهناك مخطوطة فريدة في وصف الحصان كتبها بحروف مذهبة كاتبه الحبيبي وقدمها له. انظر فهرست المخطوطات العربية في برنستون عدد ١٠٦٦ .

المسلمون في فن العمارة . اما الفنون الفرعية فانها نشطت في عهده ايضاً و بلغت درجة عالية من الجودة لم تكن معروفة من قبل كما يظهر من قطع البرونز والمصنوعات النحاسية والقناديل الزجاجية المطلية بالميناء والمصاحف المزخرفة المحفوظة في المتحف العربي بالقاهرة ودار الكتب المصرية .

المجاعة والطاعون

على ان النفقات الثقيلة في عهد الناصر الطويل اثقلت كاهل الشعب بالضرائب الباهظة وادت الى سقوط هذه الدولة . واتخذ السلطان تدابير اقتصادية خاصة حاول ان يخفف بها وطأة الضنك الشديد فشجع التجارة مع اوربا ومع الشرق ، وامر ان يعاد مسح البلاد ، والغى الضرائب على الملح والدجاج وقصب السكر والسفن والرقيق والخيل ومنع شرب الخمر . وامر بجلد الخبازين الذين يرفعون اثمان الخبز . فلم يكن لذلك سوى اثر وقتي . وجاءت بعد ذلك الحروب الاهلية والمجاعة والطاعون فزادت في تعاسة الشعب . وحل « الموت الاسود » الذي اصاب اوربا سنة ١٣٤٨ ـ ٩ في مصر ولزمها نحو سبع سنين فاهلك من أهلها ما زاد على ضحايا اي طاعون آخر . واذا اعتبرنا ارقام ابن اياس المبالغ فيها فان عدد الموتى من هذه الكارثة بلغ في العاصمة وحدها ٩٠٠ الف (١) وهرب السلطان وكل من استطاع . ويقال ان غزه فقدت من سكانها ٢٢ الفاً في شهر واحد . وكان يموت في حلب كل يوم خمسمئة .

سقوط المماليك البحرية

اما السلاطين الاثناعشر الذين خلفوا الناصر على التعاقب طوال اثنتين واربعين سنة (١٣٤٠ ـ ٨٢) فانهم لم يكونوا سلاطين الا بالاسم اذ كان يقوم باعباء الحكم امراؤهم وكان هؤلاء الامراء ينصبون السلاطين ويعزلونهم او يقتلونهم حسبما توحيه اهواؤهم . ولم يكن من هؤلاء السلاطين من امتاز في أي ميدان من ميادين العمل وليس لهم مخلفات سوى

---

١) ابن اياس ج ١ ص ١٩١ .

مسجد السلطان حسن ابن ناصر الذي تم بناؤه سنة ١٣٦٢ ويعد من اجمل الجوامع المبنية على شكل مصلب .

وكان الصالح حاجي ابن شعبان ((١٣٨١ -٢٢ ١٣٨٩ - ٩٠) ابن حفيد الناصر آخر السلاطين البحرية وكان طفلاً ودام ملكه سنتين متقطعتين اذ ان برقوق الشركسي عطل ولايته اولا واعاده بعد زمن ثم اقصاه عن الحكم اخيراً . ويعتبر برقوق مؤسس دولة المماليك الجديدة اي البرجية [١] . وكان في اول عهده رقيقاً لابناء الاشرف شعبان [٢] . ويجب ان نشير في ختام هذا الفصل الى انه قد قام شركسي آخر قبل برقوق هو بيبرس الثاني (١٣٠٨ - ٩) مملوك قلاوون فكان احد السلاطين الثلاثة الذين ملكوا في فترات معروفة خلال حياة الناصر و بذلك كانوا نذراء لظهور الدولة الجديدة .

---

١) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٧٢ ؛ ابن تغرى بردى ج ٦ قسم ٢ ص ١ .

٢) انظر جدول المماليك البحرية في هذا الفصل ص ٧٩٦.

الفصل الثامن والأربعون

الحركة الفكرية والفنية

استهلت مصر عهدها في ظل المماليك تحت رايـة سلاطين ظافرين فخورين فقد فازوا بتطهير سورية من بقايا الافرنج وتمـكنوا من الحيلولة بين المغول وتدويخ العالم . غير انه ما وافت نهاية هذا العهد بما فيه من حكومة عسكرية مسيطرة والتحزبات بين الجماعات المتنفذة والعملة المتدنية والضرائب الباهظة وتوارد الاوبئة والطاعون والمجاعات والثورات حتى كاد الخراب يعم مصر ومحميتها سورية . وقد استمرت في وادي النيل بنوع خاص العادات الباليـة والخرافات القديمة وانواع السحر وتحالفت مع العقائد الدينية الرجعية وروح المحافظة فلم تـترك للتقدم العلمي مجالا للسير . ومن هنا فانه لم يكن ممكناً في مثل هذه الاحوال نشوء حركة فكرية راقية . والواقع أن جميع انحاء العالم العربي اخذت في مطلع القرن الثالث عشر تفقد سيادتها العلمية التي تمتعت بها منذ القرن الثامن (١) . واصبح العياء الفكري الذي سببته اجيال الجهاد والعناء الأدبي الناجم عن تراكم الثروة والسلطة باديين في كل مكان .

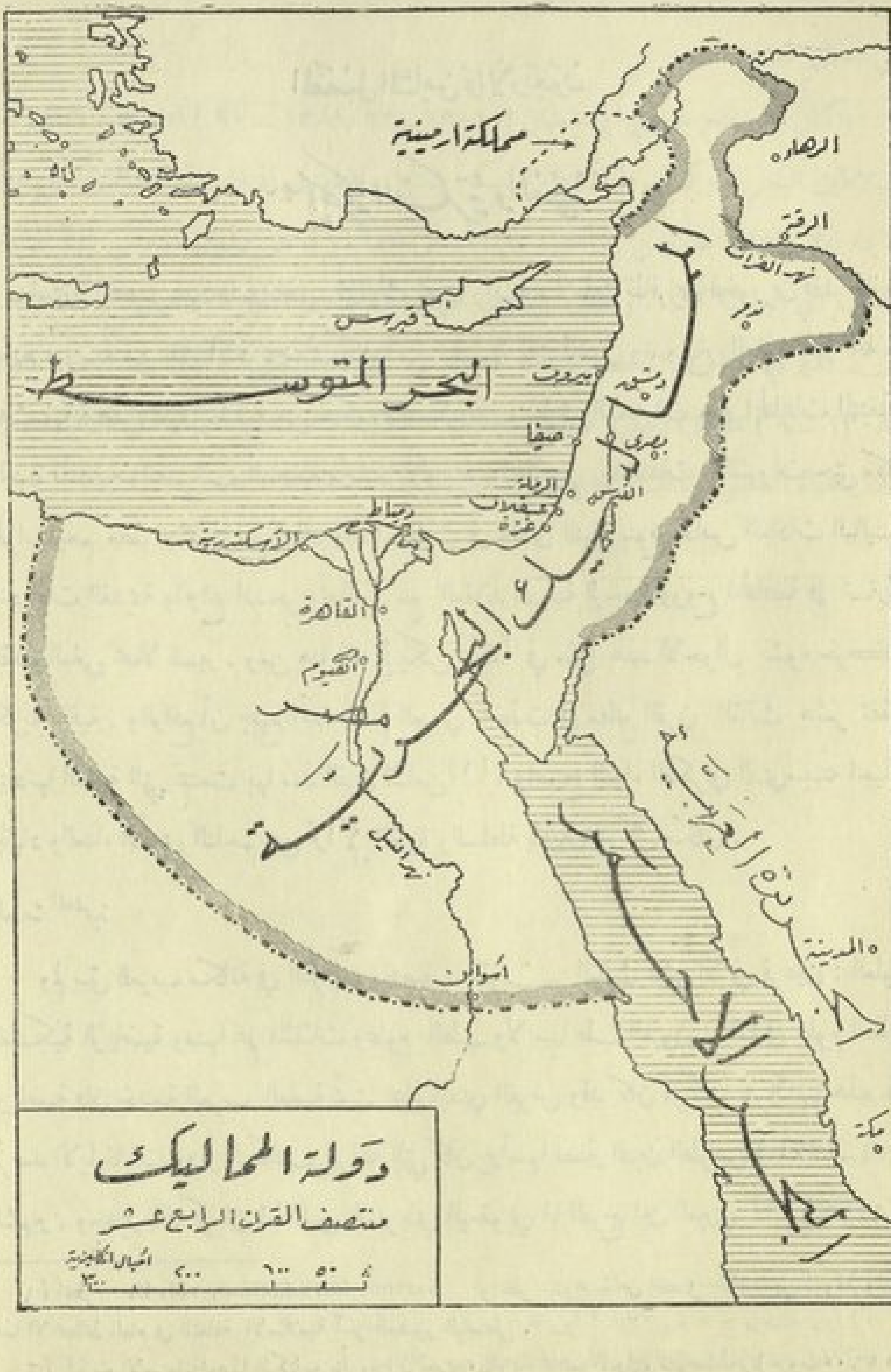
الخدمة العلمية

ولم يبق للعرب مكانة في العلم بعد منتصف القرن الثالث عشر الا في فرعين : العلوم الفلـكية الرياضية ومنها علم المثلثات وعلوم الطب ولا سيما طب العيون . اما في علوم الفلك الرياضية فان خدمة العرب العلمية تمت على ايدي الفرس وقد كان مركز حركتهم هذه في مرصد الايلخانات ودار الـكتب بمراغة التي كان يرأسها نصير الدين الطوسي (١٢٠١-٧٤) الشهير . وجدير بالذكر ان الجاثليق السرياني اليعقوبي ابا الفرج ابن العبري (٢) (١٢٢٦-

---

١) انظر Sarton, *Introduction*, vol. ii. وانظر بنوع خاص الفصل الافتتاحي . وقد وافق هذا الانحطاط العام في الثقافة الاسلامية آخر العصور الوسطى .

٢) كثرت الاستعانة في هذا الكتاب بتاريخ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، نشر صالحاني (بيروت، ١٨٩٠)


مملكة ارمينية
الرها
الرقة
نهر الفرات
تدمر
قبرص
البحر المتوسط
بيروت
دمشق
حيفا
بصرى
الرملة
القدس
عسقلان
غزة
دمياط
الاسكندرية
القاهرة
الفيوم
أسوان
المدينة
مكة
دولة المماليك
منتصف القرن الرابع عشر
الأميال الانكليزية

٨٦) المعروف كمؤرخ وهو آخر رجال الادب السرياني انما كانت محاضراته في ذلك المركز العلمي سنة ١٢٦٨ في اقليدس وسنة ١١٧٢ — ٣ في بطليموس .

الطب

ولكن هذه المملكة المصرية السورية قد تزعمت حركة العلوم الطبية . فالمارستان المتقن الذي بناه قلاوون يدل على مقدار اهتمام مصر بالطب . وكان عميد هذا المارستان ابو الحسن علي ابن نفيس قد درس في دمشق حيث مات بعدئذ (١٢٨٨ — ٩) وقد ترك لنا في كتابه « شرح تشريح القانون » صورة واضحة عن الدورة الدموية الصغرى وذلك قبل سرفيتس البرتغالى الذي يُنسب اليه اكتشافها بثلاثة قرون . وقدم ابو بكر ابن المنذر البيطار (المتوفى ١٣٤٠) القائم بشؤون تربية الخيل للسلطان الناصر ابن قلاوون رسالة في البيطرة الى سيده هي من الرسائل العربية القليلة في هذا الموضوع عنوانها « كامل الصناعتين : البيطرة والزرطقة » [١] . وان لفظة بيطار العربية المأخوذة من «hippiatros» اليونانية لتدل على ان العرب وان كانوا منذ بداوتهم على شيء من الالمام والمعرفة العملية المبنية على الاختبار في معالجة امراض الابل والخيل فانهم قد استمدوا معرفتهم المنظمة في هذا الميدان والطرق الفنية من المصادر البيزنطية . وكان لاكثر المماليك ومنهم قلاوون و برقوق اسطبلات خاصة لتربية الخيل . وهناك كتب عديدة تأتي على ذكر الاخبار والتقاليد الاسلامية في موضوع الخيل وترجع الى هذه الحقبة . ومن هذه الكتب « فضل الخيل » لعبد المؤمن الدمياطي (المتوفى ١٣٠٦) وهو ممن قاموا بالتدريس في المدرسة المنصورية التي بناها قلاوون .

الاطباء يهود

وكانت زعامة الطب المصري منذ ايام الايوبيين بايدي اطباء يهود حافظوا على التراث المجيد منذ ايام ابن ميمون ، على اننا لا نجد ابتكاراً فيما قام به الاطباء مسلمين كانوا ام يهوداً .

١) او « الناصري » ترجمة بيرون M. Perron, *La Naçeri : la perfection des deux arts ou traité complet d'hippologie et d'hippiatrie arabes*, 3 vols. (Paris, 1852-60).

وقد ألف في الصيدلة اليهودي المصري المعروف بالكوهين العطار رسالة وضعها في القاهرة نحو عام ١٢٦٠ بعنوان « منهاج الدكان ودستور الاعيان » وهي لا تزال الى اليوم ذات قيمة وفائدة في الشرق الاسلامي .

وكانت هذه الحقبة خصبة بوجه خاص في انتاجها ذلك النوع من المؤلفات النسوية الغرامية الذي نسميه اليوم بـ « الأدب الجنسي » على ان الادب العربي كان في كل عصوره ادب رجال لا ادب نساء، تكثر فيه النوادر والنكات والاشارات التي تبدو في عصرنا الحديث بذيئة . ومن القادة في هذا الميدان التيفاشي المصري الخبير في الجواهر وقد زها في اواسط القرن الثالث عشر . ونلاحظ في هذا الزمن اهتماماً خاصاً ايضاً فيما يسميه العرب « الطب الروحاني » او « النفساني » ويقابل اليوم ما يعرف في الانكليزية بـ «سيكوثرابي» (psycho-therapy) ومن رواد هذه المدرسة طبيب يهودي كان عند صلاح الدين اسمه هبة الله بن جميع ، وعنوان مؤلفه الرئيسي « الارشاد لمصالح الانفاس والاجساد » . ويروى ان ابن جميع جلس يوماً في دكان بفسطاط مصر فمرت به جنازة فلما نظر اليها قال ان صاحبها لم يمت ولما سئل من اين علمت اجاب نظرت الى قدميه فوجدتهما قائمتين واقدام الذين قد ماتوا تكون منبسطة (١) .

امراض العين

وكانت طبابة العيون من الانظمة التي بكّر العرب في اتقانها وقد تعاطوها في سورية ومصر طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر على اساس علمي لا يعادله شيء في اي موضوع آخر . ففي القرن الثاني عشر ألف أبو الفضائل ابن الناقد (٢) (المتوفى ١١٨٨ — ٩) أهم كتاب عربي في هذا الموضوع عنوانه « المجرّبات » . وكان ابو الفضائل يهودياً احترف طب العيون في القاهرة . ولكن سورية تسلمت الزعامة بعد ذلك ، وفيها وُضع الكتابان العلميان الوحيدان لهذه الحقبة : « الكافي في الكحل » لخليفة ابن ابي المحاسن الحلبي الذي زها حوالي عام ١٢٥٦ و « نور العيون وجامع الفنون » (٣) لصلاح الدين ابن يوسف الذي مارس طب

١) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص١١٣ .
٢) المصدر نفسه ص١١٥—١٦.
٣) حاجي خلفه ج٦ ص٣٩٣ .

العيون في حماة حوالي ١٢٩٦ . وكان الخليفة المذكور من الثقة بنفسه في فن الجراحة ما جعله لا يتردد عن اخراج الماء الازرق من عين اعور . وجدير بالذكر ان العلماء السوريين في عصر المماليك زهوا في مدن الداخل لان الساحل كان خربه الصليبيون ومن بعدهم قلاوون وخلفاؤه الذين كانوا يخشون عودة الافرنج .

تاريخ الطب

اما كبير مؤرخي الطب الذين انجبهم العالم العربي فموفق الدين ابو العباس احمد ابن ابي اصيبعة (١٢٠٣ ـ ٧٠) وقد لمع في دمشق في اول حقبة المماليك وكان هو نفسه طبيباً . وكان ابوه دمشقياً يتعاطى تطبيب العيون . وقد درس موفق الدين الطب في مسقط رأسه وفي القاهرة ، وزامل ابن البيطار الشهير في جمع النباتات ودرسها . وكان يكاتب العالم الطبيب عبد اللطيف البغدادي . وكان خير كتبه كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء »[1] وهو مجموعة متقنة لاربعمئة سيرة من سير رجال الطب من عرب ويونان . ولما كان اكثر هؤلاء الاعلام قد جمعوا بين الطب والفلسفة والفلك وعلم الطبيعة والرياضيات اصبح هذا الكتاب مصدراً ثميناً لا يستغني عنه دارس تاريخ العلم العام عند العرب . ويكاد هذا السفر ان يكون فريداً في الأدب العربي . ولا يدانيه سوى كتاب « اخبار العلماء باخبار الحكماء » للقفطي . وقد وصلنا هذا الكتاب الاخير مختصراً [٢] وقد ولد علي ابن يوسف القفطي في صعيد مصر (١١٧٢) كما يشعر اسمه ولكنه قضى معظم حياته في حلب وفيها تولى الوزارة في عهد سلاطينها الايوبيين حتى وفاته عام ١٢٤٨ .

علم الاجتماع : السير

وكانت أهم مآثر عصر المماليك العلمية في علوم الاجتماع ولا سيما في موضوع السير . وابرز من عرفهم الاسلام من كتّاب السير شمس الدين احمد ابن محمد ابن خلكان سليل يحيى

---

١) نشره امرؤ القيس ابن الطحان [اوغست ملر August Müller] في مجلدين (القاهرة، ١٨٨٢) ثم اعاد نشرها في مجلدين (كونغسبرغ، ١٨٨٤) مع بعض الاصلاحات وصفحات مضافة وفهرس .

٢) نشره يوليوس لبرت (ليبزغ، ١٩٠٣) .

ابن خالد البرمكي وقد ولد في اربل عام ١٢١١ ولمع في دمشق خلال هذا العصر . تلقى ابن خلكان العلم في حلب ودمشق وعين عام ١٢٦٠ قاضي قضاة الشام وكانت دمشق مقره . وظل في هذه الوظيفة حتى قبيل وفاته عام ١٢٨٢ باستثناء فترة سبع سنوات . اما كتابة « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان »(١) فمجموعة دقيقة رائعة تحتوي ٨٦٥ سيرة لأكابر المسلمين في التاريخ . وهذا اول كتاب عربي محيط جامع لسير الاعلام عانى مؤلفه مشقة ضبط الاسماء وتحقيقها وتعيين التواريخ ورد الانساب وتمحيص الحقائق وايرادمزايا الرجال الشخصية وذكر الحوادث الخطيرة وابراز الامثلةمن شعر اصحاب السير ونوادرهم . فكانت نتيجة ذلك كله في رأي احدهم « افضل ما كتب في السير عامة » (٢).

التاريخ

ولم يكن عصر المماليك خصباً بكتب السيرة فقط بل كان غنياً ايضاً الى حدّ في موضوع التاريخ على العموم . ومن الذي اشرنا اليهم كثيراً فيما سبق ابو الفداء وابن تغري بردي والسيوطي والمقريزي وكلهم مؤرخون ينتمون الى ذلك العصر . اما ابن خلدون (المتوفى ١٤٠٦) المشهور الذي كان استاذاً وقاضياً في زمن السلطان برقوق وترأس وفداً ارسله السلطان فرج لمفاوضة تيمور في الصلح بدمشق فان علاقاته السابقة وآثاره الادبية تربطه باسبانية والمغرب. وقد كان ابو الفداء المؤرخ الجغرافي (١٢٧٣ ـ ١٣٣١) سليل اخي صلاح الدين وامير حماة في زمن السلطان الناصر وقام بتلخيص تاريخ ابن الاثير الضخم تحت عنوان « مختصر تاريخ البشر »(٣) وقد اوصله الى عصره وله في الجغرافية « تقويم البلدان » . وكان ابو المحسن ابن تغري بردي (١٤١١ ـ ٦٩) ابن موظف كبير في بلاط المماليك وكانت امه مملوكة تركية لبرقوق وكانت له علاقات حسنة (٤) مع عدد من السلاطين واكبر مؤلفاته « النجوم الزاهرة

---

١) صدر في طبعات متعددة وقد استعملنا طبعة القاهرة ، ١٢٩٩ في ثلاث مجلدات .

٢) Nicholson, *Literary History*, p. 452 .

٣) الطبعة التي نرجع اليها هي في ٤ مجلدات (القسطنطينية ، ١٢٨٦). اما جغرافيته تقويم البلدان فقد نشرها رينو وده سلان (باريس ، ١٨٤٠) وترجمها رينو في مجلدين (Paris,1848)

٤) ابن تغري بردي ج ٦ قسم ٢ص ٤٣٠ ، ٥٥٢ ، ٧٤٣ .

في ملوك مصر والقاهرة »(١) وفيه تاريخ مصر منذ الفتح العربي حتى عام ١٤٥٣ . ثم جاء جلال الدين السيوطي (٢) (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥) وكان كابن الجوزي وابن حزم والطبري من أغزر مؤلفي الاسلام مادة الا ان مؤلفاته خالية من الابتكار . وهو بلا جدال ابرز شخصية ادبية للقرن الخامس عشر . وقد جرى قلمه السيال في جميع ميادين العلوم العربية : القرآن والحديث والفقه والفلسفة والتاريخ وفقه اللغة والبيان الخ (٣). واتصلت بنا اسماء كتب من تأليفه لا يقل عددها عن الخمسمئة . منها « بلوغ المآرب في قص الشارب » و « التعظيم والمنة في ان ابوي رسول الله في الجنة » و « رسالة في جيب قميص النبي صلعم » . ويظهر انه كان خطاطاً وربما نسب الى نفسه مؤلفات لغيره بعد ان نسخها بيده . واهم مؤلفاته : « الاتقان في علوم القرآن » (٤) وهو في علم التفسير ، و « المزهر في علوم اللغة » (٥) وهو رسالة في فقه اللغة ، و « حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة » (٦).

وكان ألمع مؤرخي المماليك بلا ريب تقي الدين احمد المقريزي (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢) . وقد ولد في القاهرة من اسرة بعلبكية الاصل فتقلد عدة مناصب سامية كوكالة القضاء والتدريس في مسقط رأسه وفي دمشق . اما شهرته فتقوم على كتابه المسمى « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » (٧) وقد خصصه للبحث في طوبوغرافية مصر وتاريخها وأثرياتها . اما معاصره السخاوي (٨) فقد اصاب في اتهامه بانتحال جريء شامل في اخراج هذا الكتاب . بيد ان الانتحال كان شائعاً في تلك الايام .

الاسلاميات وعلوم اللغة

لقد اشتهر في هذا العصر اثنان من كتّاب الموسوعات المصريين وقد كثرت الاشارة

١) نشره جوين بل وماتس بمجلدين (ليدن، ١٨٥٥ ـ ٦١) ووليم بير في ٣ مجلدات (بركيلي، ١٩٠٩ ـ ٢٩).
٢) ولد في اسيوط بالوجه القبلي من مصر .
٣) قابل لأعمتها في كتابه « نظم العقيان في اعيان الاعيان » نشر حتي (نيويورك ، ١٩٢٧) ص خ، د .
٤) صدرت عدة طبعات منه في القاهرة وهي غير علمية .
٥) الطبعة التي نرجع اليها هي في مجلدين (القاهرة ، ١٣٢٥) .
٦) الطبعة التي نرجع اليها هي في مجلدين (القاهرة ، ١٣٢١) .
٧) الطبعة التي نرجع اليها هي في مجلدين (بولاق ، ١٢٧٠) .
٨) « التبر المسبوك في ذيل السلوك » (بولاق، ١٨٩٦) ص ٢٢ .

اليهما في هذا الكتاب هما احمد النويري (المتوفى ١٣٣٢) مؤلف « نهاية الأرب في فنون الأدب »(١) واحمد القلقشندي (المتوفى ١٤١٨) مؤلف « صبح الاعشى »(٢) وهو كتاب مدرسي يستعمله اصحاب الوظائف في دواوين الحكومة طافح بالمعلومات التاريخية والجغرافية التي تدور بالاكثر على احوال مصر وسورية . اما بقية المؤرخين في هذه الحقبة فقد صرفوا عنايتهم الى الدراسات الاسلامية واللغوية باستثناء احمد ابن ماجد (٣) النجدي الذي يقال انه ربان سفينة فاسكو ده غاما في عام ١٤٩٧ في رحلته من افريقية الى الهند . ومن مؤلفات احمد هذا ملخص في الملاحة نظري وعملي .

ويجب ان نذكر في علم اللاهوت تقي الدين احمد ابن تيمية (٤) (١٢٦٣ - ١٣٢٨) الحراني مولداً الدمشقي اقامة . وكان ابن تيمية محافظاً لا يذعن لمرجع في امور الدين سوى القرآن والحديث وسنة الجماعة وشدد الحملة على اهل البدع واستنكر عبادة الاولياء والنذور وزيارة القبور وكان من اتباع ابن حنبل وقد تبنى الوهابيون مباده . وكان من ابرز رجال الحديث في هذا العصر ابن حجر العسقلاني (١٣٧٢ - ١٤٤٩) مؤلف « الاصابة في تمييز الصحابة »(٥) قاضي القضاة بالقاهرة وقد حفظ القرآن فيما يقال وهو دون التاسعة من العمر . اما في الشعر فالشخص الوحيد الذي يستحق الذكر هو شرف الدين محمد البوصيري (٦) (١٢١٣ الى نحو ١٢٩٦) البربري النسب ناظم قصيدة « البردة » الشهيرة تذكاراً لشفائه العجيب من ضربة الفالج اذ ألقى النبي عليه بردته في الرؤيا . وليس بين قصائد العربية ما بلغ شهرة « البردة » . وقد وضعت عليها شروح لا تقل عن التسعين في العربية والتركية والفارسية والبربرية . ونقلت هذه القصيدة الى الفارسية والتركية والالمانية والفرنسية والانكليزية والايطالية . ولا يزال الناس يرددون ابياتها تعاويذ من الشر ويقرأها الدروز

---

١) في ٩ مجلدات (القاهرة ١٩٢٣ـ٣٣) ولم يكمل بعد .
٢) في ١٤ مجلداً (القاهرة ١٩١٣ ٢٢) .
٣) «كتاب الفوائد في اصول البحر والقواعد» نشر ج. فراند (باريس ١٩٢١ـ٣) .
٤) من الـ ٥٠٠ كتاب المنسوبة اليه لم يبق سوى ٦٤ . راجع الكتبي ج١ ص ٤٨ـ٤٩ .
٥) في ٨ مجلدات (القاهرة ١٣٢٣ـ٧) .
٦) ولد في ابو صير .

الى هذا اليوم في جنائزهم .

القصص

ولنذكر هنا أن سيرتي عنتر و بيبرس اللتين لا تزالان سلوى الجماهير الى اليوم في مقاهي الشرق الاسلامي انما وضعتا في شكلهما المعروف خلال عصر المماليك . كذلك قل في « الف ليلة وليلة » وهي دون السيرتين المذكورتين انتشاراً في بلدان الشرق غير انها قد احتلت بواسطة ترجماتها مركزاً رفيعاً بين القطع الخالدة في الأدب العالمي وكانت حتى ذلك الزمن لم تتخذ شكلها النهائي . وتنافس المماليك في مناصرة الألعاب والسباقات والرماية والرياضة والصيد والفروسية فكانوا مثال البطولة لا سيما من عاصر الصليبيين منهم . وقد اكثرت الاساطير من ذكر مفاخرهم واعمالهم واوردت أخبارهم بقالب منمق فتان . وان وصف « الفارس » في « الف ليلة » ليمثل المحارب المغوار كما عهده عصر المماليك لا عصر العباسيين . كذلك فان عادات القوم واخلاقهم انما أخذت من الحياة الاجتماعية التي الفها الكاتب في القاهرة ايام المماليك .

خيال الظل

وظهر في القرن الثالث عشر كتاب يدل على تطور كبير في ادب خيال الظل عنوانه « طيف الخيال في معرفة خيال الظل » (١) وضعه محمد ابن دانيال الخزاعي الموصلي (نحو ١٢٦٥ ـ ١٣١٠) . وكان المؤلف طبيباً مسلماً ولعله كان في الاصل يهودياً او نصرانياً . وقد زها ابن دانيال في زمن بيبرس ، وكتابه هذا هو المثال الوحيد المحفوظ في الشعر الروائي الذي خلفه الاسلام في العصور الوسطى . ولعل استنباط روايات خيال الظل يرجع الى الشرق الاقصى . الا ان المسلمين قد استمدوها على الراجح من الهند او من فارس . وفي آخر القرن التاسع شرع قصاصو العرب في ادخال ممثلي الصفات الوطنية الى حكاياتهم وفي السعي الى ابراز السخرية في رواياتهم . وما أن وافى القرن الثاني عشر حتى استعملوا الدمى تديرها

---

١) نشر قسما منه جورج جاكوب في ٣ مجلدات (ارلانغن ، ١٩١٠ ـ ١٢) انظر الكتبي ج ٢ ص ٢٣٧ .

ايدٍ خفية على المسرح . وقد اشار ابن حزم [١] في اسبانية (القرن الحادي عشر) في عبارة مجازية الى « خيال الظل » . وانتقلت هذه الروايات من غربي آسية ومصر [٢] الى القسطنطينية حيث برز « القراقوز » (اسود العينين) ومنها سرت الى سائر اوربا الشرقية . ومن خصائص الملهى الصغير التركي ما يدل على انه مستمد من « الف ليلة » . وليس غريباً ان تكون شخصية « القراقوز » التركية قد اثرت في نوع الممثلين العصريين كتشارلي تشابلن .

العمارة وهندسة البناء

وكان من ابهج المفاجئات التي ظهرت في عصر المماليك على ما كان فيه من حروب وأهوال الانتاج الباهر في فن العمارة وهندسة البناء على اسلوب لا قرين له في تاريخ مصر منذ ايام البطالسة والفراعنة . ففي المساجد والمدارس والاضرحة التي شادها قلاوون والناصر والحسن بلغ فن العمارة الاسلامية ابهى مظاهره . كذلك لمعت الحقبة البرجية بالابنية التي شادها برقوق وقايتباي والغوري . ولم تشاهد البلدان العربية بعد ذلك بناءً ذا أهمية عالمية .

وتعود مبادىء مدرسة المماليك في فن العمارة الى اصول نورية وايوبية كما ان مؤثرات سورية وعراقية اتصلت بها عندما اصبحت مصر في القرن الثالث عشر مأوى الفنانين والصناع المسلمين اللاجئين اليها من الموصل وبغداد ودمشق قبل فتوحات المغول . ولما انتهت الحروب الصليبية انفتحت الطريق للحصول على حجارة البناء من مقالعها في الشمال واعتيض بالحجارة عن الآجر في بناء المآذن . واتقن البناؤون الى حد الكمال اسلوب تشييد الجوامع المدرسية ذات الشكل المصلب وظهرت القبة في هيئة تتحدى كل الاشكال المنافسة من حيث الخفة والظرافة واناقة الزخرفة . امّا العمارات ذات الخطوط الملوّنة — ومنها القصر الابلق — فهي ناجمة عن استعمال حجارة ذات الوان مختلفة في خطوط متساوية وهي من اصل روماني او بيزنطي . ويجدر ان نلاحظ هنا ظهور المتدليات السقفية (المقرنصات) في هذه الحقبة . وقد برز في هذا العصر ميزتان اتصف بهما فن الزخرفة الاسلامية : الاشكال الهندسية والحروف

١) الاخلاق والسير ، نشر محمصاني (القاهرة) ص ٢٨ .
٢) انظر ابن اياس ج ٢ ص ٣٣ .

الكوفية وكانت الاشكال الحيوانية طوال العصور الاسلامية أقل استعمالا في مصر وسورية منها في اسبانية وفارس . وان افضل امثلة العمارات الراجعة الى عصر المماليك باقية لحسن الحظ حتى اليوم وهي من امتع المشاهد التي يقصدها السياح وطلاب العلم .

الفن

ارتبطت كل فروع الفن العملي تقريباً بفن العمارة ولا سيما العمارة الدينية . ومن الامثلة الباقية ابواب جوامع مصنوعة من البرونز المزوق وشماعد برونزية عليها رسوم عربية دقيقة وغلافات ذهبية للمصاحف مرصعة بالجواهر ومحاريب فيها بديع الفسيفساء . اما دقيق الصناعة الخشبية فظاهر في المنابر [١]. وقد اكتست معظم ابواب المساجد الكبيرة الحجم بحلة معدنية من صنع دمشق . اما قناديل المساجد والشبابيك المصبوغة فقد كانت تصنع من ابدع انواع الزجاج الملون وعليها رسوم الزهور وكتابات عربية . وتحلى داخل جدران المساجد بافخر ضروب الآجر المزوق المطلي . وفي المآذن بجامع الناصر بالقلعة (١٣١٨) اقدم نماذج الآجر الراجعة الى عهد المماليك وهي من الفخار الملون الصقيل المستخدم في العمارة . وفي ايام المماليك البرجية درجت صناعة الترصيع حسبما يظهر من الابواب والمنابر في جامع قاتنباي . اما صناعة الفسيفساء وحفر العاج والميناء فقد حذقها الاقباط منذ العصور السابقة للاسلام .

زخرفة المخطوطات

وليس في الفنون الفرعية ما يفوق زخرفة المخطوطات اظهاراً للمواهب الفردية والميول الاسلامية الفنية وكادت هذه الزخرفة ان تنحصر في المصاحف وهي صناعة تستدعي من الدقة والاناة والمهارة في تنظيم الالوان والملاءمة بين عناصر الزخرفة ما يجعل الزخرفة لا تزيد عن صفحتين او ثلاث حتى في اجمل النسخ الخطية . وفي هذا الباب ايضاً كانت انفس مجموعات المصاحف المزخرفة تخص سلاطين المماليك وتحتوي دار الكتب المصرية في القاهرة

---

١) انظر رسوم بعض النماذج في Gaston Wiet, *Catalogue général du musée arabe du Caire; lampes et bouteilles en verre emaillé.* (Cairo, 1929).

جانباً منها نُقل اليها من جوامع المدن المختلفة .

حياة البذخ

على ان معاني الرقة والجمال الفنية الدقيقة لم تقتصر على المواضيع الدينية فقط بل ظهرت في غيرها ايضاً وقد اتصلت بنا ادوات مختلفة تتجلى فيها مظاهر الترف من كؤوس وطاسات واطباق ومباخر تدل على صدق المؤرخين المعاصرين الذين عرضوا لوصف الحياة في ذلك العصر . فقد كانت الاميرات الملكيات يتحلين بحلى من خلاخل واقراط وعقود واساور وتمائم لا تختلف كثيراً عما تلبسه المصريات العصريات . وكانت مآدب المماليك تتلوها حفلات أنس وسمر تظهر فيها الراقصات والمشعوذون وممثلو خيال الظل . وكان في عداد ضباط البلاط شخصيات سامية لها وظائف عليا كأستادار وامير سلاح وامير آخور وساق خاص (١) ثم ان برقوق اسس ما بين دمشق والقاهرة محطات لنقل الثلج الى مصر على ظهور الجمال (٢) .وانفق جقمق (١٤٣٨ ـ ٥٣) ـ وهو من المماليك البرجية ـ في مدة ثلاث سنوات ثلاثة ملايين دينار على الرقيق الذي اشتراه والهدايا التي وزعها في الناس (٣) .

و بفتح العثمانيين لسورية ومصر اخذت كل فنون المماليك الصناعية تضمحل . وقد ارسل السلطان سليم الى القسطنطينية عدداً من مهندسي البناء وحذاق الصناع والنجارين . ولكن فرعاً واحداً هو الآجر المطلي أصبحت صناعته في العهد التركي افضل مما كانت عليه قبلاً كما يظهر من مجموعة الآجر الدمشقي المطلي المحفوظة في متحف سوث كنسنغتون (South Kensington) بلندن . اما الاطباق المحفورة والطاسات والشماعد واصص الزهر وسواها من انواع الآنية النحاسية المصنوعة اليوم في دمشق فانها تصنع بالاكثر على غرار النماذج المملوكية .

---

١) القلقشندي ج ٤ ص١٨ وما يلي ؛ المقريزي ، الخطط ج ٢ ص ٢٢٢ ؛ الظاهري ص ١١٤ وما يلي ؛ Gaudefroy - Demombynes, *La Syrie à l'époqe des Mamlouks* (Paris, 1923), pp.L. *seq.*

٢) الظاهري ص١١٧ـ١٨ ؛ العمري ص١٨٤ وما يلي .

٣) ابن تغري بردي ج٧ ص٢٤٦ .

الفصل التاسع والأربعون

انهيار دور المماليك

كان السلاطين البحرية اتراكاً أما البرجية فشراكسة باستثناء اثنين : خُشقَدَم (١٤٦١ ـ ٧) وتِمُرْبُغا (١٤٦٧) فهما روميان (١) وقد شدد البرجية اكثر مما شدد البحرية انفسهم على عدم التسليم بقاعدة الاستخلاف الوراثي فالسلطان في عرفهم لم يكن الاّ اميراً بين امراء اكفاء والسلطة الحقيقيـة هي بايدي قواد الجيش . ومن السلاطـين البرجية الثلاثـة والعشرين الذين طالت مدة حكمهم مئة واربعاً وثلاثين سنة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) ملك تسعة منهم مئة واربعاً وعشرين سنة . وهؤلاء هم برقوق وفرج والمؤيـد شيخ وبرسباي وجقمق وإينال وخشقدم وقائتباي وقانصوه الغوري (٢) . اما الباقون وهم اربعة عشر فقد كانوا كلهم تقريباً قليلي الاهمية وقد ملك منهم بالتتابع في سنة واحـدة ثلاثة سلاطين . ولم يكن عهـد قائتباي (١٤٦٨ـ٩٥) اطول عهد في هذه الدولة فحسب بل كان من بعض النواحي اعظم عهد واكثره فلاحاً (٣) .

---

١) ابن تغري بردي ج ٧ ص ٦٨٥ ، ٨٤٢ ، ٨٤٧ .

٢) بفتح الغين كما ورد على ظهر مصحف منسوخ له (Moritz, *Palaeography*, vol. i, pl. 83) ما التهجئة المألوفة فبضم الغين .

٣) لائحة المماليك البرجية :

١) الظاهر سيف الدين برقوق ١٣٨٢
(انتزع الملك منه حاجي البحري ١٣٨٩ـ٩٠)
٢) الناصر ناصر الدين فرج ١٣٩٨
٣) المنصور عز الدين عبد العزيز ... ١٤٠٥
الناصر فرج (ثانية) ١٤٠٦
٤) الخليفة العادل المستعين ١٤١٢
٥) المؤيد شيخ ١٤١٢
٦) المظفر احمد ١٤٢١
٧) الظاهر سيف الدين ططر ١٤٢١
٨) الصالح ناصر الدين محمد ١٤٢١
٩) الاشرف سيف الدين برسباي.. ١٤٢٢
١٠) العزيز جمال الدين يوسف ١٤٣٨
١١) الظاهر سيف الدين جقمق ... ١٤٣٨
١٢) المنصور فخر الدين عثمان ١٤٥٣
١٣) الاشرف سيف الدين اينال .. ١٤٥٣
١٤) المويد شهاب الدين احمد ١٤٦٠
١٥) الظاهر سيف الدين خشقدم .. ١٤٦١
١٦) الظاهر سيف الدين يلباي ... ١٤٦٧
١٧) الظاهر تمربغا ١٤٦٧
١٨) الاشرف سيف الدين قائتباي. ١٤٦٨
١٩) الناصر محمد ١٤٩٥
٢٠) الظاهر قانصوه ١٤٩٨
٢١) الاشرف جان بلاط ١٤٩٩
٢٢) الاشرف قانصوه الغوري ... ١٥٠٠
٢٣) الاشرف طومان باي ١٥١٦ـ١٧

نماذج من السلاطين البرجية

اكمل المماليك البرجية ما بدأ به البحرية في الحقبة السابقة من اعمال الفتنة وسفك الدماء والنهب فكان عهدهم من اظلم عهود تاريخ مصر وسورية . وكان عدد من سلاطينهم بغاة سفاحين ومنهم من كان منحطاً سافلاً ولم يحرز اكثرهم شيئاً من الثقافة . فهذا المؤيد شيخ (١٤١٢ ـ ٢١) السكير الذي كان من جملة من اشتراهم برقوق من تاجر شركسي قد اقترف جسام القبائح (١). وليس فيهم من كان ابوه مسلماً (٢) غير برقوق. اما برسباي (١٤٢٢ـ٣٨) وهو من مماليك برقوق في الاصل فلم يكن يعرف اللغة العربية . ومن مساوئه انه أمر بطبيبيه فقُطع رأساهما حين تعذر عليهما شفاؤه من داء مميت . وهذا اينال (١٤٥٣ ـ ٦٠) وهو من مماليك برقوق ايضاً كان امياً يجهل القراءة والكتابة . وقد قال معاصره ابن تغري بردي (٣) : « ولعله كان لا يحسن قراءة الفاتحة ولا غيرها من القرآن العزيز » . وعلى طول مكثه في السلطنة فانه لم يهتد الى توقيع اسمه على المناشير والمراسيم الا بعد ان يرسم الموقع له رسماً خفياً عليها فيعيد هو على ذلك بالقلم . وقد اتهم بحب الغلمان كما اتهم بيبرس قبله . وقد أحيي سلاطين المماليك عادة اقتناء الغلمان والفوا حياة الفسق التي فشت زمن العباسيين . اما يلباي (١٤٦٧) فلم يكن امياً فحسب بل مجنوناً (٤). ثم ان قائتباي (١٤٦٨ ـ ٩٥) الذي كان برسباي قد اشتراه بخمسين ديناراً ثم أعتقه جقمق فانه امر بالكيماوي علي ابن المرشوشي ان تقلع عيناه ويقطع لسانه لعجزه عن تحويل خبث المعادن الى ذهب . ووضع ضريبة مرهقة على تجار الذرة زادت في بؤس الناس .

على ان الفساد لم يقتصر على السلاطين بل تعداهم الى جميع افراد الحكومة . وقد تفرق امراء المماليك وارقاؤهم شيعاً واحزاباً مختلفة متعادية نشأت اولا في الحرس الخاص على دور برقوق وفرج وشيخ و برسباي ولم يكن هم الحزب الواحد الا الاستحواذ على كل ما في البلاد

١) ابن تغري بردي ج ٦ س ٣٢٢ وما يلي :
٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٨ .
٣) ج ٧ س ٥٥٩ .
٤) ابن تغري بردي ج ٧ ص ٨٣١ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ .

من ثروة ونفوذ .

ازدياد الحالة الاقتصادية سوءاً

وزاد في سوء الحالة الاقتصادية انصراف السلاطين الى تطبيق سياستهم على مصالحهم الشخصية . من ذلك ان برسباي منع استيراد التوابل والبهارات من الهند ومنها الفلفل المرغوب كثيراً وقبل ان ترتفع اسعارها وضع يده على الكميات الموجودة منها في البلاد وباعها للناس باسعار ضمنت له ربحاً فاحشاً . كذلك احتكر صناعة السكر . وبلغ به طمعه ان حظر زراعة قصب السكر زمناً لكي يؤمن لنفسه ارباحاً طائلة . وفي زمنه اجتاح الطاعون مصر والبلدان المجاورة وهو ضربة نكبت بها البلاد غير مرة . وكان السكر يؤخذ دواء خاصاً لعلاجه . ومع أن الطاعون لم يفتك مثل « الموت الأسود الذي اصاب اوربا فقد توفي من جرائه فيما يقال نحو ثلاثمئة الف نفس خلال ثلاثة اشهر . وتخوف السلطان من الوبا فحسبه عقاباً من الله على انتشار المعصية في الناس واعتبر خروج النساء الى الاسواق والطرقات علّة ذلك البلاء فمنعهن من ذلك (١) . وسعى الى التكفير عن سوء اعماله بوضع الضرائب من جديد على النصارى واليهود . واقصى غير المسلمين عن مناصب الدولة وأجري بحقهم نظام ارتداء الملابس المميزة . وكان عدد من اسلافه قد نفذ هذه الاحكام بحق النصارى واليهود كما نفذها ايضاً جقمق وخشقدم (٢) . وضرب كثيرون من اسلاف اينال نقوداً من الفضة ناقصة وعمدوا في احيان كثيرة الى التلاعب بقيم المعادن الكريمة .

على أن الحيف لم يقتصر وقوعه على غير المسلمين . ولما كانت الحكومة لا تعرف نظاماً معيناً لجباية الضرائب فلم يكن لهؤلاء السلاطين سبيل الى جمع الاموال اللازمة لحملاتهم الحربية ولاسرافهم الفاحش في البلاط وتبذيرهم المال في تشييد الابنية الكبرى الاّ بابتزازهم اموال الرعية ومصادرة اموال ذوي المناصب في الدولة الذين اثروا على حساب الجمهور . وفضلاً عن ذلك كانت قبائل البدو في الدلتا والصحراء شرقاً تغير على الفلاحين الآمنين في مزارعهم في

١) ابن تغري بردي ج ٦ ص ٧٦٠ .

٢) ابن تغري ج ٧ ص ١٨٦ ، ٧٢١-٢ .

وادي النيل الضيق فيعم البلاد الخراب والدمار . ثم ان الجراد كان كالاوبئة يزور البلاد بين آن وآخر حتى كاد الجوع ان يصبح ضربة مزمنة وتفاقم شره في سني الطاعون والجفاف الناشىء عن قلة الماء في النيل وفي زمن فرج وشيخ كثر موت الناس جوعاً . ويُقدر ان سورية ومصر خسرتا من مجموع سكانهما في عهد المماليك نحو الثُلثين (١) .

وقوف التجارة الهندية

وفي آخر هذه الحقبة دخلت بعض العوامل العالمية واخذت تزيد البلاد فقراً وتعاسة . ففي سنة ١٤٩٧ دار الملاح البرتغالي فاسكو ده غاما بحراً حول رأس الرجاء الصالح ، وكان هذا حادثاً خطيراً في تاريخ المملكة السورية المصرية اذ كثرت بعد ذلك غارات الاسطول البرتغالي وسواه من اساطيل اوربا على سفن المسلمين في البحر الاحمر والمحيط الهندي . وليس هذا فحسب بل تحولت تجارة التوابل وسواها من الحاصلات الاستوائية التي امتازت بها الهند وبلاد العرب من المرافىء السورية والمصرية الى غيرها من المرافىء وبذلك تلاشى الى الابد كذلك المورد الذي كان يدر على البلدين ايراداً كبيراً . وبعد ان اشتبك اسطول الغوري مراراً مع سفن البرتغاليين قبالة ساحل الجزيرة العربية انذر الغوري البابا بتخريب الاماكن المقدسة النصرانية اذا لم يرتدع البرتغاليون عن شرهم فلم يجد الانذار فتيلاً . وفي سنة ١٥٠٠ ثبّت البرتغاليون اقدامهم في كلكُت على الشاطىء الغربي من الهند وبعد ثلاث عشرة سنة ضرب قائدهم الفونسو دا البوكركي (٢) بلدة عدن .

ابنية رائعة

وكانت الحسنة الوحيدة في هذه الحقبة ظاهرة البناء ـ وكأنها جاءت كفارة عن نقائص الحكام ـ وتتمثل هذه الظاهرة في ابنية رائعة لا تزال باقية الى اليوم كدليل ناطق على روعة هندسة البناء الاسلامية . منها جامع برقوق وضريحه الفخم ومسجد قايتباي وجامع الغوري .

---

١) قابل ابن تغري بردي ج ٦ قسم ٢ ص ٢٧٣ .

٢) من « ابو القرق » العربية .

اما الجامع التذكاري الذي شاده قائتباي فانه يحوي جامعاً وضريحاً وسبيلاً ومدرسة وفيما عدا تآلف اللونين اللذين يزينان قبته - الاحمر والابيض - فانها مزخرفة بشبكة جميلة رائعة من اوراق



مدرسة قائتباي في القاهرة

النبات والورد مرسومة حسب الزي المألوف حينذاك . وقد حافظ هذا البناء وغيره من ابنية المماليك على التقليد المألوف من حيث الاناقة والقوة وهو التقليد الذي وضعته مدرسة الايوبيين في سورية .

ولقد اتبع البرجيون العادة القديمة في تزويق انتاج الفنون الجميلة الفرعية بالكتابة العربية المنمقة . وقد كان عصر قائتباي في هذه الصناعات كما كان فن العمارة اغنى عصور المماليك منذ زمن الناصر ابن قلاوون .

العلاقات الاجنبية

وكان المماليك البرجية في علاقاتهم الخارجية أقل حظاً منهم في شؤونهم الداخلية . اذ قبل انتهاء دور ملكهم الاول بدا في الافق الشمالي شبح غاز مغولي جديد في شخص تيمور الذي كان جديراً في ان يخلف هولاكو وجنكيز خان . وكانت سورية طوال هذه الحقبة عرضة لثورات قام بها حكامها الوطنيون بتحريض من المغول . وقد ظهر الآن عدا تيمور عدو فتاك اشد خطراً على المملكة هو بنو عثمان في الاناضول .

فتح قبرس

وكانت الناحية الوحيدة المنيرة في هذا العصر المظلم هي فتح برسباي لقبرس بين سنتي ١٤٢٤ و ١٤٢٦ . وكانت الغاية من الحملة المصرية على هذه الجزيرة في البحر المتوسط منع القرصان الذين كانوا يغيرون على المرافىء السورية مراراً من اتخاذ مقر لهم فيها . وكانت قبرس في ايدي الافرنج منذ احتلها رتشرد في عام ١١٩١ . وقد نزلها الفرسان الداوية اولا ثم ابناء بيت لوسينيان (Lusignan) . ومن هنا فقد كانت حليفة قوية للصليبيين وخطراً دائماً يهدد المماليك . وفي عام ١٢٧٠ خرج بيبرس لأول مرة محاولا الانتقام من اهل قبرس الذين كانوا يغيرون على ساحل الاسلام ولكن اسطوله انكسر بالقرب من اللمسون (Limassol) . اما الآن فقد انفذ برسباي لفتحها طوائف قوية من غزاة المسلمين فأخذوا قلعة اللمسون ثم تقدموا حتى مدينة الافقسية (الافقوسية) وهي عاصمة قبرس فاستولوا عليها وغلبوا الجيش اللوسينياني واسروا ملكها جينوس (Janus) . ثم ركب الغزاة المراكب عائدين الى الديار المصرية ومعهم الاسرى والغنائم ومن جملتهم الملك نفسه . ودخل جينوس واعلامه منكسة وخيله تقاد من وراء الغنائم و بعده الاسرى وهم أزيد من الف . ومشى جينوس ومشى معه الامراء من الغزاة والحجاب ورؤوس النوب وهو يرسف في قيوده لكثرة الزحام . فلما رأى متملك قبرس السلطان وهو جالس على المقعد في موكبه قبل الارض (١) . ثم غشي عليه وسقط الى

١) كان المعز الخليفة الفاطمي اول من امر بتقبيل الارض بين يدي السلطان ثم قام برسباي فكان اول من

الارض فحمل الى القلعة . ولقد حضر ابن تغري بردي (١) بعدئذ فجلس جينوس الاسير واورد وصف شاهد عيان لما كان من امره . وانتهى الامر اخيراً ان التزم قنصل البندقية وسواه من القناصل عن جينوس بالمال لفدائه فتقرر الصلح بعد ايام على ان يعود متملك قبرس الى عرشه بعد ان يدفع للسلطان مئتي الف دينار ويقدم في كل سنة عشرين الف دينار جزية . وعقد برسباي صلحاً مع رودس ايضاً التي كان فرسان القديس يوحنا فيها يناصرون اهل قبرس في غاراتهم على ساحل مصر . وقبرس هي كل ما بسط المماليك البرجية نفوذهم عليه طوال حقبتهم . على ان الجزيرة لم تكن شيئاً مقابل ما اضاعوه .

تيمور

ولد تيمور لنك سنة ١٣٣٦ فيما وراء النهر وكان احد اسلافه وزيراً لابن جنكيزخان الا ان اسرته ادعت انها متحدرة من جنكيز نفسه . اما ابن عربشاه (٢) الذي كتب سيرته وشنع الكلام فيه فيقول انه واباه من الفدّادين ثم يضيف : « وقيل كان ابوه اسكافاً فقيراً جداً . ولما كان به من القلة اندفع الى ارتكاب الجرائم ففي بعض الليالي سرق غنمة فضربه الراعي في كتفه بسهم فابطلها وثنى عليه في فخذه باخرى فابطلها فازاد كسره على فقره فسمي «لنك» اي «اعرج» . وفي سنة ١٣٨٠ سار على رأس اقوامه التتر فشرع في سلسلة حملات متواصلة الحلقات افتتح بها افغانستان و بلاد العجم وفارس وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغداد وفي مدة سنتين دوخ ارض الرافدين . وفي تكريت سطر رأس صلاح الدين انشأ هرماً من جماجم ضحاياه . وحمل في سنة ١٣٩٥ على ارض قبشاق واحتل موسكو فاقام بها اكثر من سنة . و بعد ثلاث سنوات غزا الهند الشمالية وقتل ثمانين الفاً من اهالي دلهي . وكانت رسله هم الذين تجرأ برقوق في آخر عهده على الفتك بهم مع انهم جاءوا في مهمة سلمية.

امر بالكف عن ذلك وجعل بدله تقبيل اليد فبقي ذلك اياماً ثم بطل وعاد تقبيل الارض ولكن بطريق احسن كان ينحني الرجل كالراكع ويضع اطراف اصابع يده على الارض ولا يقبلها بفمه ابداً» ابن تغري بردي ج ٦ قسم ٢ ص ٥٥٨-٩ .

١) ج ٦ قسم ٢ ص ٦١٢-١٨ ، ٦٢٠ .

٢) « عجائب المقدور في اخبار تيمور » (القاهرة ، ١٢٨٥) ص ٤-٦ .

وفي سنة ١٤٠١ ، كتسحت جيوشه سورية الشمالية واستولت على حلب واستباح تيمور المدينة ثلاثة ايام نهباً واسراً وتقتيلاً و بنى من رؤوس القتلى المسلمين فيها تلالاً مستديرة محيط الواحدة نحو عشرين ذراعاً وارتفاعها نحو عشرة وقد جعلت الوجوه فيها بارزة يراها من يمر بها (١) وكان فيها ما يزيد على عشرين الف راس . وهدمت بعض بيوت حلب وهدم ما فيها من مساجد ومدارس تعود الى عصر النوريين والايوبيين . ثم رحل تيمور عنها الى جهة دمشق فمر بحماة وحمص و بعلبك فاخذها . وانهزم الجيش المصري الذي كان يقوده السلطان فرج وسقطت دمشق بايدي التتر بعد ان دافعت قلعتها شهراً . واقام تيمور في دمشق وسبا اهلها واحرق عمارتها حتى سقطت سقوف جامع بني امية من الحريق وزالت ابوابه ولم يبق غير جدره قائمة (٢) . ولما كان تيمور يدّعي الاسلام و يميل الى مذهب الشيعة فقد ارغم العلماء على ان يُفتوا باستحسان تصرفه في دمشق . واخذ طائفة من خيرة علماء دمشق وحذاق صناعها وفنانيها فحملهم معه الى عاصمته سمرقند و بذلك انتقلت اليها طائفة من الفنون الفرعية التي فقدتها العاصمة السورية منذ ذلك الحين . ولقد خلف لنا ابن تغري بردي (٣) الذي كان ابوه مقدم حاملي السلاح للسلطان فرج صورة رائعة لحملة تيمور هذه . اما ابن خلدون فانه رافق فرجاً من القاهرة وتصدر الوفد الذي اتخذه الدمشقيون للمفاوضة مع تيمور في السلم . واخيراً غادر هذا الفاتح الغاشم دمشق مسرعاً الى بغداد يثأر من اهلها لقتلهم بعض رجاله فنكل بهم تنكيلاً وفتك بخلق كثير و بنى مئة وعشرين برجاً في انحاء المدينة من رؤوس القتلى .

وفي السنتين التاليتين زحف تيمور على آسية الصغرى فسحق جيش العثمانيين عند انقرة (٢١ تموز ١٤٠٢) واخذ السلطان بايزيد الاول اسيراً . واستولى ايضاً على عاصمتهم بروسا وعلى ازمير . وحُمل الاسير العظيم فكان يُكبل بالقيود في الليل ويُسار به في هودج على

---

١) ابن تغري بردي ج٦ قسم ٢ ص٥٢ .

٢) ابن تغري بردي ج ٦ قسم ٢ ص ٦٨ .

٣) ج ٦ قسم ٢ ص ٥ ، ٥٠ وما يلي . قابل ميرخواند تاريخ روضة الصفاء (طهران ، ١٢٧٠) الكتاب السادس .

حصانين يحيط به قضبان الحديد « قفص » . وقد أدت لفظة قفص وعبارة اوردها ابن عر بشاه (١) لم يفهمها البعض الى اسطورة مغلوطة بان بايزيد انما حبس في قفص من حديد وكان لحسن طالع دولة المماليك ان مات تيمور بعد سنتين (١٤٠٤) في اثناء زحفه شرقاً لتحقيق امنية اعظم الا وهي فتح الصين ولا يزال قبره معروفاً الى اليوم في سمرقند .

التيموريون

ودارت بين ابنه شاه رخ (١٤٠٤ ـ ٤٧) الذي خلفه و بين برسباي مراسلات عنيفة ادّعى فيها الاول انه نذر ان يكسو الكعبة بالكسوة الشريفة وطلب الى برسباي ان يبعث اليه من يستلم الكسوة . ولما كانت هذه من حقوق المماليك الذين كانت لهم السيادة بين امراء الاسلام فقد عقد السلطان مجلساً بين يديه بالقضاة الاربعة بسبب نذر شاه رخ ابن تيمور و بعد مشاورتهم ارسل الى شاه رخ جواباً فحواه ان اراد الملك وفاء نذره فليبع الكسوة ويتصدق بثمنها على فقراء مكة(٢) . ولكن شاه رخ انفذ رسولا آخر ومعه خلعة ليلبسها السلطان على انه نائب عنه في ولاية مصر . فأمر برسباي بالخلعة فمزقت تمزيقاً و بالرسول فضرب ضرباً مبرحاً وسحب الى بركة ماء بالاسطبل فالقي فيها منكوساً . وكان ذلك اليوم شديد البرد وكان ابن تغري بردي (٣) من الذين شاهدوا هذه الحادثة عياناً . وافنى بنو تيمور بعد شاه رخ قواهم في الفتن الداخلية التي مهدت السبيل لقيام الصفويين وعودة الامبراطورية العثمانية.

الترك العثمانيون

ولقد سبقت الاشارة الى ان اصل الترك العثمانيين في بلاد المغول واختلاطهم بالقبائل الايرانية في آسية الوسطى والى نزوحهم آسية الصغرى حيث حلوا تدريجياً محل ابناء عمومتهم السلاجقة واذابوهم في كيانهم حتى اذا جاء مطلع القرن الرابع كانوا قد أنشأوا مملكة كتب لها ان ترث الامبراطورية البيزنطية والخلافة العربية . وكان بايزيد الاول (١٣٨٩-١٤٠٢)

---

١) ص ١٤٦ .

٢) ابن تغري بردي ج ٦ قسم ٢ ص ٧٢٢ ، ٧٢٥ .

٣) ج ٦ قسم ٢ ص ٧٤٣ .

ابن حفيد عثمان (١٢٩٩ - ١٣٢٦) مؤسس الدولة . وفي عهده ضاعت المنطقة الاسيوية من يد الترك باسرها وكانت تمتد من الحدود السورية الشمالية الى الدانوب . ولكن محمد الاول (١٤١٢ - ٢١) استرجع في السنين العشر التالية هذه المنطقة من اوربا واعادها قاعدة لملكه . ثم ان المشكلة العثمانية جابهت سلاطين مصر بصورة مقلقة في زمن بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) وهو ابن حفيد بايزيد الاول - ومعاصر قائتباي . وقامت العداوة بين الجانبين حتى ظهرت الى حيز الوجود في شكل مناوشات وقعت بين العمال التابعين لهما على حدود آسية الصغرى وسورية وفي سنة ١٤٨١ تولد لقائتباي مشكل جديد اذ سمح لاخي بايزيد الثاني المدعو جم بالالتجاء الى مصر وكان جم يدعي عرش آل عثمان . ثم رحل جم هذا الى رومة ففاوض سلطان المماليك ايضاً البابا في امر ارجاعه الى مصر . غير ان اتساع الخرق بين الترك والمماليك يرجع الى سبب مباشر هو أن قانصوه الغوري عقد محالفة سرية مع عدو الترك اللدود شاه اسماعيل الفارسي (١٥٠٢ - ٢٤) .

الصفويون

اما اسماعيل هذا فهو مؤسس الدولة الصفوية (١٥٠٢ - ١٧٣٦) وهي اعظم دول المسلمين الفرس واكثرها مجداً . ويرجع اسمها الى الشيخ صفي الدين الذي كان اسماعيل هذا سادس خلفائه . وارجعت الاسرة أصلها الى الامام السابع موسى الكاظم وكانت شيعية شديدة الحماسة في عقيدتها وقد اعلن مؤسسها لدى ارتقائه العرش مذهب الشيعة (و بنوع أخص الاثني عشرية) ديناً للدولة الفارسية وهي لا تزال عليه الى الآن . اما اشتباكه الحربي مع سليم الاول (١٥١٢ - ٢٠) العثماني السني ابن بايزيد الثاني فقد وقع في ٢٣ آب سنة ١٥١٤ شرقي بحيرة ارمية حيث انهزمت فرسانه امام الانكشارية [١] وقد تفوقوا عليه بفضل مدفعيتهم القوية ثم احتل الترك تبريز عاصمة اسماعيل والعراق وقسماً من ارمينية (١٥١٥) .

---

١) يني تشري في التركية اي جنود جديدة وهو اسم اطلق على المشاة النظامية واكثرهم في الاصل من اطفال النصارى الذين كان اولياء الامر العثمانيون يقبضون عليهم. وقد كانوا عمدة الجيش في الفتوحات العثمانية.

معركة مرج دابق الحاسمة

وفي ربيع السنة التالية سار قانصوه الغوري – وكان في أصله عبداً لقانتباي – الى حلب بحجة التوسط بين الفريقين المتحاربين ولكنه كان في الواقع يسعى الى انجاد حليفه الفارسي . ولكي يجعل مهمته ذات صفة سلمية اصطحب معه المتوكل، الخليفة بالاسم، ورؤساء القضاة في مملكته . غير ان هذه الحيلة لم تنطل على السلطان سليم فقد كانت له شبكة تجسس وكانت تصله اخبار سلطان المماليك من عيونه وجواسيسه الذين بثهم حوله . ولما لحق رسول قانصوه بمعسكر سليم حُلقت لحيته، وهي اهانة عظمى، وارسل على بغلة مرفوقاً باعلان الحرب. اما مرافقوه فاعدموا . ولم تكن هناك وسيلة بيد قانصوه لتجنب الكارثة . ومع ان قانصوه كان يومئذ يناهز الخامسة والسبعين فانه كان لا يزال نشيطاً وقد برهن طوال ملكه على شيء من المقدرة بيد انه لم يجد الى الاعتماد على ولاء حكامه في شمالي سورية سبيلاً ولا على مناصرة كثير من امرائه المصريين .

وفي ٢٤ آب سنة ١٥١٦ التقى الجيشان في مرج دابق على مسيرة يوم من حلب شمالا وعهد قانصوه بقيادة ميسرته الى خاير بك حاكم حلب الخائن ولم يكد ينشب القتال حتى بادر هذا الى الهزيمة مع جنده . ولم يلبث قانصوه الشيخ ان انقلب من على جواده ومات لساعته بداء السكتة (١) . وكان ظفر العثمانيين باهراً . وقد امتاز الجيش التركي بعدته الحديثة من آلات الرمي والبندقيات وسواها من الاسلحة ذات المرمى البعيد التي لم يكن مثلها عند المصريين وكان جيش المماليك يضم افواجاً من البدو السوريين ممن لا عهد لهم بمثل هذه الاسلحة. وقد جرى الترك على استعمال البارود قبل ذلك العهد ، اما السوريون والمصريون فقد احتفظوا بنظرتهم القديمة التي تذهب الى ان البطولة الشخصية هي العامل الحاسم في القتال ودخل السلطان سليم مدينة حلب ظافراً فاحتفل به أهلها واعتبروه منقذاً من فظائع المماليك . وأحسن السلطان العثماني الى الخليفة . ثم انه وجد في قلعة حلب كنوزاً طائلة تقدر بملايين الدنانير كان سلطان المماليك وامراؤهم قد اختزنوها فيها. وحوالي منتصف تشرين الاول زحف

١) ابن اياس نشر بول كالي (اسطنبول ، ١٩٣٢) ج ٥ ص ٦٧–٩ .

على دمشق واستولى عليها وكان اكثر قوادها قد انضموا اليـه بينما التجأ الباقون الى وادي النيل . وبذلك انتقلت سورية الى ايدي العثمانيين حيث ظلت طوال اربعة قرون .

فتح مصر

ومن سورية زحف الفاتح العثماني جنوباً فدخل مصر . وكان طومان باي مملوك قانصوه قد اصبح سلطانها . والتقى الجيشان خارج القاهرة في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٥١٧ ودافع طومان باي اول الامر دفاعاً عظيماً ولكن الفساد الذي كان قد دبّ الى جيشه والتحاسد بين الامراء وفقدان المال وقلة الاسلحة النارية وتفوق المدفعية العثمانية ـ كل هذه ـ كان لها اثرها في تقرير مصير العراك . واخيراً تم لسليم ـ تسانده افواج البدو ـ ان يدخل القاهرة ويعمل فيها النهب وقد قتل كل من وقع بيديه من المماليك . والقت مدافعه من ضفة النيل قذائفها على من تبقى من الجيش . وهرب طومان باي لاجئاً الى احد زعماء البدو . ثم غُدر به وشنق (١٤ نيسان) على احد ابواب المدينة (١) . وبهذا تحطمت سلطنة المماليك الى الابد . وأفل نجم القاهرة عاصمة الاسلام الشرقية منذ ايام صلاح الدين واصبحت مدينة من مدن الامصار . وانضمت مكة والمدينة طوعاً الى الامبراطورية العثمانية . وخطب خطباء الجوامع من على منابر مصر قائلين : « وانصر اللهم السلطان ابن السلطان مالك البرّين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصراً عزيزاً وافتح له فتحاً مبيناً يا مالك الدنيا والآخرة يارب العالمين » . (٢)

الخلافة العثمانية

وبعد ان لبث الفاتح العظيم في وادي النيل حتى خريف السنة وزار الاهرام والاسكندرية واماكن اخرى شهيرة عاد الى القسطنطينية وهي عاصمة العثمانيين منذ سنة ١٤٥٣ مصطحباً الخليفة المتوكل . واقيمت على الخليفـة بعدئذ تهمة التلاعب باموال ائتمن عليها فسيق الى

١) ابن اياس ص ١٣٩ وما يلي .
٢) المصدر نفسه ص١٤٦ ٥ .

السجن ولم يسمح له بالعودة الى القاهرة حتى عهد سليمان القانوني ابن سليم وخليفته، وفيها مات عام ١٥٤٣ . وبوفاته خُتم آخر فصل في تاريخ الخلافة العباسية الهزلي . وسواء أصحت الدعوى القائلة انه أوصى بالخلافة الى السلطان العثماني ام لم تصح فالواقع هو ان امير القسطنطينية التركي اكتسب تدريجياً امتيازات الخلافة ثم اتخذ اخيراً لقب الخلافة نفسه . ومع ان بعض خلفاء سليم تسموا بالخلفاء، وخوطبوا بلقب الخلافة فان هذا اللقب لم يكن الا من قبيل التبجيل ولم يُعترف به خارج مناطق نفوذهم . واول وثيقة دبلوماسية معروفة اشير فيها الى السلطان العثماني بلقب الخلافة واعترف فيها بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هي المعاهدة الروسية التركية الموقع عليها في كوتشوك كينرجي عام ١٧٧٤ .

واصبح الآن سلطان القسطنطينية الخليفة اعظم ملوك الاسلام ولم يكن وريثاً لخلفاء بغداد فحسب بل كان ايضاً وريثاً لأباطرة بيزنطة . وبتحطيم سلطة المماليك وتوطيد اقدام الترك على البوسفور انتقل مركز الاسلام غرباً . والواقع ان مركز الحضارة العالمية كان قد انتقل في هذا الزمن ايضاً الى الغرب حيث ان اكتشاف اميركا والطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح حدا الى ان تسلك التجارة العالمية في خطوط جديدة ، فأخذت البلدان الواقعة في شرقي البحر المتوسط تخسر مركزها الخطير واخذ شأنها يزول . وهنا ينتهي تاريخ الخلافة العربية والدول الاسلامية التي نشأت في العصور الوسطى على انقاض الامبراطورية العربية ويبدأ التاريخ الحديث لامبراطورية الخلفاء العثمانيين .

القسم السادس
تحت الحكم العثماني

الفصل الخمسون

البلاد العربية تصبح ايالات تركية

تأسست الدولة العثمانية في الاناضول حوالي سنة ١٣٠٠ على انقاض المملكة السلجوقية وعلى حساب الامبراطورية البيزنطية . ومر على تأسيسها نحو ثلثي قرن لم تكن في اثنائها سوى امارة على الحدود فحسب(١) . وظلت هذه الدولة طيلة هذه المدة في حالة حشد عام خوف الحرب وكانت في بعض الاحيان عرضة للخطر وكانت عاصمتها منذ سنة ١٣٢٦، مدينة بروسا (برسا) وفي سنة ١٣٦٦ اصبحت اركان الامارة اكثر ثباتاً . وغنمت الامارة قطعة من الارض الاوربية اضافتها الى ممتلكاتها وضمت هذه كلها بحيث اصبحت مملكة عاصمتها أدرنة(٢) . وقد كان احتلال محمد الثاني الفاتح (١٤٥١ ـ ٨١) للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ فاتحة عصر جديد هو عصر الامبراطورية . وقد تمركز هذا الجبار الجديد على حافتي البوسفور

---

١) جدول النسب للحكام العثمانيين الاول :

١) عثمان الاول ١٢٩٩
|
٢) اورخان ١٣٢٦
|
٣) مراد الاول ١٣٥٩
|
٤) بايزيد الاول ١٣٨٩ ـ ١٤٠١
|
سليمان (احد المطالبين بالعرش) (١٤١٠ ـ ١٤١٣) — ٥) محمد الاول ١٤٠٣ (منفرداً بالسلطة ١٤١٣) — موسى (احد المطالبين بالعرش) (١٤٠٣ ـ ١٤١٠)
|
٦) مراد الثاني ١٤٢١
|
٧) محمد الثاني ١٤٥١

٢) رجال الدور الثاني :

واضعاً قدماً في آسية واخرى في اوربا . وقد جعلته مملكته المتسعة وريث بيزنطة . وليس هذا فحسب بل استطاع بعد ان قضى على سلطة المماليك (١) ان يصبح وريث الدول التي خلفتها في البلاد العربية . وقد لازم هذا الارث السياسي الذي تحدر الى الدولة الجديدة ارث آخر فكري يقابله ولعل هذا التراث المزدوج قد حمل في ثناياه اهم الحقائق وأعمقها في تاريخ تركيا العثمانية .

افريقيا الشمالية

واخذت دول عربية اخرى في القرن السادس عشر تدخل في حظيرة الهلال التركي ، وكانت اولاها الجزائر . ففي سنة ١٥١٨ وهي السنة التالية لفتح مصر هاجم خير الدين بربروسا واخوه بلاد الجزائر - وكانا قرصانين عثمانيين يوناني الاصل - واجليا الأسبان عنها ومنحاها للباب العالي فكافأ الباب العالي خير الدين في ان منحه لقب « بيلربي » (٢) . وافتتح خير الدين عهد ارستقراطية عسكرية قوامها الفرقة الانكشارية ونظم كذلك للسلطان اسطولاً تام العدة فيه رجال متمرنون قد مارسوا الحروب اكثرهم من النصارى المارقين من ايطاليين ويونان . وكان هذا الاسطول على اتم الاستعداد لتنفيذ سياسة الاحتلال او الفتح في جميع انحاء البحر المتوسط . ونشر هذا الاسطول الرعب من الاتراك وحمله غرباً حتى شواطىء اسبانية بينما نقل الانكشارية الرعب شرقاً حتى شواطىء دجلة . وهكذا تمركز جارٌ خطر غربي تونس (أفريقية الرومان) . وكانت هناك خصومة في تونس حول الاستخلاف على العرش التونسي فاغتنم خير الدين الفرصة واحتل تونس موقتاً سنة ١٥٣٤ ولكن البلاد لم تخضع بكليتها للاتراك او تصبح ايالة تركية الا بعد ذلك باربعين سنة . فقد سار اليها عند ذاك سنان باشا على رأس قواته البرية واخضعها . وكان سنان باشا قائداً ممتازاً من أصل الباني . وكان في سنة ١٥٦٨ - وهو حاكم مصر - قد سيّر حملة على بلاد

---

١) انظر ص ٨٢٩ من هذا الكتاب .

٢) لفظة « بي » من « بيك » التركية الشرقية وهو لقب شرف لا يزال مستعملا الى ايامنا في بعض البلاد العربيه لاسيما في مصر .

العرب الجنوبية وأخضع اليمن واضافها الى ممتلكات بني عثمان (١) . وكان بيري رئيس وهو امير بحر تركي من أصل مسيحي فيما يرجح قد قام ببعض الاعمال الحربية قبل سنان باشا على شواطىء الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية ، واحتل عدن سنة ١٥٤٧ ، ومسقط ١٥٥١ ، ونفذ حتى رأس الخليج الفارسي. وفي خارطة له اكتشفت حديثاً وهي الخارطة المعروفة بخارطة كولمبس يظهر المحيط الاطلسي واميركا (٢) . وكان الحاكم في تونس اول الامر يدعى « باي » وظل الحكام يتمتعون بهذا اللقب ثم أصبح الحاكم بعد ذلك يدعى « داي » (٣) . وظلوا كذلك اكثر من قرن بعد ١٧٠٥ . وكان سنان باشا واثنان آخران من امراء الجيش الاتراك قد أخرجوا فرسان القديس يوحنا (المالطيين) من طرابلس الغرب قبل انتهاء الحكم الاسباني والحكومات الوطنية في تونس . وقد استطاعوا في سنة ١٥٥١ ان يحتلوا مدينة طرابلس نفسها . وقد اكتسبت هذه المدينة اسمها من ثلاث مستعمرات قرطجنية كانت هي والاراضي المجاورة تشكل مقاطعة طرابلس (تريبولتانيا) التي حكمتها روما . وكان عنصر البربر فيها اضعف عنصر . وهكذا دخلت دول البربر (٤) في حظيرة الدولة العثمانية ما عدا مراكش الجبلية (المغرب الاقصى — موريتانيا الرومانية تقريباً) التي كان نصف سكانها او اكثر بربراً . والظاهر ان نسبة البربر بين السكان بوجه عام تزيد كلما اتجهت غرباً او جنوباً .

---

١) قابل Joseph von Hammer, *Geschichte des osmanischen, Reiches*, vol. iii, (Pest, 1828), p. 551; وقابل ايضاً قطب الدين المكي ، البرق اليماني في الفتح العثماني ، ترجمة سلفستر ده ساسي في: *Notices et extraits des manuscripts de la Bibliothèque Nationale*, vol. iv (Paris, 1791-6), pp. 468 *seq.* وراجع ايضاً عن اليمن : حسين العرشي ، بلوغ المرام في شرح مسك الختام ، نشر انستاس الكرملي . (القاهرة ، ١٩٣٩) ص ٦٠ — ٨٠ .

٢) Paul kahle in *The Geographical Review*, vol. xxiii. (1933), pp. 621-38; وقابل حجي خلفه ج ٢ ص ٢٢ — ٢٣ ؛ وراجع Piri Re'is, *Bahriyah*. ed. Paul Kahle, 2 vol. (Berlin, 1926).

٣) من « داي » التركية بمعنى خال .

٤) كان اليونان يطلقون لفظة بربري على كل الشعوب التي تعيش خارج نطاق الحضارة اليونانية . واطلق الرومان هذه اللفظة على المنطقة الواقعة غربي مصر .

وقد اصبحت طرابلس وتونس والجزائر في ذلك العهد مراكز حكومات أقليمية تابعة بالاسم للباب العالي ولـكنها في الواقع شبه مستقلة . وظلت مدة طويلة وعلى كل منهـا حاكم من اهل البلاد او من الذين استوطنوها . وكـان الحكم ينتقل بطريقة الوراثة الى ذرية الحاكم نفسه . وكـانت الحـكومات في هذه المقاطعات الثلاث تحت سيطرة عسكرية فردية . وكانت الطريقة التي يظهر بها الحاكم الفرد الوطني اعترافه بحق الباب العالي في السيادة هي ارسال نوع من الجزية كل سنة ، ولـكنها كـانت في الا كثر ترسل بشكل هدية . وكـانت تنشب في هذه الدول احياناً فتن داخلية يثيرها عمال الخصاء للعثمانيين . وقد حكم طرابلس من سنة ١٧١١ الى ١٨٣٥ اسرة قرمانلي . وكـان ضعف الاسطول العثماني ابتداءً من القرن السابع عشر فيما بعد داعياً الى تقلص نفوذهم في المقاطعات الافريقية بحيث أتيحت الفرصة لحكام هذه المقاطعات باشوات كـانوا او بايات او غير ذلك ان ينالوا قسطاً اوفر من الحـكم الذاتي ويصبحوا اكثر استقلالاً من زملائهم في مصر وسورية .

دول القراصنة

وتطورت هذه الدول مع الزمن الى دول قرصنة وكـانت اعمال القرصنة موجهة بنوع خاص ضد النصارى . وقد ظهرت اول الأمر بشكل جهاد ثم أصبحت كالجندية مهنة خاصة وكـانت هذه المهنة تعود بالربح على الحـكومة والشعب معاً . وكـانت تفرض ضريبة خاصة على الاسرى والغنائم فيحتفظ بالاسرى حتى يُفتدوا او يباعوا ارقاء . وقد ظل الدخل من هذه القرصنة طيلة نحو ثلاثة قرون المصدر الرئيسي لواردات الخزينة في الدولة . وكـانت مراكب القرصنة في بعض الاحيان تشترك كوحدات مع الاسطول العثماني. ودخل كثير من المنفيين (١) من اسبانية في صفوف القراصنة في البحر الابيض وعاثوا فساداً فيـه ونشروا الرعب (٢) . وبلغت هذه الحركة اشدها في النصف الاول من القرن السابع عشر وغمرت شواطىء ايطاليا

١) انظر ص ٦٥٩-٦٦٠ من هذا الـكتاب .

٢) للاستزادة راجع : Stanley Lane-Poole, *The Story of the Barbary Corsairs* (New York, 1891).

وفرنسا واسبانية . واخذت تقوم انكلترا وفرنسا في النصف الثاني من القرن المذكور بعمليات بحرية استطاعتا أثرها ان تفرضا على القراصنة احترام رايتيهما . اما الدول الصغرى فقد ظلت تشتري سلامة رعاياها وتجارتها بجزية سنوية ، ولم تكن هذه السلامة راهنة او مضمونة في كل الاحوال . وهكذا كانت الحال مع هولندة والدنمرك واسوج ، حتى الولايات المتحدة فانها التمست السلامة بدفع الجزية واضطرت في سنة ١٧٨٣ أن تدخل في حرب مع الجزائر المقر العام لقراصنة البحر . وفي سنة ١٨٠١ اصرّ « داي » طرابلس القرمانلي على ان تزيد الولايات المتحدة الجزية التي كانت تدفعها سنوياً منذ سنة ١٧٩٦ وهي ٨٣ الف ريال ونتج عن اصراره هذا حرب دامت اربع سنوات . وفي سنة ١٨١٥ جاء الى طرابلس اسطول عدائي آخر من اميركا وكانت هذه العمليات والاشتباكات البحرية مع دول البربر من العوامل التي ساعدت على تقوية الاسطول الاميركي .

عظمة القسطنطينية

كانت اكثر الفتوحات في افريقيا الشمالية قد تمت في عهد سليمان الاول (١٥٢٠ ـ ٦٦) وهو ابن فاتح سورية ومصر . وكان سليمان هو العاهل الذي بلغت الامبراطورية العثمانية في ظله اوج مجدها (١) . ففي عهده اخضعت اكثر بلاد هنغاريا وحوصرت فينا وفتحت رودس . وامتدت السلطة العثمانية من بودابست على نهر الدانوب حتى بغداد على نهر دجلة ومن القرم حتى شلال النيل الاول، وهي اعظم دولة اسلامية في العصور الاخيرة . وليس هذا فحسب بل

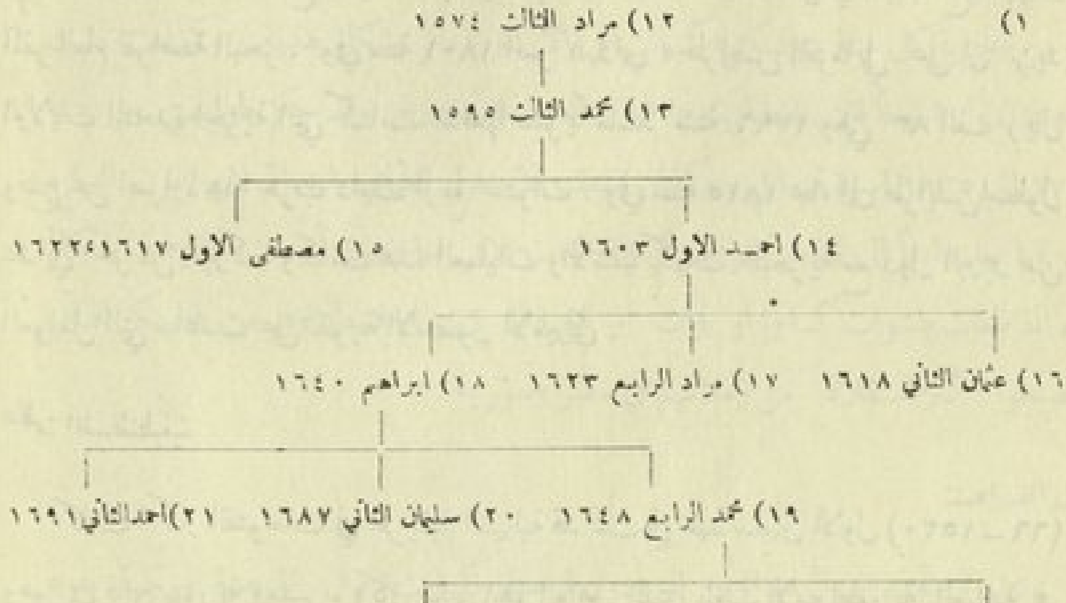
(١) ٧) محمد الثاني ١٤٥١
|
٨) بايزيد الثاني ١٤٨١
|
٩) سليم الاول ١٥١٢
|
١٠) سليمان الاول ١٥٢٠
|
١١) سليم الثاني ١٥٦٦
|
١٢) مراد الثالث ١٥٧٤

كانت هذه الدولة من أطول الدول الاسلامية عمراً . فقد تتابع على عرش الملك فيها مـا لا يقل عن ستة وثلاثين من السلاطين وقد تحدروا جميعاً من عثمان عن طريق آبائهم وملكوا من سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٩٢٢ (١).

واخيراً اصبح سليمان معروفاً عند بني قومه بـ « القانوني » وهو لقب رفيع وذلك للتقدير

---

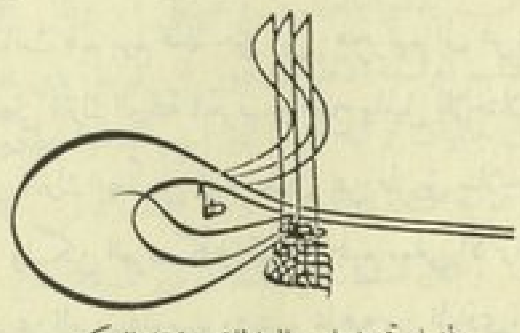
(١)



الذي نالته الشرائع التي قرنت باسمه (١) من ابناء الاجيال اللاحقة . وقد عهد الى ابراهيم الحلبي (١٥٤٩) في وضع كتاب في الشريعة هو ملتقى الابحر . وقد ظل هذا الكتاب العمدة في امور الشريعة العثمانية حتى عهد الاصلاحات التي تمت في القرن التاسع عشر (٢).

اما الاوربيون فقد عرفوا هذا العاهل باسم سليمان الكبير وقد كان كبيراً حقاً وكان بلاطه دون نزاع من افخم البلاطات في اوربا وآسية. وانظر اليه كيف يكتب الى فرنسيس الاول ملك فرنسا :

« انا سلطان السلاطين وملك الملوك مانح التيجان للملوك على وجه البسيطة ظل الله في الارض ، سلطان البحرين الابيض والاسود وخاقان البرين وملك الروملي والاناضول و بلاد الكرمان و بلاد الروم وزلكدريا وديار بكر و كردستان وآذر بيجان وفارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة والقدس وكل البلاد العربية واليمن و بلاد كثيرة اخرى افتتحها آبائي الاشراف واجدادي الامجاد نوّر الله مراقدهم بقوة سلاحهم وجعلتها جلالتي المعظمة تابعة لسيفي الملتهب ومهندي المنتصر انا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان أبعث اليك انت فرنسيس ملك بلاد فرنسا » (٣).



طغراء تحمل اسم السلطان سليمان الكبير

ولقد زين سليمان عاصمته وانشأ فيها وفي كثير من المدن الاخرى الجوامع والمدارس والمستشفيات والملاجىء والجسور والاقنية ومحطات القوافل والحمامات العامة . وقد بنى من الحمامات سنان مهندسه الخاص وحده مئتين وخمسة وثلاثين . وكان سنان

١) M. Cavid Baysun, « Ebessu ud Efendi » , *Islam Ansiklopedisi* .

٢) Hitti, *History of Syria Including Lebanon and Palestine* (Macmillan,1950) p.664

٣) Roger B. Merriman, *Suleiman the Magnificent* (Cambridge, 1944), p. 130 .

نصراني الأصل من الاناضول وقد نزل القسطنطينية مع من نزلها من المماليك النصارى الغلمان (١) فما لبث ان اصبح المع مهندس انجبته تركيا . وكان أروع ما تخلف عنه من البناء الجامع الكبير المعروف بالسليمانية تخليداً لاسم صاحبه . وكانت غايته ان يجعله اعظم من جامع ايا صوفيا . وقد زاد ارتفاع قبته العظمى على قبة كاتدرائية يوستنيان بنحو خمسة امتار . وقد زين المحراب والجدار الخلفي بالخزف الجميل على الطريقة الفارسية . و بينما كانت الانوار تنير المدينة على البوسفور كانت المدينة ذات المجد القديم ودمشق و بغداد والقاهرة ـ العواصم السابقة للامبراطوريات العظمى والمراكز اللامعة للثقافات المختلفة ـ مقرات للحكام الاقليميين والحاميات المسلحة المرسلة من القسطنطينية تلك المدينة نفسها التي وقف امام اسوارها في اربع مناسبات تاريخية سابقة جيوش عربية تهددها من الشام و بغداد .

الثقافة العثمانية

كانت الثقافة التركية بكليتها مزيجاً عجيباً من العناصر المتنوعة المتباينة فقد اخذ الترك عن الفرس كثيراً من الموضوعات الفنية والاصطلاحات الأدبية و بعض الافكار السياسية كتعظيم الملك مثلاً وكانت لهم بهم صلة حتى قبل هجرتهم الى غربي آسية . وكان مما منحته بداوة آسية الوسطى للترك النزعة للحرب والفتح والميل للاختلاط بالآخرين والامتزاج بهم (٢) وقد انتقل الى الترك ايضاً من البيزنطيين عن طريق سلاجقة الروم بعض المؤسسات الحربية والحكومية . ولكن العرب كانوا قبل الجميع معلمي الاتراك كما كان اليونان معلمي الرومان. فقد اخذ الترك عن العرب علومهم ودينهم بما فيه من المبادىء الاقتصادية ـ الاجتماعية والشرائع المقدسة ، واخذوا ايضاً الحروف العربية للكتابة فظلت شائعة حتى سنة ١٩٢٨ بينما لم يكن للاتراك في آسية الوسطى سوى اليسير من الأدب المدون وكانوا يكتبونه بالحرف السرياني الذي ادخله النصارى السوريون الى تلك البلاد . و باعتناق الترك دين الاسلام

---

١) انظر ص ٨٣١ من هذا الكتاب .

٢) Albert H. Lybyer, *The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent* (Cambridge, 1913), p. 18.

واقتباسهم الحروف العربية انتقل اليهم من اللغة العربية الوف الاصطلاحات الدينية والعلمية والشرعية والأدبية . ولا يزال كثير من هذه الاصطلاحات في قلب اللغة التركية برغم المحاولات القومية الاخيرة لاخراجها منها . وكان للترك مآثر مبتكرة هامة في ثلاثة ميادين خاصة : ميدان السياسة وميدان هندسة البناء وميدان الشعر .

نظام الامبراطورية

كانت الامبراطورية العثمانية كالامبراطورية الرومانية والامبراطورية العباسية من قبل عسكرية في جوهرها ترتكز على الأسرة في كيانها ونظامها . وكان الهدف الرئيسي فيها ليس مصلحة الرعايا بل مصلحة الدولة كما تتمثل بشخص السلطان الخليفة . وكانت الرعايا في الدولة مجموعة منوعة من ابناء القوميات والبلدان المختلفة من عرب وسوريين وعراقيين ومصريين وبربر وكرد وارمن وسلاف ويونان والبانيين باديانهم المختلفة ولغاتهم وطرق معيشتهم المتباينة وكان يجمعهم معاً سيف عثمان . حتى الفلاحون الاتراك فقد كان يمكن اعتبارهم من طبقة الرعايا. ذلك انهم كانوا يختلفون عن افراد الطبقة الحاكمة الذين كانوا يؤثرون ان يدعوا بالعثمانيين (عثمانلي) . وظل الاتراك انفسهم بوجه عام اقلية مسيطرة في مملكتهم الواسعة الاطراف دون ان يقوموا باي محاولة لاستعمار الاراضي في البلاد العربية او احلال جاليات تركية فيها . غير انهم كانوا يجددون الدم التركي بالزواج من غير المسلمات و بمنح الرعوية التامة لكل من دخل الاسلام من رعاياهم وتكلم التركية بدل لغته وانضم الى البلاط . وكان استخدامهم للشبان غير المسلمين من ابناء رعاياهم طيلة المدة التي دام فيها هذا الاستخدام عاملاً على تقوية روح الخدمة العسكرية والمدنية وتجديد الدم التركي عن طريق الامتزاج بهذه العناصر النشيطة من زهرة الشباب وهضمها . وقد جذبت العاصمة بهذه الطريقة اصحاب احسن المواهب من ابناء الامم التي غلبتها فانتقلوا اليها واقتبسوا دينها واستتركوا واصبحوا آلة لتقدم الدولة المسيطرة ومجدها . وقد بلغ كثير من الجراكسة واليونان والالبانيين والسلاف والطليان حتى الارمن اعلى المراكز في الدولة ومنها الصدارة العظمى .

عوامل الضعف الداخلية

ان دولة يوضع نظامها لغرض حربي دون الالتفات الى مصلحة الشعب وتتسع رقعتها فتمتد الى حدود بعيدة وتشمل مساحات غير متشابهة او مترابطة او متصلة بوسائل منظمة للنقل ، فيها خليط من السكان غير متجانسين بل مختلفون شيعاً واحزاباً دينية وطائفية وعنصرية بحيث ناهض المسلم التركي اخاه المسلم العربي وناهض المسيحي من هذه الطائفة اخاه المسيحي من الطائفة الاخرى - ان دولة مثل هذه لتحمل في طيات كيانها الاساسي بذور الانحلال والفساد ، فاذا جابهها عالم انتصرت فيه القومية ساءت حالها وتخاذلت امامه . وقد ازداد الضعف الداخلي في جهاز الدولة من استمرار النظام المعروف بنظام الملة وامتداده بحيث اصبحت كل طائفة تتمتع بقدر لا بأس به من الاستقلال الذاتي - واصبح هذا النظام القاعدة التي حاول الاسلام بواسطتها ان يحل مشكلة الاقليات ، وتركيز السلطة العليا ، ولو نظرياً على الاقل ، في يدي رجل واحد هو السلطان الخليفة . وكذلك زاد في ضعفها عدم الوضوح في قضية الاستخلاف . والشيء المدهش حقاً هو ان الانحلال لم يبدأ قبل ذلك العهد بازمان .

ولم ينقض وقت طويل على موت سليمان حتى اخذت الامبراطورية في طريق التدهور وكان طريقاً شاقاً وطويلاً . ويمكن ان يعتبر الفشل الذي كان نصيب الجيش في محاولته الاستيلاء على ڤينا سنة ١٦٨٣ اول النهاية . فقد توقف بعده توسع تركيا في اوربا ، وانقلب للترك ظهر المجن ، فأصبحت القضية عندهم هي كيف يمكن لهم ان يحتفظوا بما كانوا فتحوه لا كيف يفتحون بلاداً جديدة . واصبح دور القوى المسلحة دور دفاع لا دور هجوم . وكانت هناك فوق عوامل الانحلال والفساد الداخلية عوامل خارجية اخذت تظهر في القرن الثامن عشر حين شرعت فرنسا وانكلترا والنمسا وروسيا تطلب « مناطق نفوذ » لها ، وبدأت كل منها تطمع في الاستيلاء على بعض ممتلكات رجل اوربا المريض . غير ان التحاسد فيما بين هذه القوى المتنافسة وعدم اتفاقها على عمل موحد افسح في أجل المريض غير مرة .

ضياع دول افريقيا الشمالية

وكانت بلاد افريقيا الشمالية اول بلاد عربية تخسرها الامبراطورية العثمانية . وتشكل هذه البلاد كتلة واحدة متميزة عن غيرها من البلاد العربية . فقد كان قربها من اوربا الجنوبية وبعدها من مركز الاسلام وقلبه في آسية الغربية وضعف التقليد الاسلامي عندها والنسبة العالية للدم البربري والاوربي فيها داعياً يدعوها منذ نشوئها الى ان تتخذ طريقاً خاصاً بها .

وكانت الجزائر بنوع خاص اول بلد انسلخ عن الامبراطورية . وقد وقع ذلك في سنة ١٨٣٠ حين نزل شواطئها جند فرنسي بحجة وضع حد لاعمال القرصنة ومعاقبة اصحابها والانتقام للاهانة التي ألحقها الحاكم حسين بالقنصل الفرنسي . وبعد ذلك بثمانية عشر عاماً ألحقت الجزائر بفرنسا وأعلن انها ارض فرنسية وان المنطقة الشاطئية جزء لا يتجزأ من فرنسا نفسها . ولقد احتج لافال حين نزلتها الجنود الاميركية في تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ مدعياً ان المنطقة كلها هي من تمديدات الارض الفرنسية الطبيعية (١) . وللجزائر الحق – كما لغيرها من الدوائر في فرنسا – في ان ترسل مندوبين عنها للبرلمان الفرنسي . وهي في الواقع تفعل ذلك . وقد اتبع الفرنسيون فيها سياسة خاصة غرضها اذابة البلاد وهضمها او صهرها في البوتقة الفرنسية . ومن هنا فقد وضعوا العراقيل في سبيل لغة البلاد الاصلية ودفعوها الى التخلص من قوميتها .

وانتهى توسع فرنسا الاستعماري شرقاً سنة ١٨٨١ باحتلال تونس حيث طُبقت السياسة نفسها الى حد كبير . فحلت الفرنسية بدل العربية كلغة ادبية لأهل البلاد . ومع ان مركز تونس السياسي كان عبارة عن محمية فانها كانت في الواقع من الممتلكات الفرنسية من كل الوجوه الا اسمياً . وكان يُعين لها مقيم عام افرنسي يحكم مع الباي الوطني ويسيطر على كل المصالح العامة غير ان قربها من مصر ساعد على ان تبقى التقاليد الاسلامية القومية قوية فيها

(١) *The New York Times*, November 21, 1942.

نوعاً ما . وقد استقر في كلا البلدين الجزائر وتونس الوف من ابناء الجاليات الافرنسية . وقد تعقدت المشكلة التونسية بوجود جاليات ايطالية كثيرة العدد لها مستعمرات كثيرة . وليس من شك في أن كلا القطرين تونس والجزائر قد تمتعا بقسط وافر من الامن والصحة العامة والتسهيلات في المواصلات في ظل الفرنسيين . اما طرابلس الغرب وهي ارض صحراوية قاحلة يتخللها خط من الواحات عند الشاطىء فقد كانت آخر مركز للاتراك في بلاد البربر . ولكنها انتزعت منهم على اثر الحرب التركية الايطالية ١٩١١ - ١٢ وجُعلت مستعمرة ايطالية ثم ضمت الى القيروان سنة ١٩٣٤ واصبحت تلك المنطقة كلها تعرف بليبيا الايطالية .

وفي سنة ١٠٩١ بدأ فتح الفرنسيين لمراكش التي لم تخضع بحياتها للترك [١] وكانت في قديمها مركز دولتي البربر القويتين . وقد تم انتزاع منطقة منها بين ١٩٠٧ و ١٩١٢ . وكانت اسبانية في الوقت نفسه منهمكة في انتزاع حصة لها في العدوة المقابلة للارض الاسبانية تماماً . وهكذا فان كل افريقية البيضاء التي تفصلها الصحارى عن افريقية السوداء قد سقطت في اثناء الاثنتين والثمانين سنة التي مرت بعد سنة ١٨٣٠ في ايدي دول جنوبي اوربا اللاتينية الثلاث . واذا استثنينا الثورة التي قام بها عبد الكريم على الاسبان والفرنسيين في مراكش في اول العقد الثالث من هذا القرن [٢] ، والثورة التي أثارها السنوسي على الايطاليين مدة الحرب الكبرى وبعدها فان الروح القومية في هذه الاقاليم ظلت ساكنة وغير منتظمة بوجه عام ومقصورة على بعض الافراد المتعلمين حتى انفجار الحرب العالمية الثانية .

---

١) انظر ص ٨٣٧ من هذا الكتاب .

٢) راجع Arnold G. Toynbee, *Survey of International Affairs*, 1925, vol. I; *The Islamic World* (Oxford, 1927), pp. 110—63.

الفصل الحادي والخمسون

مصر والهلال العربي

ومع أن مصر من الناحية الجغرافية هي جزء من افريقية فانها كانت من الناحيتين التاريخية والثقافية خلال العصور المتتابعة جزءاً من آسية الغربية. وهي تشكل مع سورية الكبرى والعراق كتلة عربية تتميز عن الكتلة الافريقية الشمالية من جهة والجزيرة العربية من جهة اخرى.

المماليك أصحاب السلطة

لم يقم السلطان سليم الا بشيء قليل من التغيير الاساسي في النظام الاداري بمصر غير انه عين على مصر باشا من العثمانيين نائباً له ووضع فيها جيش احتلال مؤلفاً من نحو خمسة آلاف انكشاري. وقد وقع اختياره على خاير بي (بيك) ليكون نائب السلطان في مصر وكان خاير بيك حاكم حلب التركي الذي خان أسياده المماليك كما مر معنا (١). وقضى سليم بضعة ايام في القاهرة يمتع نفسه فيها ثم عاد الى عاصمته وقد اصطحب معه رواية من روايات الظل (٢) لتسلية ابنه سليمان ولي العهد (٣) وظلت سناجق (٤) مصر الاثنا عشر بايدي حكامها المماليك القدماء وقد أحاط كل بيك من هؤلاء المماليك نفسه بطائفة من المحاربين القدماء يأتمرون بأمره وينفذون سلطته. وظل دم المماليك يتجدد باستيراد الارقاء من الخارج لا سيما من القوقاز. وكان المماليك يجبون الضرائب كما كانوا يفعلون في العهد السابق ويجندون الناس لكنهم اصبحوا الآن يعترفون بسلطة العثمانيين وذلك بدفع جزية سنوية.

---

١) ص ٨٢٩ من هذا الكتاب.
٢) قابل ص ٨١٥ من هذا الكتاب.
٣) ابن اياس ج ٥ ص ١٨٨.
٤) مفردها بالتركية سنجق ومعناها لواء « راية ».

ولم يلبث الأمر طويلاً حتى اخذ الباشا العثماني المبعوث من القسطنطينية يفقد سلطته الحقيقية في الامور الداخلية . وكان جهله للغة البلاد المحكية وعاداتها من الامور التي حالت دون نجاح مهمته ، فكانت مدة حكم الباشا الواحد قصيرة الامد حتى في احسن الاحوال . فقد تعاقب على الحكم في مدى المئتين والثمانين سنة من عهد العثمانيين في مصر لا اقل من مئة من هؤلاء الباشوات (١) . وكان التغيير المستمر لهؤلاء الحكام داعياً لان تضعف سيطرتهم على الجند بحيث أصبحت حالة هؤلاء فوضى وفُقد النظام في صفوفهم . واخذت تظهر الفتن بينهم منذ اول القرن السابع عشر . وكثرت المنازعات بين الباشوات والبيكوات وأصبحت امراً مألوفاً في تاريخ البلاد السياسي . وكان الباشا يغتنم الفرصة ويقوي مركزه حين يظهر النزاع وتشتد المنافسات على الزعامة بين البيكوات انفسهم . وفيما كانت السلطة المركزية في القسطنطينية في طريق التدهور الذي سلكته كانت مكانة الولاة او نواب السلطان في الامصار تتضاءل ويضعف نفوذهم ويقل احترام الرعايا لهم .

وفي ظلّ هذا الحكم الثنائي كان الأهلون ينحدرون الى هوة البؤس والفقر والشقاء . وكان الفلاح يُستغل من قبل الباشا والبيك ويهان ويذل ويدفع الى حالة من الانحطاط والبؤس لعله لا يوازيها الا حالته في العهد السابق . وعم الفساد والرشوة في كل مكان . وزاد الطين بلة المجاعة واضطراب الامن وانتشار الاوبئة . فقد اهلك وباء ١٦١٩ نحو ثلث مليون نفس من سكان مصر . وافنى وباء ١٦٤٣ نحو مئتين وثلاثين قرية اصبحت بعده خاوية خالية (٢) . وقد ذكر الاسحاقي (٣) وكان معاصراً لهذه الحوادث انه حين كان وباء ١٦١٩ يجتاح القاهرة كانت اكثر حوانيتها ومتاجرها مقفلة ما عدا تلك التي كانت لبيع الاكفان فقد ظلت مفتوحة ليلاً نهاراً . وتناقص عدد سكان مصر بحيث أصبح في آخر القرن الثامن عشر أقل من ثلاثة ملايين بينما بلغ عدد السكان في عهد الرومان نحو ثمانية ملايين .

---

١) قابل جدولهم في : Zambaur, pp. 166-8

٢) قابل جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث، الطبعة الثالثة (القاهرة ، ١٩٢٥) ج٢ ص ٣١، ٣٩–٤٠.

٣) اخبار الاول في من تصرف في مصر من الدول (القاهرة ، ١٢٩٦) ص ٢٥٨ .

علي بيك يصبح سلطاناً في مصر

وبلغت سلطة المماليك اوجها في سنة ١٧٦٩ وذلك حين استطاع علي بيك ان يطرد الباشا العثماني ويعلن استقلاله عن الباب العالي : وكان علي بيك فيما يقال ابن كاهن نصراني من القوقاز وقع في صباه بايدي الاشقياء فباعوه واصبح من الارقاء . واستطاع وهو مملوك في مصر ان يبلغ من القوة ما مكنه ان يستقل بالسلطة في مصر . وكان في تلك الاثناء أن اشتبكت تركيا مع روسيا في نزاع خطير . فبعث السلطان الى علي بيك ان يمده بالجند فاخذ علي بيك يحشد الجنود ، و بهذا الجيش نفسه الذي جنده سار الى سورية والجزيرة العربية ففتحها وغنمها لنفسه . وقد دخل صهره ابو الذهب (١) الذي كان يساعده في هذه الحرب الى مكة ظافراً في تموز سنة ١٧٧٠ (٢) فعزل شريفها ـ وكان يحكم مكة دائماً أحد الاشراف من ذرية النبي (٣) ـ ووضع في مكانه احد المدعين لحق الولاية فيها فانعم هذا بدوره على علي بيك باللقب الفخم « سلطان مصر وحاكم البحرين » (المتوسط والاحمر) . ولم يكتف علي بيك



عشرون بارة فضية من عهد علي بيك وقد ضربت في مصر سنة ١١٨٣

بانتحال لقب سلطان مصر بل مارس كل الحقوق المتعلقة به ومنها سك النقود وذكر اسمه من على المنبر في الصلاة الجامعة . وفي سنة ١٧٧١ سار ابو الذهب على رأس ثلاثين الف مقاتل الى سورية وفتح كثيراً من مدنها وفي مقدمتها دمشق (٤) . و بدا له وهو في فورة النصر

١) كان يدعى بهذه الكنية لانه لم يكن يمنح المجندين او يعطي الطالبين سوى قطع من الذهب .
٢) الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار (القاهرة ، ١٣٢٢) ج ١ ص ٤٢٢ ، ٣٥٣ .
٣) انظر الحاشية ٣ في ص ٥٣٠ من هذا الكتاب .
٤) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٧ .

ان يخون سيده فـاخـذ يفاوض الباب العالي سراً واتفق معه وانقلب هو وجيشه على مصر فهرب علي بيك (في نيسان ١٧٧٢) والتجأ عند زميله الفلسطيني في عكا الشيخ ظاهر العمر [١] . ووصل الى علي بيك وهو في عكا مدد من السلاح ونجدة من الرجال قوامهـا ثلاثة آلاف الباني امدته بها المراكب الحربية الروسية الراسية في الميناء . فعاد يحارب لاسترداد عرشه المفقود . ولم يلبث ان جرح في بعض المعارك ومات سنة ١٧٧٣ إما من جرحـه او من سم دُس له ، وعند ذلك جمع ابو الذهب مملوكه السابق بين اللقبين ـ الباشا (وهو اللقب الذي ناله من الباب العالي) وشيخ البلد (وهو لقب المتزعم بـين المماليك) . وكانت الوظيفة العليا الثانية بعد شيخ البلد عند المماليك هي وظيفة امير الحج . وكان امـير الحـج هو الموكل بامور الحج الذي يجري كل سنة . وقد كشف ظهور علي بيك ووصوله الى الحـكم الضعف في مركز العثمانيين بالرغم من أن حكمه لم يدم طويلاً . وكان تنصيب ابي الذهب في وظيفته تنازلاً عن حق المماليك في ان يصبح الواحد منهم نائباً للملك .

نابوليون بونابرت

ودام النزاع على كرسي الحكم في مصر بين زعماء المماليك حتى اواخر القرن الثامن عشر وذلك حين هاجم مصر غـاز قوي غريب هو نابوليون بونابرت ونزل الاسكندرية في تموز سنة ١٧٩٨ . ولقد ادعى نابوليون عند نزوله في بيان [٢] نشره باللغة العربية ان غرضه من غزو مصر هو اعادة سلطة الباب العالي ومعاقبـة المماليك الذين اتهمهم في انهم ليسوا مسلمين صالحين مثله ومثل جماعته الفرنسيين . امـا غرضه الحقيقي فقد كان تسديد ضربة قاضيـة للامبراطورية البريطانية بقطع خط مواصلاتها مع الشرق والسعي للسيطرة العالمية . وكان

١) انظر ما سبق عن ظاهر العمر ص ٨٦١ من هذا الكتاب .

٢) يذكر الجبرتي نص البيان ج٣ ص ٤ـ٥ ويبدأه على الطريقة الاسلامية بسم الله الرحمن الرحيم . وقد لخصه الشرقاوي في كتابه « تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة والسلاطين » (القاهرة ، ١٢٨٦) ص ٥٥ ؛ وهناك ترجمة انكليزية في : *Copies of the Original Letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, Intercepted by the Fleet under the Command of Admiral Lord Nelson*, II th. ed., vol. I (London, 1798), pp. 235—7.

تحطيم الاسطول الفرنسي فى خليج « ابو قير » (١ آب ١٧٩٨) وايقاف الحملة الافرنسية المنكودة الحظ في عكا (١٧٩٩) (١) وانكسار نابوليون في واقعة الاسكندرية (٢١ آذار ١٨٠١) داعياً لصد مطامحه في الشرق وارغام جنوده على الجلاء عن مصر . و بعد ان كانت مصر قليلة الاهمية في مسرح السياسة العالمية لا تلعب سوى دور بسيط اهم ما فيه انها من مصادر الدخل لتركيا وقاعدة للعمليات التي كان يقوم بها الاتراك لحفظ سيطرتهم على سورية والجزيرة العربية دُفعت الآن بغتة الى ميدان السياسة الدولية واصبحت باباً لطريق الهند والشرق الاقصى (٢) .

لقد لفتت حملة نابوليون انظار اوربا الى خط المواصلات البري للهند ـ المنسي نوعاً ما ـ وأثارت سلسلة من الحركات والمناورات جعلت الشرق الادنى في وسط العاصفة التي كانت تثيرها السياسة الاوربية ومؤامراتها .

محمد علي مؤسس مصر الحديثة

كان في الجيش التركي الذي ساعد على طرد نابوليون من ارض مصر ضابط شاب الباني



محمد علي الكبير

الاصل من مواليد مقدونية اسمه محمد علي . وقد منحه الباب العالي رتبة باشا سنة ١٨٠٥ وأصبح

١) انظر ادناه ص ٨٦٣ ـ ٨٦٤ .
٢) انظر بحث الاثر الثقافي في الفصل الاخير من هذا الكتاب .

سيد مصر الجديد وكان خاضعاً بالاسم للباب العالي . وان تاريخ مصر في النصف الاول من هذا القرن هو في الواقع سيرة هذا الرجل الفرد فهو مؤسس هذا البيت الذي لا يزال يحكم وادي النيل ويعتبر بحق ابا لبلاده على الأقل من ناحية تاريخها الحديث . ولسنا نجد من يوازيه بين الزعماء المسلمين الذين عاصروه فيما أظهره من نشاط ومبادهة وحيوية وبُعد نظر فقد كان عظيماً في حالتي السلم والحرب . وقد اصبح صاحب البلاد الاوحد بفضل مصادرته للاطيان التي كان يتلكها افراد معينون والمقاول الصناعي الفرد بفضل ما اوجده من احتكار لمنتجات البلاد وهي اول محاولة لتأميم المنافع العامة في العالم العربي . وتطبيقاً لسياسته الاقتصادية اخذ يشق الاقنية ويشجع الزراعة العلمية وهو الذي ادخل زراعة القطن الى الدلتا من السودان سنة ١٨٢٢ . ومع انه لم يكن متعلماً فقد رعى العلم وانشأ وزارة خاصة للمعارف ومجلساً للمعارف والتربية واسس اول مدرسة للهندسة في مملكته (١٨١٦) واول مدرسة للطب (١) . واستجلب الاساتذة والاطباء من فرنسا بالاكثر . ودعا الارساليات العسكرية والتهذيبية الى بلاده لتدريس ابنائها وبعث البعثات العسكرية والتهذيبية للدرس في اوربا . وتدل الوثائق المحفوظة انه قد ارسل بين ١٨١٣ و ١٨٤٩ (سنة وفاته) (٢) ثلاثمئة واحد عشر طالباً مصرياً الى ايطاليا وفرنسا وانكلترا والنمسا فكلفوا الدولة ٢٧٣٣٦٠ جنيهاً (٣) . وقد فُتح لهؤلاء الطلاب بيت خاص في باريس لخدمتهم وامور عيشهم . وكانت الدروس المرغوبة الدروس العسكرية والبحرية ودروس الهندسة والطب والصيدلة والآداب والفنون . وتتمتع اللغة الفرنسية منذ ذلك العهد بمركز ممتاز في المنهاج المصري . ولا يزال الى اليوم عدد الطلاب في المدارس الافرنسية في مصر يفوق عددهم في مدارس اي من الجاليات الأجنبية الأخرى (٤) .

وكان هناك كولونيل افرنسي اسمه سيف (Sève) اعتنق الاسلام ودعي سليمان باشا وقد

---

١) أسست سنة ١٨٢٧ وهي اليوم قسم من جامعة فؤاد الاول ؛ انظر ماثيوز وعقراوي في :
Roderic D. Matthews and Matta Akrawi, *Education in Arab Countries of the Near East*. (Washington, 1949), p. 80.

٢) لقد احيت الحكومة المصرية ذكراه بمناسبة مرور مئة سنة على وفاته بتأسيس جامعة في اسيوط سنة ١٩٤٩ على اسمه .

٣) عمر طوسون ، البعثات العلمية (الاسكندرية ، ١٩٣٤) ص ٤١٤ .

٤) Matthews and Akrawi, p. 116.

اعاد تنظيم الجيش المصري على الطريقة الحديثة وساهم في الحملة على سورية . ولا يزال اسمه مخلداً في احد شوارع القاهرة الرئيسية . وقد اختلطت ذريته بالبيت العلوي بواسطة الزواج . وهناك فرنسي آخر كان مهندساً بحرياً وهو الذي انشأ البحرية المصرية . وكانت اول عملية حربية قد وقعت سنة ١٨١١ ، وقد وجهت الى بلاد العرب الوهابية ، ولم تنته تلك الحرب حتى سنة ١٨١٨ . وكان عدد الجند في هذه الحملة نحو عشرة آلاف وكان يرأسهم طوسون ابن محمد علي حين كان لا يزال في السادسة عشرة من عمره . واقام محمد علي وليمة في قلعة القاهرة احتفالا بمغادرتهم دعا اليها جمعاً غفيراً من الاعيان ومنهم المماليك بالطبع . وقد اقتيد المماليك الى ممر عند البوابة الرئيسية وفُتك بهم الواحد بعد الآخر . ولم ينج من الار بعمئة والسبعين مملوكاً سوى بضعة افراد . وكانت المذبحة في القلعة على التل اشارة عامة للفتك بهم دون تفريق في كل البلاد المصرية. ثم صودرت ممتلكاتهم وحلت مشكلة المماليك في مصر الى الابد بعد ان بلغ عمرها نحو ستة قرون .

ووجهت سلسلة الحملات الحربية الثانية جنوباً وركزت العلم المصري الظافر سنة ١٨٢٠ في بلاد النوبة في السودان الشرقي . واكمل الفتح خلفاء محمد علي . ونشأ عن ذلك مشكلة لا تزال موضوع تنازع شديد بين المصريين والبريطانيين ــ هي مشكلة السودان. وفي الحركة الحربية الثالثة اشترك الجيش المصري والبحرية مع قوى الباب العالي ضد اليونان الذين كانوا يجاهدون لنيل استقلالهم . وكان سلطان تركيا يومئذ محمود الثاني (١٨٠٨ ــ ٣٩) المشهور باصلاحاته الجريئة وقضائه على الانكشارية. وقد انكسر الاسطول التركي المصري عند نافارينو (٢٠ تشرين الاول ١٨٢٧) وحطمه الاسطول الانكليزي الفرنسي الروسي الموحد . ولم يبق عائماً على وجه البحر من السبعمئة والاثنين والثمانين مركباً سوى تسعة وعشرين . وكان الباب العالي قد وعد حليفه سلطان مصر ولاية سورية والموريا لقاء مساعدته ولما لم يحقق وعده انفذ محمد علي ابنه ودرعه ابراهيم سنة ١٨٣١ الى سورية ليحتلها . وكان ابراهيم هو الذي قاد الحملات الناجحة على الوهابيين بين سنتي ١٨١٦ و ١٨١٨ والحملة الفاشلة على اليونان. وكانت هذه الحملة الأخيرة على سورية آخر المشاريع الحربية التي تميز بها عهد محمد علي واعظمها. وبعد

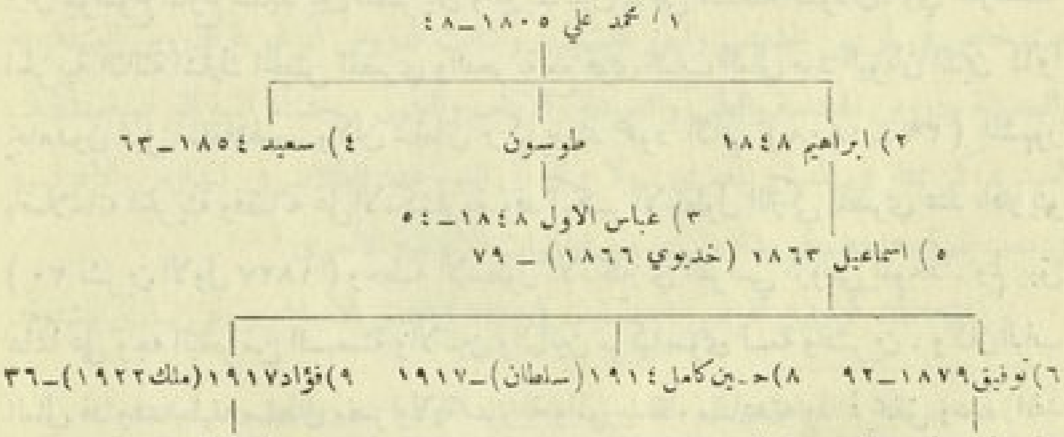
ان احتل جيش محمد علي سورية نحو عشر سنوات وكاد يقضي على الامبراطورية العثمانية باسرها ويسدد لها الضربة الاخيرة اضطر محمد علي نفسه بايعاز من الدول الاوربية ان يسحب جيوشه الى الارض المصرية (١). لقد كانت الدول الاوربية قد قررت ـ في سبيل مصالحها الخاصة ـ ان تبقي على الامبراطورية العثمانية فلم تسمح في ان تتعرض للاذى والهلاك. وقد اعتبرت هذه الدول قيام دولة فتية نشيطة شيئاً يهدد نفوذها وخطوط مواصلاتها في الشرق. وصدر فرمان في ١٣ شباط ١٨٤١ يجعل الباشوية في مصر وراثية في اسرة محمد علي الكبير (٢). وصدر فرمان آخر في التاريخ نفسه يسند الى محمد علي حكومة السودان (٣). وبهذا انتهى الحلم بتأسيس امبراطورية مصرية اسيوية نهايةً غير مجيدة.

سورية

لم ينتج عن احتلال السلطان سليم الاول (٤) (١٥١٦) لسورية شيء عظيم من التغيير الداخلي في ادارة البلاد او سكانها. وقد أطلق على كلٍّ من الاقسام الادارية اسم جديد هو « ولاية ». وكانت ولاية دمشق وقد ضمت اليها القدس وصفد وغزة قد أسندت الى

١) انظر ص ٨٦٦ـ٨٦٧ من هذا الكتاب.

٢) جدول النسب للعائلة المالكة المصرية :



٣) انظر النص العربي للفرمان في جرجي زيدان تاريخ مصر الحديث ، الطبعة الثالثة (القاهرة، ١٩٢٥) ج ٢ ص ١٧٢ـ٥.

٤) انظر ص ٨٢٩ـ٨٣٠ من هذا الكتاب.

جان بردي الغزالي حاكم حماة الغادر الذي كان كخائر بيك قد خان سيّده السلطان الغوري في واقعة مرج دابق الحاسمة (١) . و بهذا اصبح الغزالي في الواقع نائب السلطان في سورية (٢) ولما لم يكتف بهذا فانه عند موت السلطان سليم (١٥٢٠) أعلن نفسه ملكاً مستقلاً وانتحل لنفسه لقب الملك الاشرف وضرب النقود باسمه ودعا زميله المصري خائر بيك الى ان يعمل مثله . غير ان السلطان سليمان بادر بسرعة فارسل الانكشارية فخربوا قسماً كبيراً من العاصمة السورية والمناطق المجاورة لها وانزلوا بالاهالي عقاباً ذكر الناس بايام تيمور (٣) ووضعوا أساس الرعب الذي لا يزال يساور نفوس السوريين كلما ذكر لهم اسم الانكشارية .

الادارة الاقليمية

واخذ الباشوات الاتراك في ذلك العهد يتعاقبون في الحكم بسرعة فائقة بحيث حكم منهم في دمشق (٤) لا اقل من مئة وثلاثين في مدة مئة واربع وثمانين سنة . وهو تحسن ضئيل بالنسبة الى ما عرف في مصر (٥) . وقد شاهدت حلب وجوه تسعة ولاة في مدة ثلاث سنوات فقط . وكان اكثر هؤلاء الموظفين قد اشتروا بالفعل الوظيفة واعتبروها اداة لانماء مواردهم وتمجيد انفسهم . ولم يكن في بعض الاحيان من سلطة قوية للباب العالي حتى على موظفيه أنفسهم . اما الرعايا فقد كانوا في نظر السلطة رعايا حقاً — قطعان غنم ترعى وتجزّ وتحلب . وكانوا مصنفين على اساس طوائفهم الدينية (الملة) بحيث كان في سورية مثلاً مجموعة من القوميات الصغيرة المنعزلة . حتى الاوروبيون الذين كانوا يسكنون البلاد فانهم كانوا يعاملون بنظام الملة فيخضعون لرؤساء دينهم ويتمتعون فوق ذلك بحقوق اخرى منحتهم اياها الامتيازات الاجنبية . وكان أهل البندقية اول من نالوا الامتيازات الاجنبية . فقد وقّع معهم

---

١) انظر ص٨٢٩ من هذا الكتاب ؛ ابن اياس ج٥ ص ١٥٦ ، ١٥٧ ؛ سعد الدين ، تاج التواريخ ج ٢ (القسطنطينية ، ١٢٨٠) ص ٣٦٤—٥ .

٢) لقد احيت السلطة العثمانية الاسم القديم «سورية» وبطل استعمال الشام .

٣) ابن اياس ج٥ ص٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٦—٨ ، ٤١٨—١٩ .

٤) Lammens, vol. ii, p. 62

٥) انظر ص ٨١٩ من هذا الكتاب .

سليمان سنة ١٥٢١ معاهدة دُونت بنودها في ثلاثين فصلاً . وبعد ذلك باربع عشرة سنة نال الافرنسيون امتيازاتهم ونالها الانكليز في سنة ١٥٨٠ . وكانت هناك محاولات ضعيفة لتحسين حالة الرعايا في الامبراطورية قام بها ثلاثة من المصلحين الجريئين بين السلاطين هم سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨ ـ ٣٩) وعبد المجيد الاول (١٨٣٩ ـ ٦١) ولكن لم يكن لهذه المحاولات أثر محسوس . ولم تتخذ تدابير فعالة للتنظيمات (نظم الاصلاح) التي وضعت . وكان الغرض من هذه النظم الغاء الضرائب على الزراعة وضمان سلامة الرعايا وممتلكاتهم وشرفهم بقطع النظر عن عقائدهم او قومياتهم . واعتبر جميع هؤلاء بعرف القانون متساويين .

التدهور الاقتصادي

ولم يكن سوء الادارة العثمانية العامل الوحيد في التدهور المستمر الذي لحق الحياة الاقتصادية في سورية فقد كان اكتشاف الخط البحري من اوربا الى الهند حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ قد حوّل مجرى التجارة العالمية عن الشرق العربي ودفع بالبرتغاليين لان يكونوا العملاء والوسطاء لهذه التجارة بدل العرب والسوريين . وهكذا أهملت البلاد العربية تجارياً . وكان اكتشاف العالم الجديد سنة ١٤٩٢ قد نقل مركز الثقل في الشؤون العالمية غرباً واصبح للبحر الابيض ـ الذي كان متوسطاً بالاسم وبالفعل ـ مكانة ثانوية . وكان لا بد لهذا البحر ان ينتظر ثلاثة قرون ونصف قرن قبل ان تعود اليه مكانته التي كانت له كممر كبير للتجارة العالمية . وذلك بفضل شق قناة السويس سنة ١٨٦٩ وهو العمل الذي قام به اسماعيل (١) خليفة محمد علي الكبير . وكانت فلسطين في القرن الثامن عشر قليلة السكان وكان الدخل من مواسم الحج اليها أهم مورد فيها . وفي منتصف ذلك القرن أصبحت السهول المعروفة بخصبها بين حلب والفرات صحراء قاحلة (٢) كما نرى اكثرها اليوم وكانت من قبل تنال من الري ما يكفيها . وفي آخر القرن تناقص عدد سكان سورية كلها بحيث لم يزد عن مليون

---

١) انظر ادناه تحت موضوع « شق قناة السويس » .

٢) Christina P. Grant, *The Syrian Desert*, (New York, 1938), p. 161.

مليون ونصف تقريباً كان منهم نحو مئتي الف او اقل في فلسطين (١) . وكان في القدس في اوائل القرن التاسع عشر نحو ١٢ الف نفس فقط وفي دمشق في منتصف القرن نفسه نحو ١٥٠ الفاً وفي بيروت ١٥ الفاً وفي حلب ٧٧ الفاً .(٢)

وبينما اخذ التجار السوريون يُنمون تجارتهم البرية في القرن الاول من العهد العثماني أصبحت حلب محطة في نهاية الخط الذي يربط سورية بالعراق وبالتالي بفارس والهند فزهـا فيها كثير من الجاليات الاوربية وفي مقدمتهم جالية البندقية . واستمدت الجالية الفرنسية قوة من الامتيازات الاجنبية التي منحها سليمان ١٥٣٥ لفرنسيس الاول ، ومن معاهدة ١٧٤٠ بين محمود الاول ولويس الخامس عشر التي وُضع كل النصارى بموجبها تحت حماية فرنسية (٣) . وأنشئت بعد ذلك مصانع فرنسية انتشرت في مدن سورية اخرى . ونسج التجار الانكليز على منوال الفرنسيين وحاولوا جميعاً ان يلبوا طلب الغرب لأطايب الشرق ومنتجاته التي كانت معروفة في العصر الصليبي . ولما كان المسلمون ينظرون الى الاجنبي على انه احط منهم فقد اخذ الاجانب في اوائل ذلك العهد يلجأون الى ارتداء الثياب الوطنية بحيث لا يعرفون فيقل ما كان يمكن ان يلحقهم من اهانة او ضرر . واقتفى أثر التجار الاوربيين مرسلون اوربيون ومعلمون وسياح ورواد . ونتج عن نشاط الارساليات المسيحية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وكانت اكثرها يسوعية وكبوشية وعازرية ان تأسست كنائس كاثوليكية تابعة للبابا بعضها سريانية كاثوليكية وتستعمل اللغة السريانية في طقوسها الدينية وبعضها روم كاثوليك وتستعمل اليونانية . وكان عهد الامير فخر الدين المعني اللبناني الثاني (١٥٩٠ — ١٦٣٥) عهد تقدم وحرية ونور وقد فتح الباب على مصراعيه لتأثيرات الثقافة الغربية .

فخر الدين امير لبنان المثقف

لقد سمي هذا الامير باسم جده فخر الدين الاول (المتوفى ١٥٤٤) وكان حين اشتدت

(١) قابل Alfred Bonné, *The Economic Development of the Near East* (New York, 1945) p.10

(٢) Bonné, p. 4.

(٣) F. Charles-Roux, *France et chrétiens d'orient* (Paris, [1939]), pp. 68-77.

المعركة في مرج دابق بين الترك والمماليك للسيطرة على سورية قد نصح اتباعه ان يتريثوا ويرقبوا الموقف حتى ينجلي وينضموا حالا الى الفريق المنتصر . فلما ظفر سليم تقدم فخر الدين هو وجماعته من الزعماء اللبنانيين وقبّل الارض امام الفاتح والقى بين يديه خطبة حماسية بليغة [١] جعلت السلطان يرضى عنه فثبت امارته واقره وزملاءه الامراء والشيوخ في اقطاعاتهم ومنحهم امتيازات الحكم الذاتي نفسها التي تمتعوا بها في ظل العهد السابق ولم يفرض عليهم سوى جزية بسيطة . ولقد أدرك الاتراك منذ اول عهدهم ان للبنان بسكانه الدروز والموارنة الجبليين القساة حقاً بمعاملة خاصة تختلف عن معاملة سورية . وكان الوالي التركي في دمشق عموماً هو ضابط الاتصال بين الباب العالي والزعماء الاقطاعيين اللبنانيين . وكان هؤلاء بوجه عام مستقلين في الامور الداخلية يورثون اقطاعاتهم لذريتهم ويفرضون على اتباعهم الضرائب والرسوم ولا يقومون بالخدمة العسكرية للسلطان .

وبلغت سلطة المعنيين [٢] ذروتها في ظل الامير فخر الدين الثاني . وكان الامير نفسه اعظم شخصية في تاريخ لبنان العثماني ان لم نقل في تاريخ سورية كلها . وكان قزماً قصيراً بحيث زعموا انه لو وقعت بيضة من جيبه الى الارض لما انكسرت ، ولكنه كان ذا قلب كبير طموح . وكان حلمه الاكبر مشعباً له فروع ثلاثة : اولا ــ تأسيس وطن اكبر او لبنان اكبر من لبنانه الجبلي . ثانياً ــ قطع العلاقات بينه وبين الباب العالي . ثالثاً ــ وضع لبنان في طريق التقدم والعمران . وبالفعل كاد يحقق حلمه كله ، فقد تسلم من الباب العالي سنجقي بيروت وصيدا ، وانتزع من جيرانه في الشمال طرابلس وبعلبك والبقاع . وخضعت له من منطقة جيرانه في الجنوب صفد وطبرية والناصرة . ثم اخذ بعد ذلك يتطلع الى ما وراء البحار فوقّع في عام ١٦٠٨ معاهدة مع فرديناند دوق توسكاني الاكبر المديتشي وفيها بنود

---

١) ذكرت في تاريخ الامير حيدر الشهابي نشر نعوم مغبغب (القاهرة ، ١٩٠٠) ص ٥٦١ ؛ اسطفان الدويهي ، تاريخ الطائفة المارونية نشر رشيد الشرتوني (بيروت ، ١٨٩٠) ص ١٥٢ ؛ طنوس الشدياق ، تاريخ الاعيان في جبل لبنان (بيروت ، ١٨٥٩) ص ٢٥١ . انظر Hitti, *History of Syria*, pp 665-6

٢) وهم قبيلة عربية .

حربية سرية موجهة ضد الباب العالي (١) . وسيّر اليه جيش تركي من دمشق يطلبه ففر من البلاد مع عائلته وحاشيته ولجأ الى فلورنسة عاصمة حليفه الايطالي . و بعد ان اقام في اوربا خمس سنوات (١٦١٣ ـ ١٨) عاد الى مملكته التي ورثها من آبائه مصمماً اكثر من قبل



الامير فخر الدين

على توسيعها وجعلها عصرية . وفي عام ١٦٢٤ اعترف به الباب العالي سيداً على بلاد العرب (عربستان) من حلب حتى حدود مصر . واستجلب من ايطاليا البنائين والمهندسين والخبراء الزراعيين وشجع الوسائل للزراعة بين رعاياه الفلاحين (٢) . وكان من مشاريعه تجفيف المستنقعات في البقاع . وفوق ذلك فقد رحب بالمرسلين النصارى وبالاخص الكاثوليك الافرنسيين فأسسوا مراكزهم في بيروت وصيدا وطرابلس وحلب ودمشق وكثير من القرى اللبنانية . وكان يظهر الاسلام امام السلطات العثمانية ويُظهر الدرزية امام شعبه ولكنه أبدى شعوراً وعطفاً على النصرانية بحيث قيل انه تعمّد (٣) . وعاش في امارته الدروز والنصارى بسلام . وكان عطفه على النصرانية داعياً لان تتنبه اليه عين الباب العالي . فسيّر اليه مرة ثانية جيش من دمشق و بعد ان ابدي شيئاً من المقاومة هرب ولجأ الى مغارة في الجبل قرب

---

١) راجع بشأن هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات : P. Paolo Carali, *Fakhr ad-Din II e la corte di Toscana* (Rome, 1936—8), vol. I, pp. 146 *seq* ; vol. II, 159 *seq* ; G. Mariti, *Istoria di Faccardino gran-emir dei Drusi* (Livorno, 1787), pp. 74 *seq.*

٢) Carali, vol. II, p. 52 *seq.*

٣) Carali, vol, II pp.640 *seq.*

جزين حيث القي القبض عليه وقُيد بالسلاسل وسيق الى القسطنطينية في شباط سنة ١٦٣٥ (١) وهناك قطع رأسه ورؤوس ابنائه الذين رافقوه وعرضت جثته مدة ثلاثة ايام امام احد الجوامع وحاول بعد ذلك امير آخر هو الامير بشير الشهابي (١٧٨٨ - ١٨٤٠) تحقيق ما كان يحلم به ويسعى اليه الامير فخر الدين - لبنان الاكبر المستقل - ولكنه لم يستطع ذلك تماماً ولم يحقق هذا الامر تماماً حتى عام ١٩٤٣ . ويرجع الشهابيون الذين خلفوا المعنيين عام ١٦٩٧ اصلهم الى اشرف القبائل العربية - قريش . وكان مؤسس هذه الاسرة اللبنانية الشهابية الحاكمة يومئذ صهر آخر حاكم مَعنيّ .

آل العظم في سورية

لم يأخذ الحكام الوطنيون السوريون في تثبيت مكانتهم وهيبتهم حتى القرن الثامن عشر . وكان في طليعة هؤلاء اسماعيل باشا العظم وهو شامي عُين عام ١٧٢٤ والياً على دمشق مدينته . وقد عين ابنه بعده والياً ايضاً فكان متميزاً اكثر من والده وهو صاحب القصرين في دمشق وحماة اللذين يعدان من اجمل الآثار المتخلفة عن العصور الاخيرة ويعرضان على السياح والمسافرين . وكان هنك افراد آخرون من عائلة العظم عُينوا حكاماً على صيدا وطرابلس فكانوا بخلاف الامراء اللبنانيين مخلصين للباب العالي برغم سوء المعاملة التي كانت تبدو منه . وقد سجن اسماعيل قبل موته وقتل اسعد غدراً (١٧٥٧) في الحمام بناء على اوامر وردت من القسطنطينية (٢) .

فلسطين وحكامها المستبدون

وبينما كانت الامبراطورية العثمانية في خلال القرن الثامن عشر تسلك طريق التدهور والانحلال من حيث السلطة والمقام والاسم كان عدد الزعماء المحليين الذين يطلبون الاستقلال ويصلون اليه يزداد باطراد . وكانت فلسطين كما كان لبنان ومصر مسرحاً لنشاط بعض

---

١) الدويهي ص ٢٠٤ - ٥؛ شدياق ص ٣٣ - ٣٥ ؛ Carali, vol. II, pp.340-56.

٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ج ٢ (دمشق ، ١٩٢٥) ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ - ٩١ ؛ حيدر الشهابي تاريخ ، نشر مغبغب ص ٧٦٩ .

هؤلاء الزعماء وكان من ابرزهم الشيخ ظاهر العمر وهو في الأصل بدوي كان حاكم لبنان الشهابي قد عيّن أباه شيخاً على منطقة صفد . و بدأ ظاهر حياته السياسية وهو فتى في حدود ١٧٣٧ حين ضم طبرية الى مشيخته (١) . ثم خضعت له مدن اخرى . ولم تأت سنة ١٧٥٠ حتى كان هذا المغتصب قد ثبت مركزه في عكا . وكان قسم من هذه المدينة خرباً منذ أيام الصليبيين فحصنها واصبحت مركزاً تجارياً هاماً . وحكم هذا الحاكم الجديد بيد من حديد فمحا اعمال الشقاوة والفساد وشجع زراعة القمح وصناعة الحرير والقطن وعامل رعاياه النصارى باللين والتساهل . وقد قال عنه مؤرخ سيرته (٢) : حتى المرأة كانت تسافر في عهده حاملة الذهب بيدها دون خوف من ان تتعرض لأذى .

ولما استقر له الأمر في مركز سلطته الدكتاتورية عقد محالفة مع علي بيك حاكم مصر . واستطاع بمساعدة المراكب الروسية التي كانت تقوم بمناوراتها في البحر المتوسط الشرقي ان يحتل صيدا (٣) في جنوبي لبنان سنة ١٧٧٢ . وكانت روسيا في تلك الحقبة مشتبكة في نزاع عنيف مع تركيا . و بعد ذلك بثلاث سنوات تحالف امير لبنان الشمالي مع والي دمشق وهاجما الشيخ ظاهر في عاصمته وحاصراها مستعينين بكتيبة جند من القسطنطينية . وقُتل الشيخ ظاهر في اثناء الحصار بيد واحد من رجاله كان قد استؤجر لهذا الغرض . وكان في الجيش السوري الذي حاول الدفاع عن صيدا ضابط صغير اسمه احمد الجزار فخلف الشيخ الظاهر ولعب فيما بعد دوراً اهم من دوره .

كان الجزار في الاصل نصرانياً من البوسنه وقد ارتكب في صباه جرماً اخلاقياً فهرب الى القسطنطينية حيث باع نفسه من تاجر يهودي وانتهى امره في أن اصبح مُلك علي بيك في القاهرة . وكانت الخدمة الممتازة التي قدمها لسيده كجلاد قد اكسبته لقب الجزار .

---

١) Volney, *Voyage en Syrie et en Égypte* 2 nd ed. (Paris, 1787). vol.II, p. 85; الشدياق ص ٣٦٠ ؛ حيدر ص ٨٠١ ؛ ميخائيل الصباغ (العكاوي) تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني نشر قسطنطين الباشا « حريصا » ص ٣١ – ٣ .

٢) الصباغ ص ٥٠ .

٣) الصباغ ص ١١٥ ، الشدياق ص ٣٨٩

وهرب الجزار من مصر الى سورية . واعترافاً بالعمل الذي قام به في صيدا ضدّ الشيخ ظاهر عيّن حاكماً على تلك المدينة (١) . واخذ الجزار تدريجياً يوسع سلطته شمالاً في لبنان وجنوباً في فلسطين حيث خلف الشيخ ظاهر في عكا واحاط نفسه هنا بجيش من البشناق والالبانيين وآخر من المشاة المغاربة وحصّن المدينة بالعمل الاجباري وانشأ اسطولاً صغيراً في مينائها . وفي عام ١٧٨٠ رأى الباب العالي من الحكمة ان يمنح عامله هذا ولاية دمشق جاعلاً اياه بالفعل نائب السلطان في سورية وحاكم لبنان . ومع أنه كان يعترف بالاسم بسلطة الباب العالي فقد اعدم رسول السلطان سليم الثالث دون أن يخشى عقاباً . واحمد الجزار هذا هو الذي استطاع ان يصمد امام حملة نابليون ويردها عن عكا بمساعدة الاسطول البريطاني الذي كان يقوده السر سدني سمث كما مر معنا . وكان هذا الدكتاتور المغتصب شديد القساوة في معاملته اعدائه ومن يرتاب بهم . وقد اشتهر عنه انه كان يرغب في تطبيق اسمه ، وبالفعل طبق ذلك . وقد ذكر عنه مواطن معاصر له (٢) انه ارتاب مرة في سلوك بعض حريمه فامر خصيانه ان يجروهن كلهن وعددهن سبع وثلاثون الى محرقة فوق كومة حطب حيث احرقن جميعاً . ولا يزال ذكره في البلاد حياً ولا يزال اسمه مرادفاً للرعب والقساوة . وفي سنة ١٨٠٤ انتهت سيرة هذا الطاغية الغاشم بميتة طبيعية دون ان ينغّص عيشه او يكدره فشل او انكسار — وهي ظاهرة نادرة .

بشير الشهابي

كان سيد لبنان ايام الجزار الامير بشير الثاني الشهابي (١٧٨٨ — ١٨٤٠) . وكان حين هاجم نابوليون عكا قد عجز او قصّر في ارسال مدد للجزار صاحب عكا فحلت عليه نقمته . واضطر الامير بشير ان يهرب من وجهه الى مصر على متن احد المراكب الانكليزية . وكذلك اضطر الامير بشير ان يهرب مرة اخرى عام ١٨٢١ حين ضم البقاع الى لبنان واشتبك

---

١) حيدر ص ٨١١ ، ٨٢٧ .

٢) ميخائيل مشاقة ، مشهد الاعيان بحوادث سورية ولبنان ، نشر ملحم عبده واندراوس شخاشيري (القاهرة ، ١٩٠٨) ص ٥٤ .

في نزاع مع والي الشام وطرابلس . وفي اثناء اقامته في مصر عقد اواصر الصداقة مع نائب السلطان محمد علي الكبير . وحينما هاجمت الجيوش المصرية سورية عام ١٨٣١ (١) بقيادة ابراهيم باشا كان لها من الامير بشير ورجاله خير حليف فقد كانوا على أتم استعداد لنصرتها . وقد ساعد اللبنانيون الجيوش المصرية في اكتساح عكا التي كان ابراهيم قد حاصرها بعد احتلاله يافا والقدس . وكان الدروز امام اسوار دمشق حين استسلمت . وبانكسار الجيش التركي في حمص وهزيمته انفتح الطريق امام ابراهيم لآسية الصغرى . وجاز الجيش المصري جبال طورس وقد وسعت الممرات فيه في بعض المواضع ليسهل مرور المدفعية المصرية . وفي عام ١٨٣٢ انتصر الجيش المصري في قونية ومهدت الطريق امامه للقسطنطينية . ونصبت اخيراً المخيمات المصرية عند كوتاهية على مرمى النظر تقريباً من مضيق البوسفور فحرك هذا روسيا، وساور انكلترا وفرنسا الريب في حركة روسيا ـ وكانت فرنسا حتى هذا الوقت تشجع محمد علي في مطامحه للتوسع ـ واضطرتا ان تعملا على ايقافه بعد ان تفاهمتا مع السلطان ، وهكذا احبطت المطامح المصرية .

ولقد تودد ابراهيم الى رعاياه السوريين اكتساباً لعطفهم لاسيما النصارى منهم وذلك بحفظه للامن ونشره للعدالة وادخاله لكثير من الاصلاحات الاجتماعية . ولم يكن مسيحي قبل ذلك العهد في مدينة كدمشق مثلاً يجرؤ على ان يظهر امام الناس راكباً حصاناً او لابساً عمامة بيضاء او حمراء او خضراء . ولم يكن لمسيحي ان يشغل وظيفة من الوظائف الهامة في الدولة . وقد ازيلت كل هذه العقبات يومئذ . غير ان ابراهيم باشا اضطر بعد ذلك بناءً على تعليمات والده ان يزيد الضرائب بحيث اصبحت ثلاثة اضعاف ما كانت عليه ، وان يجعل الحرير وكثيراً من الحاصلات في البلاد احتكاراً بيد الدولة كما كان الامر في مصر (٢) . وكان أسوأ ما في هذه التعليمات اصراره على نزع السلاح من ايدي الاهالي وتجنيدهم ، فليس هناك ما يمكن ان يغيظ السوريين و بنوع اخص اللبنانيين كهذا الامر . واندلعت ألسنة الثورة في

---

(١) انظر ص ٨٥٣ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٨٥٢ من هذا الكتاب. وقد أسس اول مصنع حديث للحرير في بتاتر في لبنان سنة ١٨٤١ وكان المؤسس فرنسياً .

فلسطين وانتشرت الى كل اجزاء سورية . وكان في البيان الذي اصدره ثوار لبنان في ٨ حزيران ١٨٤٠ انهم يشكون قبل كل شيء نزع السلاح والتجنيد [١] . وقد منح لبنان في ذلك الوقت امتياز خاص في ظل اميره الحليف . وكان محمد علي يأمل ان يبني اسطوله من احراج لبنان وكان الاسطول المصري قد أبيد تقريباً في نافارينو [٢] كما مر معنا . ولا تزال آثار استغلال المصريين للفحم في قرنايل والحديد في مرجبا في المتن ظاهرة حتى اليوم . وقد شجعت هذه الحركات الثورية السلطان محمود فارسل للمرة الثانية جيشاً عام ١٨٣٩ حطم عند نزب في شمالي سورية ووقعت الامبراطورية العثمانية مرة ثانية عند اقدام احد عمالها . ولكن الدول الاوربية تدخلت مرة اخرى وارغمت محمد علي في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٤٠ على الجلاء عن سورية . وفي ٢٩ كانون الاول شرع ابراهيم باشا في العودة من دمشق سالكاً طريق غزة. وفي الوقت نفسه كان الامير بشير على مركب بريطاني في طريقه الى مالطة [٣] . وكان من نتيجة هذه الحوادث السورية ـ المصرية ان قويت المصالح البريطانية في الشرق من الناحية الدوليةوكان ذلك على حساب فرنسا .

الاعتراف باستقلال لبنان دولياً

واقتنعت السلطات العثمانية اخيراً ان الطريق الوحيد لوضع لبنان تحت سيطرتها المباشرة هو اثارة الفتن والحزازات بين الدروز والموارنة . وكانت تكتلاتهم ايام الامير بشير وفخر الدين قبله قد قامت على اساس حزبي لا طائفي وكانت المنازعات الداخلية حتى ذلك العهد منازعات اقطاعية لا دينيــة . ولم يكن الاتراك اول من اتبع قاعدة « فرق تسد » القديمة العهد . وكانت تركيا في ذلك الوقت تقوم بسياسة جديدة لضبط المقاطعات ـ سياسة

---

١) اسد رستم ، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي ج٢ بيروت ، ١٩٣٣ ص ١٠١ـ٣ . وانظر ايضاً للمؤلف نفسه : *The Royal Archives of Egypt and the Disturbances in Palestine* 1934. (Beirut, 1938), pp. 47-51; وراجع ايضاً سليمان ابو عزالدين ، ابراهيم باشا في سورية (بيروت ، ١٩٢٩) ص ٣١٣ وما يلي .

٢) Asad J.Rustum, *The Royl Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria* (Beirut, 1936), pp. 63-6 وانظر ص ٨٥٣ من هذا الكتاب .

٣) الشدياق ص ٦٢٠ ، مشاقة ص ١٣٢ـ٤ .

المركزية ـ وكان عامة الشعب من النصارى والدروز و بنوع أخص النصارى في حالة ارتباك واستياء وتذمر من اسيادهم الاقطاعيين . وقد حرك الاكليروس الماروني الفلاحين اللبنانيين في الشمال فثاروا سنة ١٨٥٧ على اسيادهم الاقطاعيين وعزموا على تقسيم اقطاعاتهم فيما بينهم . وكان الامير بشير وهو من اقوى الحكام الذين عرفهم لبنان قد حقق العدالة ونشر الامن بين رعاياه وشق طرقاً جديدة وشجع على نشر الثقافة والتربية الغربية ولكن سميّه وخلفه كان خلاف ذاك (١).

و بلغت الاضطرابات والفتن الداخلية بين النصارى والدروز ذروتها عام ١٨٦٠ وكان الاتراك قد أثاروها منذ عام ١٨٤١ . وكان السلطان ايام هذه الحركة الاخيرة عبد المجيد الاول . وقد قُتل في تلك المذبحة فيما قدّروا احد عشر الفاً من النصارى اكثرهم موارنة ، واحرق نحو مئة وخمسين قرية . ولا يزال الفلاحون اللبنانيون يؤرخون بعض الحوادث في تاريخهم من تلك السنة ـ سنة الحركة ـ كما يسمونها (٢) . وقد دعت تلك الحركة الى تدخل الاوربيين واحتلال الفرنسيين للبنان . و بالتالي نال الجبل نظاماً عام ١٨٦١ نُقح بعد ثلاث سنوات وسمح له فيه بممارسة الاستقلال الذاتي تحت ادارة حاكم عام مسيحي (متصرف) من الطائفة الكاثوليكية يُعين لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد، وذلك كله بموافقة الدول الموقعة على هذا النظام . ولم يكن في متصرفية جبل لبنان الجديدة هذه حامية تركية ولم تدفع ضرائب لخزينة القسطنطينية ولم يكن على اللبنانيين ان يقوموا بالخدمة العسكرية . وكان المتصرف الاول في الجبل داود باشا (١٨٦١ ـ ٨) وقد اطلق اسمه على كلية الصبيان التي أنشأتها الحكومة في عبيه عام ١٨٦٢ وهي اليوم مؤسسة درزية تعرف بالداوودية .

وسار لبنان في مضمار التقدم في ظل متصرفه ومجلسه الاداري المنتخب سيراً لم تعرف مثله اي مقاطعة اخرى مجاورة . وقد عد هذا الحكم في لبنان كأحسن مثال للاستقلال طبق في

---

(١) لقد الفى الامير بشير الثاني وابناؤه العمائم ولبسوا مثل المصريين الطرابيش المغربية القصيرة ذات الشراريب الغليظة ولا يزال يلبسها بعض الشيوخ في سورية ولبنان من ابناء الجيل القديم . قابل حيدر ص ١٠٣٥ـ٦ .

(٢) Hitti, *History of Syria*, pp. 694-5.

مقاطعة تركية (١). ففيه بلغ استتباب الامن العام ومستوى الحياة السياسية والاجتماعية درجة لم تبلغها اي مقاطعة اخرى في الامبراطورية كلها (٢). واخذ سكان الجبل يزدادون وكان المنفذ لازدياد السكان الهجرة الى مصر واستراليا والاميركتين حيث لا تزال جاليات كبيرة من ابناء اولئك المهاجرين تعيش مزدهرة الى اليوم. وظل لبنان محافظاً على استقلاله حتى الحرب العالمية الاولى حين انتزعه منه الاتراك. وقد اجتذب لبنان المستقل الى حظيرته من المعلمين الغربيين والوعاظ والاطباء والتجار ما لم تجتذبه اي بلاد اخرى في الشرق الادنى. وكون الاكثرية فيه مسيحية جعله اكثر قبولا للافكار وطرق العيش الاوربية والاميركية. وقد اصبح الآن اكثر مما كان ايام بشير وفخر الدين النافذة التي يتطلع منها العالم العربي الى العالم الخارجي.

العراق

كانت سيرة العثمانيين في وادي الفرات التي بدأت سنة ١٥٢٤ موازية لسيرتهم في وادي النيل. فالباشوات الاتراك والزعماء المحليون والماليك يتنازعون على السيادة بينما كانت عامة الناس والجماهير تشقى من الفساد واضطراب الامن وامتناع العدالة. وقد اخذت سلطة الحكام الاقليميين تتضاءل هناك ايضاً كما تضاءلت في كل موضع آخر في اواخر القرن السادس عشر بعد أن انقضت فترة ازدهار الامبراطورية. ودارت الحوادث التاريخية حول الشخصيات والدسائس في بغداد – و بغداد أهم الولايات الثلاث التي قسمت البلاد اليها. وكانت الولايتان الأخريان البصرة والموصل. وهكذا فان تلك البلاد التي اشتهرت قديماً في عهد حمورابي وعهد نبوخذ نصر ولمعت في العصور الوسطى في عهد الرشيد والمأمون قد اصبحت في عهد الاتراك مجهولة ومنسية لدرجة لم تعهدها، ربما، في كل ادوار تاريخها.

وكانت الظواهر التي تميزت بها وضعية العراق منبثقة عن اغلبية العنصر الشيعي في

١) William Miller, *The Ottoman Empire 1801—1927* (Cambridge, 1936), p. 306

٢) *Syria and Lebanon* (handbook under the direction of the historical section of the Foreign Office (London, 1920), p. 37.

سكانه وصعوبة المواصلات مع مقر الدولة في القسطنطينية وقربه من بلاد فارس الشيعية والخلاف و بعد الشقة بين المدينة والقبيلة فيه . وكان العراق في هذا العهد كما كان في أيام البيزنطيين موضوع نزاع بين القسطنطينية وفارس ـ كلّ يريد امتلاكه . وكان ايضاً أهم معقل للشيعة بصفته مركز المشاهد المقدسة عندها ـ مشهد الحسين في كربلاء وعلي في النجف والامامين السابع والتاسع في الكاظمين . وكان ابناء الشيعة ينظرون الى الخلفاء السنيين كالسلاطين العثمانيين مثلاً نظرهم الى مغتصبين بينما كانوا يعتبرون الفرس اصدقاء وحلفاء. وقد جمعت قضية الشيعة بين العراق وفارس وكانت لها رابطة وثيقة ، وكانت فارس وتركيا طيلة القرن السادس عشر في حالة أشبه ما يكون بالخصومة ان لم تكن الخصومة حقاً . وفي مناسبتين اولاهما في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٦٢٣ نجح الشاه في احتلال بغداد بفضل خيانة احد العصاة الانكشارية . وظلّ العراق خمس عشرة سنة امارة تابعة للمملكة الصفوية . وكذلك سهّل احد ولاة بغداد دخول الفرس مرة اخرى الى بغداد وذلك سنة ١٧٧٣ . واذا استثنينا ما كان يجبيه الاتراك من العراق فان أهم مصالحهم فيه كانت تدور على استعماله كقاعدة تواجه الشواطىء الشرقية في الجزيرة العربية هذه الشواطىء التي لم يستطيعوا ان يُحكموا السيطرة عليها . وقد الحقت الحروب التركية الفارسية الضرر باقتصاديات البلاد واعاقت الحج الى مشاهد الشيعة وكان الحج مصدراً هاماً من مصادر الدخل الوطني . وكان ظهور شركة الهند الشرقية البريطانية في اوائل القرن السابع عشر قد وضع العراق في مركز ستراتيجي على الطريق البري بين الشرق والغرب . ولم يأت آخر ذلك القرن حتى كان الانكليز قد فازوا على منافسيهم البرتغاليين والهولنديين في التسابق على السيادة البحرية التجارية في الخليج الفارسي . وزاد في أهمية العراق الستراتيجية اكتشاف البترول في تربته وقد مُنحت شركة النفط العراقية الامتياز لاستخراجه واستثماره سنة ١٩٢٥ لمدة ٧٥ سنة .

وكان البدو مصدر ازعاج دائم بسبب غزواتهم وتعدّياتهم وسوء تصرفاتهم وكانت المواصلات التركية بين عاصمة الدولة ومركز الولاية تحت رحمة ابناء الصحراء ورجال العشائر في الجبال . ففي منتصف القرن الثامن عشر عقد كثير من قبائل البدو في الفرات

الاسفل حلفاً فيما بينهم واتحدوا معاً تحت اسم المنتفق وسببوا متاعب كثيرة لا لباشوات بغداد فحسب بل للماليك المحليين ايضاً ولسكان المدن .

وكان المماليك بالاكثر ارقاء جراكسة الأصل وكانت حكومتهم حكومة عمال مستقلين ولم يكونوا نواباً عن السلطان ، وكان اولهم سليمان اغا (١) (وبعدئذ باشا) ابو ليلى قد نال السلطة سنة ١٧٤٧ . وكان آخر مملوك اسمه داود (توفي ١٨٣٠) وكان مثقفاً لدرجة انه بنى مدارس في بغداد . وكانت البلاد في قبضة حكومة افراد من المماليك اكثر من ثمانين سنة . وحاولت القسطنطينية بعد حرب القرم (١٨٥٣ – ٦) ان تدعم مكانتها فيها وتثبت هيبتها فركزت في بغداد حامية قوية . وارسلت سنة ١٨٦٩ مدحت باشا والياً عليها وكان من افضل سياسيي تركيا وارقاهم واكثرهم حباً للتقدم والحرية . وقد حاول مدحت ان يوقف الاعمال الاجرامية التي كانت ترتكب والتعديات وأن يحضر البدو ويحسن اعمال الري ويحدث نظاماً لتسجيل الاراضي وامتلاكها . وكان هذا الموظف التركي اميناً لدرجة انه اضطر ان يبيع ساعة جيبه فيما قيل لكي يحصل على ما يكفيه من نفقات السفر الى القسطنطينية حين عاد اليها (٢) . وكانت ادارته القصيرة الامد الناحية المشرقة الوحيدة في تلك الصورة القاتمة . وقد اضاف الى مآثره مأثرة اخرى حين وضع اول دستور لبلاده .

الجزيرة العربية

كانت الجزيرة العربية كتلة مستقلة بذاتها متميزة من كتلة افريقية الشمالية وكتلة الهلال الخصيب ومصر . وقد أحاط بالجزيرة بصفتها مهد الاسلام هالة من القدسية ومن هنا صار لها مكانة خاصة في قلوب المسلمين في كل العالم . وقد طبعتها قدسيتها هذه وانعزالها الجغرافي ومواصلاتها غير المنظمة بطابع العصور الوسطى الذي لا يزال يميزها حتى الآن . وقد تميز الحجاز واليمن بنوع خاص بالانعزال والانقطاع عن الافكار والتأثيرات الغربية وهما اكثر

---

١) كانت هذه الكلمة في الاصل تركية شرقية بمعنى أخ اكبر فاستعملها العثمانيون اولا بمعنى سيد او مولى ثم اطلقت بعد ذلك كالقب على كل ضابط في الجيش من ادنى رتبة حتى رتبة رئيس .

٢) Stephen H. Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*. (Oxford, 1925), p. 300.

اجزاء الشرق الادنى عزلةً وانطواءً على النفس .

ومع ان اليمن لم تكن مرة جزءاً من مسرح حياة النبي فانها كانت متعزلة منطوية على نفسها كالحجاز ان لم يكن اكثر . وسكان اليمن زيدية من اتباع زيد حفيد الحسين المقتول عام ٧٤٠ في ثورته على الامويين . ومع ان الزيود قد تفرعوا عن الشيعة فانهم لا يتمسكون بكل عقائد الشيعة وقد اصبحوا من هذه الناحية أقرب ما يكون الى السنّة . وكان احد زعمائهم واسمه القاسم قد استطاع عام ١٦٣٣ ان يطرد الوالي التركي من اليمن ويؤسس امامة وطنية دامت مع تقلبات الزمن حتى ١٨٧١ . غير ان البلاد عادت عام ١٨٤٩ فاصبحت ولاية تركية دامت حتى قيام الامام يحيى عام ١٩٠٤ . وفي عام ١٩٠٥ احتل الامام صنعاء التي اصبحت فيما بعد عاصمته ولكن الباب العالي لم يعترف باستقلال حكومة الامام في اليمن حتى عام ١٩١١ . وفي الواقع لم ينسحب الاتراك بالكلية من اليمن حتى السنة الاخيرة من الحرب العالمية الاولى . وقد اغتيل الامام يحيى كما مر معنا في شباط عام ١٩٤٨ بدسيسة دبرت في القصر . وقد زار اليمن في السنوات الاخيرة رحالة شامي مسلم وكان يرافقه فيها حرس خاص من قبل الامام يحيى نفسه ومع ذلك فقد كاد يهاجمه الاهلون عند مأرب لالسبب الا لانه ظهر لهم كالغريب(١) . وقد كتب الرحالة اللبناني الاميركي امين الريحاني انه في كثير من الظروف حين كان يقدّم الى الفقهاء في اليمن التي زارها في اوائل العقد الثالث من هذا القرن كان بعضهم يعمدون حالاً الى النظارات القاتمة يضعونها على عيونهم كي لا تتلوث برؤيته .

وفيما عدا المملكة العربية السعودية ومملكة اليمن وهما الدولتان الوحيدتان المستقلتان استقلالاً حقيقياً في الجزيرة العربية فانا نجد فيها من الاقسام السياسية مستعمرة عدن ومحميتها وسلطنة مسقط وعُمان ومشيخات شاطىء الهدنة (Trucial coast) ومشيخات الكويت وقطر والبحرين وكل هذه المناطق تعتمد بدرجات متفاوتة على بريطانيا العظمى وتتمتع بنوع من الحماية البريطانية . اما عُمان والشاطىء الجنوبي الشرقي فقد كانت من

١) نزيه العظم . رحلة في بلاد العرب السعيدة (القاهرة ، ١٩٣٧ ؟) ص ٢٠ .

قبل تحت النفوذ البرتغالي ثم اصبحت بعد ذلك تحت النفوذ البريطاني ولكنها بخلاف الحجاز ونجد واليمن لم تخضع مطلقاً لتركيا(١). وكانت سلطنتها المستقلة بالاسم ومركزها مسقط قد حافظت مدة قرن ونصف على العلاقات بينها وبين الحكومة البريطانية. وقد ثبّتت هذه الروابط في معاهدة أُمضيت عام ١٩٣٩. واما الشاطىء الممتد على الخليج الفارسي من الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة قطر جنوباً الى مسافة نحو اربع مئة ميل المعروف سابقاً بشاطىء القرصنة فقد كان يخص شيوخ شاطىء الهدنة. وبعد فترة من النزاع مع شركة الهند الشرقية أمضى هؤلاء الشيوخ مع الحكومة البريطانية معاهدة عامة تنص على السلم وايقاف اعمال القرصنة وتجارة الرقيق. ولا تختلف علاقة قطر مع الحكومة البريطانية عن علاقة المشيخات جنوبيها وقد نُظمت هذه العلاقة بمعاهدة أُمضيت عام ١٩١٦. وكذلك وضعية البحرين فهي مماثلة لها. وقد اضيف الى صناعة استخراج اللؤلؤ في الجزيرة(٢) صناعة اخرى في عام ١٨٣٢ اكثر نفعاً وجدوى هي صناعة استخراج الزيت وقد أُسندت الى شركة نفط البحرين المسجلة في كندا. وقد اكتشف الزيت ايضاً في الكويت التي اعترفت الحكومة البريطانية باستقلال مشيختها في تشرين الثاني عام ١٩١٤ ويملك الزيت فيها شركة بريطانية اميركية.

وتمتد محمية عدن من مستعمرة عدن متجهة شرقاً وتضم لحج وحضرموت ومهرة وسقطرة. وكانت المنطقة حتى منتصف القرن الثامن عشر تحت حكم امام صنعاء. وتعتبر عدن مفتاح المدخل الجنوبي للبحر الاحمر وقد أُلحقت بالامبراطورية البريطانية عام ١٨٣٩.

الوهابيون

لا يبدأ تاريخ الجزيرة العربية الحديث حتى ظهور الموحدين في منتصف القرن الثامن عشر. وكانت حركتهم حركة احياء للدين وتمسك شديد بنصوصه بدأها نجدي من العيينة اسمه محمد ابن عبد الوهاب (المتوفى ١٧٩٢) فبعد ان طاف ابن عبد الوهاب في الحجاز والعراق

---

١) انظر ص ٨٣٧ من هذا الكتاب.

٢) كان لهذه الصناعة شهرة عالمية وقد اخذت تتدهور اليوم.

وسورية عاد الى وطنه وقد تأثر كثيراً بفكرةٍ هي ان الاسلام كما يمارسه معاصروه قد انحرف كثيراً عملياً ونظرياً عن طريق السنّة التي استنها القرآن والنبي وقرر ان ينقيه هو بنفسه ويعيده الى حالته البدائية زمن السلف الصالح . وقد استمد إلهامه من ابن حنبل كما شرحه ابن تيمية (١) وقد وجد هذا المصلح الجديد الملهم في محمد ابن سعود (المتوفى ١٧٦٥) خير نصير . وكان هذا زعيماً من زعماء اواسط الجزيرة واصبح صهراً لابن عبد الوهاب . وهذه حادثة أخرى يقترن فيها الدين والسلطة وقد نتج عنها انتشار سريع لحركة الموحدين ونفوذ ابن سعود في كل وسط الجزيرة العربية وشرقيها . وكان خصوم هذه الحركة يدعون اتباعها وهابيين فلصق بهم الاسم . وفي غيرة هؤلاء واندفاعهم لتنقية الاسلام من عقيدة تكريم الاولياء وغيرها من البدع اجتاحوا كربلاء عام ١٨٠١ وفتحوا مكة عام ١٨٠٣ والمدينة عام ١٨٠٤ وهدموا القبور التي كانت تزار وتكرم وطهروا تلك المدن كما قال ابن بشر من كل ما يشتم منه رائحة الوثنية (٢) . وفي السنة التالية هاجموا سورية والعراق ووسعوا ملكهم من تدمر حتى عمان فكان اكبر ملك في الجزيرة منذ ايام النبي . وقد فسر نجاحهم على انه اشارة من الله سبحانه وتعالى الى انه غير راض عن البدع التي يأتيها السلطان سليم الثالث (٣) . ولما خاف الباب العالي عاقبه الامر طلب الى محمد علي ان يقوم بحملاته التي افضت عام ١٨١٨ الى تحطيم قوة الوهابيين ودك عاصمتهم الدرعية وهدمها من اساسها (٤) . غير ان العقائد الوهابية ظلت تنتشر وظل أثرها ملموساً من سومطرة شرقاً حتى نيجيريا في الغرب .

عبد العزيز ابن سعود

واذا استثنينا فترة قصيرة من استعادة النشاط في حركة الموحدين بدأت عام ١٨٣٣ فان

---

١) انظر ص ٨٥٤ و ٨١٤ من هذا الكتاب .

٢) عثمان ابن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد (مكة ، ١٣٤٩) ج ١ ص ١٢١ — ٣ ؛ Musil, *Northern Negd*, pp, 261-7.

٣) انظر ص ٨٥٦ من هذا الكتاب .

٤) » » ٨٥٣ » » » ؛ ابن بشر ج ١ ص ١٥٥ — ٢٠٢ .

هذه الحركة ظلت هادئة حتى بعثها مرة ثانية زعيمها الحالي عبد العزيز ابن سعود معيد الدولة الوهابية ومنقذ سلطان اسرته. وقد بدأ عبد العزيز سيرته مقصياً في الكويت ثم استطاع بعد ذلك في الربع الاول من القرن العشرين ان يختط لنفسه مملكة ـ انتزعها من آل الرشيد في حائل وعائلة الشريف حسين في مكة ـ تمتد من الخليج الفارسي الى البحر الاحمر. وكان الملك حسين قد أعلن عام ١٩١٦ بايعاز من الانكليز انه ملك العرب ثم اتخذ لنفسه في ١٩٢٤ لقب خليفة المسلمين (١). اما ابن سعود فقد قضى على سلطة آل الرشيد عام ١٩٢١ ثم فتح مكة ١٩٢٤ والمدينة وجدة ١٩٢٥ واوجد في عام ١٩٣٢ المملكة العربية السعودية التي لا يزال يرأسها (٢). وقد منع ابن سعود الغزو بين القبائل، وحدد رسوم نقل الحجاج، وحقق الامن بصورة لم يسبق لها مثيل، وأدخل الراديو واللاسلكي والتلفون والسيارة لبعض المناطق في مملكته، وحاول ان يقر رعاياه البدو في الاراضي الزراعية ويجعلهم اخواناً (٣) ولكنه لم ينجح تماماً في تحضيرهم. وبعد ان كان الحج اهم موارد الدخل اصبح الزيت الآن اهم مورد للحكومة والشعب. وقد نالت الشركة العربية الاميركية امتيازها الاول لاستخراجه في عام ١٩٣٣ ولا يزال اثرها في نشر الحضارة الحديثة في الجزيرة مستمراً بنجاح.

النشاط الفكري

لم يكن يُنتظر أن يصدر أي اثر فكري عظيم في البلاد العربية في مثل تلك الاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي الفتها تحت الحكم العثماني. ولكن سبب البلاء كان اعمق من هذا فقد اطفئت شعلة الابتكار الاسلامية قبل ظهور الاتراك بقرون (٤). وكان الانتصار التام الذي احرزته طريقة الفقه المدرسية ابتداء من القرن الثالث عشر وتفوق السنة

---

١) انظر تفاصيل ثورة الحسين على الاتراك في: امين سعيد، الثورة العربية الكبرى ج ١ (القاهرة، ١٩٣٤) ص ١٢٠ وما يلي:

٢) انظر التفاصيل في: H. St. J. B. Philby, *Arabia.* (London. 1930). pp. 160 *seq.*

٣) K. S. Twitchell, *Saudi Arabia* (Princeton,1947), pp. 121. *seq.*

٤) انظر ص ٨٢٠ ـ ٨٢١ من هذا الكتاب.

والصوفية في الناحية الروحية وانحلال الروح العلمية وانتشار مبدأ تقديس القديم دون تمحيص او نقد والتمسك بالتقاليد ـ كل هذه ـ كانت عاملاً على اعاقة البحث العلمي والانتاج الصحيح. وهكذا وُضعت القيود للعقل العربي ولم يبدأ انحلالها حتى اول القرن التاسع عشر وذلك بتأثير الغرب [١] .

لقد كان كتّاب هذه الحقبة في الاغلب من المفسرين والمقتبسين والملخصين وكانت الشكلية الأدبية والصلابة الفكرية تميز انتاجهم . وكان حجي خلفه (المتوفى ١٦٥٨) المع كتاب العربية الاتراك . وقد دعاه بنو قومه « كاتب جلبي » (كاتب صغير) وكان من القسطنطينية و بدأ حياته اول الأمر ككاتب حربي في الجيش العامل في بغداد والشام. ويعتبر كتابه « كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون » [٢] من اعظم المؤلفات عن الكتب والابحاث والدراسات العامة في اللغة العربية وانفعها .

وكان يمثل النشاط الأدبي في مصر عبد الوهاب الشعراني (المتوفى ١٥٦٥) . وهو صوفي لم تقتصر تآليفه على الصوفية بل تعدتها الى العلوم القرآنية واللغوية . وقد نسبوا اليه انه كان يحادث الملائكة والانبياء [٣] واتهمه الفقهاء المحافظون بالزندقة وامتحنوه لذلك . وترك طائفة كبيرة من المؤلفات [٤] اصبح لبعضها شهرة برغم انعدام الجدة والابتكار فيها وقد لخص في كتابه الطبقات الكبرى [٥] سير اشهر الصوفيين [٦] وكانت مصر ايضاً مسرحاً للنشاط العلمي الذي أظهره لغويّ مشهور هو السيد مرتضى الزبيدي . وقد ولد الزبيدي سنة ١٧٣٢في شمال غربي الهند ولما تقاعد عن عمله مع الحكومة اخذ في تأليف

---

١) انظر ص ٨٧٦ من هذا الكتاب وما يلي .

٢) نشره وترجمه غستاف فلوغل في ٧ مجلدات (ليبزغ ولندن ١٨٣٥ ـ ٥٨) .

٣) الانوار القدسية في بيان آداب العبودية ، على هامش الطبقات الكبرى (القاهرة ، ١٩٢٥) ج١ ص ٢ وما يلي .

٤) راجع عنها : Brockelmann, *Geschichte*, vol.II.pp. 336-8.

٥) في مجلدين (القاهرة، ١٩٢٥) .

٦) راجع عن الصوفية وسيطرتها في مصر العثمانية كتاب « التصوف في مصر ابان العصر العثماني » لتوفيق الطويل (القاهرة ، ١٩٤٦) ص ٦ ـ ٥١ ، ٢٠٠ ـ ٢٣٢ .

شرحه على قاموس[١] الفيروز آبادي الكبير في القاهرة وانهاه وسماه تاج العروس [٢]. ولم يلبث ان مات في الطاعون الذي اجتاح القاهرة سنة ١٧٩١ . ولعل عبد الرحمان ابن حسن الجبرتي (المتوفى ١٨٢٢) أهم المؤرخين المصريين الذين استعنا بهم في كتابة هذا الفصل . وهو منسوب الى جبرت في الحبشة فمنها وفد اجداده الى القاهرة . وكان الجبرتي استاذ علم الفلك في الازهر وقد عينه نابليون عضواً في المجلس « الديوان » الذي انشأه . وكان الفرنسيون يأملون ان يحكموا البلاد بواسطة هذا المجلس . اما الخبر في ان الجبرتي قُتل عند عودته الى بيته باوامر من محمد علي لانه انتقده فليس له اساس من الحقيقة . واما كتابه « عجائب الآثار في تراجم الأخبار » [٣] فان قسماً منه تاريخي والقسم الآخر في التراجم .

وكان من المؤرخين اللبنانيين الذين اخذنا عنهم ايضاً في هذا الفصل ثلاثة من الموارنة اولهم اسطفان الدويهي[٤] (المتوفى ١٧٠٤) وقد تعلم في مدرسة اللاهوت التي انشأها البابا غريغوري الثالث عشر في رومة عام ١٥٨٤ لاعداد الطلاب الموارنة للعمل الاكليركي . وقد وصل الدويهي الى أعلى وظيفة في كنيسته واصبح بطريركاً . والثاني الامير حيدر[٥] (المتوفى ١٨٣٥) احد افراد الأسرة الشهابية الارستقراطية التي امدّت لبنان بكثير من حكامه الاقطاعيين . والثالث طنوس الشدياق[٦] (المتوفى ١٨٥٩) وقد ولد في جوار بيروت وعُين قاضياً زمن الشهابيين . غير ان أعظم عالم ماروني بل لبناني في ذلك العصر دون منازع هو يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ — ١٧٦٨) وكان ايضاً من خريجي مدرسة اللاهوت في رومة . فبمساعي هذا العلاّمة اللبناني تيسر للابحاث الشرقية لا سيما من حيث علاقتها بالطوائف المسيحية ان تعم في الغرب . وقد نتج عن عمله في مكتبة الفاتيكان ان ازدادت كثيراً مجموعة المخطوطات الشرقية التي تعد اليوم من أغنى المجموعات الخطية في العالم . وأروع

١) معنى هذه الكلمة الأصلي المحيط او الاوقيانوس ولكنها اصبحت الآن مرادفة لكلمة «معجم» .
٢) في ١٠ مجلدات (القاهرة ، ١٣٠٧) .
٣) ان الطبعة التي استعنا بها هي في ٤ مجلدات (القاهرة ، ١٣٢٢) .
٤) من كتابه تاريخ الطائفة المارونية ، نشر رشيد الشرتوني (بيروت ، ١٨٩٠) .
٥) من كتابه تاريخ الامير حيدر نشر نعوم مغبغب (القاهرة ، ١٩٠٠) .
٦) « « اخبار الاعيان في جبل لبنان (بيروت ، ١٨٥٩) .

آثاره كتاب « المكتبة الشرقيـة » *Bibliotheca Orientalis* (١) وفيه دراساتـه عن تلك المخطوطات نفسها السريانية والعربية والعبرانية والفارسية والتركيـة والحبشية والارمنيـة ولا يزال هذا الأثر الى اليوم مصدراً رئيسياً للاخبار عن الكنائس في الشرق .

وهناك في سورية كاتبان يمكن ان يعتبرا خير ممثلين للروح الادبيـة في ذلك العصر وهما المحبي والنابلسي وقد كانا كلاهما من دمشق الشام وكتبـا كثيراً . فأما المحبي (المتوفى ١٦٩٩) فقد تعلم في القسطنطينية وكان قاضياً مساعداً في مكة لمـدة قصيرة واستاذاً في دمشق مسقط رأسه . وأهم آثاره كتاب في التراجم يحوي الفاً ومئتين وتسعين سيرة لأعيان القرن الحـادي عشر للهجرة (١٥٩١ ـ ١٦٨٨) اسمه « خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر »(٢) . واما عبد الغني النابلسي (المتوفى ١٧٣١) الفلسطيني الاصل كما يستدل من اسمه فقد كان رحالة صوفياً وقد تخلف عنه طائفة من الآثار العلمية اكثرها لم ينشر بعد (٣) . وقد سيطرت الصوفية على حياته وتفكيره . غير ان أهم خدماته للعلم تنحصر في اخبار رحلاته برغم العناية التي اولاها فيها لمقامات الاولياء والاساطير المتعلقة بها .

---

١) 4 vols. (Rome, 1719-28)

٢) في ٤ مجلدات (القاهرة، ١٢٨٤) .

٣) من الكتب الاخيرة التي نشرت له كتاب « ذخائر المواريث في الدلالة على مواضيع الاحاديث » ، في ٤ مجلدات (القاهرة ، ١٩٣٤) .

الفصل الثاني والخمسون

المشهد المتغير: تأثير الغرب

لقد كان نزول نابوليون ارض مصر فاتحة عصر جديد من نواحي عديدة فهو يؤرخ اول العهد الذي وقعت القطيعة فيه مع الماضي . وقد استجلب القائد الفرنسي معه الى القاهرة معدات كثيرة منها مطبعة عربية كان قد نهبها من الفاتيكان . وكانت هذه المطبعة الاولى من نوعها في وادي النيل واصبحت فيما بعد معروفة بمطبعة بولاق المشهورة التي لا تزال مطبعة الحكومة الرسمية . ولقد استعان بها الفاتح الفرنسي لاصدار نشرة للدعاية في اللغة العربية . وأنشأ فوق ذلك شبه مجمع علمي او ادبي ومكتبة للمطالعة . وكان الناس في العالم العربي حتى ذلك العهد يحيون حياة انعزالية تقليدية قوامها المحافظة على القديم والتمسك به لا يعرفون التقدم ولا يلتفتون الى ما حققه العالم الخارجي منه ولا يشعرون برغبة في التغيير . فكان هذا التماسّ المفاجيء بالغرب بمثابة اول قرعة ساعدت على ايقاظهم من سباتهم العميق وقدحت الشرارة الفكرية الاولى التي قدّر لها ان تشعل زاوية من العالم الاسلامي .

الثقافة تنفذ الى مصر

وأدرك محمد علي الامكانيات التي كانت لهذه الصلة الثقافية الاولى فشرع في حركة التعليم بدعوة الضباط من الافرنسيين وغيرهم من اهل اوربا لتدريب جيشه ، بل ذهب الى أبعد من ذلك فأوسل بعثات من الطلبة للدرس والتدريب في اوربا(١) . وقد جرى في ذلك على منوال الاتراك الذين سبقوه في هذا السبيل . وكانت نقطة الاختلاف في كلتا الحالتين ـ قضية التعليم العسكري ـ ولكن اللغة وهي من متطلبات التدريب العسكري اذا اتقنت كان فيها المفتاح لذخائر المعرفة ـ الفكر الغربي في هذه الحالة وما فيه من المبادىء الوطنية

١) انظر ص ٨٠٢ من هذا الكتاب .

والديمقراطية والعلمية والعلمانية وغيرها من الفكر المتفجرة . وقد أخذ مؤسس مصر الحديثة بانشاء مدارس في ارض وطنه لا للعلوم العسكرية فحسب بل للطب ايضاً والصيدلة والهندسة والزراعة غير انه مع الاسف لم يبق من هذه المؤسسات التربوية التي أنشأها محمد علي الى ما



مسجد محمد علي الكبير

بعد وفاته سوى قليل جداً . حتى ان الكثير من المؤسسات التي انشأها ابنه اسماعيل (١٨٦٣-٧٩) لم تعمر طويلاً . وكان اسماعيل اول من أنشأ مدارس للبنات في مصر . وبرغم عطفه نحو الغرب وتصريحه ان مصر جزء من اوربا فقد اصدر سنة ١٨٦٦ مرسوماً اغلق فيه المدارس الاوربية المسيحية . اما المدارس الحكومية التي انشئت فلم تكن مجهزة حسب الاصول ولا مدعومة بقوة ولم يكن لها وقفيات ولا مورد من المعلمين المدربين تختار منهم اساتذتها

ولم يمكنها ان تستند الى انتاج غير منقطع من الكتب المدرسية في اللغة العربية ـ لغة التعليم . غير ان هناك مؤسسة واحدة أنشأها اسماعيل وعاشت حتى الآن وهي المكتبة الخديوية التي بدأها ببضعة كتب جلبها من القصور والجوامع وهي الآن مكتبة كبرى تضم نحو نصف مليون مجلد .

وقد أسس في عهد اسماعيل كلية اميركية في اسيوط سنة ١٨٦٥ ولا تزال تعمل الى الآن . وقد بدأت كلية البنات الاميركية عملها في القاهرة كمدرسة ابتدائية منذ سنة ١٨٦١ . وكانت الارسالية المشيخية المتحدة الاميركية قد شرعت في عملها قبل ذلك بسبع سنوات .

الى سورية ولبنان

كانت حقبة الاحتلال المصري لسورية (١٨٣١ ـ ٤٠) عهداً جديداً في تاريخ البلاد الثقافي (١) فقد زعزع ابراهيم باشا سلطة الزعماء الاقطاعيين المحليين (المقاطعجية) وطبّق امر فرض الضرائب المنظمة وارغم الجميع على الاعتراف بحقوق غير المسلمين في الوظائف المختلفة في دوائر الحكومة المحلية(٢) . وكان منشوره سنة ١٨٣٩ الذي يقول بالمساواة بين افراد جميع الطوائف امام القانون قد طُبق ونفذ حالا بخلاف المنشورات السابقة التي كانت تصدر عن السلاطين العثمانيين(٣) . ولم يتردد في استعمال القوة مع مسلمي دمشق وصفد الذين اعترضوا على تغيير حالة مواطنيهم الذميين وارغمهم على قبول النظام الجديد . و بينما لم يستطع القنصل البريطاني قبل هذا المنشور باربع سنوات ان يدخل دمشق راكباً دون حرس لحمايته اصبح بعد صدوره بسنة يركب انى شاء في دمشق دون اي حرس (٤) .

وكان من أثر هذه السياسة الرحبة الجديدة والحرية والأمن ان أخذ الاوربيون يفدون الى البلاد اكثر من قبل فعاد اليسوعيون الذين كان البابا قد أوقف منظمتهم سنة ١٧٧٣ .

---

(١) انظر ص ٨٥٣ و ٨٦٣ من هذا الكتاب .
(٢) انظر ص ٨٦٣ من هذا الكتاب .
(٣) انظر ص ٨٥٥ – ٨٥٦ من هذا الكتاب .
(٤) *Syria and Lebanon*, p. 27.

واستقروا في البلاد بعدد اوفر [١] . وثبتت الارساليات الانجيلية (البروتستانتية) ـ الانكليزية الاميركية ـ اقدامها في الاراضي اللبنانية . وتأسست في سنة ١٨٣٨ الكنيسة الانجيلية الوطنية السورية . وفي السنة نفسها قام عالم أثري اميركي اسمه ادورد روبنسن بدورة أثرية في فلسطين



مدخل القدس من باب العامود وقد كانت هذه المدينة في القرن التاسع عشر بما فيها من مشاهد مختلفة وما يحيط بها من الاراضي المقدسة قبلة انظار علماء الآثار الغربيين

كانت الاولى من سلسلة حوادث انتهت بكشف كنوز قيمة من تاريخ هذه البلاد وشرحها للناس وتعميمها بينهم . وقد انتقلت قبل ذلك بثلاث سنوات مطبعة الارسالية الاميركية من مالطة الى بيروت . وتأسست سنة ٩٨٥٣ المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في الجانب الآخر من المدينة . ولا تزال هاتان المطبعتان في مقدمة المطابع العربية في غربي آسية . وقد ظهرت ترجمات عربية عصرية للكتاب المقدس عن هاتين المؤسستين . وعرفت سورية قبل هذا العهد مطبعتها العربية الاولى وذلك في حلب سنة ١٧٠٢ وقد أدخلها اليها المسيحيون . ولعل المحافظة او التمسك الديني عند المسلمين فيما يتعلق بكلام الله أعاق انتشار صناعة الطباعة.

١) قابل ص ٨٥٩ من هذا الكتاب .

ولا نزال الى اليوم نرى كيف ان القرآن الكريم يكتب ويطبع على الحجر ولكنه لا يطبع كغيره من الكتب بواسطة حروف منضدة . اما المطبعة الحلبية التي اشرنا اليها فلا يزال اصلها محاطاً بستار من الغموض ولعلها قد تفرعت من اخرى اوربية . وقد ظهرت اول مطبعة عربية في اوربا في (فانو) من اعمال ايطاليا برعاية البابا على الارجح . ولا يزال لدينا من اصدارها كتاب صلاة يرجع عهد طبعه الى ١٥١٤ . وكان للبنان في احد اديرته ـ دير قزحيا ـ مطبعة سريانية يمكن ان يكون قد استجلبها من روما واحد من هؤلاء العلماء الموارنة الذين درسوا هناك(١) . ولدينا من هذه المطبعة نسخ من المزامير في اللغة السريانية واخرى في العربية ولكن بحرف سرياني (٢) . ويجب ان نذكر ان السريانية كانت لا تزال لغة محكية في لبنان الشمالي حتى آخر القرن السابع عشر (٣) .

وتوّجت مؤسسات التربية الاميركية مساعيها سنة ١٨٦٦ بتأسيس الكلية السورية الانجيلية وهي اليوم جامعة بيروت الاميركية ، وبلغ نشاط اليسوعيين التربوي الذي بدأ في اول القرن السابع عشر (٤) ذروته سنة ١٨٧٤ بتأسيس جامعة القديس يوسف في بيروت . ولا تزال هاتان الجامعتان محافظتين على زعامة حركة التربية في ذلك الجزء من العالم العربي .

وقد تأسست في بيروت قبل الجامعة الاميركية مدرسة اميركية للبنات وكان ذلك عام ١٨٣٠ ولا تزال مزدهرة حتى يومنا هذا . وبدأت الارسالية العازرية عملها في دمشق منذ عام ١٧٥٥ . ثم اخذت بعد ذلك بنحو عشرين سنة في تأسيس مدرسة للصبيان هي اقدم مدرسة عصرية في تلك المدينة . وقد سبقت هذه المدارس في ظهورها كل المدارس العصرية الحكومية وكانت نموذجاً للمؤسسات المتأخرة العامة والخاصة . ولا يزال رجال التهذيب الى اليوم يبذلون عناية خاصة في تدريس اللغات الاجنبية حتى في المدارس الوطنية . وتستعمل الافرنسية او

---

١) انظر ص ٨٧٤ من هذا الكتاب .

٢) « كرشوني » انظر Hitti, *History of Syria*, p. 546 . وراجع لويس شيخو « تاريخ فن الطباعة في الشرق » المشرق ج ٣ (١٩٠٠) ص ٢٥١ ـ ٧ ، ٣٥٥ ـ ٦٢ .

٣) قابل D'Arvieux, *Mémoires*, (Paris, 1735), vol. II, p. 407; وص ٤٤٢ من هذا الكتاب .

٤) انظر ص ٨٥٧ من هذا الكتاب .

الانكليزية غالباً كلغة للتعليم في المدارس العالية والدروس المهنية . وقد تمتع ابناء الجاليات الغربية بمعاملة خاصة وحماية بفضل الامتيازات الاجنبية .

واخذت تظهر المدارس الوطنية والمطابع والصحف والمجلات والجمعيات الأدبية على غرار النماذج الغربية . وظهر في مصر اول جريدة عربية سنة ١٨٢٨ وذلك حين أسس محمد علي جريدة الوقائع المصرية التي لا تزال جريدة الحكومة الرسمية . وظهرت في سورية اول جريدة سنة ١٨٢٥ هي جريدة حديقة الاخبار التي أسسها خليل الخوري في بيروت . وبعد ذلك بثماني عشرة سنة انشأ بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ٨٣) في بيروت مجلة سياسية علمية أدبية نصف شهرية اسمها الجنان . وكان البستاني يرأس مدرسة وطنية ويساعد المرسلين الاميركان في اعمالهم . ولم تكن الجنان النشرة الوحيدة التي انشأها فقد انشأ عدداً كبيراً من الصحف سواها . وكان شعار الجنان « الوطنية من الايمان » وهي فكرة جديدة في اللغة العربية . وبدأ البستاني في عام ١٨٧٦ في نشر موسوعة عربية ـ دائرة المعارف ـ اكمل منها هو نفسه المجلدات الستة الاولى (١) ووضع معجماً وطائفة من الكتب المدرسية في الرياضيات والنحو . ولقد مهدت كتابات هذا الكاتب الماروني الطريق لتنبه الوعي القومي وبدء ظهور حركة القومية العربية . وقد بلغ لبنان اعلى نسبة في التعليم بين البلاد العربية وذلك في الاكثر بفضل مساعي المؤسسات التهذيبية الاجنبية والخاصة لا المدارس العامة الحكومية (٢) . ولا يزال التعليم العالي محصوراً حتى اليوم في المدارس الاميركية والفرنسية . وقد برهن لبنان انه يتقبل هذه الثقافة المنتقلة اليه من الغرب وذلك لان حضارتيهما وان اختلفتا في بعض النواحي الهامة الخاصة فلا تزالان تعتبران فرعين من مجرى رئيسي واحد وكذلك فمات بعض البلاد العربية الاخرى فحضارة اوربا وحضارة الشرق الأدنى تشتركان في ارث واحد مشترك من التقاليد اليهودية المسيحية واليونانية الرومانية . وقد حوفظ على الصلات التجارية والاجتماعية بنسب متفاوتة منذ اقدم العصور . وفي الواقع كان الفرق بين الشرق والغرب حتى القرن

١) لزيادة التفصيل عن البستاني راجع جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (القاهرة ، ١٩٠٣) ج ٢ ص ٢٤ ـ ٣١ .

٢) Matthews and Akrawi, p. 407

الرابع عشر - اول عهد المماليك - شيئاً مصطنعاً اكثر مما هو حقيقي . ولم تتباعد الطريقتان جدّياً حتى القرن السادس عشر - اول العهد العثماني ، حين اخذ الغرب يستغل الطريقة العلمية وما يلازمها من شروط التجربة والاختبار ورُقي العلم الصناعي الفني بحيث قويت سيطرته على عالم الطبيعة بينما لم يتنبه الشرق الى شيء من هذا كله . وفي آخر القرن التاسع عشر بلغ الانفصال حدّه واخذت الحضارتان عندذاك تقتربان مرة أخرى الواحدة من الثانية (١).

ولم يكن للعراق نصيب ذو قيمة في هذا التزاوج الذي تم بين الحضارتين . وكان قد سمح للارساليات الكاثوليكية ان تعمل في بغداد والبصرة منذ القرن السابع عشر ولكنها لم تترك أثراً في المجتمع الاسلامي . واذا استثنينا الضباط والموظفين الذين دُربوا في القسطنطينية فاننا نكاد لا نجد احداً بين العراقيين احتك بالافكار العصرية وأن وُجد احد فهو من طبقة خاصة . غير ان البلاد كانت مفتوحة تماماً للاعمال التجارية . وبينما كان البريطانيون يثبتون مركزهم في الخليج الفارسي كان نفوذهم التجاري يتغلغل في البلاد ويتغلغل معه نفوذ سياسي وهكذا جُرّت البلاد الى محور الشؤون العالمية .

النفوذ السياسي

لقد اسفرت حملة ابراهيم باشا على سورية وحملة نابليون على مصر من ناحية خاصة عن نتائج مماثلة تماماً . فقد اوقفت هاتان الحملتان نظام السلطة اللامركزية القديم في كلا البلدين ودعتا الى عهد جديد من عدم الاستقلال المركزي بل قد رمتا هذه البلاد الى حظيرة مكائد الاستعمار الأجنبي فاخذت ميول الدول الكبرى الاستعمارية تتصادم فيها اكثر مما تتصادم في أي بلد آخر . وكانت المنافسة احدّ ما يكون بين انكلترا وفرنسا فقد كانت كل منهما تحاول جهدها ان تنال مركزاً ممتازاً في كل من البلدين ونفوذاً راجحاً في شؤونهما للسبب نفسه الا وهو الحصول على اقصى فائدة لمساعدة التجارة مع الهند والشرق الاقصى . ويمكن ان تُرد كثير من حروب القرن التاسع عشر الى بعض الاصول او الاسباب في الشرق الأدنى . وقد

(١ Sarton, *Introduction*, vol. III, p. 2:—2.

كان من اسباب حرب القرم (١٨٥٤ ـ ٦) اصطدام مطالب فرنسا وروسيا فيما يتعلق بحماية الاماكن المقدسة في فلسطين .

وكان فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ قد زاد في أهمية هذه البلاد الستراتيجية وعجل في ادخالها مرة ثانية الى مسرح التجارة والشؤون العالمية . وقد اصبحت القناة جزءاً لا يتجزأ من خط الحياة للمواصلات الدولية وعوّض عن الخسارة التي لحقت هذه البلاد من اكتشاف الطريق الجديد حول رأس الرجاء الصالح (١) . ولقد كلف شق القناة ـ على طول مئة ميل ـ نحو عشرين مليون ليرة مصرية ُجمع اكثرها من الاشتراكات العامة في اوربا و بنوع خاص في فرنسا. وكان عدد الاسهم الخديوية ١٧٦٦٠٢ ثمن الواحد منها عشرون جنيهاً مصرياً وقد اشترت بريطانيا هذه الاسهم عام ١٧٦٥ .

البريطانيون يحتلون مصر

لقد ُشقت القناة في عهد اسماعيل فكانت النفقات التي بذلت في سبيلها وحياة البذخ التي عاشها هذا العاهل عاملاً ادى الى افلاس الدولة وبالتالي الى التدخل الاوربي . وتقديراً للعرض السخي الذي تقدم به اسماعيل للباب العالي في مضاعفة القيمة التي كانت تدفع له منحه الباب العالي (١٨٦٦ ـ ١٨٧٣) لقب خديوي (٢) وحق توريثه الى اكبر ابنائه . وقد كان ذلك اعترافاً له بالملكية تقريباً . وفي عام ١٨٧٩ تدخلت بريطانيا وفرنسا وُخلع الخديوي وصارت السلطة بيد الدولتين المذكورتين . وفي الوقت نفسه اخذ الجيش ُيظهر استياءه من الحالة وكان ضباطه بالاكثر من الجراكسة واخذ الفلاحون يتذمرون من الضرائب الباهظة والتجنيد ونظام السخرة الذي كانت الحكومة تطبقه على الذكور المقتدرين لتنفيذ بعض المشاريع العامة القليلة النفع . واخذت حركة النقمة تتبلور وتشتد فاصبحت فتنة وكان بطلها ضابط في الجيش اسمه أحمد عرابي من ابناء الفلاحين (٣) . وأخمدت ثورة عرابي بغتة بانتصار الانكليز

١) انظر ص ٨٢٢ من هذا الكتاب .

٢) من خديو الفارسية بمعنى سيد او حاكم . وانظر نص الفرمان بالعربية في زيدان ، تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٠٦ ـ ٨ .

٣) لزيادة التفصيل عنه انظر زيدان ، تراجم ج ١ ص ٢٢٩ ـ ٤٢ .

عند التل الكبير في ١٣ ايلول عام ١٨٨٢ وانتهى امرها بنفي عرابي (١) . وقد مهدت هذه الفرصة الطريق للبريطانيين لاحتلال البلاد غير ان هذه ظلت تحت الحكم التركي اسمياً حتى ما بعد انفجار الحرب العالمية الاولى بقليل ، وذلك حين اعلنت بريطانيا حمايتها لمصر . وقد اقصي عندئذ الخديوي عباس حلمي وخلفه عمه حسين كامل ولقب بالسلطان (٢) . اما فؤاد الذي خلف اخاه حسين عام ١٩١٧ فقد أصبح ملكاً في شباط عام ١٩٢٢ وذلك حين انتهى عهد الحماية واعلن استقلال مصر ووضع دستورها . وجاء في الدستور ان الاسلام دين الدولة والعربية هي لغتها الرسمية (٣) واصبح نموذجاً لدستوري سورية والعراق . ولم يكن هذا التنازل من قبل بريطانيا قد تم دون جهاد من قبل الاهلين . وكان زعيم هذه الحركة القومية احد اتباع عرابي واسمه سعد زغلول . وكان كعرابي من ابناء الفلاحين اصلاً ولكنه كان اقدر من عرابي واكثر علماً . وكان ايضاً من تلامذة جمال الدين الافغاني واحد محرري الوقائع المصرية (٤) حين كان يرأسها محمد عبده . وكان فوق ذلك محامياً متحمساً (٥) فطلب في عام ١٩١٩ من البريطانيين اذناً في ان يغادر البلاد على رأس وفد ليدافع عن قضيتها امام مؤتمر السلام في باريس ولندن ولكنه اهين ونفي الى مالطة فكان من نتيجة هذا التدبير ان اصبح بطلاً قومياً . وقد توجت مساعيه ومساعي حزبه بالنجاح حين أمضيت عام ١٩٣٦ معاهدة بريطانية مصرية تنص على انسحاب جيش الاحتلال البريطاني الى منطقة القناة واعفاء بريطانيا من مسؤوليتها عن حماية الاجانب وممتلكاتهم ووضع الامر على عاتق الحكومة المصرية . وتنص كذلك على وجوب المساعدة العسكرية المتبادلة ضد الاعداء ، بما تنطوي عليه هذه المساعدة من حق استعمال الموانيء والمطارات ووسائل النقل . ولقد ألغيت الامتيازات ولكن مسألة السيطرة على السودان ظلت معلقة .

---

١) انظر دفاع احد البريطانيين عنه : Wilfrid S. Blunt, *Secret History of the English Occupation of Egypt* (New York, 1922), pp. 323—63 .

٢) راجع الجدول في ص ٨٥٤ من هذا الكتاب.

٣) لزيادة الايضاح راجع George Young, *Egypt* (London, 1927), pp. 258—67 : P. G. Elgood, *The Transit of Egypt* (London, 1928), pp. 287, 325 .

٤) انظر ص ٨٨٧ و ٨٨٨ من هذا الكتاب .

٥) اقرأ خطبه ورسائله في محمد ابراهيم الجزيري ، آثار الزعيم سعد زغلول (القاهرة ، ١٩٢٧) .

الانتدابات الفرنسية والبريطانية

لقد أخذ التدخل الاجنبي السياسي في الهلال العربي بعد الحرب العالمية الاولى شكل انتدابات تركَّز بفضلها البريطانيون في فلسطين والعراق ، والفرنسيون في سورية ولبنان. وكانت مصالح فرنسا تقوم على اعتبارات اقتصادية وعلى سياسة المحافظة على اسمها وسمعتها مقابل النفوذ البريطاني وعلى تقاليد الصداقة القديمة التي تعود الى ايام الصليبيين(١) . وقد ايدتها الامتيازات التي منحها سليمان الكبير الى فرنسيس الاول (٢) ، فقد كانت الجنود الافرنسية هي التي نزلت لبنان بموافقة الدول الكبرى سنة ١٨٦٠ لتضع حداً للمذابح هناك (٣) .

وكانت ادارة هذه الانتدابات التي جعلت من نوع أسموه « أ » قد قصرت عن بلوغ المثل الاعلى الذي وضعه ميثاق جمعية الامم وهو ان مصلحة الشعوب المنتدب عليها امانة مدنية مقدسة وان واجب الدولة المنتدبة هو مد البلاد بالنصح والمساعدة اللازمين لتصل الى الاستقلال التام . وقد بلغ تذمر السوريين واستياؤهم من الانتداب اشده فقد اتهموا الموظفين الافرنسيين في انهم استعملوا الطرق الاستعمارية نفسها التي استعملوها في شمالي افريقيا متذرّعين بحكومة وطنية وانهم لم يلتفتوا الى الروح القومية الناهضة فوضعوا العوائق امام اللغة العربية وخفضوا قيمة نقد البلاد بربطه الى الفرنك وفرقوا البلاد احزاباً وشيعاً وجعلوها تتخاصم فيناهض بعضها بعضاً وعمدوا الى تدابير الضغط والاكراه مستعينين بوسائل الجاسوسية والسجن والنفي(٤) . وكان من اسباب التذمر والشكوى ايضاً ان الفرنسيين قسموا البلاد الى دول متعددة لأغراض ادارية . وانهم اقتطعوا سنجق الاسكندرون ومنحوه لتركيا قبل انفجار الحرب العالمية الثانية . واذا كانت البلاد قد استفادت شيئاً من حفظ النظام والامن وتحسين المواصلات وتوسيع الاراضي الزراعية ونشر وسائل التهذيب ووضع جهاز حكومة عصرية

١) انظر ص ٧٥٦ من هذا الكتاب .
٢) انظر ص ٨٥٥ و ٨٥٦ من هذا الكتاب .
٣) انظر ص ٨٦٥ من هذا الكتاب .
٤) George Antonius, *Arab Awakening* (Philadelphia, 1939), pp. 372-6; Albert, H. Hourani, *Syria and Lebanon*, (Oxford,1946), pp. 176-8.

ومجتمع عصري فان هذه الفائدة لم تكن كافية لايقاف موجة الاستياء المتزايدة . وهكذا اندلعت الثورة في جبل الدروز في تموز سنة ١٩٢٥ ثم انتشرت حالا الى دمشق والمدن المجاورة . ولم تخمد هذه الروح التي ظهرت عندئذ حتى طرد آخر جندي فرنسي من الارض السورية سنة ١٩٤٥ . وكان لبنان قد بدأ حياته السياسية بعلاقات طيبة مع الانتداب وتمكن اخيراً من تحرير نفسه منه بالكلية واعلان جمهوريته سنة ١٩٤٣ .

واخذ العراق قبل هذه العهود بسياسة العداء للانتداب البريطاني فنشبت ثورة ١٩٢٠ وبدأت بين القبائل على الفرات الاسفل وفي مدينتي النجف وكربلاء (١) المقدستين . وكان من نتيجتها ان حوّل البريطانيون حكمهم المباشر الى حكم غير مباشر . وقد تُوج فيصل ابن الملك حسين (٢) ملكاً دستورياً على العراق في آب سنة ١٩٢٢ وذلك بعد ان جلس على عرش سورية من ٨ آذار الى ٢٥ تموز ١٩٢٠ . وعقدت بعد ذلك بضع معاهدات كان من أهمها معاهدة كانون الاول سنة ١٩٢٧ ، وفيها تعهدت بريطانيا ان تعترف باستقلال العراق ودخلت بمحالفة معه مدتها ٢٥ سنة . وكانت معاهدة ١٩٣٠ حاسمة فقد تخلت بريطانيا فيها عن حقها في الانتداب واعترفت بسيادة العراق التامة (٣) . وبعد ذلك بسنتين ادخل العراق في عضوية عصبة الامم وهكذا اصبحت تلك البلاد ـ برغم كثرة العناصر البدوية بين سكانها وبرغم انقسامها الطائفي وانخفاض مستواها التربوي ـ اول بلاد عربية تنضم الى عصبة الامم . وهو مثل رائع على التقدم القومي بعد الحرب .

---

(١) Philip W. Ireland, *Iraq : A Study in Political Development* (New York, 1937), pp. 266-76.

(٢)

حسين (الحجاز)

عبد الله (شرق الاردن)

١) فيصل (العراق) ـ ١٩٣٣

٢) غازي ـ ١٩٣٩

٣) فيصل الثاني (ولد ١٩٣٥) ١٩٣٩ ـ

(٣) Ireland, pp. 409—18 وللاطلاع على نص المعاهدة العربي راجع عبد الرزاق الحسني ، تاريخ العراق السياسي (بغداد ، ١٩٤٨) ج ٢ ص ١٩٧ـ٢٠٤ .

مصلح مصري

وكان في حياة الشعوب العربية في هذا الزمن شيء من التناقض الظاهر . فقد كانوا يصدون تدخل الاوربيين في شؤون بلادهم بيد ويتقبلون بالاخرى الطرق والافكار الاوربية . وقد استعانوا بما اقتبسوه من اوربا في حربهم لصد الاوربيين . وكان من أقوى الافكار الجديدة الكثيرة التي استوردوها من اوربا فكرتا القومية والديمقراطية السياسية . وقد كان تمسكهم بالقومية عاملاً على تعلقهم بمبدأ تقرير المصير ودفع كلاهما بالامة الى الجهاد في سبيل الاستقلال عن الحكم الاجنبي . وكانت في الوقت نفسه المثالية الغربية الجديدة وما فيها من تأكيد على القيم المادية الدنيوية والاهمية التي تعلقها على التحديدات العرقية والحدود الجغرافية تجري بطريق مناقض للتقاليد التي يتمسك بها الاسلام بما فيه من مبادىء الشمول الديني والسلطة الالهية السياسية والملكية الاختصاصية . فقد كانت الوحدة الاسلامية هي الامر الذي يجب ان يسعى لتحقيقه المسلم قبل الوحدة العربية وكان الصراع داخلياً كما كان خارجياً . وكان الجو الفكري في مصر في آخر القرن التاسع عشر قد اصبح ملائماً لاستقبال الافكار الجديدة وانمائها وذلك بتأثير الكتابات والخطب التي كان يذيعها المصلح



الشيخ محمد عبده

الحر الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) وكان قد بلغ أعلى مركز ديني في البلاد ـ مركز مفتي الديار المصرية . وكان محمد عبده قد تتلمذ على جمال الدين الافغاني (١٨٣٩-٩٧) .

ويعتبر جمال الدين الباعث الرئيسي الاول للروح العصرية في الاسلام (١). وقد ولد في افغانستان وطاف في الهند وزار مكة والقسطنطينية قبل ان يستقر في مصر . وفي مصر تزعم الحركة التي أدت الى ثورة عرابي (٢). وقد نُفي محمد عبده الى سورية لاشتراكه بهذه الثورة . وكان محمد عبده حساساً فكان يؤلمه تقهقر الاسلام ويحز في نفسه كثيراً . وقد جارى ابن تيمية (٣) في انكار الخرافات والزيادات التي لحقت الاسلام ولوثته. وكان يدعو الى احياء الدين سياسياً وعقلياً والسعي الى الوحدة السياسية تحت زعيم واحد . وكان هذا المصلح قد درّس وعلم في الازهر وحرر مع جمال الدين جريدة عربية في باريس ، وكان يرى انه لا يوجد اي تناقض اساسي بين الاسلام والعلم الحديث . ولقد فسر بعض الآيات القرآنية تفسيراً عقلياً وأدرك قصور الطريقة المدرسية الاسلامية (٤). وبينما كان جمال الدين يقول بالثورة السياسية لتحقيق الاصلاح المنشود كان محمد عبده يرى أن اليقظة الدينية هي التي تحققه . وقد ساهم كلاهما اكثر من اي كاتب عصري في تمزيق ثوب المحافظة والرجعية الذي التفّ به الاسلام منذ العصور الوسطى . ومع انه لم يصل احد منهما الى تحقيق ما امّلاه فانهما قد تركا اثراً فكرياً وأتباعاً نذكر منهم قاسم امين (المتوفى ١٩٠٨) وهو اول من هاجم بعنف تعدد الزوجات والطلاق والحجاب (٥). ونذكر محمد رشيد رضا من طرابلس الشام (المتوفى ١٩٣٥) وقد ذهب الى مصر عام ١٨٩٧ وحرر تآليف (٦) محمد عبده وكتب ترجمة حياته ونشر تعاليمه في مجلته المنار . ولا يزال اهل الجيل الحاضر يجابهون كثيراً من المشاكل التي لم تحل بعد وفي مقدمتها تنظيم المجتمع العربي على اساس سياسي

---

١) لدرس النزعات العصرية في الاسلام راجع H. A. R. Gibb, *Modern Trends in Islam* (Chicago, 1945), pp. 39 *seq* .

٢) انظر ص ٨٨٣ من هذا الكتاب ولزيادة التفصيل عن جمال الدين راجع Charles C. Adams, *Islam and Modernism in Egypt* (London, 1933), pp. 4 *seq.* ؛ وزيدان ، تراجم ج ٢ ص ٥٤—٦٦ .

٣) انظر ص ٨١٤ من هذا الكتاب .

٤) لزيادة التفصيل عنه راجع محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ٣ مجلدات ، (القاهرة ، ١٣٢٤) ؛ Adams, pp. 106—10 .

٥) لقد ترجم كتابه تحرير المرأة (القاهرة ، ١٣١٦) الى الالمانية ا. رشر O. Rescher (Stuttgart,1928)

٦) من اهمها تفسير القرآن الحكيم ٨ مجلدات (القاهرة ، ١٣٤٦) .

ديمقراطي والتوفيق بين الاسلام وروح العصر الحديث .

القومية

لقد قامت القومية العربية على قاعدة واسعة هي ان جميع الشعوب التي تتكلم العربية امة واحدة . وقد بدأت حركة القومية اول الأمر كحركة فكرية صرفة وكان دعاتها الأول بالأكثر المفكرون السوريون وبنوع أخص اللبنانيون المسيحيون الذين تعلموا في جامعة بيروت الاميركية وعملوا في مصر [١] . وكان من ظواهر هذه الحركة الاولى في العقد الثامن من القرن التاسع عشر الاقبال على الأدب العربي القديم والبحث في التاريخ الاسلامي . وقد دعا الشعور بمجد الامبراطورية الاسلامية القديم ومآثر العرب العلمية اللامعة الى الأمل بمستقبل الامة العربية . وقد اتت النهضة السياسية في اثر اليقظة الفكرية، وحلت الايجابية السياسية محل السلبية . ورغب الناس في الحركة والتغيير بعد جمود طال اجيالا وكانت الحركة تتغذى في كل مكان من الوقوف في وجه الاستعمار الغربي .

ولم يطل الوقت حتى اخذت هذه الحركة العربية الناشئة تواجه مشاكل محلية منوعة . وكان الاحتلال البريطاني في مصر العائق الرئيسي لها . وقد اخذت مقاومة الحكم البريطاني تسيطر على تفكير المصريين فكان من نتيجة ذلك ان ولدت عندئذ القومية المصرية واخذت تفترق عن القومية العربية وتصطبغ بصبغتها الاقليمية . واصبحت صيحة الحرب عند المصريين: « مصر للمصريين ». وبتجزؤ الشرق العربي بعد الحرب الكبرى الاولى الى دول مختلفة تجزأت فكرة القومية العربية . فوجهت قواها في سورية ضد الانتداب المفروض على البلاد . واصبح لبنان ناقماً ايضاً على الانتداب بعد ان كان راضياً عنه اول الأمر . وكذلك الأمر في فلسطين فقد اصطبغت حركة العداء للانتداب وما رافقه من صهيونية سياسية ـ نتج عنها اخيراً ظهور دولة اسرائيل ـ بصبغة قومية محلية . حتى بلاد شرق الاردن الصغيرة التي اقتطعها الانكليز في شباط سنة ١٩٢١ من جنوبي سورية وجعلوها امارة يحكمها الامير عبد الله فقد كان لها نوع من القومية الخاصة بها . وكان الغرض من انشاء

١) Antonius, pp. 79–86

هذه الامارة ارضاء الامير عبد الله الذي استاء من خلع اخيه فيصل عن عرش سورية وجعلها حائلا بين فلسطين والبدو . وصار الامير في سنة ١٩٤٦ ملكاً على شرقي الاردن واصبح في سنة ١٩٤٩ رأس المملكة الاردنية الهاشمية . اما الحركة القومية العراقية فقد نجأت منذ سنة ١٩٢٠ وكانت رد فعل للاستعمار البريطاني .

وبينما كانت القومية تتصارع مع الدول الاجنبية اخذت الديمقراطية السياسية تخاصم الاقطاعية المحلية . فقد كان للحرية خصوم في الداخل كما كان لها خصوم في الخارج . وكانت الاقطاعية في كل الشرق العربي لا تزال الظاهرة الاجتماعية المسيطرة على نواحي الحياة بما يتأتى عن ذلك من مشاكل سياسية . ومحور هذا النظام الزعماء الذين كانت بيدهم السلطة بفضل نسبهم وتحدرهم من آباء زعماء وبفضل ما جمعوه وتملكوه من الاراضي الواسعة . وكان يسند هذا النظام جماعة من عمال الاقطاع (مقاطعجية (١) كما كانوا يدعون في سورية ولبنان) لا يرثون عملهم في الغالب ولكن ينالونه بالتعيين فيجمعون الاعشار والضرائب ويمارسون حق فرض العقوبات . وفيما كان هؤلاء العمال يزدادون غنى أصبحت وظيفتهم مع الزمن وراثية ايضاً . وهكذا لم يكن من السهل ان تنشأ حكومة ديمقراطية تقوم بمهمتها على مثل هذا الاساس او في مثل هذا الجو الذي يحيط بها . ولم ينته بعد البحث عن شكل سياسي جديد للحكم . ولا يزال الشرق العربي في طور انتقال من حيث السياسة والاجتماع والاقتصاد .

النزعة نحو الاتحاد

واذا كانت الحرب العالمية الأولى قد فصلت بين اجزاء العالم العربي في الامبراطورية العثمانية ودفعتها الى سلوك طريق قوميات او شبه قوميات خاصة فان الحرب الثانية وخطر الصهيونية السياسية التي يعتبرها العرب حركة عدائية دخيلة قد قربا بين هذه الاجزاء. وكان من نتيجة المصلحة العامة بين الشعوب العربية والشعور المتزايد بالاتحاد ان وضعت اتفاقية

---

١) انظر ص ٨٧٨ من هذا الكتاب .

الجامعة العربية التي امضيت في القاهرة في آذار سنة ١٩٤٥ . فقد أكدت الاتفاقية على عزم الدول العربية على التضامن فيما بينها في امور التربية والتجارة والمواصلات . وقد نصت الاتفاقية على التشاور ومبادلة الرأي في حالة وقوع عمل عدائي ضد اي من الدول الاعضاء وحظرت استعمال القوة في حسم أي نزاع ينشب بينها . ودول الجامعة العربية اليوم هي مصر والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن ولبنان وسورية والمملكة الاردنية الهاشمية . ولا يمكن لدولة عربية مثل تونس او الجزائر ان تصبح من اعضاء الجامعة ما لم تصل اولا الى سيادتها التامة . وهناك بين اعضاء الجامعة ثلاث ممالك دستورية فيها مجالس تمثيلية منتخبة وهي مصر والعراق والاردن وجمهوريتان هما سورية ولبنان أما التأثير الكامل للقوى العلمانية والمصرية والقومية والديمقراطية في هذه الدول العربية وغيرها من البلاد العربية فهو فصل خاص من تاريخها لم تكتب كل مواده بعد .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ولما كانت الحرب العالمية الأولى قد [illegible]

[illegible]

فهرس

* ان صفحات الاجزاء متتابعة فلم نُشر في الفهرس الى الجزء بل اكتفينا بذكر الصفحة فقط . اما الجزء الاول فينتهي بصفحة ٢٤٧ ، وينتهي الجزء الثاني بصفحة ٥٨٥ والثالث بصفحة ٨٩١ .

* أتبعنا اسم الكتاب بحرف «ك» ، الا حيث سُبق الاسم بكلمة كتاب .

* حرف «ح» قبل الارقام يعني ان الاسم ورد في حاشية الصفحة المذكورة .

* اعتبرنا الحرف المشدّد حرفين في ترتيب الاسماء .

بيان الخرائط والرسوم والجداول

الخرائط

الرسوم

الجداول

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الكشاف

للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت – لبنان

في ١٥ جمادى الاولى سنة ١٣٧٠ الموافق ٢١ شباط سنة ١٩٥١